الأعمال الكاملة

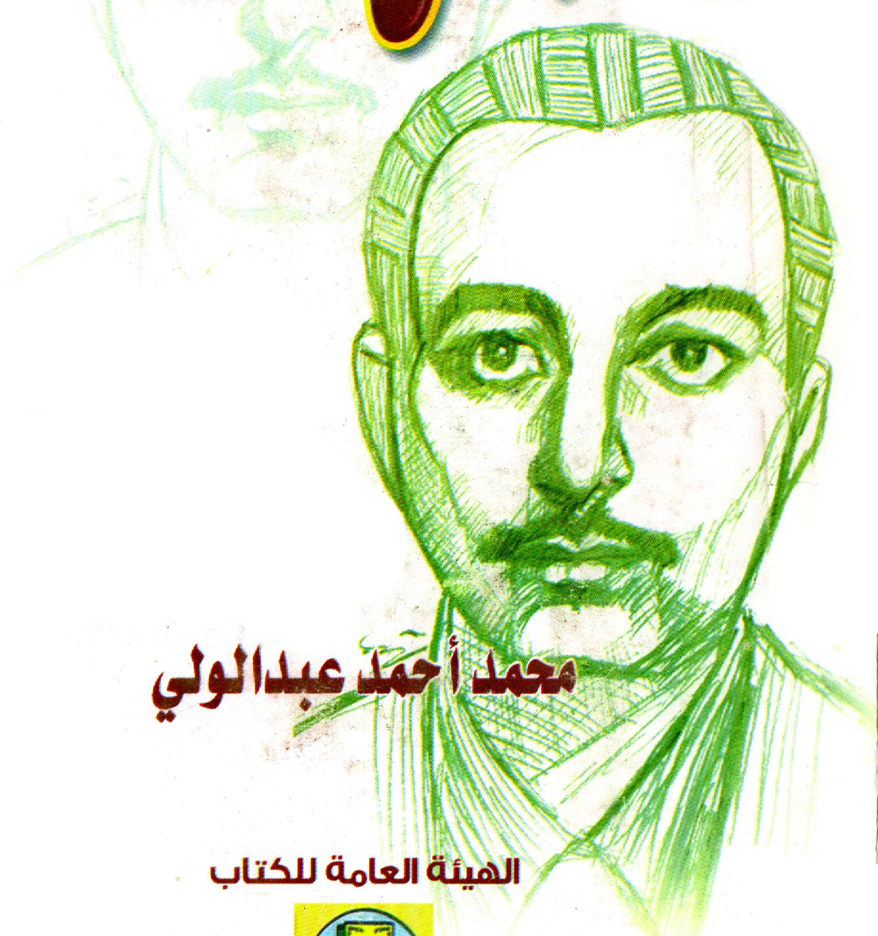

محمد أحمد عبدالولي

الهيئة العامة للكتاب

ارشيف اليمن

الإهداء

إلى زوجتي التي غابت

م.ع.

تقديم

لقد أتيح للهيئة العامة للكتاب فرصة لنشر الأعمال الكاملة للأديب الراحل محمد عبد الولي لتكون مدعاة لتحفيز الجهود النقدية لكل من النقاد اليمنيين والعرب على حد سواء كي يبحروا في عوالمه ويجلوا الستار عن عجائبه ويقدموه كما يستحق أن يُقدَّم.

وقد أشار الأستاذ محمد عبد الوكيل جازم في مقدمته لأسلوب الروائي والكاتب إذ قال: إنه لم يكن أديباً وسياسياً ومفكراً فقط، ولكنه كان مغامراً أيضاً.

فعلى امتداد أربعة وثلاثين عاماً هي كلُّ نبضات شجنه، تنقَّل بين آديس واليمن ومصر وموسكو وألمانيا، والسويد، ومن خلال كتاباته يمكن أن نصفه بما كتب عن (آباء القصة العالمية) ج يدي موبسان، وإدجار آلن بو، وانطون تشيخوف.

إنها الأعمال الإبداعية التي دوَّنت مرحلة مهمة من تاريخ اليمن المأساوي الذي مرَّ به الإنسان اليمني لسنين طويلة،وقد تركزت فيها قضيتان هما الغربة والأرض، كما ذكر الدكتور عبدالتواب يوسف في تقديمه لإحدى مجموعاته وهي "الأرض يا سلمى"، يقول: فيها موضوعان رئيسيان، هما (الأرض) رمز للوطن والحرية و(سلمى) رمز للمرأة وهو ينتصر لجانب الحق والخير دائماً ".

وقد أكَّد الأستاذ عمر الجاوي، رحمه الله ، على موضوع الغربة، في كل أعمال الكاتب ورأى أنها تتخذ طابعاً فلسفياً ونضالياً، من أجل الثورة، وقد تطرق إلى جوانب من حياته الخاصة فذكر أنه عانى الكثير من الضياع بين أمه وأبيه، حيث كانت أمه حبشية وأبوه مهاجراً يمنياً، فكانت طفولته تمثل صراعاً حاداً، اجتماعياً، وسياسياً وخلقياً، بين ما هو قائم في اليمن من التزمُّت الحاد، وما

https://t.me/Borsippa_Library Tele: @Borsippa_Library

يمثله المجتمع الحبشي من انفتاح أخلاقي، خاصة بين الذكر والأنثى.

وشكلت هذه الطفولة إنسانيته التي تجلت في كثير من قصصه ورواياته، إذ انتصر للمظلومين والمقهورين فصور المولدين الذين يُعاملون معاملة قاسية في كل من اليمن والحبشة، وانتصر للفقراء والجوعى، وتألم للأطفال الذين يشيبون قبل الأوان، كما صوّر المرأة بكونها كائناً إنسانياً مسلوب الحقوق والإرادة من لدن ذلك المجتمع المكبل لها بالكثير من العادات والتقاليد البالية التي تسلبها حريتها وتحرمها حتى حق التعبيرعن مشاعرها وهمومها وكأنها خلقت للطاعة العمياء والعمل فقط، صوّر فيها المرأة الريفية التي تتجرّع مرارة الفراق لحبيب غائب منذ سنين وتركها رهينة للحقل والعمل لتنسى معهما أنها أنثى.

وصوّرها قوية وعظيمة في قصة "الغول" فلها من الإرادة والقدرة ما يمكن أن تقهر به المستبد الظالم المتمثل في الغول، فالمرأة لديه معادل موضوعي للخير والحب والجمال والحياة

المرأة والأرض صنوان فهما رمز الخير والعطاء بلا حدود لذلك أكثر الحديث عنهما في الكثير من أعماله .

وهذه النظرة الطبيعية للمرأة تنمُّ عن نفسية طبيعية للكاتب كذلك.

كما توحي بالعلاقة الحميمة بينه وبين المرأة التي يمكن أن نطلق عليها علاقة تصالح، فهي بالنسبة له الكائن المظلوم الذي يكتنز الكثير من الخير والبراءة كما أنهما متساويان في الظلم الواقع عليهما من قبل المجتمع، وهذه النظرة من وجهة نظري تُكسب أدبه رقياً يرتقي به حد العالمية وقد شكلت نظرته الثاقبة للأوضاع الاجتماعية التي خلفتها العادات والتقاليد الجائرة مرتكزاً مهما في تشكيل أبعاد قصصه، ونفسية شخصياته الحكائية، التي تعكس من الواقع ألمه، وضياعه وعلاقاته المتشابكة، وكانت اليمن في

قصصه هي الأرض التي تنجب أبناءها لأوطان أخرى، وتبقى هي التي تعاني من الحرمان والفقر.

في قصصه صرخة ألم، وبحث عن الذات، والهوية، وعن الإنسان المهدور والمسلوب من أهله وأرضه.

وقد قام الأستاذ محمد عبدا لوكيل جازم مشكوراً بجمع ما تفرق من الأعمال الكاملة وأضاف إليها مجموعة "ريحانة"، كما تولت إدارة التأليف والترجمة في الهيئة مراجعتها كاملة. متمثلة **بالأستاذة / سهير السمان والأستاذة/ هويدا اليوسفي .**

ختاما تتقدم الهيئة بالشكر لكل من قدم هذا المبدع الكبير من جديد لقرائه وساهم في إخراج هذا العمل بحلة رائعة من العاملين في الهيئة وخارجها.

الأرض يـا سلمى

مجموعة قصصية

امرأة..

كان الوقت ليلاً، وكنا نسير بخطوات بطيئة خائفة، وننظر إلى الأمام بنظرات لا معنى فيها نبحث عن شيء مجهول، ولم يكن لنا هدف معين.

كنا نسير يجذبنا سكون الليل وظلام الأزقة التي نجتازها وصوت أقدامنا وهي تغوص في الوحل الذي صنعته أمطار الصباح.

كانت قهقهات السكارى وبائعات الهوى وأضواء المصابيح التي تنبعث من حانات الشراب تثير الدماء الحارة في عروقنا بالرغم من البرد الذي كان يخز الأجسام.

كنا أربعة... أحمد علي، وهو أكبرنا، في التاسعة عشرة من عمره، أسمر الوجه ذو عينين لامعتين، يتحدث كثيراً عن النساء ويرتجف كلما سمع صوت امرأة. وبجانبه يسير نعمان الذي يستمع إلى حديثه باهتمام بالغ ويرتجف، ويحملق بشراهة في الأبواب المضاءة في ذلك الزقاق ويلهث وهو يتابع الحديث قائلاً.. هه.. هه.. وبعدين؟ ..

و- الدبة(١) – بجسمه الضخم الذي لا يناسب أعوامه الستة عشر وهو يلهث خلفنا حين نسبقه، والعرق يتصبب منه وفمه مفتوح عن آخره كأنه يريد ابتلاع الهواء دفعة واحدة ثم وهو يصيح بنا أن ننتظره.. وأخيراً أنا أصغر الجميع في الرابعة عشرة من العمر، نحيف سريع الخطوات، أنظر في فضول إلى أبواب الحانات لعلي أرى ما يدور بداخلها ثم يرتجف جسمي حين أسمع قهقهات النساء أو ظلال أجسادهن داخل الحانات وهن يرقصن أو يغنين.

كان الظلام يغمر الزقاق وأقدامنا تغوص في الأوحال بشدة وموسيقى، وغناء الأحباش تنبعث من الحانات وأصوات الأوتار تشد أجسامنا أكثر فأكثر إلى ذلك الشيء المجهول الذي نبحث عنه.. ونظراتنا التائهة تخترق الظلام لنرى طريقنا ولا نصطدم بالسكارى من النساء والرجال.. وكنا نتخفى بقدر الإمكان حتى

---

[1]- معناها باللغة الحبشية " السمين ".

لا يرانا أحد معارفنا، فوجودنا في مثل هذه الساعة من الليل وفي حي مثل هذه الأحياء من " أديس أبابا " يثير الشكوك كثيرا.

وتوقفت المجموعة عن المسير في إحدى الأزقة وقال أحمد علي وهو يشير إليّ:

- اسمع يا قاسم خبي "البيره" حقك حتى إذا وجدنا أحد المعارف نقول له أن أحدهم قد اختطف البيرهوهرب ونحن الآن نبحث عنه.

فهز الجميع رؤوسهم موافقين.. فلقد كنت أصغر الجميع، ويجب أن أطيع. ونزعت " البيره " من علي رأسي ووضعتها في طيات ملابسي ثم استأنفنا البحث عن المجهول.

كان البرد شديداً والرغبة تلتهب في داخلنا بشدة فنرتجف ونزداد ارتعاشاً عندما يتحدث أحمد عن النساء.

ارتفع القمر من خلف السحب المتراكمة فوق سماء أديس أبابا الحالمة، وأنار الطريق أمامنا فرأينا الوحل وبرك الماء التي تغمر كل أرض الزقاق وأشباحاً تغوص فيه متجهة إلى مكان مجهول قد تعرفه، وقد لا تعرفه مثلنا. وفي الحانات الصغيرة تصدح أصوات موسيقية صاخبة وشيطانية تثير الحيوان الذي يزمجر في عروقنا. وفي حانات أخرى كانت الموسيقى حالمة وهادئة وسماوية تشعر بالطمأنينة لكن الرغبة تظل كما كانت.

بدا في أول الزقاق شبح أبيض أخذ يقترب منا بسرعة وتوقفنا جميعاً ونحن ننظر إلى الشبح الذي أخذ يظهر بوضوح.

كانت امرأة سمراء بلون البن قصيرة ممتلئة الجسم ذات شعر أسود كخيوط الليل وعينين واسعتين تلمعان وسط الظلام وشفتين لا أحلى منهما. وتوقفت حين رأتنا أمامها وكان " الدبه " يسد الطريق بجسمه الضخم فابتسمت بروعة وقالت:

- هه.. ماذا تريدون أيها الشباب؟

فأجابها أحمد علي ورايته يرتجف لأول مرة:

- اتأتين معنا..؟

أجابته والابتسامة تنير جمال وجهها:

- إلى أين؟

- إلى منزلك

قالها " الدبه " بسرعة وخوف، وتصبب من وجهه المزيد من العرق.

- شكرا، لا أستطيع اليوم فلدي هناك رجل ينتظرني، ولكني أستطيع أن آتيكم بفتاة أخرى.

واتسعت ابتسامتها وهي تغمز بعيونها وتضيف – أنها أجمل مني وصغيرة... لكن أحدا منهم لم يجب عليها، فقد أحاطوها من كل جانب وأصبحت وسطهم كالفارة في المصيدة.. أما أنا فكنت أرتجف من الخوف والرهبة وبداخلي تشتعل نيران حامية ومن شدة خوفي عدت إلى الوراء خطوات ورحت أحملق في ما يدور حولي.

لم تحاول المرأة أن تعمل شيئا بل نظرت إلى الزملاء بحنان وعطف تعودت عليه. وتعودت أكثر من هذا في ترويض أطفال آخرين مثلهم.

ونفذ عطرها من خلال الحصار إلى أنفي فاشتد هياجي ورحت في دوامة من العرق وحاولت أن أقترب لكن رجليّ كانت قد تسمرتا في الوحل.

لم يستطع الزملاء إقناعها لأنهم لم يكونوا يعرفون كيف يقنعون، كما أصروا على عدم الذهاب إلى أخرى.

كانت المسألة مجرد مغامرة في نظرهم.

وأرادت المرأة متابعة طريقها، إلا أن الوحوش الثلاثة هجموا عليها من كل جانب وأشبعوها لثما وتقبيلا.. لكنها لم تهرب ولم تستغث، بل ظلت صامدة لقبلاتهم الملتهبة. إنها تعلم أن تلك الوحوش الصغيرة لا تستطيع أن تنالها بشر، لقد تعودت عليهم، وفعلا أفسح الزملاء لها الطريق لتمضي ونظرت إليهم. كانت تحمل في عينيها سحرا غريبا لا يقاوم. وقالت وهي تستعد أن تمضي: ألا زلتم مصرين على أنكم لا تريدون أخرى؟ فهز الجميع رؤوسهم في صمت:

- إذن ستجدونني هنا غدا.. سأنتظركم...

وأرسل القمر أشعته الفضية بعد أن تخلص نهائيا من سحب أديس أبابا الثقيلة والبغيضة وكشف مخبئي عن وراءهم وأنا أرتجف...

وأرتجف، وعيناي تلتهمان المرأة وعطرها يدغدغ أنفي وفي داخلي تضطرم النار.

رأتني في وقفتي تلك، وظهرت أسنانها البيضاء عندما انفرجت شفتاها عن بسمة، وقالت مشيرة إلى زملائي:

- لماذا لم تشاركهم؟

لم أجب وشعرت بالبرودة والعرق البارد، واتسعت عيناها بابتسامة:

- يجب أن تأخذ نصيبك أنت أيضا.. إنك رجل فلا تخف.. هه.. تشجع يا صغيري.

ومالت عليّ وقبلتني على شفتي قبلة طويلة، حارة كدت أستلقي منها على ظهري وشعرت بصدرها يلتصق بصدري وسرت إليّ حرارة صدرها ونهديها الفتيين. وابتسمت وهي ترى النظرة البلهاء على وجهي. كانت عيناها بحيرتي حنان، ثم مالت مرة أخرى وراحت تقبلني على وجهي بسرعة.. فتركت شفتاها الشهيتان آثار نار ومضت.

لم أشعر بأنني أسير. فشفتاي تحملان دفء شفتيها وصدري يحترق ووجنتاي تلتهبان. شعرت بالسعادة وأنا أحمل آثار امرأة لأول مرة.. ورائحة عطرها تفوح من ملابسي. كانت السعادة غامرة.. وتراءت لي عيناها وأحسست نحوها.. بالحب.. تسللت في اليوم التالي إلى الحي ورحت أبحث عن الزقاق ولكن دون جدوى. ورغم حزني إلا أن صدري وشفتي كانت تحمل الدفء.

وفي الليالي المظلمة كنت أرى خلال الظلام عينيها وهما تشعان حبا وحنانا.. ودفئا.

١٩٥٨

الغول

- ١ -

الرياح تعصف في الخارج بشدة يا صديقتي، فاقتربي مني لأحكي لك قصة.. اصغي إليّ جيداً.. لأنها قصة، سمعتها عندما كنت طفلاً ويسمعها كل أطفال قريتي الآن لأنها قصة انتصارنا... إنها عن الغول في جبلنا.

لا أدري متى تبدأ القصة، ولكنها تقول إن الغول استوطن جبلنا حيث وجد غاراً كبيراً ومخيفاً.. لقد أصبح هذا الغار اليوم مرتعاً للحب.. عند رعاتنا.. وفي هذا الغار نسجت يا صديقتي.. أول حب.. وأول قبلة.

في هذا الغار الكبير والمخيف كان يعيش الغول لا أحد يدري من أين أتى؟ ولماذا؟ وكيف؟ ولا أحد رآه وهو يصطاد فريسته.. ولكن الجميع رأوا بقايا ضحاياه.. وآثار جرائمه الكثيرة في الطريق بين قريتنا والجبل.. ونسجوا حوله الأساطير، قيل أنه لا يموت.. وقيل أنه لا يتأثر بالرصاص، وقيل أنه أتى إلى جبلنا لينتقم منا بعد أن غضب علينا الرب..

أي سخافات قالوها.. وأي تفاهات رددوها يا صديقتي لكنهم.. معذورون لأنهم جهلة.. أنت تعرفين ناس قرانا جبناء إذ هم متفرقون.. وعباقرة وهم متحدون..

لقد قيلت يا صديقتي أحاديث كثيرة زادت من خوفهم، هل تتصورين هذا؟. ينسجون أحاديث ويصدقونها.. لقد أصبح الغول ملك الجبل بلا منازع لأنهم كانوا جبناء. وعند كل صباح كان الغول يرسل من مغارته المخيفة عظام ضحاياه من حيوانات تعيسة وبشر ساقهم حظهم التعس إلى فكيه فلم ينجوا. وفي الليالي المظلمة كان الغول يغزو قريتنا ويحطم أبواب حظائر الماشية ويحمل ما شاء ويعود إلى الجبل ولا يستطيع أحد أن يقف في

١

طريقه.. لقد كان كل شيء مباحاً له يا صديقتي.. بمنطق القوة.. وبالأساطير التي تنسج حوله مع كل ضحية.. إنه لا يموت في نظرهم فلماذا يقاومونه؟!

لماذا يتعبون أنفسهم في شيء يخيل لهم إنهم متأكدون منه؟ لماذا يناضلون ضد أساطيرهم؟

ومضت الأيام والغول يزداد سيطرة.. وتزداد ضحاياه. ويصبح ملك الجبال وملك القرية.. بل ويملك أيضاً أرواح أولئك الذين جثوا أمامه.

وبمرور الأيام كانت أساطير جديدة تظهر وأحاديث العجائز تدور حول الغول.. والغول فقط. حتى الأطفال كانوا يرددون ببلاهة أحاديث العجائز وعيونهم معلقة بالجبل.

الرياح تعصف بشدة.. والعاصفة على الأبواب، والمدفأة قد خلت من الحطب يا صديقتي فاقتربي مني.. اقتربي مني.. فالغول قد جعل كل شيء مخيفاً.. غير محتمل.. أسطورياً.. وتحول الجبل إلى مكان مجهول لا تطأه قدم إنسان.

آه الرياح الباردة تذكرني بالخوف الذي كان يسيطر على أهل القرية وهم يغلقون أبواب منازلهم قبل أن تغيب الشمس.

- ٢ -

في ذلك الوقت والغول يسيطر على كل شيء كإله جديد على الأرض كانت امرأة.. مجرد امرأة عادية.. وأم.. تعيش في القرية وكان أسمها هند.

لم يكن أحد يهتم بوجودها، فهي فقيرة والناس لا يهتمون كثيراً بالفقراء، فهي قد فقدت كل ما تملك من مال وأرض وحلى.. كل شيء لتهب ابنها الوحيد الحياة.. نعم يا صديقتي: كان لها طفل صغير في العاشرة تركه لها زوجها الذي مات في أعماق البحار.. لقد كان أحد مغامري بلادنا الشجعان الذين يوجدون في كل مكان وفوق كل بحر.. لقد صنع بحارو بلادنا يا صديقتي.. تاريخاً لنا عظيماً.. تاريخاً منسياً لا يعرفه أحد.. سوى البحر نفسه.. آه كم هم عظماء أولئك الذين يموتون بصمت بعد أن يخلفون مآثر..

لقد مات وترك زوجته وطفله.. ومرض الطفل فباعت الأم كل ما تملك.. وصلت.. ودعت.. وزارت قبور جميع الأولياء ولكن أبواب السماء لا تريد دعاء.. ولا زيارة الأولياء.. إنها تحتاج إلى عمل لكي نخضعها لنا.. لكن هند.. المسكينة لم تكن تعلم ..ففقدت كل شيء ولم يبق لها سوى شيء واحد: جسدها. وأرادت بيعه في سوق الرقيق إلا أن القرية وأي قرية صغيرة في قرى بلادنا ليس فيها متاجر لبيع الرقيق. ثم إنها لا تملك الجمال، ذلك الشيء الرائع.. الإلهي. إنها امرأة عادية والمرأة العادية لا جمال لها سوى قلبها. سوى عملها. سوى نضالها، وهذا الجمال لا يباع مطلقاً في سوق الرقيق.

هذا هو الجمال الذي كانت تملكه هند يا صديقتي.

وفقدت الأمل.. ولم تجد إلا أن تجلس بجانب ابنها الصغير تغسل وجهه المصفر بدموعها الغزيرة..

ألا تزال الرياح في الخارج تصفر يا صديقتي؟ إنني لم أنته بعد من القصة..

-٣-

هناك أمر عجيب يصنعه الإنسان ذلك العظيم. يصنعه دائماً دون تخطيط مسبق. لقد بدأت هند وهي تسكب دموعها الغزيرة تخلط بين الواقع والخيال، فحلمت أن دواء ابنها الوحيد يوجد هناك، في المغارة.. في الجبل حيث ينام الغول..

الدواء هو قلب ذلك الغول القاسي.. هو القلب الذي نبض بدماء الآخرين.. في ذلك القلب كان الدواء.. فلم تفكر هند كثيراً ووجدت نفسها دون أن تدري أمام باب المغارة. إن القوة العجيبة، قوة الأمومة التي لا نستطيع أن نعبر عنها بكلماتنا البسيطة، قد دفعت بهند، تلك المرأة المحطمة، الضعيفة والفقيرة، إلى باب من سيطر خوفه على قلوب كل رجال قريتنا في سبيل أن تحصل على الدواء.

لقد قتلت هند الأسطورة.. لم يصدق الغول إن إنساناً ما يتجرأ وينتهك حدوده ويأتي إلى عقر داره.. ورأى ذلك تحدياً لقوته وهيبته، فهب من داخل مغارته.. وكم كانت دهشته عظيمة حين رأى أمامه امرأة صغيرة صفراء اللون.. ضعيفة وهزيلة تكاد من فرط ضعفها أن تسقط أرضاً.. لكن ذلك زاده غيظاً إذ وجد أن الذي هتك هدوءه ووحدته وأسطورته ليس سوى امرأة، وليس إنساناً آخر أقوى منها. وشعر بأن كرامته قد جرحت وأهينت..

لكن هنداً لم تخف بل ازدادت قوة وجراءة حين رأت الغول.. وبدأت تجمع شجاعتها وعزيمتها حتى تخرج من مكانها منتصرة لتوصل الدواء لابنها.

كانت الشمس تشع بقوة.. والأشجار تتراقص في طرب، والعصافير الصغيرة على الأغصان تغرد بشجو وهي ترى الإنسان يتحدى قدره، ويحطم الأسطورة التي صنعها بيده. وأراد الغول أن يسأل

المرأة الجسور التي حطمت بتصميمها وإرادتها أسطورته عن سبب مجيئها ومجابهته يا صديقتي دون خوف:

- يا غول.. كن من شئت ومهما كانت قوتك فإنني أم أبحث عن دواء لابني؛ وقد علمت أن الدواء ليس سوى قلبك، لذلك أتيت لأخذ الدواء أردت أم لم ترد.

تجمع كل غضب الدنيا في تلك اللحظة في وجه الغول وهو يسمع ما تقوله المرأة.. إنها تتحداه علناً .. إنها تستهين به؛ فقال وهو يحاول أن يكون صارماً، مخيفاً ، أسطورياً.

- اسمعي أيتها العجوز! أنت أول من حطم صمتي.. ومن تحدى قوتي. وقد أقسمت أن أحطمك.. أن أجعلك.. سخرية للجميع. إني لن أترك لك أثراً على هذه البسيطة.

لكن هندا كانت قد حطمت نهائياً الأسطورة في قلبها وشعرت بأن عليها أن تقاتل إن أرادت أن توصل لابنها الدواء..

أما أن تخاف.. أن تتذلل فذلك معناه هلاكها.. فلم تهتم كثيراً بما قاله الغول، بل ابتسمت ساخرة وفي عينيها يتطاير شرر الكراهية والبغض لذلك المخلوق الذي بذر الخوف في كل مكان وقالت:

- إنك لست سوى مخلوق تافه.. صنع الآخرون أسطورتك فصدقتها أنتوصدقها الأغبياء، في القرية.. إنني.. سآخذ قلبك .. سواء أتركتني بهدوء أم لا . إني مستعدة لآخذ ما أريده بالقوة ..

حاول الغول أن يقهقه، لكن قهقهته كانت ميتة، جامدة باردة، وشعر أن عليه أن يعمل شيئاً قبل أن ينهار.

- إنك أيتها العجوز لا تقدرين قوتك .. لعل الجنون قد دفع بك إلى هذه المخاطرة. إنني رحمة بك سأسامحك هذه المرة .. إنك أمام من خضعت الرقاب له .. أمام ملك الجبل والقرية، أمام من انتصر على الجميع .. أمام من لا يموت..

كان يعرف أنه يكذب، وكانت هند تعرف ذلك أيضاً:

- من أنت حتى يخافك البشر؟. من أنت حتى نضع رقابنا تحت قدميك؟

آه يا صديقتي لو رأيت هنداً وهي تتخذ طريقها إلى قلب الغول! لو رأيت الخوف يتجمع مرة واحدة في وجه مخلوق واحد .. الخوف والشجاعة ..

لقد تأكد الغول نهائياً أن أسطورته ستنهار إذا لم يصمد أمام هذه المرأة .. لكن ماذا نقول لمن قد تملكه الخوف، كل الخوف، وهو يرى الشجاعة أمامه!. إن الأم تتحداه. الإنسان يتحداه بشجاعة .. بصموده الرائع أمام التفاهات.

وهجم الغول وكله خوف .. فتلقته هند وفي عيونها روعة الإنسان في قمة شجاعته.

آه لو ترين ملحمة الإنسان الخالدة .. وهو يناضل من أجل غده، من أجل أن يعيش آخرون سعداء ..

آه يا صديقتي لو رأيت هنداً وهي تقاتل ذلك الغول، ذلك الأسطورة التي تحطمت لكي تعود إلى ابنها لتهبه الحياة ..

كل شيء كان يتساءل : من سوف ينتصر؟ الإنسان .. أم الغول .. العصافير توقفت عن الاهتزاز والرياح حبست أنفاسها .. حتى الجبل الذي كان خاضعاً للغول .. كان قد أمسك قلبه بيده منتظراً خلاصه من العبودية.

وسالت الدماء .. وصرخ الغول يا صديقتي. لقد انهزم. وغنت الطبيعة أنشودة الخلاص. أنشودة الروعة .. ورقص الجبل رقصة شعبية على أنغام هبوب الريح .. وصداح العصافير .. وكانت الشمس تمد يدها الذهبية محيية انتصار هند ..

وقامت هند وقد تمزقت ملابسها السوداء وسالت الدماء من كل جزء من جسدها الفتي .. جسدها الذي كان في تلك اللحظة أجمل ما في العالم – شهادة شجاعة الإنسان .. وشعرها الأسود الناعم الذي لم تهتم به يوماً من الأيام كان قد استرسل على

كتفيها وقد سالت عليه قطرات دم. ونظرت حولها وهي تحمل في يديها قلب الغول .. ومضت بسرعة إلى القرية .. إلى ابنها وكل شيء حولها يغني ويرقص .. ويجانب بوابة المغارة .. تمدد ملك الأمس .. وفي القرية زاوية مظلمة .. من منزل صغير متهدم .. كان إنسان الغد يتحرك.

لقد انتهت العاصفة يا صديقتي وانتهت قصتي ..

دعينا نتعانق .. لقد انتصرنا .. يا صديقتي، فالشمس ترسل أشعتها الذهبية على جبلنا .. والسماء تضحك طربا .. دعينا نبتسم .. دعينا نبتسم.

الدرس الأخير

كان الفصل هادئاً .. وثلاثون طالباً يتنفسون بهدوء وينظرون بعيون قلقة إلى الباب. فبعد دقائق سيدخل المدرس ليلقي آخر دروسه.

في الأيام العادية، وفي مثل هذه اللحظات، يكون الفصل كامل الفوضى: يتقاذف الطلبة بالطباشير ويصيحون متلفظين بكلمات بذيئة. وقد تجد أحدهم في إحدى الزوايا يعبئ فمه ببقايا رغيف بينما عيون نهمة تتابع حركات يديه وفمه. وقد يحمل طالب آخر كرسياً يقف عليه أمام السبورة ليكتب شيئاً يجول في خاطره بخط صغير ضعيف، ويقهقه آخر وهو يصحح له أخطاءه، وإذا دخل المدرس فجأة يأخذ الضجيج في الخفوت والطلاب يتدافعون وهم في طريقهم إلى أماكنهم. ويسود الهدوء وتكون العيون قلقة حائرة .. وخائفة، عيون تشعر بذنبها لكنها بعد خروج المدرس بلحظات تعود إلى العمل نفسه.

أما اليوم فالأمر يختلف ... فالجميع يجلسون بهدوء وصمت عميق، وعيونهم الصغيرة المتطلعة دائماً بفضول تنظر بحيرة إلى الباب والسبورة وكرسي المدرس الخالي.

كل طلبة الصف السادس يجمعهم اليوم لأول مرة شعور واحد بقلق حقيقي .. بالهيبة أمام هذا الدرس الأخير.

منذ عام دخل الفصل مدرس شاب في السادسة والعشرين ذو شارب صغير وأنيق ونظارات تبدو خلفها عيون شابة حالمة، قوية وواثقة من نفسها، وصلعة صغيرة تزحف بهدوء لتسيطر على الرأس ذي الشعر الأسود ..

كان هذا المدرس في ذلك اليوم بالنسبة للطلبة شخصاً غريباً لكنه أصبح حبيباً قريباً إلى قلوبهم فيما بعد. فلم يكونوا يتوقعون أن يأتي يوماً يجلسون فيه بهذا الهدوء ... هدوء المأتم ليودعوا

مدرسهم بصمت يملأه الاحترام والغضب. لماذا؟ نعم لماذا يجب أن يودعوا مدرسهم؟ إنهم يحبونه أكثر من حبهم للمدرسة نفسها ... الدرس الوحيد هو درسه الذي لا يغيب فيه أي طالب .

كانت كلماته تنبع دائماً من القلب بصوت هادئ رزين وعميق لتستقر في تلك القلوب الصغيرة المملوءة حباً للحياة، قلوبهم التي فتحها المدرس لتشرف على عالم واسع، فمن فمه سمعوا لأول مرة كلمات جديدة .. الشعب .. الأمة والوطن، وكيف يجب أن يحبوا الجميع. حقيقة أنهم سمعوا الكلمات نفسها من مدرسين آخرين ومن آبائهم وهم يقرؤون الصحف، لكنهم سمعوها منه بمعان جديدة وجميلة.

لم تزل العيون متعلقة بالباب والمدرس لم يدخل بعد. إنهم يشعرون لأول مرة بحاجتهم إليه .. إلى أحاديثه وإلى صوته الحزين . لماذا تأخر؟ لم يتمنوا مرة واحدة أن يغيب عنهم . إنهم لا يصدقون مطلقاً أنه سيودعهم واليوم بالذات وربما إلى الأبد. لن يروه بعد اليوم في فصلهم .. لن يسمعوا صوته .

وفتح الباب بهدوء .. لم يشعر أحد متى دخل المدرس ولم يشعر هو متى قام الطلبة لتحيته .. دخل بهدوء ونظر إلى الجميع وابتسامة حزينة على وجهه وعيونه المتألمة .. ومرت لحظات التقت خلالها عينا المدرس بعيون كل الطلبة في تحية صامتة .

- اجلسوا ... اجلسوا.

لكن الطلبة ظلوا واقفين، وابتسم المدرس وجلسوا بعد أن جلس هو على كرسيه.

عادت الذكرى بالطلبة من جديد إلى اليوم الأول حين دخل المدرس الفصل .. لقد سمعوا عنه كثيراً قبل أن يصبح مدرساً لهم . سمعوا عنه وقرؤوا له قبل أن يروه.

وكم كان فرحهم حين علموا أنه سيكون مدرساً لهم ومدرساً للتاريخ. دخل في ذلك اليوم وعلى شفتيه ابتسامة لم تكن حزينة

كتلك التي يرونها اليوم. إنهم يتذكرون جيداً كيف بدأ درسهم الأول وقد تحدث إليهم كأنه أخ .. أخ اكبر منهم لم يفرض عليهم احترامه ولكنهم وجدوا أنفسهم يحترمونه وهو يخط على السبورة بأحرف أنيقة عنوان الدرس الأول " تاريخ اليمن ".

لم يحدثهم عن الأشياء التي كتبت في الكتب المدرسية وإنما قال لهم أشياء جديدة عن حضارات قديمة، عن أصالة شعب، صنع حضارات وبنى سدوداً وأقام في بلاده جنة صغيرة، صنع - اليمن السعيد-

ومن التاريخ القديم عاد إلى الحاضر، وبهدوء تحدث أكثر فأكثر عن بلادهم المقسمة، إلى شمال وجنوب.

وها هم اليوم يتلقون الدرس الأخير في فصلهم الصغير ذي الجدران القديمة، والنوافذ الواسعة وذكريات عام كامل تتماوج في خاطره وفي خاطر كل طالب والمروحة المعلقة في منتصف الصف تدور في هدوء.

طريق الصين

الشمس تثير الصداع في الرؤوس التي انحنت بالمئات نحو الأرض لتحمل الحجارة وتقذفها على جانبي الطريق وتندفع سريعة في كل الاتجاهات . والجبل الكبير ينام بهدوء وكبرياء أمام تلك الأيدي التي تشق الطريق إلى الأمام. وترتفع رؤوس من انحنائها لتمسح العرق وتنظر بعيونها إلى بقعة معينة تحت أقدام الجبل ويبتسم لتعود الرؤوس في الانحناء من جديد وتضرب الأرض بقوة وعنف وآهات متفرقة ترتفع مع انخفاض المعاول التي تغوص في أعماق الأرض الصلبة.

رفع – علي التهامي – رأسه للمرة المائة ونظر إلى الجبل وهو يهز رأسه كأن شيئاً يقلقه .. لا يستطيع هضمه . وكذلك كان زملاؤه. ويمر أمامه بسرعة أحد هؤلاء الرجال القصار ذوي العيون الصغيرة والتي كان – علي التهامي – يتخيل أن سكيناً قد شقت أجفانها– ، وذوي الشعر الأسود اللامع الذي يتهدل دائماً فوق وجوههم.

ويبتسم علي التهامي بمرح وهو يرى الرجل يسرع وبيده حبال غليظة .. كان كطفل صغير حبيب في نظره .. بل إنه كان ينظر إلى جميع هؤلاء الرجال القصار كأطفال لا يتعدون العاشرة من عمرهم .. لكن الأعمال التي يقومون بها كانت أكبر من أن يصدقها علي، الرجل القبلي الذي عاش سنواته الأربعين بين رمال تهامة وراء الجبال مع شيخ قبيلته أينما كان في معركة لنصرة إمام .. أو لسرقة قافلة.

وعلى مياه البحر الأحمر كبحار على سفينة شراعية تحمل كل شيء وتقف أمام أي شاطئ..

كان علي التهامي مغامراً، لكن هؤلاء الأطفال الصغار الذين أقبلوا من الصين ليساعدوا بلاده في بناء أول طريق تشق أحشاءها

لتوصلها " بصنعاء " التي لم يرها مطلقاً .. هؤلاء الأطفال في نظره كانوا أكثر من مغامرين بل اعتبرهم مجانين.

رفع رأسه نحو الشمس التي ترسل بقوة لهيباً محرقاً تعودتها عضلات جسمه الطويل الأسود . ولمح الجبل الذي يقف أمامهم مباشرة والذي يقف عائقاً للطريق في زحفها نحو العاصمة .. نحو صنعاء ...

كان الجبل وعراً بدون مسالك وبدون حياة .. مجرد صخور صلدة .. ورأى علي التهامي الحبال تربط في وسط الرجال القصار الذين بدأوا دون إبطاء في التسلق، وشعر بدقات قلبه تنتفض بقوة . إن كل شيء إذن حقيقة، لقد كذب الخبر منذ أيام حين سمع أن الصين سينسفون كل الجبال التي تعوق الطريق لتسير في خط مستقيم .. كيف يستطيع هؤلاء المجانين نسف جبال؟

كان الرجال يصعدون بسرعة، وارتفعت معهم كل الرؤوس وانتصبت الأجسام والدهشة تعلو وجوههم وهم يرون لأول مرة في حياتهم رجالاً معلقين بالحبال يتسلقون الصخور .. بل ويعملون أيضاً في منتصف الجبل. لقد كانت بأيديهم معاول من نوع غريب تثقب قلب الجبل بقوة وسرعة . وكانت أيدي الرجال القصار تهتز لكنهم لا يسقطون . يا لهؤلاء الأطفال الغريبي الأطوار!..

وهز علي رأسه وهو يتذكر أيامه عندما كان أحد عبيد " هادي هيج ". لقد رأى أناساً غرباء آخرين كانوا حمر الوجوه يتصببون عرقاً ويشربون دون توقف .. رآهم وهم ينظرون إليه وإلى كل زملائه الذين يفلحون أرض سيدهم الكبير باشمئزاز وتأفف، ويتهربون منهم قدر استطاعتهم، وينامون بعيداً عن قراهم في خيام بيضاء كبيرة وأحياناً في سياراتهم وقد وضعوا حراساً مسلحين حولها، وكان كل عملهم كما يذكر – علي التهامي – أن يحملوا " أعواداً " طويلة عليها شيء يلمع ويغمضوا إحدى عيونهم وهم ينظرون إلى الصحراء والرمال والجبال الصماء

والأرض الخضراء التي رووها بعرق جباههم، دون أن يعملوا شيئاً سوى تشويه أوراق بيضاء كبيرة بمجموعة من الخطوات التي لم يعرف علي التهامي منها شيئاً . وبعد أن قضوا مدة طويلة ذهبوا دون عودة ودون أن يخلفوا من الأعمال سوى كرهه لهم وكره كل الناس.

واقترب من الجبل وهو يرى الصينيين يمزقون قلبه دون توقف . إن هناك فرقاً كبيراً، هذا ما عرفه " علي التهامي " جيداً . إن هؤلاء أكثر جدية في عملهم من أولئك ذوي الوجوه الحمر، كلهم بالنسبة له غرباء، ولكن هؤلاء الذين يعمل معهم اليوم ليسوا سوى " حمير شغل " كما يطلق عليهم كل العمال، ثم إنهم لا يتكبرون ولا يهربون من العمال بل ينامون معهم ويحفرون سويا بل ويضحكون وهم يلقون بالتحية كل ساعة، بعد أن يكسروا اللغة العربية، ويبتسمون دون توقف . لا حراس لديهم وهم لا يتجنبون الفلاحين، بل إنه رآهم يساعدونهم في الحرث وهم يتغامزون من الفرح. وكم رأى هذا المنظر على طول الطريق .. وتذكر تلك الحادثة التي وقعت منذ أيام، حين سقط حجر كبير فوق رجل أحد العمال فإذا بأحد الصينيين يسرع بتمزيق ثوبه وربط الجراح حتى وصل آخر ومعه صندوق للأدوية . كم كانوا طيبين معه ورقيقين!

كان العمال يتهامسون وهم يرون الرجال المعلقين بالحبال ينتقلون من كل الاتجاهات فوق تلك الصخور ويعملون دون كلل . كان البعض مشفقاً والآخر ينتظر اللحظة التي يسقطون فيها .. ولكن الصينيين كانوا يعملون بسرعة وصمت . وتخيل علي التهامي الابتسامات التي لا تنمحي من على وجوههم . تخيلها وابتسم بدوره .

انتهت ساعات العمل .. وعاد العمال إلى مراكزهم .. كانوا خليطاً عجيباً . فهم يعملون لأول مرة كعمال شق ورصف طريق – من الحديدة – صنعاء . كانوا فلاحين وبحارة ورعاة.

كانت الغرفة التي يعمل فيها علي التهامي إحدى الغرف الكثيرة التي أقيمت؛ فقد أخذ كل فريق يعمل في منطقة، وكان التنافس في العمل على أشده : من الذي سينجز قبل الآخر؟ . وكانت فرقة علي التهامي في مقدمة الفرق . وسمع علي ضجة ثم رأى العمال يسرعون بالاختفاء، وكانت أصوات تصيح: " بارود .. بارود .. " وقريباً منه وقف اثنان من الصينيين ينظرون بعيداً نحو الجبل، ورأى علي الجبل وقد ثقب في كل جزء .. واقترب من الصينيين؟ ومن بعيد دوى الانفجار واهتزت الأرض تحت قدميه، وانتشر الدخان والغبار ورأى الجبل ينتفض وهو يلفظ من داخله كل ما يحويه .. مرت دقائق – وعلي التهامي لا يصدق . كانت أذنه قد سدت والغبار يحيط به .. والدخان يندفع إلى منخريه المفتوحين، وتدمع عيناه، ومن خلال الدموع رأى ابتسامة كبيرة، ترتسم فوق وجه ملائكي صغير ذي عيون صغيرة .. وأنف جميل.

وحين فتح عينيه تماما .. لم يعد للجبل وجود : لقد أصبح ميداناً واسعاً مليئاً بالصخور والتراب والدخان؛ وسمع صوتاً صغيراً من جانبه

- كيف .. تمام .. هه؟

ورأى الوجه الذي يبتسم وهو يشير إلى الجبل الذي مات منذ لحظات: - طريق تمام.

وهز علي التهامي رأسه . كل الذي تمناه في تلك اللحظة أنه لو كان زملاؤه في أرض – هادي الهيج – هنا يرون ما رآه.

كان يقف بجانب الصيني ينظران إلى الطريق الذي أمامهما . ومن بعيد كانت تلوح قمم جبال أخرى أكبر . وقال مخاطباً الصيني :

- أنت. كم عمرك.؟

وتزداد الابتسامة اتساعاً وهو يرفع أصابع يديه العشر ثلاث مرات . ولم يصدق علي. كان كل شيء يدل على أن الصيني لا يتعدى العشرين. شعره، عيناه، وجهه، بل ذقنه التي لم تنبت فيها شعرة. وهز رأسه غير مصدق.

وهنا سأله الصيني بدوره: - أنت كم عمرك؟

فرفع علي أصابع يديه أربع مرات، وبكل بساطة مضى الصيني وقد أمسك بعلي من يده نحو منطقة الانفجار يحدثه، بينما علي يلتقط بعض ما يمكن فهمه، وتوقف علي مشيراً إلى الجبال البعيدة؛ وعرف الصيني ما يريد وبحركة سريعة كانت يدا الصيني ترتفعان في الهواء صائحاً:

- كلو... بوم!!

وأصبحا صديقين. وكم من مرة أخطأ علي في التعرف على صديقه لأن الجميع متشابهون وكلهم يبتسمون.

وتمضي الفرق بسرعة ونشاط دون توقف والخبراء الصينيون بجانبهم يحملون المعاول، يحفرون ويبتسمون، كان حبهم يشمل كل شيء. وعرف علي التهامي الذي كان يوماً عبداً — لهادي الهيج — عرف أنه لا يستطيع إلا أن يحبهم ويحترمهم، وكان يفكر: إذا كان هؤلاء يعملون بهذا النشاط هنا في بلادنا فبأي نشاط يعملون في بلادهم؟

واقترب جبل .. وكان لا بد وأن ينزاح، ويختفي لتمضي الطريق إلى الأمام — إلى صنعاء.

وابتسم — ليو — صديق علي وهو يرتفع مع الجبل ويصيح بعلي الذي وقف يقدم له الآلات:

- أنا ... أنت ... أقوى من الجبل.

وشعر علي بهزة عنيفة: لأول مرة عرف أن الإنسان — بل هو نفسه أقوى من الجبل. ويقترب جبل ثالث ورابع وعلي التهامي في المقدمة بجانب صديقه — ليو — ويرتفع الجبل ليقل لأول مرة عاملاً يمنياً

يفجر الجبل لتمضي الطريق - طريق الصين كما سماها الشعب تمضي، وعلي في المقدمة يزيل الجبال ويمهد الطريق وترتفع جبال أخرى تحمل عمالاً يمنيين آخرين ويبتسم - ليو - وهو يقول:

- يمني .. كلو ذكي.

١٩٥٩م

أبو ربية

كانت قطرات قليلة تتساقط أمام الدكان وأنا واقف أرتجف من البرد. ولكن تلك القطرات لا تهمني، إن الذي يهمني هو لماذا تأخر..؟ ولمحت على الجدران بقرب الدكان آخر رسم له رسمه بالأمس، إن الرسم يبتسم .. كم هو لطيف " أبو ربية " هذا..

اتخذت درج الدكان مقعداً ورحت في تجميع ذكريات عن " أبو ربية كان ذلك من أعوام ثلاثة عندما أقبل وأنا جالس في الميدان الصغير أمام دكاننا. كان يسير بهدوء وهو ينظر إلى الأرض ويدفع الحجارة بقدميه، وفي عينيه تفكير عميق .. شيء ما كان يقلقه .. وعندما رآني ابتسم وقال: " هل تسمح لي بالجلوس؟ ونظرت إليه ضاحكاً: " ولم لا، الميدان حق الله. "

هز رأسه مستغرباً وهو ينظر إلى الميدان وإلي.

- هل بقي شيء في هذا العالم لله؟ إنني مستغرب يا ابني " الناس أكلوا حقوق الله .. هذا الميدان حق الحكومة وأنت هنا تمثل الحكومة.

رحت أقهقه: أنا التلميذ في الابتدائية أمثل الحكومة؟ . فكرة لطيفة!

- اجلس يا " أبو ربية ".
- أنت من فين تعرف اسمي؟
- ومن لا يعرف اسمك في أديس أبابا؟

جلس بجانبي وراحت عصاه الصغيرة تخط على الأرض خطوطاً بدت غريبة في أول الأمر، لكنها سرعان ما أصبحت صوراً مضحكة. تنفس بعمق وهو ينظر إلى ما خطته عصاه.

- اسمع: أيش اسمك؟
- سعيد
- تدرس في مدرسة الجالية؟

- أيوه في الصف الخامس . قلتها بفخر.

كان " أبو ربية " في الخامسة والثلاثين من عمره، أسمر الوجه غائر العينين، ذو ابتسامة غامضة تسخر من كل الناس.

- اسمع يا سعيد .. تعرف مين رسمت؟
- هذا حمار...

ضربني على ظهري بعصاه بلطف قائلاً:

- شوف تمام.

لم يكن أمامي إلا صورة حمار، إلا أن الرأس كان غريباً لم يكن يشبه رأس حمار، ولكنه وجه شخص ما معروف.

- هذا " با جحش "..

ورحت أضحك.. إن الصورة تشبهه تماماً.

- لكن ليش هو حمار؟
- اسمه باجحش ... وهو كمان حمار .. ما رضي أمس يعطينا " ربية "...

وصمت قليلاً ثم قال:

_ايش تشتهي تكون لما تكبر ؟

أجبت بسرعة: - تاجر:

- حمار! ما تعرف أن التجار ناس بطالين؟ . تشتهي تكون بطال؟
- لا أشتهي أكون تاجر منشان أساعد الفقراء.

أيه يا أبني كلهم لما كانوا صغار مثلك كانوا يقولون إنهم بيساعدوا الفقراء، واليوم معاهم فلوس كثيرة، نسوا الناس .. نسوا الفقراء.

واستمر:

- اسمع .. شوف با أرسم لك حاجة. تشتهي؟
- - أيوه.

راحت عصاه ترسم بسرعة على الأرض، وبعد قليل كان شيء ما يشبه الجبال والشمس والناس والحمير، وأشياء كثيرة لم استطع أن أتبينها..

أيش هذا يا " أبو ربية " ؟

- بلادك.

وراح يرسم ويرسم، والعرق يتصبب من وجهه، ورأيت دمعة تنحدر على وجنتيه، وعيناه الغائرتان تحملقان في الصورة التي رسمها .. والتفت فجأة وأشار إلى البعيد:

- تعرف أن بلادك هناك .. جميلة .. كلها جبال وأشجار وشمس ووديان .. إيه أيش عرفك، عادك جاهل، ما كنت في اليمن؟

- لا.

- أيش عرفك .. اسمع لازم تروح اليمن، أيش تسوي هنا أيش معك هنا في بلاد الناس؟

لم أجبه. انني أعرف أن بلاد والدي بعيدة. لقد سمعت والدي يتحدث كثيراً عن جدي الذي لم أره قط وعن أخوة لي لم أر حتى صورهم. وكذلك كنت أسمع من أصدقاء والدي عن أشياء كثيرة عن الذهب .. والجرائد وأشياء لم أكن أفهمها . وهمست إلى " أبو ربية " قائلاً:

- اسمع يا " أبو ربية " الجرائد أيش تقول؟

خبط على الأرض بهدوء قائلاً:

- أيش من جرائد، كلهم كذابين يا ابني لا تصدقهم، طماعين. يجروا وراء البيس، معك بيس بايأكلوك ما معك ولا حد بايسلم عليك. اسمع يا سعيد كل اليمنيين ليش يهاجروا هم خوافين، ما قدروا يجلسوا في بلادهم وهربوا منها، خلوها للملاعين، آه أنت ما تعرف بدأوا بالهجرة من ألف سنة.

يمكن أكثر ... قالوا " سد مأرب " تهدم .. ومن هدمه .. فأر[1] صغير .. شوف كذابين، هم هدموا السد بفسادهم ما قدروا يبنوا سدود ثانية هربوا .. الله يقول : " لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ".

- أيوه يا سعيد بلدة طيبة كانت معانا .. وبلقيس، ما سمعت عن بلقيس؟ عادك جاهل، لما تكبر باتفهم كل شيء، وبلقيس هذي كانت أول " حرمة[2] "، في الدنيا ينتخبها الشعب رئيسة، شوف إلى فين توصلت حضارتنا، وأيش معانا ذي الحين؟ كلنا هربنا خلينا الحريم في البلاد، ما معانا اليوم إلا جنتين " ذواتي أكل خمط وإثل وشيء من سدرٍ قليل".

تنهد بعمق مستمرا في حديثه: أيوه رجعنا نلحس النعمة في بلاد الناس،، وبلاد الناس، وبلادنا كله ذهب، الله قد قال في القرآن ما في احسن من بلادنا، آه .. جنة بس تشتهي ناس تشتهي رجال.

وأصبحنا صديقين .. وكم ذهبنا معاً إلى منازل الأغنياء ليرسم صورهم على الجدران، هذا في صورة كبش ينطح صخرة. ونجلس بعيداً بينما يقترب الناس من الصور ضاحكين:

- تعرف يا سعيد: لو سافرت اليمن باكون غني.
- وباتنسى الناس الفقراء؟

ويقهقه مجيباً.

- لا ما با أنسى. في اليمن الواحد في بلاده، أما هنا نحن في بلاد الناس، تعرف الواحد غريب، عيب يتفرجوا علينا ويقولوا: شوف هذا اليمني يمشي حافي ولا ثيابه مقطعة لكن إيش نسوي، إذا كان الله أعطى الأغنياء قلوب من حجر. ونفترق مع المساء.

---

[1]) إشارة إلى الأسطورة التي تقول أن فارا كان ينحت في السد حتى تهدم.
[2]) امرأة.

بالرغم من الصداقة التي كانت تربطني " بأبو ربية " إلا أنني لم أكن أعرف أين يعيش وكيف وكلما سألته كان يجيب:

- يا شيخ أرض الله واسعة.
- لكنك قلت الناس أخذوا أرض الله.
- طيب لا تزعل أرض الحكومة واسعة.

لقد كان " أبو ربية " يتفنن في رسم أولئك الذين يكرههم وكان يقول لي: " تعرف اليوم باجحش أعطاني خمس ربيات " ثم يضيف بفخر: " لكني رفضت علشان ما يقولوا أبو ربية طماع أخذت منه بس ربية واحدة . ".

كانت قطرات المطر المستمرة في التساقط. والرسوم على الحائط تبكي مع المطر والشارع خال سوى من عربات " الجاري " المندفعة تحت المطر.

إلى أين ذهب؟ لا بد أن شيئاً ما قد حدث له، لم يغب طوال ثلاث سنوات كهذه المرة. لقد غاب مرة واحدة فقط وكان ذلك بسبب مرض ألم به، لقد كان منظره مؤلماً وقد نحل وأصبح كعصاه التي لا تفارقه ... ضعفاً واصفراراً. وقد أتى يعتذر عن تأخره ... وما زال صوته يرن في أذني وهو يقول:

- أيش نسوي، الله بلانا بالمرض .. قد نحنا فقراء ما معانا بيس عاده يزيد الفقراء مرض..
- لكن يا " أبو ربية " ليش ما تشتغل؟
- عادك جاهل ما تعرف .. يا ابني مش أنا اشتغل كل يوم؟ وأنت: كنت افتكر أنك عاقل تفهم أيش يعني الرسم ... اسمع الرسم أحسن شغل في الدنيا.
- أيوه لكن هذا الشغل ما يأكل أحد.
- ومن يشتهي يأكل؟ المهم الناس يكونوا مبسوطين لما يشوفوا الرسم حقي ... الناس يشتهوا يقول لهذا التاجر ولا ذاك إنه حمار

أو كلب، ما يقدروا أما أنا أرسم ما أريده ولا حد يقدر يفعل لي حاجة.

- ليش؟

- تعرف لما تقول لواحد كلب يزعل .. لكن لما ترسمه زي الكلب أو الحمار، تخلي الناس يضحكوا عليه وما يزعل: هذي طبيعة الناس .. عادك صغير لما تكبر باتعرف كل حاجة.

لكن " أبو ربية " لم يعد. لقد مضى أسبوع. ومعظم رسومه قد انمحت من على الجدران، ما عدا صورة صغيرة رسمها لي وكم هي مضحكة..

لقد سألني مرة أيضاً:

- أيش تشتهي تكون لما تكبر؟

أجبت بسرعة: - رسام.

كانت الصورة لي وفي يدي ريشة وتحت الصورة كتب " أبو ربية ": " برفية الصورة يا أهل الخير " وفجأة ترامى إلى أذني صوت والدي:

- مالك كل يوم عندك، بايقتلك البرد تشتهي تموت، هيا أدخل داخل وإلا باجي أريك.

ولكني كنت أنظر إلى الشاعر وفي عيني حزن عميق. ودخلت وجعلت أنظر إلى والدي الذي كان منهمكاً في كتابة الحسابات وسألته بهدوء:

- أبا .. أبا .. فين " أبو ربية "؟

- زفروا به.

- لافين؟

- إلى اليمن؟

- ليش؟

- مجنون؟

وبعد خمس سنوات غادرت أديس أبابا إلى عدن . وفي ضجيج مقهى من مقاهي الشيخ عثمان وأنا جالس أحتسي قدحاً من الشاي لمحته مقبلاً.

وصرخت بسرعة:

- أبو ربية .. أبو ربية.

والتفت إلي ... وقبل أن أتمكن من القيام لمعانقته كان قد ترك المقهى وولى خارجاً .. جريت وراءه، إلا أنه غاب في الزحام. كان في ملابس ممزقة وقدمين حافيتين وفي وجهه آثار بؤس.

قال لي صاحب المقهى:

- من فين تعرفه .. اسمه المجنون .. جالس كل يوم يشخطط[1] على الجدران صور للناس مثل الكلاب.

أجبته: إنه ليس مجنوناً.

- إذا كان مش مجنون ليش ما يدور له على شغل ويشقى على بطنه...

وصمت..

١٩٦١

---

[1]) يرسم باللهجة اليمنية.

سوق السبت

عندما تعطلت السيارة في نهاية " وادي الصميتة " كان علينا أن نقطع الطريق إلى " سوق السبت " مشياً على الأقدام.

كنت أحب السير خاصة عندما تترقرق تحت أقدامنا مياه الوادي الباردة. وتهب علينا نسمات عذبة وأمامنا تنصب جبال " الحجرية " الصخرية وهي تحتضن القرى والأرض الخضراء التي تنمو عليها سنابل الذرة.

كم هو جميل " وادي الصميتة "مساء عندما يخيم عليه الصمت وترنو الشمس من بعيد وهي تلملم أشعتها الدموية وصوت الماء ينشد أغنية يمنية حزينة.

أما الآن فكم تملكني الغضب إذ أن الجو حار والشمس قوية والماء لا لذة فيه ووجوه المسافرين قلقة متعبة صفراء .. فغداً هو " العيد "، وعلينا أن نصل الليلة إلى قرانا. الكل يحلمون منذ البارحة عندما غادرنا " عدن " بسهرة جميلة بجانب زوجاتهم وأطفالهم .

ولكن ها هي السيارة الملعونة تعطلت.

لم نجد بداً من السير بعد أن ظللنا أكثر من أربع ساعات بجانب السيارة التي أصرت أن تظل في مكانها، وشعرنا بالجوع ينهش بطوننا بقوة فتشجعنا على المشي خاصة عندما ذكرنا أحدهم بأن اليوم هو السبت، فالسوق مليئة بأشياء وأشياء.

قذفت " المشدة " على رأسي لأحميه من الشمس، ورفعت مئزري إلى الركبتين وضربت الماء بقوة ناظراً إلى الجبال والأشجار .. مصغياً لخوار البقر التي ترعى قريباً في الوادي ونباح الكلاب الهزيلة .. ناظراً إلى عيون الفلاحين التي تتابع قافلتنا بتكاسل وضجر.

لم تكن السوق بعيدة ..

ولمحنا بعد أن خرجنا من الوادي وسرنا قليلاً على سهل أخضر عدة أكواخ من الخشب والزنك والقش جلس تحتها الباعة .. ومن بعيد كانت تسمع أصواتهم وأصوات المشترين، وترتفع الصقور

عالياً وهي تحوم على المجزرة الواقعة في الطرف الآخر من السوق. ونهيق الحمير وهي تتغازل والرائحة العفنة وصراخ الأطفال وهم يتقاذفون بقايا الفواكه القذرة.

ولم أكد أصل إلى السوق حتى ارتميت على أقرب متكأ في مقهى، ورحت أعب القوة الحارة بشراهة وأرنو بنظري إلى السوق.

كانت السوق كبيرة وقريباً منها ترتفع أكمة عليها علم إنجليزي ومبنى أبيض وخيام وحارس بملابسه العسكرية وبندقيته .. فسوق السبت هي نقطة تفصل بين شمال اليمن وجنوبه، وتحت هذه الأكمة يمتد إلى ما لا نهاية سهل أخضر يمزقه وادي الصميتة المنحدر من جبال الحجرية. وحين تهطل عليها الأمطار .. يحمل معه وهو يتدفق من الشمال الطمي والأشجار والسيارات التي اتخذت قلب الوادي طريقاً لها ... والناس وكل ما يجده السيل أمامه .. لم يكن الوادي الصامت يلتفت ليلقي التحية على أحد. كان صامتاً كالموت وهو يحضن ضحاياه. آه وكم قد سالت بصمت دماء على جوانب هذا الوادي ..

لا تزال الأكمة تذكر حتى أيام قليلة ماضية رصاصات الإنجليز وهي تحصد ثوار قبيلة " الصبيحة " .. ورصاصات الثأر التي تنطلق بصمت مع مساء كل يوم .. آه يا وادي الصميتة حتى متى يطول الصمت؟

تفرق الصحاب وذهب كل منهم إلى السوق وجلست أنا تحت سقيفة المقهى. أنظر إلى ما يدور حولي ... كانت أمامي تماماً طاحونة ضجيجها يصم الآذان، بجانبها مربط للحمير التي حملت الحبوب إلى الطاحون وغير بعيد المجزرة التي تنبعث منها رائحة عفنة، رائحة الدم المراق على أرض المجزرة مع الأوساخ المتبقية من الذبائح وطنين الذباب وصقور تهبط من ارتفاعها لتنقض على البقايا المتناثرة حول المجزرة وأصوات بائعات الفواكه والخضروات الرقيقة يخنقها السعال وهن في ملابس سوداء

كسواد حياتهن. كانت ترتفع في جو السوق مع أصوات المتشردين ونداءات الباعة رائحة الدم وأصوات الصقور، والذباب الذي يداعب عيون الناس وأفواههم.

كنت أفكر في القرية، في زوجتي التي لم أرها منذ عامين، وطفلي الذي ولد وأنا في المهجر، في كل الأشياء الصغيرة التي كنت أحلم بها تحت تلك " السقيفة " وشمس الظهيرة تكوي رؤوس الناس. كم كنت أتمنى لو كنت في تلك اللحظة في البيت بجانب زوجتي.

غداً العيد، والسوق بضجيجها تثير الغثيان، والصراخ وصوت الماشية ونهيق الحمير وهي تتغازل أمام باب الطاحونة غير أن الحبال التي تربطها إلى الجدران تمنعها من تنفيذ ما تريد. كان صراعاً حاداً بين الحمير والحبال، والشمس ترسل أشعتها بقوة والذباب يراود العيون بإصرار، وامرأة تختلس النظر إلى ما يدور. كانت سمراء صغيرة نحيلة الجسم في ملابس سوداء على وجهها حرمان سنوات الشباب وهي تتابع ما يدور وخيبة الأمل ترسم بقوة كلما هزم الحمير، وأنا أنظر إليها والطاحون لا زالت تصم الآذان بضجيجها اللعين. ترى بم تفكر هذه المرأة؟ وأنا ماذا أعمل أيضاً؟ إننا نفكر في شيء واحد: في المعركة التي لم تنته بعد، والحمير تتصارع لكنها لم تتحرك من مكانها. كان قدرها مربوطاً بالحبال، إنها تعلم ما تريد لكنها لا تستطيع، الحبال تمنعها، تقيدها وعيونها تغيب في دوامة من التفكير .. وشمس الظهيرة تحرق الأرض وسيارات تخترق السوق في طريقها إلى المعسكر وعليها جنود حمر الوجوه يتصبب منها العرق بغزارة، المرأة تنتظر وأعصابي تتوتر.. كنت أفكر في حياتي وحياة السوق والمرأة والحمير، والمعركة التي أنهتها المرأة فجأة بفك الأربطة. وجلست بعيداً تنظر وفي عيوننا شيء ما مشترك.

وهؤلاء الذين في السوق ترى، بم يفكرون؟..

ونفخ بوق المعسكر والمرأة لا تزال تجلس في ظلال الطاحونة مبهورة الأنفاس.

وأنا أحلم بدفء غرفتي الليلة .. ومن السوق ارتفع صوت مزمار مع دف وأغنية " تهامية " ورقصة من شابة سمراء بلون الطمي في الوادي أيام السيول، تلمع عيونها السود وهي تغمز، وحركات جسمها اللولبي مثيرة وفمها نصف المفتوح ولسانها وهي تمر به على شفتيها الممتلئتين تجعلني أغيب في دوامة من البؤس..

والحمير والمرأة المبهورة الأنفاس، وشعور مخيف يتملكني. امرأة شابة في الثلاثين يلمع في عينيها الظمأ وشابة في العشرين ترقص وفي عينيها السوداوين نداء، وشفتاها خطيئة، وجسمها جحيم من اللذة ... علي أن أهرب من هنا، أن أهرب. تركت " السقيفة " ورحت أدور في السوق كرجل مجنون وأصطدم في طريقي بأطفال زرق الوجوه، نحيلي الأجسام، حفاة ونساء يتساقط الزيت تحت أشعة الشمس القوية من شعرهن على الوجوه. فيزددن بشاعة، ورجل كريه يمسكني من يدي راجياً أن أشتري منه شيئاً ما وطفل يجري خلفي مادا يديه وفي عينيه بكاء، وشفتاه رجاء مؤلم، وخادمة تحمل فوق صدرها طفلاً نصف نائم ونصف ميت ووجه يصرخ بالألم والمرض.

حتى الماشية التي تباع كنت أراها وقد أنهكها المرض.. كنت بحركات آلية أمضغ أوراق " القات " وأنفخ الدخان وأنا أبحث عن وسيلة للذهاب إلى القرية قبل أن يحل المساء. وعندما عدت إلى " السقيفه " كانت المرأة قد مضت بعيداً وهي تحمل فوق رأسها كيس طحين وشمس الظهيرة تشوي قدميها العاريتين. ووادي الصميتة يخترق السهل الأخضر غير بعيد عن جبال الحجرية الصخرية التي تحتضن منازل وأرضاً وأناساً يحلمون بأشياء وأشياء ...

١٩٦١

عند امرأة

لم تبق أمامي سوى وريقات قليلة من " القات " وبعد قليل سأنتهي. وهذه الملعونة قد أقفلت علي الباب وذهبت بعد أن تركتني بجانب ابنها المصفر الملفوف في خرق بالية قذرة. إنه ينظر إلي باستغراب وربما بخوف. كم مرة صرخت في وجهه .. في آخر الزمن أصبح مربياً لطفل لا أعرفه؟ إنها غريبة هذه المرأة. كيف تترك ابنها وحيداً مع رجل غريب تراه لأول مرة؟

قد يحدث؟ ليس مستغرباً هذا في عالمنا.

رحت أحملق في جدران الغرفة السوداء وقد بدأ الظلام يهبط على " تعز " كم أنت جميلة يا تعز . كل يوم في مثل هذا الوقت أكون قد تركت " المقيل " وذهبت إلى خارج المدينة حيث تنبسط المقابر إلى ما لا نهاية خارج أبوابها ويمتد طريق المطار كثعبان أسطوري .. لكني اليوم سجين غرفة رطبة .. سوداء الجدران، يتساقط فوق راسي التراب كلما مرت حشرة بين أخشاب السقف وربما ثعبان ... كم أكره الثعابين.

لماذا تصرخ يا طفلي المسكين؟ لقد انتهى اللبن الذي تركته لك أمك منذ ساعات. ألا تتركني لأحزاني؟...

نفثت دخان سيجارتي في صمت ، ومضغت البقية من أوراق " القات ". اسمع يا طفلي: نحن في غرفة واحدة لا يعرف أحدنا الآخر؛ لست أدري حتى ما اسمك؟ وكم عمرك.. لعلك في الشهر السابع أليس كذلك؟

ما أجمل ابتسامتك وما أشد اصفرار وجهك الصغير.. أأنت مريض؟ كان والدي يريدني أن أصبح طبيباً يوماً ما. يقولون أن الطبيب يغنى بسرعة في بلادنا .. طبعاً مرضى كثيرون وأطباء بعدد أصابع اليد ... ألا ترى يا صغيري أي صدفة عمياء جمعتنا .. كم هي جميلة عيونك السوداء .. امرح اقتل الأمراض

بابتسامتك .. وسأقص عليك يا صغيري لماذا أنا هنا؟ أعذرني سأمتص سيجارتي حتى النهاية وأوراق القات تكاد تنتهي وأنا أنظر إلى الشباك الصغير المعلق بقرب السقف حيث يسبح في السماء السوداء" قمر تعز الحزين" بالقرب من قمة " صبر ". إنه مصباح كبير يا صغيري ستراه عندما تكبر معلقاً على صبر وربما لن تكبر. ربما لن ترى صبر .. لا .. إن كل أطفالنا في ضخامة صبر . أليس كذلك يا صغيري المصفر الوجه؟ إنني لا أستطيع أن أقول لك لماذا أنا هنا؟ لماذا أضايقك في أحزانك وآلامك .. إنك صغير وعندما تكبر ستلعنني في أعماقك .. ستقول أي رجل تافه مر ذات يوم بحياتي.

اسمع: لقد أتيت هنا لأرتكب جريمة صغيرة .. أتعرف " سعدية " الفتاة السمراء التي تشبه البن؟ أنها تسكن بالقرب منكم في المنزل المجاور. نعم إنها تأتي دائماً إلى والدتك. لقد كان لي معها موعد، أن نلتقي اليوم هنا بجانبك، فعندما دخلت قبل ساعات لم ألق عليك أي اهتمام. كنت مجرد خرق بالية وجسم أصفر نحيل، وعينين معذبتين.

إنها لم تأت: فقد مرت من أمام الباب بسرعة وهي تعتذر لي بعيونها .. لماذا؟ لأن هذا " العكفي " السخيف الذي يسكن بجواركم قد قرر اليوم أن يتكئ ويمضغ قاته بالقرب من باب بيته .. إنها لا تستطيع الدخول فسوف يراها ويثير ضجة نحن في غنى عنها .. يا صغيري .. إنه وهو في " مقيله " أمام باب المنزل ينظر إلى " سعدية " وعيونه اتهام .. كانت زوجته تنام مع رجل آخر ... لقد أخرجته من المنزل وفرشت له على الباب حيث أحضرت له " المداعه والقات " وذهبت ... ألا تسمع صوتها في الغرفة المجاورة وهي تفح كأفعى في أحضان رجل آخر. من أين أعرف؟ لا تتهمني بالكذب يا صغيري: إنني لا أستطيع تحمل نظراتك. لقد حضرنا سويا يا صغيري وجلس هنا

بجانبي قليلاً ثم خرج إلى الغرفة المجاورة حيث انتظرته زوجة العكفى التي تخترق عيونها الشابة جدار السماء بسحرها.

إنني دائماً تعس في هذه الأشياء .. والعكفي لا يزال يرمق باب غرفتنا .. لقد أقفلت والدتك الباب .. وذهبت لتوهمه أن لا أحد هنا. نعم لا أحد سوانا .. وصوت فحيح زوجته الشابة.

القمر الحزين يعانق قمة صبر، والنجوم تتلألأ كمصابيح زرق. وتعز تستقبل ليلها الحزين كعادتها . و " العقبة " وقد أضيئت بالكهرباء تشبه عقداً من اللؤلؤ على صدر حسناء. وسعدية قد ذهبت إلى السوق. وقد لا تعود إلا في المساء .. لعلها مع رجل آخر .. من يعرف؟

ارأيت كم أنا تافه؟ لماذا تسألني عيناك كل هذه الأسئلة؟ . إنني لا أستطيع أن أجيب عليها دفعة واحدة؛ ثم أنني قد أنهيت أوراق القات. لو اتت والدتك فقط لتركتها تشتري لي أوراقاً أخرى.

الغرفة مظلمة. دفعتني إلى إشعال عود ثقاب مفتشاً عن – الدَبه"١" – كم هو كريه جو هذه الغربة .. فالجدران سوداء والسقف قد نسجت عليه بيوت العناكب وفي الزاوية أحطاب وفرن صغير . " موفى " إن والدتك فيما أرى خبازة تبيع الخبز للناس في السوق.

نعم إنني أتذكرها تجلس أمام " باب موسى " عند السور القديم بجانب الجمرك. لقد رأيتها مرات.. ولكنني لم أفكر فيها مطلقاً .. إنها امرأة شابة وجميلة .. يا لي من مغفل . ولكن أين والدك؟ ألا تعرف؟ ولا أنا أيضاً لا أعرف؟. شيء سخيف أن أظل مقيداً هنا حتى الصباح! لقد تركت الدكان مقفلاً .. إنني أعرف أن لا أحد سيأتي لشراء شيء فالحياة بمجموعها تافهة .. فما بالك بالبيع والشراء ؟ آلاف العيون تراها تحملق فيك وهي تمر بالشارع دونما جدوى .. تحملق وتمضي تبحث عن اللاشيء.

أعذرني يا صغيري .. ألم تر مرة تعز؟ . لقد رأيتها، حملت أمك إلى شوارعها .. ألست موافقاً معي أن تعز أجمل مدن عالمنا .. وجبل

صبر وهو ملتفع " بجبته " السحابية وقت العصر وهو يحملق في تعز بجنان أب جبار؟ تعز رائعة .. نعم لقد ولدت فيها وأنت أيضاً ؛ إنها مدينتنا .. عندما تكبر سأكون قد شخت لكن مدينتنا ستكون شابة .. هناك في أحضان " صبر " ستبنى أجمل منازل الدنيا و " قلعة القاهرة " مكان ممتاز لبناء فندق عالمي. دعنا نحلم بالمستقبل، بالأضواء تصنعها شموس كهربائية .. أليست أفضل من هذه " الدبة " الصفراء التي تشبه وجهك الصغير .

لم تأت والدتك بعد .. إنني أفكر فيها .. إنها حسناء . لا زلت أسمع فحيح المرأة الشابة .. وصوت المداع يشد أنفاس العكفيالذي علق على لوحة نحاسية .. كتب عليها : " حرس شريف " يا إلهي! أي حرس وأي شريف! . وامرأته تخونه عبر الجدار وفمه المحشو بالقات وينفخ دخان " المداعة " قد أصبح خالياً من الأسنان .. إن منظره بشع تماماً مثل هذه الغرفة .. الماء قد انسكب من الجرة هناك بجانب الباب .. والفرن وقد غطاه الرماد والحطب حيث تزحف في داخله – زواحف مخيفة .. وملابس أمك المعلقة تماماً فوق رأسي . إنني أشم رائحة المرأة .. يالي من أحمق! لماذا لا أغادر هذا الجحيم؟

"١"- سراج بلدي

صوت الباب يفتح .. لقد أقبلت : سأحدثها. سأقول لها أن تبقى معي .. إن وجهها الأبيض وهي تخطو من الباب يثيرني وفحيح المرأة الشابة – وصوت قبلات صديقي – اسمعي يا صديقتي: ألا أقفلت الباب لنبقى هنا معاً .. لماذا ؟ ألا تعرفين؟ لا أريد سعدية، دعيها تذهب إلى الجحيم، أنا محتاج لامرأة .. هل تفهمين ؟ إلى أين أنت ذاهبة؟ لا أحد هناك فقد أظلمت الدنيا .. والقمر قد اختفى .. وصغيرك المسكين قد نام منذ ساعات .. لم يبق سوانا .. وأنا والحيوان الذي يصرخ في داخلي . ستغتسلين ! إذن أحضري لي قليلاً من القات وعودي بسرعة.

لعنة الله عليك .. إنها جميلة: لماذا لم أرها من قبل ؟ يا لي من أحمقٍ .. ألا تزال نائماً يا طفلي اليتيم؟ ذلك خير لك من أن ترى وحشاً بجانبك.

اللعنة على هذا الصمت وهذه العفونة .. " الدبة " ذابلة وهي ترسل ضوءها الشاحب كالحياة في شوارع تعز. إن صوت " المداعة " قد اختفى. لعله قد عاد إلى غرفته. هل عادت زوجتك الحسناء أيها " الحارس الشريف "؟ كم أنت يقظ .. إنها جميلة زوجتك: أهنئك عليها. أنها في جمال بلادنا، أما أنت أيها الحيوان، فحارس شريف.

الباب يفتح من جديد. دعيني أزيح ابنك من هذا المكان إنني لا أستطيع البقاء بجانبه .. خذيه .. نعم أعطيه لجارتك واقفلي الباب.

لماذا تطفئين " الدبة "؟ كم أنت دافئة ... دافئة.

إنني أحمق .. أين كنت كل هذا الوقت؟

لماذا لم أرها من قبل؟ ولماذا أبحث عن سعدية؟

الليل يهبط فوق تعز .. والقمر الحزين قد غطت وجهه السحب، وصبر تلفع بالضباب . والحيوان داخلي يموت ... يموت ... يموت.

اللطمة

كانت قطرات المطر تتساقط على أبواب الدكان فتقبل أرض الشارع برفق . وأشباح سوداء ملتحفة بملابس بيضاء تمر بسرعة أمام باب الدكان ثم تختفي في عطفة الطريق.

كنت أنظر في الشارع إلى السيارات السريعة وخيول " الجاري[1]" المندفعة تحت لسعات سريعة من عصا السائق وهي تنفث دخاناً أبيض من فمها.

- هل أخبره الآن أم أن علي أن انتظر حتى الصباح؟؟

ونظرت حولي ... كان يجلس بجانبي فوق كرسي قديم وبين يديه مقص كبير يقص به علب الكرتون ليصنع منها أغلفة للكتب والدفاتر، وكانت في فمه كرة كبيرة من " القات " يمضغها بهدوء ويمتص ما تعتصر أسنانه ....

وعدت أنظر إلى الشارع من جديد وأنا أفكر في أوامر مدير مدرسة " الجالية " التي يجب أن تنفذ وتهديده بالعقاب الشديد.

إن والدي الآن تعتصره حرارة أوراق " القات " التي بدأ في مضغها منذ الظهر، ولو أخبرته الآن لكان نصيبي الكثير من اللطمات والركلات... ونظرت إليه وأنا أفكر في قوة لطماته ورأيت يديه اللتين كانتا لا تتوقفان عن قطع أوراق الكرتون والعروق البارزة كأنها تريد الانفجار بينما حبات من العرق تلمع فوق جبينه والبرد يجعلني أرتجف كلما هبت نسمات باردة من الشارع. " لا داعي لإخباره الآن ولأنتظر حتى صباح الغد حين يصحو من نومه وتعود إلى شفتيه ابتسامته الكبيرة التي اختفت الآن خلف تكشيرة وجهه ".

---

[1]) عربة تجرها الخيول . أهم المواصلات في – أديس أبابا – .

كنت في الحادية عشرة نحيفاً .. أدرس في الصف الخامس في مدرسة " الجالية "، وكلما هبت ريح باردة شعرت بارتجافة .. وهاأنا الآن ارتجف من البرد والخوف معاً ... الخوف من أن أخبر والدي بما طلبه مدير مدرسة " الجالية " فينالني عقابه والخوف من أن لا أخبره فينالني عقاب مدير المدرسة. وغالباً ما أفضل عقاب والدي الذي ألفته، وخاصة لطماته.

وكان والدي مستمراً في عمله تتساقط بين يديه أوراق الكرتون مربعات ومستطيلات؛ إنه لا يخطئ أبداً في عمليته هذه.

كفت قطرات المطر عن التساقط وعادت الشمس إلى الظهور جاهدة أن ترسل أشعتها ولكنها كانت باهتة وهي تختفي وراء الأفق.

كانت الشمس بعيدة ترسل من هناك أشعة صفراء ضعيفة لا تستطيع مقاومة الليل الذي بدأ يهبط على المدينة.

ودخل الدكان في تلك اللحظة أحد تلك الأشباح السوداء المتلفعة بملابس بيضاء ... كان طويلاً شاحب الوجه تجمدت خدوده من البرد وهو يمتص شفتيه ويسعل.

نظر إلي وإلى البضائع التي في الدكان قائلاً:

- أريد شراء كمية كبيرة من الدفاتر فأرجو أن تساعدني في تخفيض الثمن.

فعرضت عليه مجموعة كبيرة من الدفاتر. وكان والدي منهمكاً في عمله وهو يرفع عينيه محملقاً في الرجل الواقف أمامي.

جعل الرجل يختار ما يريد وأنا أحاول لفت أنظار والدي لأثبت له بأنني بائع ماهر وكنت أحاور الرجل مقدماً له أكبر كمية يريدها . والرجل يبتسم ثم يسعل قائلاً:

_أولاد عرب ...

سمع والدي سماع الرجل .. نظر إلى خديه الغائرين ووجهه المصفر وقال لي بالعربية:

- سعيد، لا تقترب من الرجل .. إنه مسلول.

وشلتني الكلمة ... ورحت أنظر إليه في هلع .. هل يحمل هذا الرجل الموت في داخله؟ والتفت إلى والدي كأنني أطلب منه النجدة، ولكنه كان مستمراً في عمله وعروق يديه تزداد انتفاخاً وهو يضغط على المقص وترتمي على الأرض قطع الكرتون — مربعة .. مستطيلة . وعدت أنظر إلى الرجل وشعرت بالخوف وأنا أحاول ألا اقترب منه بقدر الإمكان ... بينما كان الرجل هادئاً يبتسم وهو يحملق في وجهي الصغير ويختار ما يريد.

قلت الكلمات المندفعة من فمي محاولاً التخلص منه بأسرع ما يمكن. وعندما قدم لي النقود شعرت بالراحة وبسرعة أعدت له الباقي وجلست . إلا أن الرجل لم ينصرف. نظر إلى النقود التي أعدته له وراح يعدها ورمقني بطيبة قائلاً:

- لقد أخطأت يا بني ..

وأعاد إلي جزءاً من النقود . قائلاً إنها زائدة عما له ..

وسمع والدي كلمة الرجل فترك مكانه شاكراً الرجل وأعاد النقود إلى الخزينة.

رأيت الرجل يغادر الدكان وينطلق خلفه صوت سعاله ويبصق على أرض الشارع بصقة حمراء غابت مع المياه التي تسيل على الأرض. لم يعد والدي إلى مكانه بل وقف أمامي بقامته المتوسطة وجسمه القوي ويده التي ارتفعت في الهواء لتهوي على وجهي فارتميت على الأرض وصوت طنين اللطمة يصم أذني ..

كانت شفتاه تتحركان .. لكني لم أسمع شيئاً، ولم أبك لأنها أصبحت عادة أن أتلقى لطماته، ولكن الذي آلمني هو أنني تذكرت مدير مدرسة " الجالية " وتهديداته ولأني لن أستطيع أن أخبر والدي الآن. وخفت الطنين وبدأت أسمع الكلمات التي تخرج من فمه..

- أولاد حرام " باتبيع الدكان " ببيسة[1]" ما تعرف تحسب زي الناس طيب قلي أوديك المدرسة كل يوم ليش؟ من شان تلعب وإلا من شان تطلع رجل!!

عادت الحرارة إلى يديه ومنها إلى أوراق الكرتون ولكن بعد أن تركت يده على وجهي آثاراً حمراء محتقنة.

ضاعت كرة القات من فمه؛ لقد امتصها وتابع كلامه قائلاً:

- يا ريت كان معانا آباء يعلمونا ... احمد ربك أنك تروح مدرسة كل يوم وتحصل واحد يأكلك ويشربك ويدفع لك فلوس حق المدرسة .. لما كنا في مثل سنة كان الواحد منا يشقى ويؤكل أهله ... يا شيخ سبنا بلادنا وأجينا بلاد الناس نشقى ونتعب، كله من شان نطلعكم رجال.

كان الطنين يعاود أذني فتضيع كلمات والدي التي كنت أعرفها عن ظهر قلب ويزداد خوفي من مدير المدرسة. كان الجو بارداً والشمس قد غابت وراء الغسق ولم يعد يثبت وجودها سوى احمرار تلك الجبال البعيدة المحيطة " بأديس أبابا " كنت أرتجف من البرد ما عدا خدي الأيمن حيث كانت حرارة اللطمة . وكان الدكان خالياً سوى من صوت المقص وهو يصنع أوراقاً مربعة – مستطيلة.

وعادت الأفكار والخوف ... وتخيلت مدرس المدرسة بلهجته السودانية وعيونه المحمرة وجسمه القصير الممتلئ وهو يهدد الطلبة صباح كل يوم حين يحضرون بغير الملابس التي فرضها عليهم وقد ازداد تهديده أخيرا لاقتراب عيد جلوس " الإمبراطور " فهو يريد أن نكون بملابس موحدة . بل وهددنا بالسجن في قبو المدرسة الرطب والذي تنام فيه الثعابين والعقارب دون أكل وشرب. ونحن نعرف أن المدير لا يكذب بل إنه ينفذ وعيده وهو مسرور. ويخفت الطنين تماما وتسمع أذني بوضوح صوت المقص وهو يئن

---

[1]) عملة تساوي المليم.

تحت أصابع والدي القوية ويرسل من بين فكيه أوراقاً مربعة – مستطيلة.

وأرسل عيني تتصفح وجه والدي الذي غطته تماماً تكشيرة مخيفة: أين هي تلك الابتسامة العذبة الآن؟

وفي الصباح رأيت والدي يبتسم ونظر إلى خدي قائلاً:

- ماله خدك؟

لم أجبه. إلا أنني نظرت إليه نظرة عميقة عرف منها كل ما حدث بالأمس. وشعرت بأصابع يديه تمر بحنان فوق رأسي ثم وهو يربت بلطف على كتفي وقال:

- لازم الواحد يتربى يا ابني .. أيش نسوي .. لازم.

كانت فرصة نادرة لأحدثه عن مطلبي، وصحت بطفولة:

- أبا .. أبا. كل الطلاب اشتروا ثياب حق المدرسة بس أنا باقي أيش تشتيهم يقولوا علي!!

وبعد دقائق كنت أسير معه لشراء ما أريد.

١٩٥٨

يا خبير

كنت عائداً من " حيفان[1] " بعد أن قضيت فيها يومين في شريعة عند الحاكم. وكالعادة لم أخرج بنتيجة، فالشريعة ستستمر ولن تحل مطلقاً.

كان المساء يقترب وأنا أسير وحيداً تقتلني آلاف الهموم بعد أن مضغت اليوم ما يزيد عن ربطتين من " قات شراري " وتتفجر في نفسي ثورات لا تنتهي .. ومع أنني عادة لا أحب السير في المساء وحيدا ولمسافات طويلة إلا أنني اليوم قتلت خوفي وسرت أضرب الطريق بعصاي ومضغات القات لا تزال في فمي وحرارة الاندفاع والحقد وكل ما يولده القات تتصارع في داخلي، ونسمات الليل الرطبة مع خرير الماء.. في الجداول الصغيرة المنصبة من على سفح الجبل .. ومنظر الوادي من بعيد يولد في نفسي ألحاناً صغيرة .. حزينة وثائرة.

- يا خبير .. يا خبير.

والتفت وأنا ألعن هذا الصوت، وشعرت بارتجافه خفيفة حين رأيت صاحب الصوت بمئزره القصير وبندقيته وعينيه المحمرتين مع مضغة القات في فمه وهو يخب بسرعة ليلحق بي بقدميه الحافيتين:

- لافين يا خبير؟
- القبيطة.

أجبته بنفس مكسورة. وشعور داخلي بكراهية شديدة تملأني، فبقدر ما أكره الموت أكره منظر العسكري.

- نحنا صحبة..

---

[1]) مركز ناحية القبيطة في الجمهورية اليمنية"سابقا" وحاليا مركز مديرية حيفان ،يقع جنوب شرق مدينة تعز

ومضيت في الطريق يتبعني العسكري .. وطارت كل الأفكار ولم تبق سوى خطوات العسكري وهي تصفع الأرض بقوة . وجعلت التفت بين الحين والحين أتحقق من شكله ... وبدأ خوف حقيقي يسري في دمي .. إنني أكره العسكر .. وأخاف منهم ولم أسر مع أي منهم .. لكن الحكايات التي تتردد في كل مكان من قرانا عن أعمالهم الوحشية تدفعني إلى الاعتقاد الآن بالذات إلى أن هذا الرجل الذي يسير خلفي قد يقتلني. وما المانع لديه؟ قد يفكر أن لدي الكثير من النقود .. ثم ما الذي يمنعه؟ . لا أحد هنا يرانا فالطريق خال .. ونحن معلقان في منتصف الجبل، وأقرب المنازل إلينا يقع هناك بعيداً في قعر الوادي أو على قمة الجبل، ولديه بندقية بينما لا أملك أنا سوى عصا صغيرة .. وراحت الفكرة تدور في رأسي حتى تخيلت أن الرجل ينزل بندقيته من على كتفيه بل أن صفعات قدميه على الأرض خيلت لي أنه يفتح زناد البندقية ... و ... ووقفت على جانبي الطريق كمن يحاول إخراج شوكة دخلت في قدمه وتركته يسبقني، ولكنه توقف بعد خطوات وراح ينظر إلي .. كنت أريده أن يذهب .. لو لم ينتظر ..

- ماه .. ما معك إبرة؟

ثم استدرك وهو يحملق في السماء ..

- هي ظلمة .. ما بتقدر تبصر.

ووافقت على كلامه بهزة من الرأس.

ومضى هذه المرة أمامي، وكنت أسمعه يتنهد بعمق ويلفظ أحياناً تأوهات شديدة الألم. وهو يحاول أن يطلق لحناً صنعانياً حزيناً.. لكنه سرعان ما يكبت اللحن لتعود الآهات من جديد..

كان طويلاً فيه رجولة القبيلي، كتفان عريضتان .. يخيل إلي أنه يستطيع حمل الجبل كله عليهما .. وقد حمل البندقية كأنها ريشة ناعمة .. وصوت صفعات قدميه القوية على الأرض تجعلها تئن ألماً.

- ليش ما بتتكلم..؟
- ما تشتهي أقول لك.

كانت لا تزال في نفسي بقايا خوف.

ورأيت اهتزاز رأسه وهو يحشو فمه بمزيد من أغصان القات .. ومن وراء السحب كان ضوء القمر يتسلل بخوف .. وسمعت صوته .. كان عميقاً بسيطاً فيه خشونة لهجة الشمال.

- ماه يا خبير كان معك شريعة؟ الله .. بلاكم أنتم يا أهل الحجرية بالشرائع .. كل من معه بقشتين قام يشارع ...ليش ما تقعدوا زي خلق الله بلا دوشه .. ولا وجع دماغ؟

كان وهو يتكلم يهز رأسه كأنه يفكر في مشكلة صعبة واستمر قائلاً:

- ولا عد تفتكروا أن معكم عدالة مه؟ .. الحاكم .. والعامل ما ينصفكم .. العدالة قتلوها .. أكلوها أصحاب القروش، وأنتم يا رعوى هاتوا مئة ريال، هاتوا مئتين ريال، تسكبوها لأصحاب الكروش من غير حساب .. يا خلق الله بطونكم خاوية هكذا ولا لا ..؟

لم استطع أن أجيب عليه .. فالشيء الوحيد الذي لم أكن أتوقعه هو أن يتكلم هذا الرجل عن الظلم والشريعة وأصحاب الكروش .. فالذيتعودناه نحن الرعية هو أن نرى العسكر هم بالدرجة الأولى أدوات هذا الظلم، هم الذين ينفذون أوامر الحكام ولا ينسى اليمني كيف كان هؤلاء العسكر يستبدون بالرعية. لكن العسكري لم ينتظر جوابي بل استمر وهو يعصر أوراق القات في فمه..

- اسمع يا خبير أنت رعوي هانا في القبيطة وأنا رعوي في "حاشد[1]" معي هناك بيت وعائلة، مرة وأولاد ما شاء الله، لكن ما معانا بيس[2] .. ما معنا أرض .. هاناك المشايخ أخذوا الأرض، واحنا

---

[1]) إحدى قبائل اليمن الشهيرة.
[2]) نقود

اصبحنا عساكر تدور على رزق على لقمة .. قالوا .. الحجرية فيها ذهب .. جينا هانا أقسم بالله هانا ما في إلا الطمع والنهب والحسد كل رعوي يشتي ينهب صاحبه .. أخوه .. ناهي معكم " بيس " .. لكن ما معكم أمانة .. ما معكم معروف. ما معكم محبة ... والله لو قبرت في حاشد كان أحلى .. هاناك جنب المره والأولاد .. شاندور على شغل .. شانجوع لكن ما شنشارع يا ناس والله ما كبرت الكروش إلا من بيسكم أنتم يا الرعية.

وسألته وقد بدأت اقترب منه:

- طيب وأنتم العسكر ليش كمان تنهبوا الرعية؟

وتنهد بعمق قائلاً:

- ننهب الرعية؟ ما كل العسكر ينهبوا يا خبير واللي ينهب هانا ما هو أحسن من الحاكم .. أنت يا خبير تعطي الحاكم مئة ريال برضاك وقناعتك والعسكري تعطيه ريال وتقول للعسكر ينهبونا . ما هو كذا؟ العسكري مثلك في حاكم ثاني ينهبه في بلاده بالحق أو بالباطل..

ونظر إلى السماء .. ثم توقف أمامي وأنزل البندقية من على كتفه ونظر إلي:

- قد هو عشاء .. هيا تصلي؟ . تتأمم؟

- لا أحسن تتأمم أنت..

قال وهو يبتسم لي كأننا أصدقاء أعزاء:

- عد تقول أن العسكر يتأمموا بالقوة .. ماه؟ " وضحكنا.

مضينا بعد الصلاة في طريقنا وكان يتحدث عن كل شيء.. عن زوجته التي لم يرها منذ ثلاث سنوات .. عن أطفاله.

- والله يا خبير إنني أشتهي الأولاد يكونوا متعلمين .. ما يكونوا عسكر مثلنا .. من غير علم ، فين المدارس معنا فقيه .. والفقهاء ألعن من الحكام، همهم البيس.. والله وبالله إنهم ما يعرفوا معنى القرآن بس يكذبوا على خلق الله، افسدوا الدنيا يكذبهم.

ومع سيرنا كانت نسمات المساء تهب علينا بحنان وتتماوج أعواد الزرع على الأرض والخبير يتحدث عن حاشد وصنعاء.

وأطلت تحت أقدامنا قريتي وبدون أن أدري كنت أقول له.

المفاليس يا خبير بعيدة والدنيا ليل لازم تبات الليلة عندنا والصبح يفرجها الله.

نظر إلي طويلاً أنا عسكري والعسكر تعرف أن لهم مطالب .. دجاج .. قات .. مداع ..

وأكملت بسرعة:

- وأجرة ماه؟

وضحكنا ونحن ندخل المنزل والعائلة تنظر إلي في حزن وخوف، فالعسكري معي وهذا يعني في نظرهم أن مصيبة قد حدثت.

الأرض يا سلمى

مضت – سلمى – مسرعة لتفتح السواقي في الأرض القريبة من الدار بعد أن بدأت السحب تتجمع في السماء، وحين عادت إلى الدار كانت أبواب السماء قد تفتحت وانسكب المطر، يروي عطش الأرض.

لم يكن لدى سلمى عمل تؤديه في ذلك العصر، فالسماء تمطر وجميع من في المنزل يغطون في نوم عميق. فلم تجد إلا أن تخلو إلى نفسها في غرفتها وأن تتمدد على سريرها مولية وجهها الصغير شطر النافذة المفتوحة على الحقول. ورأت مياه المطر تندفع من السواقي إلى الأرض العطشى، لكن خيال سلمى انطلق بها بعيداً عن الأرض والمطر إلى أشياء لم تكن لتفكر بها، وسمعت صوتاً كأنه همسات رقيقة يقول:

" سلمى – أخيراً ها أنت تواجهين نفسك. يجب أن تقولي الحقيقة، لا تحاولي التهرب من نفسك، فلن ينفعك ذلك يجب أن تقولي أن الانتظار قد طال وأنك لن تستطيعي التحمل أكثر من ذلك، حاولي أن تتذكري منذ كم غاب عنك " درهم " زوجك... من خمس سنوات كاملة يا سلمى؛ وها أنت في السنة السادسة من الانتظار؛ وكم عمرك؟ احسبي دون تعجل: أنت الآن في السادسة والعشرين. نعم لقد بدأت تشعرين بأنك قد كبرت... وبسرعة دون أن تدركي ودون أن تحسي بالحياة وتتمتعي بها ... هل أذكرك يا سلمى أنك قد تزوجت منذ عشر سنوات؟ نعم، عشر سنوات. وذهب زوجك بعد أن تركه في أحشائك، دون أن يعلم، لم تخبريه كعادة الكثيرات في القرية، وظننت أنه لن يغيب كثيراً.

ولكنه غاب أكثر من المرات السابقة.

مهلاً يا سلمى لا تجعلينا نسابق الأحداث.. لم لا نبدأ من البداية، منذ أن ولدت، أعني منذ أن تزوجت. ألست على حق؟

نعم إن ذلك ظاهر على وجهك .. لقد كنت صغيرة عندها، في السادسة عشرة من عمرك تعيشين في بيت والدك. وذات يوم سمعت همسات كثيرة. ونظرات مصوبة نحوك. وأحسست بما يدور حولك وشعرت بالسعادة ككل طفلة تفرح بعرسها – ولم تظهري فرحك ذلك للناس حتى لا تلوك الألسنة سيرتك ولكنك أبديتها لي .. أنا .. كنت أعرف كل شيء – لقد كنت سعيدة لأنك ستتزوجين " درهم "، وحين أقبلت عمتك وغطت وجهك " بالمقرمة " قائلة: " ثبت زواجك على درهم قاسم " أبديت مقاومة شديدة، وجعلت تقذفين بالشتائم كل من حولك ولكنك في أعماقك كنت فرحة، وسالت الدموع .. دموع الفرح في عينيك، وظن الذين حولك أن تبكين حزناً على فراق والدك.. ومنزله ..

وعندما أتى أهل زوجك لنقلك إلى دارك الجديدة كنت تسرعين في الخطو، لتصلي بسرعة. ونبهك الذين حولك، وشعرت بالخجل إذ خفت أن يكتشف الآخرون سر تلهفك وسرعتك.

ولكن يا سلمى. أكنت تحبين درهم حقاً؟

كلا – لا أظن!!

إذن ما سر سعادتك تلك؟

ألأنك طفلة؟ أم ظننت أنك ستتخلصين من بيت والدك؟ من تلك الأعمال الشاقة التي كنت تقومين بها هناك؟، كنت تظنين أنك ستجدين الراحة والهدوء في منزل زوجك، فهل تحقق ذلك؟

لنر يا سلمى حياتك الجديدة في منزل زوجك، فبعد الأيام السبعة الأولى.. أيام العرس.. بدأت عملك كزوجة تخدم زوجها وأهله..

كنت تستيقظين من نومك مع أذان الفجر، فتحلبين البقرة ثم تذهبين إلى البئر بعد أن تضعي أمام البقرة بعض الحشائش وبعد أن تمتلئ جرتك بالماء تعودين لإعداد الفطور لزوجك، وعند اقتراب الظهر تذهبين إلى الحقول لتعملي مع والد زوجك في

الحرث والبذر والتنقية لتعودي منهوكة القوى لتعدي وجبة الغداء – تطحنين الحبوب ثم تعجنيها كي تطعمي زوجك.

وبعد الغداء يذهب لمضغ القات في حين أنك لم تتناولي غداءك، وهو غالباً ما يكون كإفطارك: قليلاً من الخبز مع رشفات من – القشر – أو عصيدة مع لبن.

ويأتي عمل ما بعد الظهر .. غسيل الملابس .. الذهاب إلى الجبل للبحث عن حطب للوقود .. الذهاب إلى البئر مع غروب الشمس لتأتي بماء المساء والتقاط بعض الحشائش للبقرة، وبعدها تعدين العشاء وتقدمينه لزوجك الذي يعود من المسجد بعد أداء الصلاة.

وأنت كم مرة نسيت الصلاة وأنت ترتمين متعبة قرب منتصف الليل، لتعودي مع أذان الفجر إلى العمل .. إلى الإرهاق..

هذه هي حياتك كل يوم، هل فيها شيء جديد؟

إنها نفس الحياة التي كنت تعيشينها في منزل والدك لم يتغير إلا صاحب العمل .. كان في السابق والدك، أما الآن فزوجك. عشت معه أياماً، تركك بعدها إلى المدينة لكي يعمل ولم تحاولي منعه، بل أنك دفعته للسفر، لأنك تريدين أن يعود إليك ومعه قمصان حرير جديدة .. أدوات نسائية كتلك التي يعود بها أزواج صديقاتك.

ولم يخيب زوجك أملك، عاد إليك بما كنت تحلمين بعد أن غاب عنك سنتين.

لم تتغير حياتك، أثناء وجوده أو في أثناء غيابه: ففي كلا الحالتين كنت تعملين بصمت من أجل أهله ومن أجل الأرض. يا سلمى عاد زوجك إلى المدينة، وغاب سنتين، ثم عاد مرة أخرى ليتركك بعدها وفي أحشائك طفلك الأول، وانتظرت عودته إليك وإلى طفله ليراه، ومضى عام.. وآخر، فخمسة ولم يعد. إنه ما زال حياً هناك بعيداً في البحر.. البحر الكبير الذي يقولون إنه

بلا نهاية. بحر كبير في أحضان بحر آخر أكبر يخوضه زوجك كل يوم.

وما أدراك يا سلمى أنه وحيد؟ لا تجعلي وجهك يصفر ولا ترتجفي. فكل شيء ليس سوى افتراض. فهو قد يكون وحيداً وقد لا يكون، فالرجال لا أحد يثق بهم.. خاصة حين يكونون بعيداً، لا تراهم عيوننا. فلم لا يكون زوجك أحدهم؟ أنت تعرفين قصة عمك - زيد - الذي ترك زوجته منذ عشرين عاماً .. ولم يعد . إنه حي وله زوجة وأولاد يقولون إنه لن يعود وزوجته لا تزال تنتظر هنا.

فلم لا يكون زوجك مثل عمك؟ نعم لماذا لا يخونك؟ إنه بشر .. ورجل .. وهم دائماً ضعفاء كما يدعون . قلت لك لا ترتجفي. ولا تدعي الشكوك تساورك فكل شيء افتراض، فالحقيقة مجهولة، هناك وراء البحر مع زوجك. ثم لا تحاولي أن تفكري أن تفعلي مثله.. أن تخونيه. إنك لن تستطيعي، فهنا في القرية كل همسة يسمعها جميع الناس. ألم تلاحظي مثلاً في هذين اليومين الأخيرين أن الجميع يلاحقونك بالنظرات المليئة بالشك؟ ألم تلاحظي ذلك؟ لماذا يقذفونك بنظراتهم الصامتة تلك؟ إنك ذكية سلمى وقد عرفت..

أنك تتجملين .. نعم تتجملين، فهم لم يرونك تتجملين منذ سافر زوجك قبل خمس سنوات .. ولا تحاولي أن تقولي أنك شعرت بكبر سنك فحاولت أن تبدي صغيرة. كلا فتلك طريقة غير محببة.

فالحقيقة يا سلمى أن تتجملين من أجل. من أجل " حسان " لا .. لا .. لا تجعلي قلبك يدق بهذه الشدة ولا تدعي الدعاء يحمر وجنتيك، فهما سيكشفان سرك، أرأيت أنك مغرمة به؟

ليس عيباً أن يحب المرء من شاء .. ولكن العيب في أن يخون .. فأنت تخونين زوجك بحبك لآخر .. نعم .. إن الأمر جد خطير .. فالمرأة

هنا ليس لها الحق بأن تحب من تشاء ولا أن تتمتع بشبابها فهي مجرد خادمة، يتزوجها الرجل لتخدم أهله.. ويتركها ويمضي بعيداً جداً .. ولا يعود .. وليس من حقها أن تطالب بالطلاق.. فالطلاق مكروه .. لا تضعي يديك فوق صدرك.. فالطلاق ليس مكروهاً ما دمت ستتمتعين بحياتك التي سرقها زوجك .. لكنك .. لن تحصلي عليه .. خاصة بعد أن مات والدك وليس لك من أحد يدافع عنك .. فأنت الآن خادمة، لأهل زوجك، لوالده، لابنه، لأرضه.. إنك لن تجني أية فائدة بحبك " لحسان " إنه شاب طيب تتمناه كل فتاة .. ولكنك لست فتاة – إنك امرأة لك طفل .. وزوج .. ثم هل تظنين أن أيام الطفولة حين كنت تلعبين معه في الجبل ويتخذك دائماً زوجته وأنتم تلعبون لعبة " الزوج والزوجة " تلك الأيام قد ولت .. وأصبحت أنت اليوم كبيرة – خمس سنوات من الانتظار الطويل صعبة يا سلمى ولكن ما هو الحل؟

أن تطلبي الطلاق؟ وطفلك أين سيذهب؟

ثم من الذي سيتخذك زوجة له؟

أنت تعرفين تماماً أن الكثيرات بقين بدون زواج بعد طلاقهن وأن شبان القرية يبحثون فقط عن الفتيات . وأرضك يا سلمى . نعم أرضك هذه التي بذلت فيها حياتك. . شبابك .. دمك .. أرضك التي تسكبين عليها طوال الأعوام عرقك. كيف تدعين أرضك هذه ولمن؟

أنك تفكرين يا سلمى .. وهذا شيء طيب – أنت تعرفين أن لا أحد سواك يعرف قيمة هذه الأرض .. فزوجك إن عاد لن يهتم بالأرض .. وابنك عندما يكبر لن تهمه هو أيضاً – سيتركها كما فعل والده ويذهب هناك بعيداً مثل الآخرين.

أرضك يا سلمى ذرفت عليها الدم والجهد ومنها تأكلين طوال الأعوام. ومنها يأكل ابنك ويترعرع فوق ثراها. حتى زوجك حين يعود يأكل منها وأنت .. أنت من يخرج خيرات هذه الأرض.

منها حبوبك وحشائش ماشيتك - ولبنك وسمنك.. وكل شيء في هذه القرية .. من الأرض. أليست الأرض حياتك! .. وحياة ابنك الذي سيعرف عندما يكبر مدى الجهد الذي بذلته؟
أما " حسان " فهو كزوجك تماماً لن يعيش في القرية إلى الأبد .. سيغادرها غداً بعد أن يكون قد ترك امرأة وراءه تخدم أهله وتحرث الأرض وإن كنت أنت هذه المرأة. فما الفرق بين حياتك هنا وحياتك في بيته؟ لا فرق يا سلمى لا فرق.
وغاب الصوت وسلمى تنظر حواليها في ذهول ومياه الأمطار تتساقط في نغمات حالمة على الأرض فتنساب جداول إلى مدرجات الزراعة وتعانق جذور الزرع الأصفر وتهبه الحياة..
وفتح باب الغرفة .. دخل ابنها الصغير وارتمى في أحضانها وسلمى تهتف بداخلها – سأعلمه كيف يحب الأرض .. بينما كانت المياه تغوص في أعماق الأرض.

١٩٥٨

موت إنسان

كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة صباحاً، وكنت أسير وحيداً إلى " المعشار"١" " لعلي أجد هنالك شخصاً ما أقضي معه ساعة من الزمن حتى يصل القات.

كان عمي قد ذهب لإصلاح ما أحدثته الأمطار من خرائب في أرضنا وصحب معه بعض العمال وترك خلفي أكثر من شخص يطالبونني بإرسال قات لهم.

الطاحون هو الشيء الوحيد الصاخب في جو القرية التي كانت هامدة ككل أيام السنة، وكانت قصبته التي ترسل القليل من الدخان رابطتي الوحيدة بعدن حيث أعمل في مصافي البترول، وكم كنت اشتاق للقرية حين أكون بعيداً عنها، ولكني سرعان ما أمل حياتي الرتيبة التي تتكرر يومياً وبدون هدف، حياة كلها سأم: مجرد أكل وشرب، ومضغ قات، ونوم هكذا يومياً ! لا تغير هناك حتى ولو كانت قريتنا الصغيرة- التي يتبارى ساكنوها بإبداع كل أنواع الجمال لتحسين بيوتهم - مليئة بالشباب الذين كانوا يقضون أيام عطلهم في القرية في أحضان نسائهم.

ونادراً ما نلتقي، إذ كان " المعشار" مجمعنا الصغير حيث نبقى هناك في انتظار وصول بائعي القات، ولكن لا يكاد صوت المؤذن يرتفع ظهراً حتى تكون القرية فارغة من جديد، الجميع في منازلهم يستعدون لمضغ القات والهموم والضجر.

- أيه .. أيه .. إلى أين أنت ذاهب؟

كان صاحب الطاحون ينفض عن غبار الدقيق العالق بكل ملابسه ووجهه .. واستمر قائلاً دون أن أجيبه:

- يقولون " ابن الحاج " مريض جداً .. ما الذي يمكن عمله الآن؟ لا حول ولا قوة إلا بالله ..

- مسكين " قلتها ببلاهة.

ولم أتم كلامي حتى كان قد غاب داخل الطاحون وسمعت صوته يرتفع وكان هناك أصوات نسائية أخرى، واستمرت قدماي في سيرهما نحو ملتقى القات.

كان " ابن الحاج " قد أصيب بالشلل منذ أكثر من عام، ولكن المرض عاوده بشدة منذ يومين إذ انتقل الشلل من الجانب الآخر وأصبح المرض يهدد قلبه بالتوقف.

- عبدالرحمن .. عبدالرحمن انتظرني قليلاً سنسير معاً. كان ذلك صوت شاهر نعمان.

- هيا يا أبنائي؛ يا لكم من عفاريت، دائماً ورائي.

إنها كالعادة مشغول بأولاد ابنه .. دائماً يحملهم معه على كتفه أو يسوقهم كالغنم أمامه أينما سار.

كان قد تعدى السبعين من عمره، ولكنه كان يملك قوة شباب، وكثيراً ما تحدى الذين يدعونه " بالعجوز " وسمي لذلك " بعنترة ".

- أين كنت منذ الصباح؟

قال وهو يتابع أطفاله بقلق:

- لقد استيقظت منذ قليل.

أجبته دون أن التفت إليه وقد وضعت عمامتي الصغيرة البيضاء على رأسي اتقي بها لسعات الشمس الحارة.

- هل أنت في طريقك إلى المريض؟

- لا...

كان أطفاله قد سبقوه، وبدأ يسير بجاني بخطواته المشدودة وقال:

- لماذا؟

ولم أجب . لم أر المريض منذ بدأ يمرض، حتى أنني حاولت زيارته غير مرة ولكني عدت من باب المنزل لأن المرض يخيفني وأكره شيء عندي هو زيارة مريض.

- اسمع يا عبدالرحمن: هل انتقل المرض حقاً إلى جانبه الأيسر، وهل صحيح أنه لا يستطيع الحراك؟

نظرت إليه دون معنى، كنت أعرف أن المرض قد استفحل ودون انتظار رد مني قال:

- لكنه كان بالأمس يستطيع التحرك؟

واستمر يقول بعد أن حمل أحد أطفاله على كتفه:

- قبل يومين كنا معاً وكان حكماً بين الحاج إسماعيل وصهره، وكان يضحك وصحته طيبة. كان قد بدأ يتغلب على المرض.

وأضاف بعد أن تنهد بضجر:

- يا إلهي هذه قرية ملعونة، إذا مرض فيها إنسان لا يجد إلا الموت في انتظاره، أوه أما المدينة ففيها كل شيء: دكاترة ومستشفيات وعناية بالإنسان .. و ...

كنا قد وصلنا قرب شجرة " الاثاب " التي تظلل الطريق وحيث نلتقي ببائعي القات، وأمامنا كانت تنتصب دار المريض، وكانت فتاة صغيرة تجري متجهة نحونا، وعلى سقف الدار كان شخص ما يقف هناك، وتوقف شاهر عن الحديث وهو ينظر إلى الدار وقال:

- اسكتوا يا أولاد! دعونا نسمع ما الذي يقوله ....

والتفت نحوي قائلاً:

- هل تسمع شيئاً ؟ اسكتوا يا أطفال.

وصاح بأعلى صوته:

وأتى صوت الرجل الواقف هناك تتقاذفه الرياح بطيئاً ... متقطعاً ... فيه رنة بكاء:

- يا جماعة .. الراجل .. توفى ..

- صدق!! ؟ قالها شاهر بسرعة.

وأتى الصوت من جديد.

- يا جماعة .. الراجل .. توفى.

كان الصوت يبكى وهو يعيد ما قاله.

ووقفت مشدوداً إلى الأرض كان آلافاً من الأطنان قد انهالت علي فجأة.
ضربة جعلتني التصق بالأرض.
- توفي .. مات ..
لم أكن أعرف ما أعمله .. فقط .. كنت ارتجف.
- يا الله يا أولاد إلى المنزل .. لا حول ولا قوة إلا بالله.
كان شاهر يقود أولاده وهو مشدوه تماماً، ينظر إلي ويردد كلاماً لم أسمعه، لعله كان يقرأ شيئاً من القرآن.
سأعيد الأطفال إلى المنزل وسأ ...
نظرت إليه بعينيين مفتوحتين، وفي داخلي آلاف الأفكار تعذبني، وقلت:
- ها .. ما العمل ؟ ما الذي سنعمله الآن؟.
لم يجب، واستمر في تحريك شفتيه، وكان الأطفال يسيرون أمامه وقد جواهم صمت غريب كأنهم شعروا بأن شيئاً غريباً قد حدث. ومضى شاهر بعيداً.
كنت محتاراً، لا أعرف إلى أين أتجه، هل أذهب إلى حيث يوجد الميت، أم أعود؟ ومرت الفتاة الصغيرة، وكانت تجري ناحية الطاحون، وسمعت صوت شاهر يقول:
- كيف عمك يا بنت؟
اجابته وهي منطلقة .. شبه مشدوهة:
- يقولون .. نعم .. مات !!
بقيت وحيداً في الطريق، أمامي دار الميت، وخلفي طريقان إلى الطاحون والمنزل، وطريق إلى المقبرة، ومع التفاتي لكي أعود إلى المنزل كانت أمامي من بعيد تبدو مشاهد القبور، لست أدري أية قوة جعلتني أرتجف.
كانت القبور تكبر والمشاهد تتحرك، الموت شيء رهيب. وفي لحظة خاطفة شعرت بطعم غريب في فمي، وأحسست بالخوف: وأنا هل

سأموت أيضاً يوماً ما؟ وكيف؟ ما أبشع أن يموت الإنسان، أن تتوقف فيه الحياة.

وأسرعت إلى الطاحون، أريد أن تختفي المقبرة من أمامي؛ ورأيت الطاحون يرسل نفثات كبيرة من الدخان ويصوت مرتفع كأنه يلفظ أنفاسه وكانت حلقات الدخان ترتفع عاليا، سوداء ثم تغيب في الفضاء، هل هكذا ترتفع روح الإنسان؟ كان الطاحون قد توقف عن العمل .. عن الحياة..

وسمعت صاحب الطاحون يقول وهو ينفض غبار الدقيق من كل مكان في جسده:

- متى .. ها .. لا حول ولا قوة إلا بالله!

وكانت الفتاة الصغيرة واقفة أمامه تنظر إليه باستغراب وترقب منظرة أن يعمل شيئاً .. أن يصيح مثلاً كما فعلت أمها .. أن يضرب رأسه في أي شيء، أن يبكي، أن يرتمي على الأرض ألم يخبروها أن تقول له " أن عمي .. نعم .. مات " كل ما رأيته هما شفتاه تتحركان ولا شيء آخر.

- أذهبي .. سألحق بك بعد قليل.

❖ ❖ ❖

كان عدد قليل من الناس لا يتجاوزون عدد أصابع اليد فوق سطح منزل المتوفي، كان البعض يخيطون الكفن حين أطليت عليهم ولم أكن أعرف ماذا أعمل، هل أجلس، أم أشاركهم في الخياطة، لكني سرعان ما اخترت ركناً ورحت أنظر إلى القرية التي كانت لا تزال صامتة، كأن شيئاً لم يحدث وكأن لم يمت فيها إنسان منذ أقل من ساعة.

أين الفقيه يا جماعة؟

التفت لأرى من تكلم، كان الجميع مشغولين بعملهم، ربما كان أحدهم يريد أن يسألني.. فأجبت:

- لم أره منذ أمس.

قال صاحب الطاحون بسرعة:

- ذهب اليوم إلى الجبل لإصلاح الأرض هناك.
- لماذا لم يبق ما دام يعرف بأن الرجل مريض؟

قلتها دون أن انتظر الرد لأني عدت إلى النظر في القرية من جديد لعلني ألمح أحدهم قادماً أو لألعن هذه الحياة القذرة التي تجعل الناس لا مبالين، حتى حين يغادر هذه الحياة إنسان فإنهم لا يودعونه إلا بعد إلحاح، وإلا أين ذهب كل سكان القرية؟

وسمعت صوت أحدهم يقول:

- لقد حضر الفقيه إلى هنا في الصباح وقد رأى الرجل في حالة خطيرة ولكنه بالرغم من ذلك لم يبال وذهب وراء أرضه.
- الطمع يا شيخ .. الدنيا طمع ..

قالها أحدهم وعاد إلى الإبرة والثوب الأبيض الذي سيكون اللباس الأخير لرجل مات منذ ساعة.

- من يتطوع إذن لإحضار الفقيه؟

قلتها وانا واقف استعداداً للبحث عنه وهروباً من ذلك الجو القاتم الذي يخيم على المنزل.

لقد أرسلنا " علي " للبحث عنه.

- أين؟
- هناك، خلف الاكمة.
- أوه لن يصل إلا وقد دفنا الرجل.

قلتها وعدت إلى مجلسي، ودخل " الصوفي " في تلك اللحظة واتجه ناحيتي وجلس.

- هل وصلت الآن فقط؟
- لا .. لقد حضرت الصباح وقلت للجماعة بأن الرجل يحتضر، إذ أن المرض قد أنهكه.. لا حول ولا قوة إلا بالله .. إنا لله وإنا إليه راجعون.

والتفت إلى الحاضرين وقال:

- أين ذهب الناس؟

اجبته وأنا أشير إلى القرية والأرض.

- هناك .. لديهم أعمال.

قال بعد أن تنهد:

- أيه .. لم يعد الناس للناس، زمان يا ابني كانوا يقولون فلان مريض فتجد كل الناس يتسابقون لزيارته ومساعدته .. دنيا .. آخر الزمان لا حول ولا قوة ..

أنهى كلامه بهزة من رأسه فيها كل اليأس والأسى.

سألته قائلاً:

- هل رايت الميت الآن؟

- لا .. لا أستطيع أن أرى ميتاً..

- كيف وإنت " صوفي " تداوي الناس؟

ابتسم قائلاً:

- أنا أداويهم ولا أميتهم، المريض سأراه وأعالجه، أما الميت ...

وهز رأسه مرات...

وسمعنا صوتاً يقول:

- ياجماعة ... من سيغسل الميت؟

- الفقيه حين يحضر...

- لن يأتي الآن، وقد يتأخر كثيراً.

وأشار الرجل إلى الصوفي وقال:

- أنت يا صوفي وأنا سأساعدك.

هز " الصوفي " رجله بشدة قائلاً:

- لا .. لا .. لم أغسل ميتاً في حياتي.

- إذن أي واحد منا يا ناس، سيتجمد الرجل تحت.

وبدأ نقاش طويل، ولم يتفقوا على رأي.

وقال أحدهم:

- والجنازة، أين المحمل؟

ورد آخر:
هناك في المسجد.
وصاح بجماعة كانت قرب المسجد لإحضار المحمل.
مرت أكثر من ساعة ولم يصل إلى حل، والنساء يرفضن أن يغسل ميتهم إلا الفقيه .. والفقيه لا أثر له ..
كان الكفن قد أعد. والقبر قد حفر، والمحمل بالباب: كل شيء جاهز .. إلا الفقيه..
يا ناس، دعوا أحدكم يذهب وراء الفقيه ..
- لقد ذهب " علي " منذ زمن
- هناك شخص تحت الجبل.
وانطلق صوت قوي من جانبي يسأل عن الفقيه كان لا يزال في الطريق .. إنه في الطريق.
وتغامز بعض الناس حين رأوا بائعي القات من السقف وقال أحدهم:
- اعوذ بالله، ألا يستطيعون الصبر قليلاً؟ الدنيا شغلتهم، يا رب تنجينا.
ثم التفت إلى رجل رآه يتحرك لترك المنزل نحو القات وقال له:
- خذ ريال وخذ لي معك قات أيضاً ...
وابتسمت وأنا أترك المنزل للآخرين.
وغاب الرجل تحت الأرض، وكانت كلمات المسيح ترن في أذني طوال الطريق..
" فليدفن الموتى موتاهم " .
وكنت يائساً، بالأمس كان هناك إنسان معنا، بل إنه كان منذ ساعات يعيش ويتألم، وها هو ذا قد انتهى. ما الذي خلف على هذه الأرض من ذكرى. إنني متأكد أنه سينمحي من أذهان الناس بعد أيام.. بل أنه قد انتهى قبل أن يدفن .. انتهى والناس يبتاعون القات، انتهى وكل واحد يتعجل الدفن ليذهب إلى منزله. انتهى

قبل أن تقوم تلك المناقشة فوق قبره حين قال عمه يرد على الفقيه الذي طالب بإقامة " ليلة ذكر " للميت وأن تذبح الغنمة الوحيدة التي يملكها .. حين قال: " الأيتام أحق بها .. الأيتام أحق بها .."

لـون المطـر

- هل أنت خائف؟
- لا، إنني ارتجف .. ربما ذلك من البرد .. أو ...

وصمت قليلاً وراح يحملق في الفضاء أمامه، وعادت عيناه بعد أن اصطدمتا بقمم الجبال السوداء التي تحتضن الوادي العميق، النائم في صمت خرافي، صمت خاله أبدياً، حتى وهو يردد صدى طلقات نارية بعيدة.

- أنت جائع ..؟
- ربما، أنني لم أذق طعم أكل حقيقي منذ أيام بعيدة.
- والخبز ...؟
- لقد مللت منه ...
- أيه .. أنك مغفل، أتعرف .. أنني أتذوق له طعماً رائعاً؟ لقد مللت ما تسمونه أكلاً حقيقياً. عشرون عاماً، ذقت فيها كل شيء، من الثعابين الصينية حتى شربة الضفادع الفرنسية و...
- هل ستبدأ في قصة ذلك من جديد..؟
- ولم .. لا، قد يمضي الليل سريعاً، فلا نشعر بالسأم..

أو الخوف..

- أو الجوع .. أليس كذلك..؟
- ربما..

ودوت طلقة من بعيد رددها الأخدود، فارتجف.

- ألم أقل لك أنك خائف...
- أرجوك، أنني أشعر بالبرد فقط.
- أنظر: ألا تشعر بشيء جديد في هذه الليلة؟
- ما هو؟ قاله بصوت خائف...
- لقد أمطرت السماء في النهار.
- إذن؟

- ألا تشعر بلون المطر الذي غسل كل شيء.. حتى لون القمر...
وأشار بيده إلى القمر.
- الأفضل أن تترك يدك على زناد بندقيتك ...
- أوه ... ألا تنظر ما أروع كل شيء ..؟ هل تخيلت عمرك منظراً ساحراً كهذا.. القمر يرسل ضوءه كشلال المطر الذي تساقط نهاراً، حتى النجوم تشبه انطلاقه القطران من السحب. أن للمطر لوناً لا تشعر به، إلا عندما توده، وتود تلك الأحياء التي يتساقط فيها، لم أكن أتأثر بالقمر أو بالمطر وأنا في الباخرة، كان ذلك يذكرني بالقرية، أنت لا تعرف معنى البحر أن تقضي فيه أعواماً، تشويك الشمس، ويلتهمك المساء بصمته، كنت مستعداً لدفع حياتي ثمناً لمنظر كهذا، ألا تلاحظ قمم الجبال المقابلة؟ أنها واضحة كل الوضوح، بكل تفاصيلها. أنظر هنالك، سأدفع حياتي ثمناً لهذا، يا إلهي، كنت أظنها مجرد مغامرة، أن أحمل السلاح وأمضي وأنشد أناشيد الثورة، كتلك التي كنت أسمعها من عمال الموانئ في فرنسا، عن الثورة ونابليون والمارسيلييز، ولكن هل رأوا شيئاً رائعاً كهذا؟ إن القمر يكشف لك كل شيء ، نعم، كل شيء...
و..ضغط على زناد بندقيته، وردد الجبل الصدى، وارتجف الجسد الممدد بجانبه.
- مالك.. هل جننت؟
- لا.. لا شيء، القمر رائع، لقد هوى، ألم تلاحظ شيئاً؟ لذلك أنا أعبد القمر، الضوء الخافت، أنه لا يعطيك كل الصورة، الظلال تكفي، لا ترتجف هكذا يا عزيزي، أنت لم تتعود البرد في – عدن – ، هناك الشمس مضيئة دائماً، ولكنها تثير الضيق أحياناً، أنت لم تر جبال الثلج عشرين عاماً عملت فيها ملاحاً، ورأيت كل البحار، وسمعت كل الحكايات، إلا أن أكون جندياً في صفوف الثورة، تلك آخر أسطورة كنت أتصور حدوثها، ولكنها حدثت.

- اسمع يا عزيزي، لقد سمعت ذلك للمرة العشرين، ولكن لأول مرة تثبت لي بأنك رام جيد، لعله يتألم هناك، أو- لعله قد مات. لم الاحظ أي شيء، لم أره إلا بعد أن هوى.

وصمت قليلا، ثم قال:

- ولكنك كنت تعيد علي كل ذلك من جديد، والقمر هو القمر، الذي يوجد في كل ليلة والنجم والأمطار. لا شيء إلا أنني غرقت في الأوحال وأنا أطارد ذلك الأرنب اللعين ظهر اليوم، لقد كنت ارسم في مخيلتي مائدة لذيذة لأرنب مشوي، ولكني لم أجد سوى الخبز اليابس!

وهبت رياح باردة كان لها صرير وهي تعبر شقوق الأخدود، وردد الجبل صدى إنسان يصرخ.. لم يجب عليه أحد، فمات الصدى، وهوى إنسان في القاع، وارتطم حجر في الوادي العميق.

- اسمع، اسمع... هل تحس بشيء؟

كان صوته خائفا، وشد بقوة على البندقية.

- لا تخف، انه صوت هدير المياه، انه السيل القادم من الشمال، كانت الغيوم تغطي كل المنطقة منذ الصباح، هذه المياه القادمة بصخب هي حصيلة الأمطار التي هطلت، ألا تشعر بصوتها العذب؟ يخيل إلي كأنه هدير جنود يزحفون إلى الهدف، دونما خوف، يمزقون الصمت والجبن، لقد تناسوا كل شيء، حتى وجودهم، أنهم يندفعون، كل واحد يتشجع لأن آخرين بجانبه، لو كان وحيدا.. لفر.. ولكنهم جموع. أتدري، أنهم أكثر من شخص واحد، استمع ارتطامهم بالجبال؟ وحتى تساقط الأشجار لا تهمهم، أنهم يندفعون، كل واحد يشجع الآخرين، دونما خوف، دونما خوف.

وكان السيل قد بلغ الوادي، كانوا ممتدين على قمة الجبل وكان الماء يندفع بشدة وقد حمل أمامه أشياء كثيرة لم يلاحظوا منها شيئا، والماء يرتفع ويرتفع، حتى ظنوا بأنه سيلتهمهم. وضمهم

صمت عميق والماء يمضي من تحتهم بعيداً، كثعبان أسطوري خرج فجأة من أعماق الجبال بعد سجن دام قروناً، وراح يحطم كل شيء..

- ونحن أيضاً مثله، لا ندري ما يلتهم أمامنا، ولكننا نمضي بعنف، ولكوننا مجموعة فنحن لا نشعر بالخوف، لا يهمنا. ثم نرتطم، إنها البداية، والبداية عنيفة دونما حدود، كل شيء مباح وقانوني.. ما دمنا في النهاية سنسقي حقولاً، وما دمنا نعطي الصحراء لون اخضرار رائع، بساطاً من السعادة، أن اندفاعنا لن يستمر طويلاً، سنهدأ بعد قليل، ولكنا سنعطي الأرض لوناً آخر،! حياة أخرى.

وساد صمت. وكان القمر حنوناً. والسيل قد مضى بعيداً.

- وماذا عنها؟ هل كتبت لها شيئاً؟

- مزقت كل شيء.. مع من سأرسل رسائلي؟ عدن.. إنها بعيدة الآن .. ما كان أغباني! قلت لها أنني سأكتب لها دائماً لعلها تعتبرني الآن بطلاً، وتنتظر مني أن أحكي لها أساطير عن بطولاتي، أنها لن تصدق بأنني أرتجف عند سماع طلق ناري، وكأن الرصاص ينغرس في أعماقي، أنت أكبر مني، لقد رأيت عوالم فسيحة، ولعلك تسخر مني الآن.. أما أنا وضحك بحزن: أنا مجرد طفل .. لا يجيد سوى الحساب والكتابة و.. التحدث عن الوطنية بحماس أجوف .. الشيء الكبير في حياتي هو أنني هنا. كنت مستعجلاً في قراري هذا، لو فكرت قليلاً فقط، لما كنت هنا

– إنه الحماس، أنا الذي تحدث في الوطنية حتى مل الناس منه، وها هي ذي الثورة، كيف أقف بعيداً عنها؟ كثيرون قالوا لي تطوع، تطوع وتطوعت، لم يمض على زواجي سوى أشهر، لم أفكر فيها، قال لي والدها، لا تخف، .. أنا هنا، .. وقال الأصدقاء، نحن هنا .. وها أنذا، ستخجل مني لو قلت لها ما هي الحرب، وما هو

الخوف ... أقول لنفسي، أنني أخاف من أجلها. ولكني كاذب. إن طعم الحياة أشعر به هنا على لساني.. عند كل طلقة رصاص. ودوي طلق ناري، وارتجف، وجف ريقه..

- لقد هوى، إنهم ملاعين، يعرفون أن القمر يكشف القمم فيتسلقون الصخور، ويبحثون عن فجوات، ولكنه هوى، هل تشعر بشيء؟

- لا، لا.. أنني خائف حتى الموت..

- لا، لا تقل ذلك، استمر في حديثك، كأن شيئاً لم يحدث..

- أنت شخص آخر، قاتلت اليوم، وقاتلت من قبل، وربما أكثر من مرة.

ضحك البحار قائلاً: - ومع أكثر من جهة، وبدون مبرر. أما اليوم، فأنا أحارب من أجل شيء.. ربما كان ذلك هو لون المطر، في بلادنا، في بلادنا. من قبل حاربت مع الإيطاليين، ثم عدت فحاربت مع الإنجليز، ثم عملت مهرباً للأسلحة، ولكني لم أشعر بأي لذة، لم تكن الجبال، ولا القمر أو النجوم حتى ولا لون المطر في بلاد الناس تثيرني، كنت أحلم بهذا، هذا الهراء البارد، هذه القمم العارية، هؤلاء السخفاء المتسللين، صائدي الذهب والسلاح، والغباء، والحالمين بعيد الثورة، حلمت بكل هؤلاء، ولم أعرف بأنني، وتحت هذه الأمطار، أمطار بلادي، سأكون أنا صائداً، أيه يا بني.. عرفت أرصفة موانئ الدنيا كلها، نمت على حصاها، تشردت في أزقة مارسيليا، وكنت جائعاً، عملت أياماً وليالي، في مخازن الفحم، وعند لهيب الأفران، وتحت سماء مثلجة، عرفت معنى أن تحارب حرباً ليست هي حربك، صعب أن ترى وجوهاً جائعة، و.. الآن .. ألا تريدني أن أصرخ فرحاً هنا: " لكم أنا سعيد . لكم أنا سعيد؟! "آه .. سأقص كل هذا، لكل الناس وفي كل مكان، آه لكم كنت أخجل أن أقول لهم من أين أنا، أما الآن، فلن أخجل مطلقاً، بل سأقص عليهم قصتك، ابن – عدن – النائم شبه عار وجائع،

فوق قمم الجبال، في برد لم يعرف طعمه، يتغذى بالخبز وحده، ويحلم بأرنب مشوي، ويكتب رسائل خيالية لامرأة أكثر خيالاً.

- أنني لا أكذب..

- لم أقل لك ذلك، كل شيء هنا واقعي حتى أصبحت الواقعية لا تصدق! عيناهما تبحث عن شيء أمامهما، شيء غير الصمت، أو لون المطر، شيء كانا يحسان بدبيب أقدامه يتقدم كنصل حاد يزرع الموت. وكان الوادي من تحتهما يمضي بعيداً وقد فقد قوته الأسطورية، كان هادئاً، يمضي إلى الجنوب، لا أحد فيهم يعرف من أين يبتدئ ولا أين ينتهي، وإن كانوا يعرفون تماماً ما يريد أن يعطيه، ويعرفون الأرض التي تحتضنه وتقبله...

كان الدبيب يقترب، ويقترب، وكان لون القمر يصفر..

- كان ذلك في ميناء، كنت أيامها شاباً، في يدي وريقات خضراء وحمراء، وفي أعماقي تتفجر رجولة، لم أكن قد بعت ذراعي لأحد، كنت أعمل بشرف، بعرقي وجهدي، وكنت فرحاً لأني خلفت من ورائي اليمن، لأرى عالماً جديداً، كله أضواء وصراخ وأناس، أقل ما تصورته أنهم من نوع الملائكة. في تلك الليلة، وفي ذلك الميناء، فقدت رجولتي في أحضان أول امرأة صادفتها، كانت عندها طفلة، أعطيتها بكرم كل أوراقي، وأخذت منها أكثر من رجولتي، قالت لي أشياء كثيرة، ولكني لم أفهم منها شيئاً، كنت محموماً. لقد قضيت على الباخرة ستة أشهر، هل تعرف معنى الغربة؟ لم أكن أعرفها، ولكني لقيتها على سرير تلك المرأة في تلك الليلة، قبلاتها كانت كاذبة، لم أشعر بذلك إلا في البحر، عندما استعدت ذاكرتي، وعرفت أنني أبله، ولكني لم أنس تلك الميناء، ظللت أرسل رسائلي إليها دون أن أعرف حتى عنوانها، مجرد اسم الميناء، كان ذلك يكفي لأن أحبها. لقد نسيت حتى أسمها، وعدت إليها عدة مرات، ولكنها لم تكن هناك، لأنني عدت إليها بعد ثلاث سنوات، ذلك هو الشيء الوحيد الذي سميته حباً. أعرف

الآن أنها خدعتني، أخذت كل شيء، كل شيء، ولكنها تركت في فمي مرارة الغربة. لقد زرعت هذه المرارة، نعم زرعتها .. أنت يا عزيزي تملك بيتاً، وحباً وأصدقاء، آه ...أما أنا، فلقد عدت إلى اليمن بعد عشرين عاماً، فلم أجد أحداً، كانوا قد مضوا هم أيضاً، وجدت بعض القبور، ولا شيء غير ذلك، لكني كنت قد تغيرت بعض الشيء.. هممت بأن أعواد إلى البحر، الصديق الكبير الذي لم أفقده، والذي هو مستعد دائماً لأن يحتضنني، في أية لحظة، وها أنت ذا ترى بأنني هنا وليس في مكان آخر. أنها المصادفة وحدها، أليس كذلك؟ مصادفة، أو مجرد حظ تمنيته دائماً، لقد بعت نفسي لأكثر من جيش، وأكثر من شركة، تعلمت كيف أعمل في باخرة، وتعلمت كيف أمسك بندقية وأقتل أناساً لا أعرفهم وليس بيني وبينهم أية عداوة .. أما اليوم فلا .. أنني أعرف، ولأول مرة لماذا أنا هنا؟، ولماذا تقع هذه البندقية في يدي؟، قد لا أعرف من أقتل، ولكني أعرف لماذا أقتل، أتسمع؟ أنني أعرف ولأول مرة منذ عشرين عاماً شيئاً ما .. صور المقابر لا تزال أمامي، عدت فرحاً أحمل هدايا ونقوداً، ولكني لم أجد سوى شواهد قبور أمامي، أنني هنا أيضاً أصنع شواهد قبور جديدة، وربما صنعت واحداً لنفسي.

قاطعه الصوت الآخر، فجأة: - لا تقل ذلك، أرجوك..

- الصبح يقترب، سنظل هنا معاً..
- فنحن آخر من بقي..
- لا أحد يعرف، قد يكون آخرون استطاعوا مثلنا أن يشقوا لهم طريقاً وسط تلك الصخور..
- ربما ..

من بعيد، لاح ضوء، ولكن القمر لم يكن قد غاب.

وأمامهما بعيداً، كانت خطوط تربط السماء بالأرض كانت تلوح بعيداً، وكان لها رائحة عذبة.

- أنظر، أنه المطر، ألا ترى لونه؟ لا أستطيع أن أصفه، ولكني أحس به إحساساً عجيباً، حتى أني لأشعر بأنني أستطيع وصفه..

- إنني أستطيع أن أحس برائحته، رائحة عطر ما .. كنت أبيعه في الدكان الذي عملت به..

.قترب الدبيب، كانت الأرض تخبر بذلك، واحتواهما الضوء وارتفعت أصوات وكانت طلقات، عديدة، ونار وغبار خفيف حولهما، وردد الوادي صدى الطلقات..

- لا تخف، سنظل معاً.

- وستحكي ذلك على الباخرة.

- نعم، سأقول لهم ما هو لون المطر في بلادي.

- وسأقول لهم في – عدن – ما هو طعم البرد هنا.

احتوى الجبل هدير، وكان الماء ينساب في الوادي، هادئاً، والجبال تردد الصدى، صدى الطلقات، عنيفاً.. عنيفاً...

على طريق أسمرا

كان يوماً عادياً .. الشمس تنام في منتصف السماء وتمد أشعتها كأذرع كسلى . والطريق نائمة فوق أرض عطشى، والشمس الباردة تبعث في أحشاء الأرض شوقاً إلى الارتواء.

وسحب بلا مطر تسير بكبرياء مضجرة، فتمد لها الأرض لساناً طويلاً من الاسفلت.

كنت ضجراً، وأنا أحملق في البعيد لعل غباراً ما ينبئ عن اقتراب سيارة . ولا شيء.

نظرت إلى الساعة، وابتسمت امرأة تعدت الأربعين كانت قابعة خلف بار وكانت تلاحظ قلقي، لقد مر علي زمن أشعر بأنه طويل. شربت مشروباً وطنياً، رفضت عرضاً لتقديم وجبة غذاء لذيذة. فأنا لا أشعر بالجوع. كانت عقارب الساعة تشير إلى الثالثة بعد الظهر، أنه فصل الأمطار في أثيوبيا، ولكن السماء كانت بلا سحب، وكان على الطريق قافلة حمير ورجال أنصاف عرايا أكل الجوع عيونهم. كانوا يسيرون وفي أيديهم عصى تمثل هزالهم، يخيفون بها الحمير، كانت المرأة تنظر إلي .. وفي البار قوارير فارغة . ولا أحد سوانا، ومجموعة من الذباب والطريق نائم وفي أحشائه كسل يولد .. أنني لا أحب الانتظار . ولكن هذه المدينة الضائعة على الطريق أجبرتني أن أمضغ كل ساعات الصباح في الانتظار.

في نفسي دافع قوي لترك البار، ولكن .. إلى أين؟

رميت بصري على طول امتداد الشارع، لا شيء سوى أبنية قديمة رصت على جانبي الطريق، ورحت أعد الذباب لعلي اقتل الوقت..

ونظرت إلى الساعة:

- تنظر إلى الوقت بكثرة؟ إنك قلق !

نظرت إلى عينيها السمراوين:

- هل لديك ميعاد هام في العاصمة؟
- نعم ..

كنت أظن أن الكلمة لن تسمع، لكن آذاناً سوداء كانت تلتقط حتى الهمسات. إنها ليست جميلة، في عينيها آثار جمال قد دفن، إنها من مخلفات الحرب الإيطالية، كل شيء قديم هنا .. حتى النساء.

على طول امتداد الطريق شمس باردة، وأناس في أبدانهم كسل أبدي وقد تراخوا حتى النهاية. حتى تلك المومس الواقفة على بابها كان ضجر يقتلها، كانت تنظر إليَّ عبر الشارع، وكنت شبعاً، هناك أكثر من عشرة أبواب ينام خلفها سرر وعليها أثار جرائم، وعلى السرر وعند الأبواب نساء يبعن شيئاً لكل طارق. والسرر تنادي الجميع.

عددت كل مباني المدينة، دكانان كل يقع على جانب من الطريق، ولكن أحدهما كان مغلقاً، وأربعة بارات كبيرة فاغرة فاها يمرح عند أبوابها الذباب. يقدمون هناك شراباً وأكلاً ومكاناً دافئاً للنوم مع جسد طري.

كنت قلقاً. والذباب يثيرني، وتفوهت المرأة التي بجانبي، أنني زبونها الوحيد منذ غادر المدينة " باص " الصباح.

رأيت قافلة الحمير تقف أمام مطعم صغير، ودخل الجميع فيه. هناك يقدمون شيئاً شعبياً ورخيصاً.

في طرف المدينة سوق. أمام رجال ونساء غلبهم شيء كالنعاس أكوام من البيض وأقفاص يمرح الدجاج فيه. ولم يكن هناك أي مشتر.

- لماذا أنت صامت؟

في عينيها شيء يطلب الشراء، لكني لا أرغب إلا في سيارة تحملني إلى العاصمة. قامت، ومضت إلى الباب، كانت تتفوه، وتحت شفتيها الزنجيتين لمعت أسنان كاللبن.

- لقد تأخر " باص " المساء.

ولم أجب عليها.

- ربما يكون قد غير طريقه !..

إنها تريد شيئاً، أن أنام هنا. وهذا شيء محال. بقدر كراهيتي للذباب أكره النوم في المدن الصغيرة الضائعة على طريق أسمرا.

نظرت إلى ساقيها، أن شيئاً جذاباً يلمع منهما، ومن خلال الساقين رأيت محطة بنزين قديمة. لقد مر الإيطاليون من هنا مرة وتركوا خلفهم الكثير من أمثال هذه الأربعينية، على ظهرها شعر أسود فيه نعومة .. وفيه خشونة، كانت لدي رغبة حادة في أن ألمسه.

- ألست جائعاً ؟ في استطاعتي أن أقدم لك شريحة من لحم البقر.

ولم تنظر إلي.

- إن الشمس لا تؤذي. هذا ميعاد تساقط الأمطار كل عام.

نظرت إلى السماء، كانت فارغة، وكانت مومس قد تركت سريرها ومضت إلى السوق، كانت تضحك، وفي البعيد آثار غبار.

- كلا إنها سيارة صغيرة.

وسكتت لحظة.. قبل أن تضيف :

- قد تضطر للنوم هنا . !

عادت إلى مكانها. في فمها رغبة للكلام، ونبح كلب عندما خرجت قافلة الحمير من مطعمها الصغير. كانوا يمسحون أفواههم بأذرعهم بلذة. وفي وجوههم شبع. لكن عيونهم كانت تدمع.

مرقت السيارة دون أن تقف.

وتنهدت المرأة.

- إنه يوم سخيف بلا عمل.

- إنه يوم عادي.

تركت البار خلفي، لقد انتهت سجائري.

كان متكئ. في فمه مضغة قات. وأعشاب أخرى تنام بين فخذيه.

- أريد سجائر.

لم يعد الرجل إلى متكئه، رحت أمزق غلاف العلبة. ووقفت أمام البار سيارة نفط، وكان سائقها أسود. ابتسمت، لقد مر منذ أن كان كل سائقي سيارات النفط إيطاليين.

- نسيت الكبريت.

مد الرجل بالكبريت قائلاً:

- هل أتيت لشراء طعام؟
- لا، لقد بعت بعض الطعام هنا.
- آه.

وأضاف بعد لحظات:

- الأسواق باردة.
- البن لا قيمة له.. أما الحبوب فميتة.
- لقد تأخر المطر!
- سيتساقط قريباً.

رأى أنني ضجر. لكنه لم يعد إلى مكانه. بدأت أنظر إليه. وبدأ فضول ينمو في أعماقي. كان قصيراً، شعرات بيضاء تملأ شعر رأسه. عيناه غائرتان، وكانت لحية صغيرة تهمس على صدغيه، لكنه كان قوياً وفي عينيه ذكاء.

- من أسمرا؟
- نعم ولكني أعمل في " ويسي ".
- أنت ذاهب إلى العاصمة؟

كنت قد بدأت أميل إليه. ولم تعد لدي رغبة في العودة إلى البار. وسألته:

- هل أنتم كثيرون هنا؟
- من؟
- أقصد اليمانيين.

- أوه، لقد كنا في زمن الإيطاليين، أما الآن فلم نعد هنا سوى ثلاثة. صاحب ذلك الدكان المغلق وآخر يملك طاحوناً بالقرب من هنا .. وأنا.

- وأين ذهب الآخرون؟

هز رأسه بحزن:

- مات من مات منهم والبعض انتقل إلى العاصمة.. والقلة عادت إلى الوطن.

- هكذا.

مضت لحظة صمت. مرت سيارة كانت قادمة من العاصمة. واستمر الرجل.

- لقد كانت مدينة. أما اليوم.. فحتى السيارات لا تتوقف كثيراً هنا. إنها تمر بسرعة.. حتى الأعمال ماتت..

- ولماذا لا تغادر مع الناس؟

ولاح شبح ابتسامة على وجهه. وانطفأ شيء في عينيه...

- إلى أين؟

لم أجب. كنت لا أعرف إلى أين.

- لم يبق لدي شيء سوى هذا الدكان وعائلة، وأحياناً أعمل في شراء وبيع الطعام. هذا إذا ما كان هناك مطر.

رحت أنفخ دخان سجائري في الهواء، كانت المومس قد عادت إلى سريرها. ورأيت نظرات مليئة بالشهوة يوجهها رجل من الباعة إليها.

وكانت تبتسم.

- أنت مولد؟

أجبته بهزة من رأسي.

- أن ذلك أهون. فأنت لا تشعر بأنك غريب .. أنك ابن البلاد.

- وأنت؟

وراح في إغفاءة لطيفة .. وكانت أوراق القات تغيب في فمه. ورأيت فتاة في السادسة تدلي بوجهها الطفولي عبر ألواح خشبية في قلب الدكان. كان وراء البضائع منزل ما.

كانت عيناها جميلتان. وضفائرها سوداء كالحرير، وفيها طفولة عذبة.

- بابا .. بابا .. أريد نعنع..

قالت ذلك باللغة الأمهرية.

- أدخلي وخذي ما شئت.

أجابها أيضاً بالأمهرية.

ابتسمت وأنا أرى وجهها الأبيض المرح وقبل أن تغيب بين الألواح القت ابتسامة تاهت في الفضاء. وسمعت صوتها الرائع يحاكي شخصاً باللغة الأمهرية.

- أنظري.. لقد أخذت كثيراً..

وضحكت..

- ألا تفهم العربية؟

هز الرجل رأسه نفياً.

ولم أسأله لماذا؟

- الساعة الرابعة، هل هناك أمل في أن يصل " باص " المساء؟

- حتى الخامسة.. هناك أمل.

عبرت الشارع امرأتان. كانتا قادمتين إلينا. على ملامحهما سرور بالحياة. كانتا تطلقان النكات وقالت إحداهما وهي تضحك بشدة.

- أيه أيها العربي، هل نجد عندك منديلاً أحمر؟

قام الرجل وعلى ملامحه تعب.

كانتا تملكان جسدين طريين، وكانت سيقانهما تلمع .. وكانت إحداهما تملك نهدين شابين. وكانت الشهوة تفوح من رائحة العطر الذي ملأ الدكان .. وكان الرجل يحاول الابتسام قائلاً:

- قسماً بجمالك أن هذا مكلف علي بدولار ونصف.

قالت إحداهما بدلال:

- أنك تريد أن تكسب منا الكثير (وغمزت). أنت تعرف أننا أصدقاء.

كانت نظرة مريرة قد ارتسمت على عينيه.

وضحكت الأخرى عندما همست صاحبتها بشيء ما .. وكنت أنظر الساعة .. وعيناي معلقتان بالطريق.

وارتفع صوت مبحوح. فيه لذة كل شياطين الأرض..

- أيها القديس جرجس أخر كل السيارات هذا المساء.

نظرت إليهم قائلاً:

- سأنام عندها في الطريق.

وضحكتا، قالت إحداهما بميوعة:

- هل أنت بخيل إلى هذه الدرجة؟

قالت ذات الصوت المبحوح:

- أن منظره جميل ويدل على أن أوراقاً حمراء تملأ جيوب بدلته.

وكانتا قد دفعتا ثمن المنديل.. وقبل أن تغادرا المحل قال الصوت المبحوح:

- إن منزلنا هناك، الباب الثاني إلى اليسار لا تنس، ستجد عندنا كل شيء..

وغمزت بعينها، وكانت قهقهات تملأ الطريق الضجرة..

أعوذ بالله من هذا الفساد. أيام الإيطاليين كن كثيرات، ولكن كان هناك عمل. ولم يكن هناك ميوعة، أما اليوم فالفساد كثر وقل مع ذلك العمل.. أنظر في هذا الشارع وحده أكثر من عشرة بيوت للفساد.. عدا البارات.

كان هناك ظل بجانب الدكان. وحجر كبير كتب عليه بأحرف لاتينية اسم معسكر ما .. وعام ١٩٣٨، وكان على الحجر طفل في

الثامنة، كان يضحك، ترك الحجر وأقبل إلي بخطوات عسكرية، وأدى التحية بحماس. ثم ابتسم. كانت عيناه جميلتين.. لكن فيهما بلها، وكانت سنة تحرس فتحة فمه حتى لا يقفل في وجه الذباب . وسمعته يهمهم. ثم عاد إلى الحجر.

- كم مضى عليك منذ قدمت من اليمن؟

كان يحاول أن يتذكر. ثم قال:

- أعتقد ثلاثين سنة أو أكثر. كنت هنا قبل أن يدخل الإيطاليون. كنت أعمل مع قوافل الجمال لسنوات. كنا ننقل السلاح من الساحل حتى المناطق الجبلية ونمد الأحباش بها ليستمروا في المقاومة. قتل الإيطاليون قائد قافلتنا. كان اسمه " نعمان سعيد " وتفرقنا بعد مقتله. كان رجلاً شجاعاً. لا يخاف أحداً. وجازانا الأحباش بعد الحرب بالسجن.

هز رأسه لحلاوة الذكرى.

- الدنيا لا تزال بخير. فهأنذا قد انتهيت إلى هذا الركن من الدنيا. الحمد لله... لأنني لم أضع مثل بقية أصدقائي...

وقطع حديثه صوت نسائي من الداخل..

وكان الصوت حبشياً..

- يا حاج.. يا حاج .. أين ذهب الولد؟

أجاب بغضب:

- وهل أنا حارس حتى أتابعه؟

- يا رجل حرام عليك. ابحث عنه حتى لا يضيع أو تدهمه سيارة.

وهمهم بضيق:

- مشاكل .. مشاكل..

كان الطفل لا يزال على الحجر. وعيونه البلهاء تبحث عن شيء ما وصاح الرجل بصوت مرتفع .. وبالأمهرية:

- يا فاطمة .. يا فاطمة .. تعالي أبحثي عن أخيك أين ذهب.

رأيته يقف. وبخطوات مرتجفة اقترب من باب الدكان.

- ها ... أيش .. من ..

كان الرجل ينظر إلى طفله بحنان ..

- أين كنت يا منصور؟. تريد نعنع؟

هز الطفل رأسه . وكانت في وجهه آثار حزن.

وكان الشارع يخترق قلب البيوت الهزيلة والمومسات ينظرن بعيون فارغة.. ولا أحد في الطريق.

- ابنك؟

- نعم.. أهبل قليل.. ولكنه يدرس في المدرسة الحبشية..

ابتسم الطفل ببلاهة.. وقال:

- فوق .. في الكنيسة.. خرجنا أمس.

أقبلت أخته الصغيرة وأخذت تجره من يده.

أوف .. أوف.. أنت مجنونة..

ومضى خلفها ضاحكاً.

- لماذا تحدثهم بالأمهرية؟ أليس الأفضل لو تعلموا لغتهم العربية؟

كان صمت. وكان حزن. وكانت الشمس ترتفع بعيداً . وصوت محرك سيارة يصل إلى أذني من بعيد.

- الجميع هنا يتحدثون بالأمهرية. مع من أذن يمكن التحدث بالعربية؟ نحن اليمانيين هنا لا نلتقي إلا نادراً. وأنا قد تعبت فلم أعد أذهب إلى العاصمة بكثرة. وكلنا هنا يتحدث بالأمهرية. والمدارس أيضاً.

وأطلق ضحكة.

- لقد بدأت شخصياً أنسى العربية.

وكان ما يقوله صدقاً. فقد استعمل في كل حديثه معي كلمات حبشية كثيرة.

كان الباص قد توقف أمام البار.

مددت يدي مودعاً.

- أتمنى لك حظاً سعيداً..

وهز رأسه شاكراً.. وقبل أن أصل إلى الباص عدت إليه قائلاً:

- ألا تفكر في العودة إلى اليمن؟

فكر طويلاً وقال:

- اليمن.. لقد نسيتها. أنني انتظر الموت فقط. لن يعرفني أحد هناك إذا عدت. ثم .. ما الذي سأحمله لهم بعد غياب عمر كامل؟ لا.. سوف أبقى هنا حتى النهاية.. لا أحد بقي معي هناك. لن أعود .. قد يعود أبنائي يوماً ما إذا عرفوا أن أباهم كان غريباً.. وقد لا يعودون . قد يظلون مثلي غرباء.

كانت دمعات تطفو على جفونه.

هممت بأن أغادر. لكن شيئاً كان يجذبني إلى هذا الرجل القصير ذي العينين الفاترتين والابتسامة التي فقدت معنى الأمل.

كان وجهه يبدو أمامي. واللسان الطويل يمتد إلى العاصمة. لقد مر الإيطاليون من هنا. ومن هنا مرت جمال كان يصحبها يمانيون. كانت الشمس ترتفع إلى السماء.. باردة. وموسم الأمطار أخلف وعده.. والطريق الحزين.. يضم مدناً ضائعة وقوماً ضائعين.. وكان أحدهم ضائعاً في مدينة صغيرة على طريق أسمرا.. ضائعاً دونما أمل.

يموتون غرباء

رواية

(١)

كان كل ما يعرفه - سكان " سدست كيلو " عنه هو أنه قد فتح دكانه الصغير منذ أكثر من عشرة أعوام. أما هو فقد كان يعرف كل شيء عن أهالي الحي الذي يسكنه. خاصة عن ذلك الجانب من الحي حيث المنازل الصغيرة والحارات التي تمتلئ شوارعها بالطين دائما أثر تساقط الأمطار حيث - تصدح موسيقى مخمورة طوال ليالي الشتاء، وحيث يجلس مئات من العمال والمتعطلين أمام أقداح- الطجا - تغازل عيونهم مومسات تعدين الأربعين من العمر، وحيث كان يوم السبت مسرحاً أسبوعياً لمشاهدة مسرحية تتكرر مشاهدها باستمرار حتى أنه كان يعرف كل أحداثها قبل أن تحدث أمامه أما سكان الحي فهم يحبونه.. لماذا؟..

هم أنفسهم لا يعرفون.. قد يكون حبهم له لأنه كان أكثر طيبة من الآخرين الذين يملكون دكاكين مثله.. أو لابتسامته التي تعلو دائماً شفتيه.. حتى عندما يخيل لهم أنه حزين.

" سد ست كيلو " حي السادة والعبيد .. حي الفيلات الصغيرة الأنيقة والحدائق اللامتناهية الخضرة . وحي القصور .. قصور الأمراء .. حي حديقة الحيوان.. حيث تسمع كل يوم زئير الأسود وصرخات السكارى.

كان حياً هادئاً كحدائقه الخضراء البعيدة في قلب العاصمة وحياً صاخباً كالخمر تتدفق براميلها في بطون لم تعرف معنى الشبع.. لكنها تسكر .. حياً متوحشاً كصراخ المومسات القبيحات عندما يرتمين أرضاً تحت أقدام سكير .. أو عندما يرفض أحدهم دفع ثمن لذة شعر بعدها بغثيان.

أما هو فلا يهمه هذا الأمر .. أنه يعيش بينهم لكنه بعيداً عنهم كالبعد بين ملابسه المتسخة السوداء ووجهه الأبيض المبتسم.

لا أحد يذكر أن هناك تغييراً قد حدث في وجه الرجل فهو كان قبل عشر سنوات لا يزال شاباً يقطر مودة وابتساماً.
كم عمره؟ .. لم يسأله أحد. وإن سأله فهو شخصياً لا يعرف. وقد يقول أحدهم: لكن ما الذي كتبه في جواز سفره؟ أنه شخصياً لا يعرف. دكانه كان صغيراً تماماً كغرف طولها عشرة أمتار وعرضها ثلاثة ولم يكن مجرد دكان .. كان أيضاً مسكنه فخلف - المبرز - حيث صفت في غير نظام أنواع البضائع الرخيصة والغالية. رز. سمن. عسل. قمصان حريرية. أزرار. إبر خيوط. كل ما يحتاجه سكان فيلا وكل ما تحتاجه مومس لترقيع ثوب قديم مزق في معركة .. خلف هذه الأشياء وحيث لا يرى الداخل إلى الدكان، كان سريره .. نوعاً غريباً من الأسرة: عدة صناديق خشبية وفراشا تآكل نصفه .. وبطانية اشتراها من بقايا بطانيات الجيش البريطاني الذي كان يطمع ذات مرة في احتلال الحبشة .. وموقد غاز. ودست للطباخة وبراد شاي وصندوق قديم في داخله بدلة اشتراها منذ أعوام ثمانية، يلبسها حين يذهب إلى المركاتو لشراء بضائع لدكانه. أو في يوم عيد. وكان هناك باب صغير في الخلف .. صغير إلى درجة أن عبده سعيد يحني ربع طوله ليعبره إلى حوش صغير استخدمها لقضاء (الأشياء الضرورية) وكذلك حديقة صغيرة زرع بها أنواعاً من الخضر طماطم، وبسباس. ولكن الحوش كان أكثر تنظيماً وجمالاً من ذلك المكان الذي يسميه غرفته. فالأرض حين تراها من وراء السور الذي صنعه بنفسه تدرك من الوهلة الأولى أن مجهوداً كبيراً قد بذل في الاعتناء بها. لماذا .. وصاحبنا لا يذهب إلى أي مكان أيام الجمع - أعني يوم الجمعة - فإنه يعطي نفسه إجازة عدة ساعات يقضيها في تشذيب شجيرات الحديقة وإصلاح ما يفسده بعض صبيان الحي.
الجميع يسمونه - كما يسمون أمثاله من اليمنيين المهاجرين - (جماله) ولم يكن يغضب كما قد يغضب غيره بل كان يبتسم

لهم في مودة .. وأحياناً كان يسمونه " صالح " بالرغم من أن اسمه كما هو مسجل في الجواز كان (عبده سعيد) ولكنه لم يكن يهتم بذلك. فما الفائدة .. أي اسم يطلق عليه ما داموا يشترون كل ما يريدونه من عنده. بل أن تسامحه في الكثير- فيما يتعلق بشخصه طبعاً لا ما يتعلق بالمال – كان عاملاً في جذب الكثير من العملاء، بل أن خادمات الفيلات كن يرفضن الذهاب إلى دكان الأرمني المجهز بأحدث الوسائل ويشترين كل ما يردنه من دكانه الذي يشبه حجر فأر.

في الصباح – تماماً في السادسة- يكون قد انتهى من صلاة الصبح يفتح الدكان وهو يتمتم بآيات من القرآن وبعض الأدعية التي حفظها عندما كان في القرية. ويهش الذباب بمنشة قديمة فتتطاير في الهواء حبات غبار مع أول أشعة النهار الذهبية بينما يسمع في الداخل صوت الموقد الغازي وعليه يغلي براد الشاي. وقد يدخل أحدهم وهو يقضم قطعة الخبز ويرتشف شاي الصباح إلا أنه يترك ما بيده ليقدم للزبون ما يريد.

(العمل قبل الأكل) هذا هو شعاره أنه لا يفقد أي إنسان يدخل وكأنه مرة؟ وتكاد تمضي ساعة حتى تكون في الدكان عشرات الأيدي السوداء ممدودة بالأوعية تطلب احتياجاتها وكان يبتسم للجميع.

- الصبر يا ناس.
- كل شيء سيكون بإذن الله.

وقد يغمز لإحدى الحسناوات وقد تمتد يده لتقرص ثدياً ناهداً لعذراء بل قد لا يتورع في معاكسة عجوز بمرح.

كان يعرف كل ما يطلبه العملاء فهو يعد كل شيء .. كيلوا رز لا برها، كيلو دقيق لنوريتو، كيلو سكر. و..

وكان كل منهم يجد ما يحتاجه . وكان الأرمني صاحب الدكان المجهز يتعجب دائماً فهو وكل عماله لا يستطيعون خدمة كل ذلك العدد من الناس الذين يترددون على دكان عبده سعيد.

- أن هذا اليمني لشيطان رجيم.
- أنه ملعون.
- يا إلهي .. ولكن كيف يستطيع ذلك؟..

كان يعرف كم يجب على عميله أن يدفع، ولم يصدق الأرمني حين عرف أن عبده سعيد لم ير المدرسة في حياته.

- ولكن كيف يستطيع أن يحسب؟..
- أن لديه عقلاً جبارا هذا الملعون!

ولو رأى الأرمني عبده سعيد في المساء عندما يتسلم خطاباً من قريته ويقضي الساعات لكي يفهم ما كتب فيه.. ثم لو رآه وهو يمسك بالقلم ويخط على الورق حروفاً ما أنزل الله بها من سلطان .. لو رآه لجن .. ولكن عبده سعيد بالرغم من ذلك كان يعيد قراءة خطابه عشرات المرات ويخط على الورق كل ما يريد أن يقوله.

- أن هذا اللعين يكسب بكثرة.
- ولكن أين تذهب نقوده؟..
- نعم استغرب .. لو وجدت عملاءه لأصبحت في مدى عام أو عامين مليونيرا.
- لا بد وأن هناك سراً خلف هذا الرجل.

_ايه.. أتريد أن تعرف سراً من يمني ؟ أسهل كثير أن تعرف السر من الشيطان.

- أنه لا يأكل.
- أنه يطبخ شيئاً أشبه بالمرق.
- أنه يلبس ثوبه نفس ثوبه منذ عشر سنوات.
- ترى هل ذهب مرة إلى الحمام؟ هل يعرف ما هو الديك الرومي؟

لكن أسئلته تبقى –دائما بلا جواب. أما عبده سعيد فلم يكن يسمع وأن سمع فإنه قد يبتسم وقد لا يعير الأمر أي اهتمام. أنه يفتح دكانه في الساعة السادسة صباحاً ويغلقه في التاسعة مساء وقد تجده بعد أن يتناول غداؤه المكون من قطعة لحم ومرق تركت على موقده الغازي ساعات .. وقطعة خبز وشاي .. قد تجده يمضغ القات بكثرة كما يمضغه بقية اليمنيين الذين يعيشون في المركاته أو في منطقة أخرى من أديس أبابا.

وعندما كان يمضغ القات كان عملاؤه يرون في عينيه الواسعتين أشياء غامضة .. ابتسامة مختفية في طي أحلام بعيدة .. وشروداً لا يمنعه من تلبية طلب أي عميل .. والابتسام له .. كانت ساعات عذبة يعيشها عبده سعيد مع نفسه.

- ترى في ماذا يفكر في هذه اللحظة؟

- الشيطان وحده يعلم.

عبده سعيد .. قد يكون بالغاً الأربعين من عمره وقد لا يكون إلا في الخامسة والثلاثين، ذلك شيء لا يهم .. المهم والذي يعرفه الجميع – خاصة النساء – أنه كان رجلاً في الرجال.

بدأت القصة منذ زمن بعيد وقت ماتت المرأة التي كانت معه ولكن وجدت بعدها أطراف أخرى وكثيرة وكان النسوة يرددن دائماً شيئاً واحداً:

- أوه .. لو تدرين فقط كم هو رجل.

- أنه .. أنه .. لا يشبع.

وقد تكون المرأة مومسا لذلك فهي أكثر صراحة..

اسمعي .. لم أر في حياتي رجلاً مثله لقد كدت أموت لذة .. كم هو شهواني هذا الرجل.

وكانت كل واحدة منهن تتمنى بعد أن تسمع هذا الحديث أن تجرب .. لذلك لا تستغربوا إن كان معظم عملائه من النساء

وقد لا تعود إليه المرأة بعد أن تجرب .. لكنها تبقى دائماً عميلته .. هناك شيء ما يجذبهن إليه.

أما هو فقد كان وديعاً .. حقيقة أنه يمرح مع الكثيرات .. وبطريقة قذرة لكنه كان يمرح وفي عينيه بعد عميق يوحي بالثقة . كم كانت عيناه سبباً في جذب الكثيرات .. كان وجهه بالرغم من عرضه وسمنته .. وجه طفل .. بل كان وجهه فوق جسمه العملاق يبدو جذاباً ولقد سمع مرات كثيرة بعض النساء يقلن له:

- أوه يا طفلي .. ألا تريد أن ترضع!
- كم أتمنى لو كان لدي طفل مثلك.

وقد يجيب أحياناً: سأكون سعيداً لو أخذتني معك .. أو يقول:

- أوه أنني اتمنى ذلك .. لكن نهداك .. قد جفا.

وكن يقهقهن بطفولة.

- كم هو خجول هذا الطفل؟

لكنه يقول:

- نعم لكنك لم تعرفيني بعد ..

أنهن يرددن الكثير عنه .. فقد أصبح جزءاً من تاريخ الحي، فهو لم يغادره مطلقاً بل لم يتغيب يوماً واحداً .. حتى في أيام الأعياد كان يذهب في العاشرة بعد أن يكون قد أعطى عملاءه كل ما يحتاجونه طوال يومهم – إلى زيارة بعض معارفه وأهل قريته في " المركاتة " حيث يتغذى هناك (ويقيل) لكنه يعود قبل أن تغيب الشمس .. وفي كثير من الأحيان كانت مضغة القات تبقى دائما في فمه وهو يعطي عملاءه حاجات المساء.

وكان الأطفال يحبونه حتى ليقال أنه أب كثير من أولئك الذين وجدوا بغير أب، خاصة أولئك الأطفال الثلاثة الذين ولدوا أيضاً بالرغم من أن أمهاتهم كن سوداوات ولكن في حي مثل هذا أو في مدينة كأديس أبابا تضيع الكثير من الحقائق.

وقد سئل عبده عن ذلك فقال:

- لماذا تقولون أنني أب لهم .. أليس هنا من يمني أبيض سواي – ويبتسم ثم يضيف:

- وقد يكون ما تقولونه صحيحاً ولكن الله وحده أعلم.

ويستدرك أحياناً وابتساماته تزداد اتساعاً – وأمهاتهم أيضاً.

ولكن أحداً من الأمهات لم يطالب بشيء بل لم يقلن له أنه أب لأطفالهن إلا على سبيل المداعبة والمزح.

ولكنه كان يحب الأطفال ويهدي لهم – يلتم – أو كراملة – أو حفنة سكر – ويشاع أنه خلف في قريته زوجته وأطفاله وأنه يبكي عندما يستلم منهم الخطابات لكن أحداً لم يره يبكي.

ومثلما كان يحب الأطفال كان أيضاً يحب النساء فالواقع يدل على أنه يرفض مضاجعة أية امرأة أتت إليه.

- لا يعرف أحد أنه ذهب بنفسه إلى امرأة ولكن تشاع أحياناً بعض الإشاعات أنه ذهب إلى بعض نساء الفيلات ذات الحدائق اللامتناهية الخضرة.

ويقال أنه ضاجع امرأة في الخمسين .. أما هو فيقول أحياناً على سبيل الضحك.

- يا جماعة. كل النساء متشابهات. كلهن يملكن نفس الشيء .. لكنه يتردد كثيراً – هذا ما يقولونه – عندما يكون الأمر متعلقاً بعذراء . وقد حدث أنه كانت هناك فتاة عمرها في السادسة عندما حضر عبده سعيد إلى الحي وفتح دكانه وكانت تستمع إلى ما يقال عنه .. وكانت تكبر ويكبر معها حلم في أن يمتلكها عبده سعيد هذا الذي صورته أحلامها فارس الفرسان تماما .. كذلك العملاق الذي ركب حصاناً وبيده رمح يمزق به جسد حيوان خرافي مخيف كالمعلق فوق الجدار عند سرير أمها .. وقد كانت ترى أمها وهي تنحني كثيراً أمام هذه الصورة وصورة أخرى لامرأة سمراء جميلة وجهها ينبعث نورا وبيدها طفل اسمر جميل يبتسم.

كانت الطفلة تظن أن أمها تركع أمام عبده سعيد لأنها سمعتها تتحدث عنه كثيرا بحب وإعجاب وتذكر مرات كثيرة ذهبت فيها إلى دكانه.

وكانت تلح على أمها في أن ترسلها هي بدلا من أن تتعب نفسها وكانت أمها توافق.

كانت تقف ساعات أمام عبده سعيد تقيس جسده العملاق ووجهه الطفولي الشكل وعينيه العميقتين كالفارس المعلق في غرفتها.

وبلغت الخامسة عشرة .. وكانت أحلامها تعذبها - فهي ترى الجميع يتحدثون عنه - بل يقولون أحياناً في صراحة أنهم عرفوه.

وذهبت إليه . أنها تذكر جيداً كل شيء. كان الوقت مساء - والساعة منتصف التاسعة، والليلة مقمرة بعد مطر خفيف، وريح تهز أشجار الشارع، ولم يسمع في المساء زئير الأسود في الحديقة، وكانت ترتجف، ولم تكن مرتهبة فلقد انتظرت هذه اللحظة سنوات طويلة - لكنها كانت تريد أن تعرف ما الذي سيحدث؟

- نظر إليها كالعادة وقال:
- مرحبا طائتو ما الذي تريدينه؟.
- أوه لا شيء، أبداً لقد جئت من .. أجل . أوه.

ونظر إليها وهو يبتسم واستمرت هي في حديث مضطرب.

- أوه .. لقد نسيت لعنة الله على الشيطان .. أيها القديس جرجس ساعدني . لكنه وقف خلف دكته ينظر إليها كالعادة.

وكادت تنفجر فيه بغضب .. لماذا لا يتحرك؟ لماذا يقف بابتسامته البلهاء؟ لقد كرهت لأول مرة ابتسامته وكانت تنظر بحمى إلى جسده العملاق .. وكانت عينيها تائهتين.

وبدأ يدرك .. رأى صدرها في حركاته الثائرة .. ورمانتين - تكاد ان تمزقا صمت الثوب القديم .. وشفتيها الزنجيتين قد انفجرتا عن أسنان بيض مفرقة .. عرف كل شيء .. ولم يبتسم.

كان هناك بجانب الباب الكثير من الأكياس الفارغة بجانب أكياس أخرى لا تزال مليئة بالدقيق . والسكر والرز وأشياء أخرى.
رأت الباب يغلق بهدوء ورأت نفسها ترتفع .. وكانت نائمة على الأكياس الفارغة.
ولأول مرة في حياتها نامت في الدكان .. ولأول مرة أيضاً نامت امرأة في الدكان وشهد الباب الخلفي ومن ثم السور .. فتاة سمراء تقفز إلى الشارع .. وعلى شفتيها ارتواء أعوام عشرة.
وشهد الناس ابتسامة واسعة .. ومرحاً زائداً .. وربما كرم وتسامح. فعبده سعيد كان فرحاً .. ربما استطعنا أن نقول سعيداً .. وربما لاحظ أحدهم قطرة دم فوق كيس ما .. لكنه لا يعقل أن يسأل .. فقد لا يجد السؤال . وأن وجده فهو لا أهمية له..
وأصبحت طائتو عشيقته بعد أيام ثم وجد الناس أنها فتحت منزلها الذي كان منزلاً لأمها التي ماتت بالسل – لتستقبل ضيوفاً غريبين .. وقد يكونوا هم ضيوف أمها.
وأصبحت هي وبيتها عميلاً دائماً لدكان عبده سعيد .. وقد يكون شخصاً ما رآها تنسل في الظلام إليه .. لكن أحداً لا يستطيع أن يجزم أنه رآها هي بالذات فسرير عبده .. والأكياس الفارغة ترى دائماً الكثير من أنواع النساء. الشيء الذي كان يتندر عليه رجال الحي أنهم منذ أعوام كانوا يرون عبده سعيد – يقف صباحاً – مهما كان البرد في الحوش وفي يده دلو يصب منه الماء على نفسه وكان يغتسل .. وقد قال البعض وربما يكون على جنابه – أنه كان يفعل ذلك بعد ليلة يقضيها مع امرأة.
أما الآن فلم يعد أحد يراه يغتسل، وظن البعض _ أولاد الحرام – أن عبده سعيد قد مل النساء وأنه لم يعد يضاجعهن لذلك فقد تجمعوا في أحد الأيام وجعلوا يراقبون دكانه وعند منتصف الليل رأوا امرأة تقفز السور وتتجه إلى منزله. وفي الصباح لم يغتسل

عبده سعيد. لكنه توضأ وراح يصلي فوق حجر مستطيل في الحوش، وكان البعض يقول للأرمني:

- لو أردت يا صبحي أن تجذب إليك عملاء كاليمني فعليك بإرضاء النساء.. لا أحد يدري كيف وصل عبده سعيد إلى أديس أبابا وإلى (سدست كيلو) بالذات .. ذات صباح مشرق رأوه بقامته الطويلة يعدو في الشوارع ينظر إلى البيوت .. ثم رأوه ينقل بضائعه.. ويفتح دكانه وفي شفتيه آثار دعاء.

لكن أين كان قبل هذا؟

البعض يقولون أنه عمل في الجيش الإيطالي حيث كسب بعض النقود وعندما طردوه من الحبشة شد رحاله إلى أديس أبابا ولكن آخرين يقولون أنه لم يعمل مع الإيطاليين لأنه لا يجيد أي كلمة إيطالية .. وكل من عمل معهم يحدث أحياناً أن يتفوه ببعض الكلمات .. على سبيل التباهي بمعرفته لها.

ويقولون أنه قتل أحد الضباط الإيطاليين وسرق ملابسه .. وأدواته .. وضمنها البطانية العسكرية .. وبالطو عسكري رأوه معه في السنوات الأولى ثم وجدوا مزقه في الحوراي يلعب بها الأطفال بعد أن صنعوا منها كرة قدم.. وبراد الشاي الذي يشبه البرادات العسكرية .. بل حتى ذلك الكوب الحديدي الذي يستعمله لشرب الشاي أنه كوب لا يستخدم إلا في الجيش..

ويقف فريق ثالث يقول .. كلا .. كلا .. وبالرغم من شكله العملاق إلا أنه لا يستطيع أن يقتل دجاجة فما بالكم بإنسان أنه لا يشبه القاتل .. ثم أنه يعمل هنا منذ مدة طويلة ولا أحد يراه يسرق .. فلو قتل ليسرق .. لسرق الآن أيضاً .. كلا أيها السادة أنه ربما حصل على هذه النقود لعمله حارساً في قافلة جمال لأحد التجار .. أنكم تعرفون أن القوافل كانت تحمل البضائع من الساحل إلى داخل البلاد عبر براري وغابات قبائل الدنكل التي لا

تحترم حرمة أحد .. ثم العصابات التي تكونت للنهب والسرقة في أثناء الحرب كانت لا تطمع في أكثر من قافلة.

وعبده سعيد رجل شجاع وعملاق – فربما عمل في إحدى القوافل .. خاصة وأن هذه القوافل أصحابها يمنيين .. وتحمل بضائع لتجار يمنيين .. نعم .. أيها السادة.. إنه قد كسب نقود بشرف، بعرق جبينه، كما يكسبها الآن.

وفريقٍ آخر يرى آراء أخرى والخبر الصحيح عنده، وهو لم يخبر به أحداً حتى النساء اللاتي كان يمنحهن اللذة، كان لا يتكلم معهن في أي شيء، حتى تأوهات اللذة كان يكتمها خلف شفتيه المقفلتين.

قال مرة أو مرتين أنه كان في أريتريا لكن ذلك لا يغير شيئاً، هل معنى وجوده في أسمرا قد يعني أنه خدم في الجيش الإيطالي؟..

كلهم يعرفون أن تلك الأعوام .. أعوام ما قبل غزو الإيطاليين للحبشة وأثناء الغزو وبعده أيضاً كانت سواحل أريتريا تستقبل عشرات اليمنيين الذين تقذف بهم سواحل بلادهم المقفرة.

حتى عبده سعيد نفسه نسى هل كان ذلك الذي نقله من " الشيخ سعيد " إلى عصب صنبوق أم زعيمة أم مجرد قارب وضع عليه شراع ممزق. ذلك تاريخ قديم.

لكن هناك تاريخ أقدم، ماذا كان يعمل عبده سعيد قبل أن يعبر البحر؟ من هو؟ تلك أسئلة كثيرة محيرة؟ ولكن يمكن الإجابة عليها ببساطة، أنه من قريةٍ .. في الريف اليمني.

هل اقتنعتم، طبعاً كلاً، ستعرفون لماذا هاجر؟ كلا اعتقد أن مثل هذا السؤال لن يطرأ على أذهانكم، كلكم تعرفون ذلك.

ولكن من هو عبده سعيد؟

كان راعياً عندما كان صغيراً، وكان والده فلاحاً صغيرا يملك عدة مدرجات في الجبل ومنزلاً من طابقين ورثه عن سلسلة طويلة من الأجداد، أما أمه فهو لا يتذكرها، لقد ماتت عندما أجتاح

القرية مرض نسي أسمه ولونه لكثرة الأمراض التي تمر بالقرى، ولم يكن يقتات سوى لبن الغنم التي يرضعها في الجبل خفية والهواء الذي يرسل نسماته العليلة، وربما أيضاً بعض الفواكه التي تنمو فوق أشجار القرية كالبلس والبلح في الوادي، والموز الذي كثيراً ما كان يسرقه من بستان بجانب الوادي.

أن هذه الذكريات حبيبة إلى نفس عبده سعيد حتى أنه يتذكرها وهو يمضغ وريقات القات.

أما في الأوقات التي لا يرعى فيها فكان يذهب مع والده إلى المدرجات يساعده في البذر والتنقية والحصاد والجنى، ولا يزال يذكر الخبز المصنوع من (الغرب) الذي كانت جدته تصنعه، مع الحلبة كم هي لذيذة فتة الغرب بالحلبة، وأحياناً العصيدة، وخاصة حين يكون في منتصفها لبن ممزوج بالسمن. ذلك زمان مضى.

لقد توفت جدته، مرضت أياماً قليلة.. لا يزال يذكر حشرجتها وهي متروكة في زاوية غرفتها تقول – أوه يا ابني كل شيء سينتهي سريعاً، وسأعود كما كنت، لكنها لم تستطع أن تعود من جديد.

لقد ماتت دون أن تنبس بكلمة – كانت حنجرتها قد سدت. وكان نائماً بجانبها وفي الصباح رأى عظام يدها مغروزتان في جانبه. وقال لها وهو لا يدري.

- جدة .. جدة .. أنك تؤلمينني.

ولكنها كانت قد فقدت الإحساس بالألم إلى الأبد.

وكان قد بلغ الخامسة عشرة .. وتزوج.

كل ما يعرفه أنه ذهب إلى السوق واشترى راسين غنم وبعض الطعام والملابس وعاد إلى القرية ليجلس في زاوية .. نفس الزاوية التي ماتت فيها جدته .. وربما أمه من قبل . ولتجلس بجانبه صبية صغيرة .. هي زوجته . بعد ثلاثة أيام ذهبت معه إلى المدرجات

.. وحملت إليه في الظهر رغيف الغرب .. وصحن الحلبة .. وأحياناً كانت تحمل إليه بدلاً من الحلبة بعض — الحقين.

ولكن لماذا غادر قريته؟.

ربما كان عبده سعيد سيقضي حياته في القرية.

عمل في النهار، وقات فيما بعد الظهر .. وصلاة في المسجد في المغرب حتى ما بعد العشاء ولكن .. حدث في القرية شيء جديد.

كان ذلك عندما أرسل أحد أولاد قريته الذي هاجر مبلغاً من المال وبدأ والده في بناء منزل من ثلاث طوابق .. كان الطابق الثالث فيه شبابيك كبيرة .. وطليت جدران البيت بالأبيض فكان كشامة بيضاء وسط جسم قدر سوداء .. كان المنزل أكثر منازل القرية جمالاً.

وكان عبده سعيد يعمل في أحد الأيام مع زوجته عند أحد رجال القرية عندما سمع همس النساء ساعة الغذاء.

- أيه .. صالح سيعود هذه السنة..
- يا لها من سعادة عندما يدخل منزله الجديد.
- نعم سيعود بجيوب مليئة بالنقود.

وثالثة:

- كم هي سعيدة زوجته.
- يا ليت كان هو زوجي.
- لماذا لا تقولين لو كان زوجي مثله.

واستمر الحديث وكانت زوجته تشارك النساء الحديث.

- ألا تعرفين لقد أرسل لزوجته ملابس من البحر .. كلها من الحرير.
- أيوه .. وسمعت أنه سوف يشتري أرضا من الفقيه.
- يقولون أنه غني جدا؟
- نعم كل من ذهب في البحر يعود غنياً!
- لماذا .. هل النقود هناك في الشوارع؟..

كان حديثهن نصالاً حادة تطعنه في القلب ،ورأى طفله الصغير يلعب في التراب وقد ظهر نصفه عارياً تماماً — وكان يتمزق .. وشعر بالحلبة تحرق فمه .. وبالرغيف يتحول إلى تراب .. والنساء يتحدثن وفي أصواتهن مرارة.

وذات مرة كان عائداً من السوق عندما لمح بعض النسوة يقفن في الطريق وقد وضعن أحطابهن على سور من الحجارة .. وهن يسترحن من رحلة التحطيب سمع وهو يمر بجانبهن أحداهن تقول:

- انظري إلى ذلك المنزل .. ألا يشبه بيوت الجنة؟

- نعم أنه أبيض وجميل.

وقالت إحداهن .. وكانت جميلة . وشابة:

- يا ترى .. من صاحب هذا المنزل السعيد؟

وضحكت أخرى وقالت:

- ومن هي صاحبته.

وفعلاً بعد أيام وصل صاحب المنزل .. وكان عيداً في القرية .. ذهب الجميع إليه .. وفي المقدمة كان الأطفال.

وعاد ابنه الصغير حاملاً بيده قطعة من التمر .. وأراها لوالده قائلاً أنظر يا أبي ما الذي أعطانيه.

ثم أضاف وهو يمضغ بتلذذ.

- لماذا لا تذهب أنت وتحضر لي مثل هذا؟.

وشعر عبده سعيد بخنجر يمزق أحشاءه.

كان عبده سعيد يتحدث مع والده وهو ينظر إليه.

- يجب أن أسافر يا ابتي.

- والأرض يا عبده.

- أنت فيك الخير يا أبي.

- لكني قد شخت.

- ستساعدك زوجتي .. وسأعمل هناك وأرسل لك نقود تستطيع أن تأجر بها عمالاً.

كان والده يريد أن يبقى للأرض - ويريده أن يسافر للمال .. ولم يكن يستطيع أن يقرر .. أما عبده سعيد فكان قد قرر كل شيء..

- إنني منتظر بركاتك يا ابتي.

- إذاً ما دمت مصراً .. فسأدعو الله أن يبارك ويسدد خطاك.. ويفتح أمامك أبواب الرزق.

وفي صباح أحد الأيام .. كان عبده سعيد قد غادر القرية . وقبله ومن بعده غادر القرية آخرين.

كان ذلك قبل اثني عشر عاماً .. أنه لا يعرف في قريته سوى القليل .. سوى تلك الخطابات التي تحمل إليه مرتين أو ثلاث في السنة لكنه .. كان سعيداً لأنه بالرغم من هذه المدة الطويلة .. إلا أنه كان يعيش بأعماقه لا في (سدست كيلو) ولكن في قريته البعيدة الصغيرة.

وكان عبده سعيد سعيداً في هذا الأسبوع الأخير لقد استلم رسالة من القرية لكن الأهم هو أنه استلم في الرسالة صور عديدة لمنزله الجديد، ذو الطوابق الثلاث حيث وزعت فيه في كل دور نوافذ كبيرة صنعت خصيصاً في المدينة وحملت إلى القرية، ان المنزل الجديد عروسة القرية كما تقول الرسالة وكما تقول أيضاً الصورة، كان منزله واضحاً تماماً. وكان جميلاً. حتى أن دموع عبده سعيد تساقطت مرات كثيرة، لكنه كان يضحك في نفسه خاصة وهو يقرأ مقطع في رسالة ابنه. " أنهم جميعاً يعجبون بمنزلنا حتى أن البعض يريد أن يبني مثله " نعم ابنه، أنه يكتب كلاماً بخط أجمل، تماما كخط الفقي الذي كان يحسده عليه، لكن ابنه قد أصبح رجلاً كما تدل الصورة وكما يدل أيضاً وجه حفيده الصغير.

نعم لقد شعر عبده لأول مرة بالمسافة الزمنية التي عزلته عن القرية.. لقد أصبح جداً وأصبح مالكاً لأحسن منزل في القرية.. وأكثر من هذا وذاك لقد أصبح يمتلك الكثير من أرض القرية .. خاصة ذلك البستان الذي يحد الوادي تحت الجبل .. حيث كان يسرق منه حين كان راعياً، الموز ... وأنواع أخرى من الفواكه.

أما ابنه .. نعم ابنه تركه حين كان في الثامنة من عمره اليوم صاحب دكان في المدينة. وكان كما يقول في رسائله " أن دخل الدكان يكفينا " ونحن نستطيع لو عدت إلى البلاد أن تستغني عن هجرتك.

أهالي الحي، والأرمني وصاحب الدكان الحديث كلهم لا يعرفون أين تذهب نقود عبده سعيد أما هو فقد كان يعرف تماما أين تذهب نقوده.

في صباح اليوم التالي رأى عملاء دكان عبده صورة منزله الجديد معلقة في منتصف الدكان.

كان منظراً عجيباً حقاً، ففي الدكان لم تعلق سوى صورة .. صورة قديمة جدا أعلاها التراب والقذارة للإمبراطورة. كانت معلقة في زاوية مرئية في الدكان.

وكان عبده يقدم لعملائه ما يحتاجون إليه . وهو ينظر إلى عيونهم المعلقة في الصورة – وكان في أعماقه يشعر بالقلق، ترى ماذا سيقولون لو عرفوا أن هذا منزله، منزله بالذات.. يا ترى أي شعور يمتلكهم.

جاشت خواطر كثيرة في نفسه .. ولو لم يكن الحياء يمنعه لأخذ الصورة وعرضها عليهم كلهم ولتفاخر دون انقطاع، لكنه لا يستطيع، لم يعرف أحد عنه سوى أنه يبتسم ويخدم عملاءه .. لم يحدث أحداً منهم عن نفسه، أو عن أحلامه، كان صامتاً كالقبر، لكنه كان يحدثهم كثيراً عن أنفسهم وأحياناً يقدم لهم نصائحه، بل يحدث أن يحل مشاكل تحدث في بيوت عملائه وأحياناً يعيد

خادمة تهرب من فيلا أنيقة، يعيدها إلى عملها ويكون أيضاً قد أقنع صاحب الفيلا بزيادة مرتبها.

أما عن نفسه .. كلا. هذا لم يحدث.

لكن الصورة ظلت معلقة — وعيون العملاء تلتهمها بفضول.

كانت هندسة المنزل غريبة .. فمن غير المعقول أن يكون المنزل في الحبشة وسأل أحدهم بحياء:

- منزل من هذا الذي في الصورة ؟؟
- كم هو جميل!!

وكانت ينابيع السعادة تتدفق في قلب عبده.. ولأول مرة يضيف كمية لا بأس بها إلى كيلو الدقيق الذي قدمه للرجل .. بل وقبل أن يجيب كان قد أعطى الرجل قطعة حلاوة قائلاً:

- خذ هذا لأبنك الصغير.

ثم التفت إلى الصورة وقال أنه يريد أن يتأكد من شيء ما:

- أتقول حقاً أنه جميل.

وقبل أن ينتظر رد الرجل الذي كان يهز رأسه إيجاباً قال:

- نعم — أنه " قصر " شيخ قبيلتنا، أنه رجل غني وشجاع ولديه أراضي كثيرة، هل أعجبك المنزل حقاً ؟

ومضى عبده يضحك بفرح عذب، بينما قال الرجل:

- فعلا، إن مثل هذا المنزل لا يصلح إلا لشيخ قبيلة غني.

ومضى اليوم وكان عبده يريد أن يقول للجميع أن المنزل منزله لكنه كان يخاف ذلك لأسباب عديدة.. يخاف ألا يصدقوه ثم لم يقول أنه منزل الشيخ،- أنه شخصيا أكثر من شيخ، بل أن منزل الشيخ الذي يبدو في الصورة لا يساوي شيئاً بالمقارنة بمنزله.

نعم أنه يعرف الحقيقة، وكان لا يريد أن يعرفها الآخرون خاصة هذه الأيام أنه أصبح يشك في كل عميل جديد يدخل دكانه.. خاصة الرجال، وقلما يتحدث معهم. إلا إذا بدأوا هم الحديث..

وكان دائما يشكو لهم أنه لا يربح أي شيء.. بل أنه بالعكس يخسر الكثير.
لقد بدأ يعرف أن الأرمني يشيع حوله في مجالسه.. وفي الدكان والحي أشياء كثيرة- قالت له ذلك خادمة تشتغل في منزل الأرمني كانت في أحضانه قبل أيام- قالت أنها سمعت الأرمني يقول أن عبده سعيد لم يدفع ضرائب للحكومة منذ سنوات ست.. وأنه يكسب الكثير ولا يقدم حساباته في كل عام كما يجب أن يفعل. بل أن الأرمني قال أنه مستعد أن يثير القضية في الحكومة لأن عبده- كما يقول- كان يرشى بعض الموظفين حتى لا تطالبه الحكومة بالضرائب.. كان عبده يخاف من ذلك. فلو قال أن المنزل منزله وأنه يملك أراضي.. فمعنى ذلك أنه يكسب بل ويهرب ما يكسبه إلى بلاده. إذا قالوا اهتمت الحكومة بالأمر.. لفقد كل شيء، حتى حريته ولعرف السجن وظلامه.
ولذلك كانت سعادته ممزوجةبالقلق.. وفكر كثيراً بالأمر.. وها هو الآن يخطو لصالح تحقيق فكرته.. عليه أن يعمل بهدوء وصمت ودون أن يعرف أحد حتى أقرب المقربين إليه.
في المساء كان عبده قد أغلق دكانه.. لقد ذهب اليوم نهارا إلى- الدكان- لشراء أشياء كثيرة يحتاجها ولم يدفع ثمن ما أخذه كالعادة.. قال للتجار أنه سيدفع بعد مدة.. ثم ذهب إلى الحمام حيث اغتسل- كان من عادته يغتسل مرة في الشهر.. لكنه اليوم يغتسل لأمر في نفسه قبل أن يأتي موعد استحمامه الشهري.
وعندما عاد إلى الدكان وبدأ يعمل.. رآه سكان الحي بالبدلة الجديدة التي لا يلبسها إلا في الأعياد قال لهم أنه لم يجد الوقت لتغييرها.
لكنه ما كاد يغلق الدكان حتى كان قد حلق ذقنه.. أكل ما تبقى له من غذائه.. وأطفأ النور، كانت الساعة العاشرة.. عندما

غادر الدكان وهو يحاول قدر الإمكان أن لا يلمحه أحد وفي جيبه كانت سكينة حادة.. على استعداد للدفاع عن النفس.

مر في شوارع هادئة.. وكان الوقت ربيعا.. وأشجار كبيرة خضراء تتلاعب الريح بأغصانها، وصوت تلاطم الأوراق يعيد في نفسه حنينا إلى القرية.. وكانت السماء سوداء سوى نجوم صغيرة تلمع.. ثم تغيب عندما تمر سحابة سوداء.

مر بشوارع كثيرة يعرفها، كان يقصد منزلا قريبا من دكانه، لكنه لكي يصل إليه كان عليه أن يمضي في شوارع أخرى، لعل أحدهم يلمحه فيثير ضجة لا يريدها مطلقا.

كان يسير، وهو يفكر في خطته التي رسمها بدقة ولم يكن يفكر في هدف هذا المساء إلا قليلاً، كل ما يشغله هو أن يرى ابنه وأرضه والمنزل الجديد.

أما زوجته فهو لا يفكر فيها إلا أحياناً، ونادراً ما يدعو لها بالصبر لكي تعمل في الأرض، وتربي أبناءها، كان يتصورها كما تركها في الثانية والعشرين من عمرها.. صغيرة، هادئة، وفي وجهها أحلام بريئة، ونظرات بسيطة، كان يبتسم أحياناً وهو يجاهد ليرسم صورتها في خياله، وكثيراً ما يفشل كان وجهها قد انمحى من رأسه تماما، وعندما كان ينجح في رسمها كانت صورتها تختلط بصور عشرات النساء اللواتي مر بهن في أديس أبابا. وكان هذا يغضبه، فهو لا يريد أن يقارن زوجته بالنساء الأخريات أنها في نظره طينة أخرى " طاهرة " تماما كبلاده.

كان قد وصل إلى المنزل وجد الباب الخلفي مفتوحاً مضى في وسط حديقة يفوح منها عبير أزهار كثيرة ووقف عند وردة متمنياً أن يقطفها لكنه أوقف رغبته عندما رأى نافذة واحدة منارة وبينما النوافذ الأخرى في المنزل يطبق عليها ظلام دامس فتح باب الفيلا الخلفي، مضى صاعدا في درجات يعرف عددها تماما ودق على باب في الطابق الثاني طرقات خفيفة وبعد ثوان فتح.

في وسط الغرفة وقفت امرأة في حوالي الأربعين سمراء ممتلئة عليها عينان زنجيتان واسعتان، وفم صغير، وابتسمت وهي تراه، وقالت: لعلك درت حول المنطقة كلها.

وهمهم بصمت.

نظرت إليه أحست في نظراته بحزن غريب فقالت وقد تملكها شعور بالقلق ما الذي حدث.. ما الذي يزعجك؟.

أوه- لا شيء أنني متعب.

مضت إلى غرفة داخلية.. ومضى خلفها.. وأطفأت أنوار الصالة.. قالت وهي تتوسط غرفة النوم الأنيقة.. ذات السرير الواسعة..

- طبعاً متعب.. أنك كلب لا تترك أي لحمة إلا وابتلعتها.. فكيف لا تشعر بالتعب.

- من قال لك هذه الخرافات؟

- أنني أسمع كل شيء.

قالت ذلك وعلى شفتيها ابتسامة.

- أنك تعرف ذلك جيدا.

تقدم إليها وضمها إليه بقوة.. فقالت وهي تتأوه بلذة وتمد له شفتيها- الا تعرف أنه قد سافر إلى أسمره ولن يعود إلا بعد شهر.. ألسنا سعداء نستطيع أن نلتقي يومياً- أليس كذلك؟..

لم يجب عليها بل مضت يداه تتلمسان آثار جسدها البغي.. وفي داخله شهوة شيطانية وشعر بها ترتجف. وحملها كطفلة إلى السرير.. بعد قليل كان عرق حار يملأ ساقيها.

- أرجوك قد يستمعون إليك.

قرصته في وجنتيه بحب وقالت:

- أيها المغفل .. لقد أعطيت الجميع إجازة لا أحد هنا سوانا- أنني أريد أن امتلكك حتى الغد...

وشعر بعرقها.. وعاد الشيطان إلى أعضائه وكانت الساعة الواحدة.

وكانت تشعر بقوة اللذة. وكانا عاريين فوق سرير من حرير وفي تقاطيع جسدها كانت رائحة عطرة ممتزجة بعرقها.. تملآن أنفه. أما هي فقد كانت تدفن وجهها في أبطيه.. في شعر صدره الغزير. وتستنشق عبيره الممتزج بصابون رخيص اغتسل به بعد الحمام نهار اليوم.. برائحة دكانه الذي يدفن نفسه فيه ساعات حياته.

أوه يا لك من حيوان لذيذ.

ومضت تقبل كل ما يقابل شفتيها.

- آه. إني ظمآنة. أريد أن أشرب.

قامت عارية من السرير.. وبالرغم من أنه كان يعرف كل تفاصيل جسدها الأسمر إلا أنه غض الطرف حين لمحها واقفة أمامه عارية.. ورأى العرق يلمع فوق جسدها العاجي وفوق نهديها المتماوجين.. مضت وعادت بعد قليل وبيدها قارورة وسكي باردة وصبت كأساً وقدمته له.

نظر إليها بفزع.. وتمتم باستمرار.

- أعوذ بالله.. أعوذ بالله جنبنا يا الله شرها.

قالت له وهي ترى شفتيه تتحركان.

- ما الذي أصابك.. لم لا تأخذ كأسك.

- أنني لا أشرب.. لا أريد أن أرى منظر الخمرة. أعوذ بالله منها

ضحكت بل غرقت في قهقهة وارتمت بجانبه على السرير.. وقالت في تهكم.

- لا تشرب !! أوه أيها المسكين.. لماذا؟

أجابها وهو يشعر بالقلق.

- ألا تعرفين أنه حرام علينا.

- حرام!!

قالتها في دهشة..

- طبعاً حرام أن ذلك ما يقوله ديننا.. وأنت تعرفين أننا لا نشرب

مدت له الكأس بقوة وقالت:

- خذ.. دعك من هذه السخافة.

قام من سريرها وبدأ يلبس ملابسه قائلاً.

- لو قطعت قطعا. لما شربت. أتريدين أن أخرج من ديني.

عرفت أن الرجل جاد في ما يقوله.

- لكنك.. لكنك تنام مع النساء. أليس هذا حراماً؟

نظر إليها.. كان قلقا وكان يلبس ملابسه بينما مضت هي تشرب وتنظر إليه.

- هاه.. أليس ما كنا نصنعه الآن حراماً أم. أم أن الخمر أشد من ذلك؟ لم لا تجيب أنك حيوان لا تملك.. قلباً أو ذوقاً. كل ما تريده هو أن تضاجع ككلب درني.

ومضت تشرب.. بينما كان هو واقفا أمامها ولقد لبس كل ملابسه.

- إلى أين تريد الذهاب؟

- سأعود إلى الدكان.

نظرت إليه وهي تشرب.

- هل أنت متأكد؟

لم يجب لكنه قال:

- لن أشرب مهما عملت.

وقفت أمامه عارية وكان العرق يتلألأ فوق أعضائها وكان نهداها منتصبين بتحد.

- هه ما رأيك.

مدت ذراعيها إلى كتفيه العريضتين.. ارتفعت على أصابع قدميها كانت تنظر إليه بإغراء.

أغلق عينيه وكان يتمتم باستمرار.

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. أعوذ بالله يا إلهي أنك تعلم ما تخفي الصدور أنك..

وعاد من جديد إلى السرير.
وكانت ملابسه تنام في أنحاء متفرقة من الغرفة.. كانت الحرارة مرتفعة في الغرفة لذلك تمدد دونما غطاء.

- متى ستأتي غداً.. أنني انتظرك أنت تعرف أن كل ما نعمله محرم علينا ولكن لا أحد يستطيع أن يمنعنا مادمنا نريد ذلك. أليس كذلك؟.

أنت أيضاً تعرف ذلك.. أن ذلك ليس حراما ما دمنا نرغب فيه ما دام ذلك في صالحنا. كل ما هو في صالحنا فهو حلال. حلال.. أنت توافقني أنك صامت قل كلمة يا حبيبي بل يا رجلي القوي.

- أوه.. لا أعرف أنت تعرفين أنني لم أدفع الضرائب منذ مدة طويلة وقد ساعدتني أنت في ذلك كثيراً سمعت أن هذا الملعون الأرمني يريد أن يكشف الأمر.. أنت تعرفين أنني فقير أتعب من أجل أن أربح سنتا واحدا هل ستحدثين زوجك حتى يساعدني أنه موظف كبير يمكنه أن يتلاعب في القضية.

كانا ممدين فوق السرير.. كل ينظر إلى الآخر لحظات ثم يغيب في أفكاره الخاصة.

- نعم.. نعم وهذا أيضاً حلال في رأيك ما دام في صالحنا ما دمت ستبقى معي أليس كذلك؟ أنت لا توافقني بالقول ولكنك بالعمل تثبت نظريتي لكنك تنظر إلي كشخص.. كفرد. هذه أنانية لكني سأساعدك فيها.

أما أنا فإنني انظر إلى سعادتنا و..

توقفت قليلاً ونظرت إليه.. وفجأة لاحت في وجهها ابتسامة حزينة.

- وقد تكون أنت.. أنت بنفسك.. نعم قد يكون كل ما تصنعه مجرد لذة. للحظات ومنافع أخرى.. أنا أذن أبحث عن سعادتي فقط. عن لذتي.

نظرت إليه وفي نظرتها احتقار له.

- أتعرف ما هي السعادة؟

نظر إليها نظرة بلهاء وفكر وهو يتمتم.

- السعادة..

ومر برأسه شريط سريع.. المنزل الجديد في القرية، الأرض الجديدة المرأة الغريبة التي تشعر بأنفاسه العفنة، أنت لا تعرف عذاب هذه الليالي.. أنت حيوان لكنها لم تنتظر إجابته.

كلا أنت لا تعرفها.. السعادة ليست أشياء محسوسة أنها إحساس.. إحساس لذيذ نشعر به ونحن نصنع الحب إحساس لذيذ نظل نبحث عنه سنوات وقد نجده للحظة واحدة، لكنها تساوي كل شقاء السنين، أنت لا تعرف كون أن تعيش امرأة مع زوج ينام بجانبها كجثة نتنة، زوج كله عظام وعندما يقبلها تشعر بأنفاسه العفنة تخنقها، أنت لا تعرف عذاب هذه الليالي.. أنت حيوان لا يهمك شيء.. وأي امرأة بين ذراعيك تروي عطشك أنك تعيش في سراب يا صديقي في سراب.

كان عبده يفكر بأشياء أخرى، ويسمع صوتها كأنه في قبر عميق، أنها ستساعده، لن يدفع هذا العام أيضا ضرائب، معنى ذلك أن خطته تسير إلى النجاح كم سيضحك من ذلك الأرمني؟

ومرت عليه سحابة ضيق، ولكنه سيخلي الطريق أمام الأرمني، وهذا هو كل ما يتمناه هذا الأرمني من سنين، آه لو استطاع قبل أن يمضي نهائياً أن يحكم الأرمني أيضاً، ولكن كيف؟ نعم كيف؟

- إنك تفكر يا صديقي، قد يكون ذلك طيبا لكننا من طينة مختلفة وسنبقى كذلك كل منا يحتاج إلى الآخر.. ما الفائدة أن نكون مجرد محتاجين. متى نستطيع أن نعيش تماما كما نتمنى؟!

نعم ذلك أيضاً ما كان يزعج عبده سعيد أنه يفكر كثيرا متى يستطيع أن يعيش كما يتمنى أن يصلي صباح كل يوم فوق سقف منزله الجديد حتى يراه أهل القرية، أن يذهب إلى البستان يقطف من فاكهته وأن يطارد الأطفال، ويمنع النساء بمرح من أن

يتخذن ظلال بستانه مكانا لراحتهن عند عودتهن من جلب الحطب. أن يثبت سلطته.

نعم متى سيقول الناس.

- منزل من هذا؟

- يا له من منزل عظيم!!

ومتى سيسمع هذه الأجوبة التي حلم بها أعواما طويلة، في ليالي الشتاء الباردة.. وتحت قمر الربيع الحالم.

- إن هذا المنزل وذلك البستان والمدرجات الكثيرة التي في الجبل هي، ملك عبده سعيد، نعم عبده سعيد ولا أحد غيره.

- أيه إنه لا يملك هذا فقط بل ويملك أيضا دكاناً كبيراً في المدينة يديره ابنه، نعم ابنه.

ومتى يتساءل الناس.

ومن هذا الرجل، من أين أتى؟

ليسمع الإجابة وهو يبتسم.

- أوه ، من لا يعرفه، إنه عبده سعيد صاحب أجمل منزل في القرية.

وسمع صوتها، من جديد، فأخرجه من أحلامه.

- فيما تفكر يا عزيزي، الصباح يقترب خذني إليك.

وقذفت بنفسها في أحضانه

(٢)

كان عبده جالساً في الدكان .. وكانت الساعة تقترب من السادسة مساء وفجأة دخلت " طائتو ".

نظر عبده إليها باستغراب. فهو لم يرها منذ مدة طويلة .. منذ أصبحت أجمل مومس في الحي .. وأصبح لها الكثير من العملاء والمحبين.

نظرت إليه وقالت:

- مساء الخير. لماذا تنظر إلي هكذا باستغراب؟ هل أخفتك؟.

كانت تنظر إليه بعيون جميلة وبابتسامة هادئة تملأ وجهها الأسود الصغير .. واستمرت.

- أم هل نسيت تلك الفتاة الصغيرة التي صنعت منها امرأة في لحظات ها .. كانت جميلة .. امرأة ناضجة مليئة بالشهوة. تغري أي إنسان يقترب منها.. وكانت هادئة..

كان عبده يمضغ أوراق قات صغيرة.. خضراء وهو ينظر إليها ولا يجيب.

- يا له من إنسان غريب .. أنك تقطف أوراق القات وتعصف بالأغصان.. كم يذكرني هذا بصدر النساء اللاتي قذفت بهن بعيداً بعد أن امتصيت كل نضارتهن.

قال لها وهو يلتهمها بعينيه:

- حتى أنت تقولين هذا.. ما الذي أتى بك؟

ابتسمت وقالت:

- لا تخف لم آت لأقول لك أن أصبحت أباً لطفل آخر مني .. يكفي أن أطفالاً كثيرين ينتسبون إليك.. يا له من حجر قلبك هذا!! أيستطيع الإنسان أن يترك أبناءه وهو يعرف هذا حق المعرفة..

- أسمع لقد أتيت إليك لأقول لك أن " فاطمة " قد ماتت بالأمس. أنت وأكملت:

تعرفها تماماً .. لقد ماتت بعد أن عانت المرض أكثر من ستة أشهر ولم تستطع أن تتحمل أكثر.. ولقد تركت في غرفتها الصغيرة ذات السرير – حيث كانت – تحمل طفلاً صغيراً.. وأنت تعرف أنه ابنك أنه وحيد لا أحد لديه .. أتى إليك .. أنا أعرف أنك إنسان تافه.. ولكن لعل في أعماقك تولد عاطفة أسمها الأبوة .. أنه أبنك يا عبده يجب أن تعمل من أجله أي شيء. يجب.

كان وجهه يعبر عن أشياء كثيرة.. وفجأة أحس بأن القات يسد حنجرته. ولم يكن يستطع أن يحب ابنه، لقد رآه مرات كثيرة.. يلعب مع أولاد الحي، أنه يشبهه كثيراً حتى أنه تذكر المثل القائل (ابن الزنا يشبه أبوه) أنه أبيض مثله يحمل نفس وجهه الطفولي البريء لم يأخذ من أمه سوى شعرها المفلفل وشفتيها الزنجيتين ولكن ما الذي يستطيع أن يعمله ولقد قرر ترك كل شيء والعودة إلى بلاده، قرر الهروب إلى منزله الجديد وأرضه التي اشتراها بعرق سنوات الفراق الشاقة ليرى ابنه، نعم ابنه الحقيقي، ابنه الشرعي أما هذا يا إلهي ما العمل أن الفتاة تنظر إليه وهي تنتظر إجابته بماذا يجيبها ماذا يقول لها؟ لم يواجه في حياته هنا مشكلة كهذه.

أنه يحل مشاكل الناس، لعنة الله على الحيوان القذر الذي سبب له هذه المشاكل، لماذا كان على المرأة أن تلد وأنت تعرف أو ولدها غير شرعي " زنوة " وردد الكلمة في أعماقه " زنوة " ما الذي ستقوله للناس حين يعرفونه أنه أبنه هذا كلا ليس أبنه بل (زنوة) ما الذي ستقوله زوجته التي تصلي وتنتظر عودته مساء كل يوم – ما الذي سيقوله لابنه الذي تربي وأصبح رجلاً كبيراً نعم يجب أن يتخلص من هذا الأمر .. يجب.

- إذن ما الذي تراه؟ كيف، ترى الأمر؟ بدأ مترددا خائفاً يا للشيطان ولكنه كان صامتاً.

أنت لا تريد أن تحل المسألة فكر يا عبده ما الذي ستقوله لها.

- فكر يا عبده أنت إنسان طيب هذا ما أظنه فيك.. لا أعرف حقيقتك، ولكني لن أنساك مطلقاً كنت أحلامي العذرية.. كم تمنيت لو كنت رجلي.. أنت أول رجل في حياتي أعطيتك كل شيء ولم أطلب منك شيئا، كنت أعرف أنني لن أحصل منك على شيء – ولكنني كنت شجاعة ترى هل ترى ستكون شجاعاً مرة واحدة؟ " إنني أحبك " لم اقل لك هذا مطلقاً ولم أكن

احب أن أقوله لكني ماذا سأعمل، أنت الذي تستطيع إنقاذ هذا الطفل، أنت والده، تذكر أمه، كم كانت طيبة رحمة الله عليها، حدثتني عنك كثيراً، وتنهدت في حزن وعلى وجنتيها العذبتين سالت دموع.

وكان عبده متردداً – ثم قال بعد صمت.

ولكن ما الذي تريدين أن أعمل، كيف. أنا لا أستطيع أن آخذه إلى هنا وأقول أنه ابني، ستأتي كل النساء الأخريات ويقذفن بأطفالهن عندي، أنا لا أستطيع أن أعمل لك أي شيء – كلا. أرجوك ألا تأتي إلي بمشاكل.. أنني أكل عيش " أنني اتعب من أجل فرنك " واحد يدخل خزانتي .. فكيف بالله تريدين أن أضم إلي طفلاً " زنوة " على أنه ابني .. ومن يعرف أنني أبوه .. الله وحده يعلم.

كان يسير في خطوات قلقة في الدكان وكان وجهه كريهاً.

- أنت تعرف أنك حقير .. ولكنني ظننت أنك قد تعطف على الطفل.

- نعم حقير..

وهز رأسه في أسف.

- طفل. أي طفل هذا الذي تتحدثين عنه أنه زنوة .. أتعرفين لو كان ابناً شرعياً لاختلف الأمر.. هل تريدين أن تفقرينني أنني متأكد أن كل النساء اللاتي ولدن زنواتسوف يحملن أولادهن إليَّ قائلات أنني أباً لهم.. كلا لست مغفلا.

- ولكنك فعلاً أب لهم .. أب لكثيرين أم أنك تنسى بسرعة .. وهل نسيتني مثلاً .. الطفلة التي جعلتها امرأة على أكياس دقيق فارغة.. في هذه الزاوية .. كم أصبحت أكره رائحة دكانك العفنة.. ولكني عندما كنت غريرة كنت أظن أنها أعظم الروائح طيبة .. لا زلت أتذكر كل شيء يا عبده .. ولكن وللأسف كنت

سعيدة .. جداً معك .. الجميع يعرفون أنك " رجل " لكن لا تملك قلب الرجال .. أنك حيوان ضخم .. لا تملك قلبا.
كانت تتحدث ودموعها تسيل .. وهو ينظر إليها وفي أعماقه يتحرك الحيوان وتذكر عندما كانت طفلة أنها لم تكن جميلة كما هي الآن وأنه لم يرى امرأة تبكي أمامه.. كم هن جميلات النساء وهن يذرفن الدموع .. وكم هي جميلة الآن " طائتو " هذه .. أنه يتمناها.. يريدها..
كانت عيناه مفتوحتين.
لا أملك قلباً .. أنا .. آه لو تعرفيني فقط لماذا أشقى كل هذا الشقاء.
لماذا أتعذب وأقتل نفسي، إنني أملك قلباً طاهراً أنني أريد أن أعيش في قريتي أريد أن أموت وقد صنعت أشياء كثيرة طيبة لابني ولزوجتي، كلا يا " طائتو " أنك لا تعرفين شيئاً، سأذهب إلى الحج، ستغفر كل ذنوبي، سأعود إلى قريتي، وهناك سأبقى دائما في المسجد أتعبد أذكر الله صباح مساء الله أمرنا يا (طائتو) أن نعمل كل ما نستطيع عمله، ولأولادنا، نعم أولادنا الشرعيين، أن لدي ابن واحد فقط، أما هؤلاء فقد خلقهم الله ويتكفل بهم وإلا لما خلقهم، لماذا يخلق الله " الزنوات " ما دام لا يتكفل بهم، لست أنا المسئول الله يعلم ذلك. لكنك جميلة يا (طائتو) جميلة جداً وأنت تبكين.

- أرحم هذا الطفل .. أشعر بقليل من الحنان بعد أن فقد أمه .. الأخريات لهن أمهاتهن .. وهن لسن في حاجة إليك أن لدي كل منهن عملها .. وكلهن لا يطمعن في دكانك هذا الحقير.

كان عبده ينظر إليها.

- كن إنساناً مرة واحدة.

ذهب عبده إلى باب الدكان، أغلقه وهو يقول:

- اسمعي دعينا نفكر في الأمر، أنني لا استطيع هكذا أن أقبل أن يكون لي ابنا من السماء، أنت تعرفين هذا.

واقترب منها كانت تظن أنه يريد أن يقول لها أشياء أخرى ومن خلال دموعها رأته يقترب منها، يضع يديه على كتفها يضمها إليه بقوة. وشعرت بالحرارة ونفذت إلى أنفها رائحة الدكان من خلال شعر صدره الكثيف وعادت إليها كل الذكريات البعيدة، وفاطمة التي ماتت بالأمس، ومسحت دموعها، ابتعدت عنه، نظرت إليه بحنق، ثم قالت:

- هناك آلاف السكارى الأغبياء يملكون قلوباً من ذهب، هناك فقراء لا يملكون " فرنكاً " واحداً لكنهم يبيعون أنفسهم ليعيش أبناءهم حتى ولو كانوا (أولاد حرام).

- أما أنت، (وكان يقترب من جديد).

- أما أنت فمجرد حيوان.

وشعر عبده بيدها تهوي على وجهه.

تهوي بشدة، بعنف، مرات ومرات وصوتها يتردد مع اللطمات المتتابعة: كلب، قذر، حمار سوف أريك، سوف أفضحك أيها الحيوان.

وعندما استعاد نفسه، كان وحيداً في الدكان، وآثار عطر جعل الحيوان يصرخ في أعماقه، ومضى إلى الداخل، كان يشعر بطعنات حادة تمزقه، هو الرجل القبيلي تصفعه امرأة . هو. عبده الذي لم يسمح لأحد أن .. تهينه امرأة مومس بنت حرام تصفعه لا مرة واحدة، بل مرات، هذه التي عرف جسدها كل الرجال تهرب منه.. لأول مرة يرى امرأة ترفضه، بل وتهينه أيضاً، يا لها من مومس، لقد قالت منذ قليل أنها تحبه الملعونة إنها تريد أن تبتز ماله أو تسرقه أن (تربطه) بابن حرام. آه سوف ينتقم منها، نعم سوف ينتقم منها هذه (النعجة) لقد أتت لتغشه، تظنه مغفلاً، ها، هاها.

يا لها من ابنة حرام.. إن شغلها أن تغش الرجال ولكنه لا يشبه الآخرين إنه قبيلي سوف يشرب من دمها .. وأخرجه من هذيانه دخول أحدهم قائلا:

- أعطيني سيجارة وكبريت.

ودون أن يفكر كان يجيب:

- لا يوجد شيء.

ولكن الرجل ظن أن عبده نسي أن معه سجائر فقال.

- السجائر هنا .. مالك اليوم.

وصرخ في وجه الرجل:

- أقول لك لا يوجد شيء .. اذهب إلى الشيطان.
- ولكن..
- الا تسمع لا أريد أن أبيع، أنا حر.. أريد.. أطلع من دكاني.

وخرج الرجل وهو يتمتم.

- عجيب سبحان مغير الأحوال.. عبده يفقد ابتسامته لقد جن الرجل.

وقابل الرجل أحد عملاء الدكان.

وراحا في همس طويل وهما ينظران إلى عبده ذو الوجه المحمر.. وشفتيه اللاتي لا تكفان عن التمتمة .. وكانا يريان يديه وهما ترتفعان في الهواء بغضب.

- لقد جن.
- نعم كنت أفكر في هذا من زمن طويل على أنه مجنون.. منذ زمن بعيد.
- نعم.. يجب أن نحذر الناس.
- كان يمكنه أن يقتلني لو رأيته يصرخ في وجهي نعم أنه مجنون.

مسكين لو نعرف أهله لطلبنا منه أن يأخذوه إلى المستشفى.

أما عبده فقد كان في عالمه يهدد ويتوعد تلك التي أعادت إليه فجأة كل شعوره القبلي بأنه رجل وقد أهانته امرأة وهذا معناه أن الإهانة لا يغسلها إلا الدم.

(٣)

كانت " طائتو " تتكلم بحرارة.. والسيد أمين يستمع إليها ويهمهم بكلمات غير مسموعة .. وكانت دموع تتساقط من عينيها والسيد ينظر إليها بحنان ويقول:

- لا تهتمي أيتها الفتاة الله يعيد الأمور إلى مجاريها.

لكنها كانت مستمرة في حديثها:

- أرجوك يا سيدي .. أنني أعرف أنني مسيحية وأن إلهك غير إلهي. وكلنا بشر.. وهذا الطفل لا أستطيع وحدي أن أتكفل به، أنت تعرفني أنني أعمل كخاطئة.. ولكن ماذا أستطيع أن أعمل يجب أن أعيش أن أبحث عن لقمة خبز.. غدا سأكون قد فقدت شبابي ولن أجد أحد ينظر إلي.. لهذا يجب أن احتفظ ببعض النقود تفيدني في أي وقت عندما أفقد .. الأصدقاء الذين يترددون اليوم على بيتي. أنني أعرف أن أحدا لن يقبلني زوجة له ولكن.

ونظرت إليه من خلال دموعها .. كان يتمتم وحبات المسبحة تتساقط في تناغم موسيقي عذب وهمت بتقبيل يديه.. لكنه سحبها منها بسرعة.

وقالت:

- اغفر لي أنني أزعجتك إلا أنه يجب علي أن أقوم بذلك. أتغفر لي يا أبتاه.. أنك الوحيد الذي يستطيع أن يقنعه.

كان السيد أمين.. في الحلقة الخامسة من عمره ذو لحية كثة.. ووجه يتألق منه النور.. وعلى جبهته علامة سوداء من أثر السجود كان طيبا يستقبل كل من لديه شكاية في أحد ويحل الكثير من المشاكل وكان يقصده الكثيرون مسلمون ومسيحيون.

بعد الذي حدث بين عبده سعيد وبينها فكرت " طائتو " كثيراً في أن تتوجه إلى السيد/ أمين وقد شكت له مشاكلها، ووعدها في النهاية بأن يساعدها بقدر الإمكان وكان يتحدث معها وهو يرسل حبات مسبحته. أيتها الفتاة، لا تهتمي بشيء الله سبحانه وتعالى موجود، وهو رحيم بعباده، إن الله لا ينسى عباده اذهبي إلى منزلك، وسيكون كل شيء على ما يرام جففي دموعك واذهبي.

كانت " طائتو " تستمع إليه، وتريد أن تقول كل شيء فهي لم تعرف الكنيسة إلا عندما كانت طفلة، أرادت آن تعترف للرجل الشيخ الجالس أمامها بوجهه المضيء بكل الأخطاء التي ارتكبتها. أرادت أن تقول له أنها تحب عبده سعيد إلى درجة الجنون.. كان الشيخ يمثل لها الأب والراهب ورسول الإله، ظنت أنه سيقول كلمات لربه ليمحو خطاياها، كانت تنظر إليه وأمل يلمع في عينيها.

- يا ابتي أدع لي ربك الطيب. ليأخذ بيدي ليرحمني.

ابتسم الشيخ وقال وهو يعد حبات مسبحته الكهرمانية:

- الله يتقبل الدعاء ما دمت تريدين مخلصة أنْ تتوبي- اعملي الطيب واتركي الخبيث، والله غفور رحيم أريد أن أقول شيئاً لا تقولي لأحد أنك كنت عندي دعيني اتصرف.. والله سيلهمني بكل شيء لا تنسي هذا والآن اتركيني أفكر، أذهبي وكوني طيبة.. أعبدي الله الواحد القهار الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

أذهبي.. لك السلام .. لك السلام.

خرجت " طائتو " وفي أعماقها أمل ينمو هل سيغفر الإله لها أشياء كثيرة.. ربما .. الله بالنسبة لها واحد.. رب للجميع أليسوا جميعاً بشرا أبناء لآدم وحواء.. يا ريت هذا الشيخ يدعو ربه ليأخذ بيدها أنها تعرف بأنها تعيش في الوحل.

.. ولكن ما الذي يمكنها أن تصنعه أنها ستموت حتما من الجوع.. إذن فلينتظر الله أن يخلي منزلها من العملاء نعم لتنتظر إلى أن يكون الجميع قد ملوها عندها ستكون قد اقتصدت بعض الدراهم وربما بعدها تفرغت لله.. لقد قال الشيخ إن الله غفور رحيم.. الله يعلم بمالها بل أنه هو الذي رسم لها هذا الطريق: كانت تسير وهي تفكر.. ونظرت إلى السماء وكلها دعاء ورجاء وأمل ما ينمو وينمو.. وكان الربيع يحتوي أديس أبابا فيحولها إلى حديقة جميلة .. رائعة.

صاح السيد/ أمين بابنه قائلاً أذهب إلى الحاج عبداللطيف قل له أنني أريد أن أراه الآن .. أسرع.

كان السيد يفكر أن أمامه حياة إنسان عليه أن ينقذها من الفناء.. من الضياع. كان السيد أمين قد ترك اليمن عندما كان في العشرين من عمره.. تعلم في مدارس " جبلة " علوم الدين والفقه.. ووجد الحبشة مكانا واسعاً أيضاً واتباعاً كثيرين. وعندما بلغ الأربعين كان قد اعتزل الناس في بيته الكبير المكون من عشر غرف، وحوش كبير كان يجلس دائماً في غرفته التي قسمت إلى قسمين قسم خاص به لا يدخله أحد حتى زوجته يعتكف فيها نصف شهر يقدم له الطعام من خلال نافذة صغيرة.. ويبقى يتعبد ويقول أتباعه أن الملائكة دائما ما تزور زاويته وتتحدث معه وقد سمعوا أصواتا رقيقة ناعمة وعذبة تحدث السيد عن أشياء كثيرة في الدين.

وكلما خرج السيد من عزلته تلك كان يبدو أكثر ابتساماً، ومرحاً ويقول أشياء غامضة يفسرها أصحابه بأنه ينقل أحاديث الملائكة. وكان يخصص النصف الثاني من الشهر لمقابلة الناس وحل مشاكلهم، ونصحهم وتعليمهم مختلف تعاليم الدين فهو لم يخرج من غرفته تلك مدى العشر سنوات الأخيرة، ولا أحد يعرف كيف يغتسل وأين يقضي الضروريات، وهم يرونه دائما

أبيض الوجه نظيفاً إلى درجة اللمعان أما كيف ومن أين يعيش فأتباعه يقولون أن الملائكة تحمل للعائلة شهرياً كل محتاجات المنزل، والحقيقة أن أحدهم كان يرسل إليه مع مطلع كل شهر كل المحتاجات ويستلم ثمنها طبعاً من آخرين مجهولين وكان السيد يقول - كل ذلك من بركات ربي وسعت نعمته.

وبالرغم من اعتزاله في منزله إلا أنه كان معروفاً في كل أديس أبابا وكان منزله دائماً قبلة الناس في أيام الأعياد ولا يستطيع أحد أن يحصي عدد الهدايا التي تقدم بهذه المناسبات.

وكان السيد لا يذهب إلى المسجد لصلاة الجمعة وعرف في أديس أبابا أنه لا يسمع له صوت في خلوته بمحرابه الداخلي - ثم سمع أنه يحضر صلاة الجمعة دائماً في مسجدين اثنين في الشهر في المسجد الأقصى حيث أسري بالنبي ومرتين في مكة، وأخرى في المدينة أما كيف يصل إلى هناك، فقد اختلف الرواة، فبعضهم يقول أن الملائكة تحمله وهو يلبس ملابسه البيضاء التي تشبه ملابس الملائكة وتطير به إلى هناك حيث يؤدي فريضة صلاة الجمعة - والبعض الآخر يقول أن حصان النبي - البراق - الذي أسرى به إلى السماء يأتي ليحمله وبالرغم من اختلاف الروايات إلا أن الجميع متفقون اتفاقا كاملاً على أن السيد يؤدي الصلاة هناك حاضرا، وقد شك بعض الأتباع وكثيرا ما يوجدون وسط الشباب فترقبوا دخوله إلى محرابه، وقد اختلفت رواياتهم أيضاً فالبعض يقول إنه لم يسمع له أي حس كأن إنساناً لا يوجد في المحراب، كذلك لم يقدم له أي طعام وآخرون قالوا، أنهم سمعوا بعض الأصوات الخفيفة، فسرها الآخرون بأنها همسات الملائكة التي حضرت لتأخذ السيد إلى القدس، الشيء الأساسي أن الجميع كانوا مختلفين - ومتفقين على شيء واحد هو أن السيد أكثر من ولي إنه روح طاهرة.

دخل الحاج عبداللطيف وقبل يد السيد باحترام وجلس بهدوء وهو ينظر إلى فم السيد الذي يتابع سقوط حبات المسبحة.
ظل صامتاً مدة، وهو ينظر إلى الحاج بعينيه الواسعتين، حتى أن الحاج أحمر وجهه عدة مرات وفكر يا ترى لماذا ينظر إلي. ترى ما الذي يريده.
وقبل أن يستمر في تفسيراته قطعها السيد بقوله:
- نعم يا حاج لك الحق في أن تتساءل لماذا دعوتك اليوم – ولكني لا كما تظن في نفسك الآن ولكن لسبب آخر.
كان الحاج يعرف أن السيد يقرأ أحياناً ما يدور في نفس الإنسان فبدأ يصف نفسه على استعجاله بإبداء التشكيك في سبب دعوته ويبدأ يلوم نفسه إلا أن السيد مضى يقول:
- ولا داعي لكي تلوم نفسك فالله سبحانه وتعالى يعلم ما في ضمير عبده الإنساني ولقد دعوتك لكي نتشاور في أمر يهم الله ويهم دينه الحنيف.
وبدأت علامات الفضول ترتسم في وجه الحاج عبداللطيف، بينما مضى السيد في حديثه وحبات المسبحة تتساقط كأوراق الخريف.
- نعم أمر مهم يتعلق بمصير إنسان.
لقد علمت بهذا الأمر عندما كنت في خلوتي سمعت صوت عذبا يقول لي " يا سيد أمين كيف تترك إنساناً مسلماً في أيدي النصارى ولا تسرع لإنقاذه " أيكون هذا وأنت تعيش، فكيف إذا مت.. أنت يا سيدي مسئول عن عبدالله وقد أجبته قائلاً: " مولاي وسيدي من أين لعبدك المسكين أن يعلم ما دام هاجعاً في عبادتك، متضرعاً طالباً مغفرتك، مولاي أنني عبد فقير إلا في حبك " وقد أجابني الصوت قائلاً " لا باس عليك نحن نعلم ما في القلوب ولكن رأيت أن أحذرك، وأقول لك أن عبادة الله وحدها لا تكفي وإنما إنقاذ أرواح المسلمين من النار هو الأهم، ألا فأعلم أن عبده سعيد قد عصى وارتكب معصية فقد زنى بامرأة يقال لها " فاطمة "

أنجبت منه ابناً، وقد اخترت (فاطمة) إلى جواري بعد أن تعذبت في الدنيا من مرض أصابها، وقد تركت أبنها الذي ولد بالحرام ولكن من أبوين مسلمين لكافرة فأسرع يا سيد بإنقاذ روح هذا الإنسان المسلم تفز بالرحمة ".

كان السيد يتحدث بصوت مهيب لكنه عذب وهو يصوب نظرات حادة إلى الحاج الذي خفض نظراته إلى الأرض وراح يهز رأسه وهو يردد في أعماقه:

- يا سبحان الله .. اللهم رب العرش العظيم، ما أعظم قدرتك وأجل شأنك يا من تعلم المخفي وتظهر الأسرار.

واستمر السيد في حديثه.

- وهكذا يا حاج عبداللطيف أظهر الله أمراً كان مستوراً لفائدة يريدها للإنسان، وقد قلت للصوت العذب.. أنت تعرف أيها الرب بأن عبدك المسكين لا يهيم إلا بك لا يعرف كل الناس في هذه المدينة الكبيرة، وذلك لتفرغه لعبادتك وطلب المغفرة منك، وقد أجابني الصوت العذب" نحن نعلم كل شيء فقم بساعتك وأدعو إليك عبدنا الطيب الحاج عبداللطيف وأحكي له كل ما قيل لك "

كان الحاج عبداللطيف يسمع ذلك وفي أعماقه سرور عظيم أذن فالله سبحانه وتعالى يعرفه بل ويطلب من السيد أن يستعين به.

- يا الله .. يا عظيم يا رب، معنى ذلك أنني إنسان طيب وان الله راضٍ عني ما أوسع قدرتك يا إلهي.

وقاطعه صوت السيد أمين:

- لا تغتر يا حاج عبداللطيف – إن الله لم يرد إلا أن يمتحن إيمانك وقدرتك على تحقيق ما يريده.. أنه امتحان عسير يا حاج عبداللطيف والفوز لمن خرج منه برضاء الله وعفوه، فقم لساعتك وأذهب إلى هذا الرجل ولا تقل له أي شيء مما قلته لك ، أنه سر بيننا، حاول بقدر الإمكان أن تتصرف وأن تقنعه وإن لم تستطع.

ونظر إلى الحاج نظرة ثاقبة وبصوت جهوري هز قلب الحاج هزا عنيفاً قال:

- وإن لم تستطع – فإن الله ينتظر نتيجة امتحانه لك.

وهز رأسه وراح بيد يعد حبات المسبحة الطويلة.. وبيد أخرى يساوي شعر ذقنه الكث المصبوغ بالحنا.

- إنني أحسدك يا حاج على هذه النعمة.. ولكني واثق أن الله قد وضع ثقته في الرجل الصالح.

كان الحاج يفكر بإمعان .. وفي أعماقه فرح طفولي .. كان يريد أن يجري إلى الخارج أن يصيح بكل واحد قائلاً:

- أيه اسمعوا .. أن الله يعرفني أن الله يختارني أنا بالذات لأنقذ إنساناً من أن يكون نصرانياً- واستمعوا لي أن الله يحبني.

وقبل أن يمضي بأحلامه بعيداً كان صوت السيد يقول:

- لقد قلت لك لا تغتر يا حاج. أن حب الله لك لا يعني أنه يتغاضى عن أي شيء تقوم به، بل واضع عينه عليك وهو لا يسهى ولا يغفل. فكن على حذر قم إلى عملك الذي اصطفاه لك الله ثم بارك لك في مالك وذريتك.

قام الحاج وقبل يد السيد الذي كان يحاول بكل جهده سحب يده وقبل أن يغيب الحاج قال السيد:

- ولا تنسى يا حاج أن تمد يد المساعدة لتلك المرأة التي آوت هذا الطفل خرج عبداللطيف والدنيا لا تسع فرحته.. وكان يسير وهو لا يحس بشيء مطلقا وبالرغم من أن عشرات الناس كانوا يلقون عليه التحيات .. إلا أنه لم يلمح أي شيء .. مضى وكأنه يطير – وكان ينظر إلى السماء وملئ عينيه دموع فرح وشكر بامتنان.. كان الحاج رجلا قصير القامة ممتلئ الجسم ذا لحية سوداء صغيرة.. في الخامسة والأربعين من العمر أثر السجود ظاهر فوق جبهته. وكان أحد أغنياء اليمنيين في أديس أبابا وأحد قادة " الجالية " فيها كما كان له دور في ثورة- ١٩٤٨ – إذ أنه كان

أحد كبار الأحرار اليمنيين وهو لا يزال حتى الآن يؤمن بهم .. بل ويقدم لهم الكثير من المساعدات.

كان يسير وهو يفكر كيف سيحكي غداً لأصدقائه .. ولكن لما غداً بل الآن.. كلا .. عليه أن يقوم بالمهمة قبل كل شيء .. نعم .. إنه يستطيع أن يجد هذا الرجل فهو يعرف الكثيرين من اليمنيين .. فعليه أن يبدأ بالبحث والسؤال عنه عند اليمنيين.. وعندما دخل دكانه اقترب منه سكرتيره وقدم له الحسابات كالعادة.. ولكن الحاج نظر إلى السكرتير وابتسم قائلاً:

- يا ابني قم بالعمل وحدك .. أنا لدي مسألة هامة أوكلها إلي الرحمن .. دعني الآن..

نظر السكرتير إلى الحاج باستغراب..

لكن الحاج مضى قائلاً:

- لماذا تنظر هكذا .. أوه أنت لا زلت شاباً يجب أن تعرف أن الله سبحانه وتعالى لا ينسى عبداً من عباده .. وقد تذكرني.

مضى السكرتير وهو يبتسم فهو يعلم أن الحاج كان عند السيد لكنه عاد بعد قليل قائلاً للحاج:

- هل تريد أن تأمر بإرسال شيء للسيد.

- الله يهديك .. ما شاء الله.. أن الله من حبه لي وضع عقلاً طيباً في رأسك.. أسرع وأرسل أحسن البخور. وعطر. وقماش و.. وراح يعدد أشياء كثيرة .. والسكرتير يبتسم وهو يسجل بينما قال الحاج:

- نعم إنه ولي .. من أولياء الله الصالحين لو كان لدينا مثله يا ابني لتحررت اليمن من زمان ولكن ما العمل وكل الشباب أمثالك تخلوا عن الدين: لقد غضب الله علينا بسببكم.. لكن الله لن ينسى عباده.

وجلس على كرسيه خلف المكتب الفخم .. وراح يحلم بالجنة.

(٤)

لم يكد يخرج الصباح حتى كان الحاج عبداللطيف يدور في مختلف دكاكين – المركاته – يسأل عن من يعرف عبده سعيد وفي النهاية دلوه على دكان صالح سيف.

كان الحاج عبداللطيف يقوم بمهمته وهو يشعر برضاء تام وتفوق على الآخرين.. حقيقة فقد كلف مرات كثيرة من قبل حزب الأحرار أن يقوم بأعمال كبيرة – تنظيم اجتماعات رئاسة الجالية، جمع تبرعات. بل وإلقاء خطب حماسية يختلط فيها الدعاء والدين بالحماس السياسي لتحرير اليمن.

دخل دكان صالح وهو يرسم على شفتيه ابتسامة كبيرة بعد التحايا والابتسامات .. دخل الحاج في موضوعه قائلاً:

- يا سيدي العزيز قد أتيت إليك في مسألة هامة جدا .. وهي تحتاج إلى تعاوننا وتكاتفنا لأن الموضوع يهم ديننا وبلادنا.

منذ أن دخل الحاج إلى الدكان كان صالح سيف يفكر بأن الحاج لم يأت إلا لطلب تبرع جديد وعندما بدأ حديثه تأكد لدى صالح سيف وبدأ يفكر بأي طريق يتخلص منه.. أنه يعرف الحاج شخصاً طموحاً ولن يرضى مطلقاً بتبرع صغير، وكان عقل صالح يفكر بسرعة، وهو يدعو الله أن يخرجه من الإشكال الجديد الذي هبط عليه فجأة .. حقيقة أنه أحد المؤمنين بفكرة الأحرار وكثيراً ما دفع لهم تبرعات وقرأ جرائدهم ومنشوراتهم، وعندما قامت الثورة كان من الناس الأكثر تحمساً لها بل أنه فكر جديا بالعودة إلى اليمن وبدء حياة جديدة في ظل الثورة.

ولكن الثورة ماتت في مهدها ومضت السنين وصالح سيف. يفقد إيمانه يوماً بعد يوم بقيام ثورة جديدة وإصلاح الأحوال في اليمن. وكان دائماً يبدي تبرمه من قضية التبرعات التي كثرت .. لكنه دائماً ما يقدمها وهو يعرف الآن بأن الحاج ما دام قد حضر

بنفسه.. وخاصة على شفتيه هذه الابتسامة فإن الأمر يحتاج إلى مبلغ كبير وهذا ما كان يخيف صالح سيف.

لكن الحاج عبداللطيف مضى في كلامه:

- أنت تعرف أن إعطاء ابن من أبوين مسلمين إلى الكفار لتربيته يصنع من الطفل عندما يكبر كافراً مثلهم.. وديننا الحنيف يأمرنا بإنقاذ مثل هؤلاء.. والذي أتيت من أجله .. هو كي أقول لك أن الأمر لم يعد خافياً.

كان صالح يفكر.. ما دخل طفل بالدين والوطن لكنه صمت حتى تتبين الحقيقة.

- وهكذا فإن عبده سعيد وأنت تعرفه قد ارتكب الزنا مع امرأة مسلمة وولدت له ابناً وقد ماتت المرأة تاركة طفلها في أحضان امرأة مسيحية سيئة السلوك والأخلاق، وقد أتيت إليك لنتباحث في الأمر حتى ننقذ هذه الروح الصغيرة ونعيدها إلى الإسلام.

وتنفس صالح سيف حامدا الله على أن الأمر ليس فيه تبرعات جديدة. وهز رأسه قائلاً:

- إذن دعنا نذهب إليه ونكلمه في الأمر ليأخذ ابنه ويربيه. فكر صالح قليلاً

- أنت تعرف عبده سعيد؟

- نعم!

- أذن دعنا نذهب إليه ونكلمه في الأمر ليأخذ ابنه ويربيه.

فكر صالح قليلا ثم قال:

- نعم ولكن هل تعتقد أن عبده سعيد سيعترف أن هذا الطفل طفله.. أنا أعرف هذا الرجل. أنه طيب ومعه امرأة في القرية وابن وله أكثر من أربع عشرة سنة هنا ولكن لا اعتقد بأن الرجل سوف يعترف بأن الطفل ابنه أنه مسلم وتقي ولا اعتقد أنه سيعترف بأنه اقترف الزنا.

ضحك الحاج وقال:

- عجيب الأمر ليس اعترافاً أنت تعرف أن لا أحد من اليمنيين في الحبشة إلا وقد عرف أكثر من امرأة.. هل يعقل أن يظل رجل سنوات دون أن يقترب من امرأة – المغفل كان يجب أن يحذر حتى لا ينجب أولادا في الحرام أما وقد عملها، فلا فائدة لا بد له من احتضان الطفل.

- الأمر ليس بسيطا هكذا.. نأتي إليه لنقول له بأن هذا الطفل ابنه ثم هز رأسه بحيرة ونظر إلى الحاج مستفهماً.

- ولكن من أين علمت أنت بهذا الأمر؟ من الذي قال لك ذلك؟

ابتسم الحاج عبداللطيف وأراد أن يقول للرجل كل شيء وكيف أن الله اختاره هو بالذات لتأدية هذه المهمة، ولكنه تذكر تحذير السيد له. فقال بصوت هادئ وصارم كالذي يوحي لك بأنه يعرف أشياء نتيجة لقوة سحرية ملهمة.

- إن الأمر لا يخفى على الله وعلى المؤمنين.. إن الله يحصي على خلقه أنفاسهم فما بالك برجل أنجب طفلا في الحرام.

هز صالح سيف رأسه كأنه اقتنع بالإجابة.

- إذن أنت ترى أن نذهب للرجل ونحدثه، أنا لا أمانع وخاصة أن يستمع لك أنت بصفتك رجلا كبيرا ومعروفاً بيننا.

- ولكن كيف نفتح له الموضوع؟

قال الحاج مفكرا.

- الله معنا .. إذا أراد الله شيئاً فلا بد من أن يتحقق.

مضت السيارة تنهب الطريق من المركاته – إلى – سدست كيلو – وقد خيم صمت على الاثنين وكل منهما كان يفكر بالطريقة التي يمكنها أن تقنع عبده سعيد، فصالح سيف يعرف تماما بأن الرجل " بخيل فهو يراه دائما بنفس البدلة، وحتى الآن بالرغم من أنه يكسب كثيرا فهو لا يهتم بنفسه ولا يعرف أين تذهب نقوده فهو قليلا ما يزوره خاصة في الأعياد ثم أن عبده سعيد لم يهتم مرة في حياته بأمر اليمن وتحررها.

فكم رآه يقلب الجرائد عنده دون أن يفكر حتى بقراءتها – ولم يدفع مرة تبرعاً أو يحضر اجتماعا للجالية .. كان يعيش منعزلاً يدخل – المركاته – مرة في الشهر لشراء ما يحتاج إليه الدكان ثم يعود من جديد .. بل أن صالح سيف لم يفكر مرة واحدة بزيارته ولا يعرف حتى أين يقع دكانه وفي أي شارع؟

في الحقيقة لو لم يكن حديث الحاج هذا لما فكر في زيارته أو حتى فكر في أمر هذا الرجل.

- أسمع هل يكسب عبده هذا .. الكثير؟

كان السؤال من الحاج الذي يقود السيارة.

- والله كيف أقول لك؟ لا بد أن يكسب كثيراً ولكن لا أحد يعرف أين تذهب نقوده.

- ألا يرسل لأهله مصاريف؟

- والله لم يحدثني مرة .. أنه نادراً ما يزورني في الأعياد لكنه سرعان ما يمل مقيلنا ويذهب.

- هل هو رجل تقي؟ يصلي ويصوم.

- أعتقد أنه تقي.

- إذا كان تقيا فأين تذهب نقوده أذن؟ لا بد وأن الرجل يشرب الخمر فالخمرة أم المصائب وفيها تضيع كل نقوده.

ولم يجب صالح سيف فهو لا يعرف ذلك لكنه ابتسم بسره – وقد علق سكرتير الحاج عبداللطيف فيما بعد عندما سمع برأي الحاج في الخمر قائلاً " في لساننا نقولها .. ولكن بقلوبنا نعبدها هذه الصهباء " ثم غمز لجلسائه " أن الحاج يعرف كيف يتخلص من تهمه " ولكنه ينسى أن يبتلع – نعناع – وهو يحاسب مساء كل يوم.

- مالك صامت .. ما دام الرجل يزني وينجب أطفالاً في الحرام فلا يهمه أن يشرب الخمر أليس كذلك؟

- كيف أقول لك.. أنت بنفسك تدري يا حاج أن الكثير منا .. واستدرك قائلاً أعني اليمنيين يعرفون مختلف النساء فهل معنى هذا أنهم أيضاً يشربون.

ولكن الحاج أجاب بسرعة:-

- انا قلت عن هؤلاء الشباب أولئك الذين لم يتزوجوا .. أما نحن والحمد لله فلدينا عوائلنا وأولادنا ولا نحتاج إلى ارتكاب المعصيات استغفر الله العظيم منها.

ولكن صالح كان يقهقه في داخله — إنه يعرف تماماً من هو الحاج عبداللطيف ويعرف جماعته أيضاً وود لو قال للحاج " وأنت ألم تعرف الخمر يا حاج " لكنه صمت لأن السيارة وقفت في أحد شوارع " سدست كيلو " الهادئة وصاح الحاج بأحد الأحباش المارين قائلاً:

- ألا تعرف أين يقع دكان عبده سعيد .. كيف لا يعرف!! وهل هناك أحد في هذا الحي لا يعرف دكان عبده!!

وقفت السيارة أمام باب الدكان كان الوقت يقترب من الظهر.. وشمس ربيعية ترسل أشعتها لتخترق أوراق الشجر النائمة على نوافذ الشارع فترسم على الأرض صورا جميلة.

ولمح أطفالا كانوا يلعبون في أطراف الشارع السيارة وهي تقف كما رأوا الحاج وصالح يخرجان منها ويتجهان إلى الدكان كان هذا بالنسبة لهم منظرا جديدا فكم من الأيام مرت لم يروا فيها أحد يأتي بسيارة أو حتى دونما سيارة إلى دكان عبده سعيد، ومضوا مسرعين وهم ينظرون إلى ملابس الضيوف الأنيقة والجميلة وعلى مشداتهم الجميلة التطريز.. وهمس أحدهم.

- لماذا لم نر عبده بمثل ملابسهم.

ولم يجب أحد منهم بل ظلت عيونهم معلقة بالرجلين وهما يصافحان عبده وعلى شفاههم ابتسامات ود.

طبعا لم يكن عبده سعيد يتوقع أن يزوره أحد في دكانه – الشيء الوحيد الذي لم يكن مطلقا ليفكر في إمكانية حدوثه فما بالك إذا كان الزائر هذا هو الحاج عبداللطيف.

لذلك دق قلبه بقوة وهو يرى السيارة تقف ويخرج منها الحاج وصالح سيف.

ترى ما الذي قذف بهما إلى دكانه أي أمر دفع بهما إليه.

وعندما رأى الابتسامات معلقة على وجوههم شعر بالخوف أكثر، هل الأمر متعلق بتبرعات، يمكن .. ولم لا والجميع يعرفون أن الحاج من الأحرار – وهو المتحدث باسمهم، ولكن لماذا حضروا اليوم بالذات أن الحاج يجمع التبرعات من زمن بعيد، ولم يفكر بالمجيء إلي حتى صالح سيف عندما كان يذهب إليه لم يفتح له أي أمر، حقيقة أن صالح كان يقول له خذ هذه الجرائد، اقرأها أو يتحدث في مقابله أيام الأعياد وعن تطور الأحوال في اليمن ويفند مزاعم حكومة الإمام. بل ويقذفها بالكثير من السباب واللعنات، لكنه لم يطلب تبرعا من أجل الأحرار، أذن الأمر ليس تبرعات قد يكون شيئاً آخر ترى ما هو؟

ظل الرجلان واقفين أمام عبده وكانا في حيرة ففي الدكان لم يكن يوجد أي نوع من الكراسي وفيما عدا سريره وأكياس الدقيق والأرز لا يوجد مكان يجلسون عليه وظل حائرا ترى هل يدعوهم إلى الدخول والجلوس على سريره أن ذلك لمستحيل فالغرفة قذرة.. والسرير، أي سرير مجرد صناديق وبطانية قديمة ما العمل؟ وظل الرجلان حائرين أيضاً فالمكان صغير جدا.. ورائحة نسوها تماماً منذ أن كانوا يملكون قبل الحرب دكاكين – معطارة – صغيرة كهذه، بل أنهم لم يكونوا يتصورون أن يكون لهذه الدكاكين وجود.. كان كل شيء يبدو غير طبيعي.. فالدكان رغم صغره كان يعج بأشكال من البضائع في فوضى كاملة، والرجل الواقف أمامهم كان أيضاً شيئاً أسطورياً، بملابسه

السوداء القذرة والتي تلمع بتأثير أنواع الزيت والسمن وأشياء تساقطت عليها..

كان الحاج في رأسه مقدمة طويلة وحاول بصلابة أن يتذكر آيات من القرآن وأحاديث نبوية ليدعي بها للرجل، لكن ذلك كله ضاع وهو يقف في الدكان أمام عبده الذي كان يحاول أن يبتسم، ولكن بخجل.

ومر بالدكان جماعة من عملائه، لكنهم سرعان ما عادوا وهم يرون الضيوف واقفين معه، وقال أحدهم لنفسه:

ترى هل أقبلوا ليأخذوه.. مسكين هل حقا أنه مجنون، لقد فقد ابتسامته منذ أيام لعلهم سيأخذونه إلى الطبيب ومضى وهو يهز رأسه بحسرة على مصير عبده.

قال الحاج وهو يتأفف من الرائحة التي أزكمت أنفه خاصة وأن رائحة غداء عبده التقليدي كانت تفوح من الدكان مختلطة برائحة الصابون والزيت والسمن وكل أنواع البضائع ذات الروائح.

- لقد أتيت إليك في مسألة ابنك.

كان صوته قويا صارما – وقال كلمته بإيجاز حتى أن عبده فتح فمه بدهشة .. وهم بأن يتمتم بشيء لكن الحاج استمر:

- لقد علم الناس وعليك أن تأخذ ابنك وتربيه أليس حراماً أن تتركه للكفار.. لامرأة غير شريفة .. للصعلكة والضياع.

عندما سمع عبده كلمة " ابنك " طار فكره بسرعة إلى ابنه في اليمن لكنه تمالك نفسه وهو يسمع الكلمات الأخيرة وبدأ يعي كل شيء وكان صالح سيف ينظر إليه وهو يشعر بالقلق فالحاج قد دخل في الموضوع دونما أي تقديم ولكنه معذور.

وساد صمت ثقيل.

وكانت العيون تنتقل بسرعة خارقة إلى شيء.. صمت .. عيون قلقة تترقب.. وقطع عبده الصمت بصوت هادئ:

- أذن لقد أتت تشكي إليكم.. لم أكن أفكر بذلك .. لم أكن اعتقد أنكم ستستمعون إلى مومس.. كنت أعتقد أنكم أناسٌ كبارٌ مفكرون..

ولكن.

وتوقفت أربعة أعين عن الدوران ، وجمدت في محاجرها.. ماذا يعني؟

ونظر صالحٍ سيف إلى الحاج، وكان الدم يغمر وجه الحاج، كان وجهه احمرا بإهانة تمزقه!!

لكنه تمالك نفسه.

- اتقى الله أيها الرجل، ماذا قلت لقد أتينا لننصحك نحن لا نريد أن يقول الأحباش عنا أننا نترك أولادنا في الشارع مع الكفار.

- ومن قال لك أنه ابني..

وبصوت غاضب قال:

الله.. الله قال ذلك.

- أذن دع الله يربيه.

قالها عبده بصوت جهوري.. وعيناه بدأتا تحمران.

- ماذا .. استغفر ربك يا رجل هل كفرت.. الله يقول من عمل منكم سوءاً فليدرأه بحسنة.. أما أنت فتزيد السوء سوءا.

وهنا تدخل صالح سيف وهو يحاول أن يكون أكثر تعقلا..

- يا جماعة حرام تتكلموا هكذا ما رأيكم .. هيا إلى الطريق.. الهواء يجعلنا نفكر بهدوء ما رأيكم هيا.

ومسك الحاج بيده وخرج به إلى الشارع كان الجو رائعاً والشمس دافئة..

- اسمع يا عبده نحن من بلاد واحدة وأبناء عم. وكلنا يمنيون وإذا حدث شر لأحدنا فهو شر علينا كلنا لذلك أتينا إليك، لا لنتشاتمٍ ولكن لنتصافح كأخوة، ما رأيك؟

كان عبده صامتاً.

- كل ما في الأمر هو أن الحاج يرى أن ترك الطفل بيد النصارى قد يؤدي بروح مسلمة إلى الكفر، ونحن طبعا كمسلمين نرى أن لا نترك أولاد المسلمين للجحيم.. أليس كذلك؟

نظر عبده إليه بهدوء وابتسم قائلا..

ولم تجدوا إلا أن تأتون إلي .. وأنا الفقير لتقولوا لي هذا الكلام لماذا لا تنظروا إلى الآخرين.. كم من أغنيائهم صنعوا أولاد في الحرام، ها .. كم قولوا لي.

وبان القلق في وجه الرجلين لكن صالح استمر بهدوء:

- لا يعلم إلا الله ما تقوله أما نحن فقد سمعنا بأمرك وأتينا إليك.

- نعم سمعتم (قالها بسخرية) من قال لكم: هذه القحبة، أليس كذلك، وهنا قال الحاج وهو يكاد أن ينفجر:

- لا تتهم الناس.. لقد قال لي هذا الكلام السيد أمين.

وساد صمت رهيب. وحدق عبده في الرجلين وهو لا يصدق.

- من. من. السيد.

- نعم السيد أمين قال لي هذا الكلام.

- ومن أين عرف؟ كيف؟

لم تكن الدهشة في وجه عبده وحده لكنا أيضاً سيطرت على وجه صالح سيف.. كان الرجلان يعرفان السيد ولكن كيف عرف بالأمر أنهم قد سمعوا عنه الكثير ولكنهم لم يكونوا يظنون أنه يعرف حتى خبايا الناس.

وعرف الحاج أن زمام المبادرة الآن بيده فقال:

- أن السيد يعرف أشياء كثيرة، ولا يخفى عنه أي شيء.

- ولكن لماذا اختارني أنا بالذات؟! هناك الكثيرون.

ولم يدعه الحاج يتم كلامه.

- سيأتي دور الآخرين.

كان عبده يفكر بصعوبة ترى هل ذهبت طائتو للسيد ولكنه لا يقابل المومسات أنه رجل تقي ورع ترى هل أوحى إليه؟ معنى ذلك أن الله غاضب عليه وشعر فجأة بخوف رهيب.

- ياجماعة.. ما العمل كيف ترون الأمر؟
- لا شيء خذ الولد إليك وربيه.
- لا أستطيع.. لقد قررت ترك كل شيء والعودة إلى اليمن، كيف أحمل زنوة معي.
- العودة إلى اليمن.. لماذا؟
- هكذا، سوف أعود إلى بلادي.

وضحك الحاج وقال:

- أنظر إنه مجنون سوف يعود إلى اليمن.. أنه يظن أن هناك جنة وأن الإمام قد أصبح طيبا، يا رجل ما دام الوضع في اليمن هكذا فلن يستطيع أي إنسان أن يعيش هناك، أفهمني ،، الأوضاع هناك متردية، لا فائدة من العودة إلا بعد الثورة.
- لا تهمني الأوضاع سأعود إلى قريتي أفلح أرضي وأبقى مع زوجتي وابني.. كيف أحمل معي زنوة؟
- قل لهم أنك تزوجت.
- كيف أتريدوني أن أكذب عليهم. كلا، لا استطيع.. الله وحده يعلم أن كان هذا أبني او لا.
- يا رجل اتق ربك هل تعتقد أن السيد ونحن نكذب عليك.

كان القلق يمزق عبده، فهو لا يدري كيف يجيبهم، لقد وقع في مأزق حرج ولا يستطيع أن يخرج منه أنه يعرف ان الابن ابنه، ولكنه زنوة، ابن حرام كيف يرضى هو بأن يأخذه.

- كلا يا ناس سوف تأتي كل النساء بعدها مع أولاد الزنا، سيقولون أيضا أنني أبوهم.

ونظر الرجلان بعضهما إلى بعض، وكانا يبتسمان.

قال صالح بعد قليل.

- متى قررت أن تسافر؟
- إلى الحج، ثم بعد ذلك في آخر السنة، سوف أذهب القرية.
- والدكان!
- بدأت أفرغ الأشياء التي فيه.
- وهل فكرت في الأمر تماماً؟
- نعم لقد فكرت فيه منذ سنين، وأتيتم أنتم بهذه المصيبة!

ضحك الحاج وقال:

- نحن، من قال لك أن تضاجع النساء؟
- إنني رجل.
- وهذا قضاء الله..

وأضاف صالح:

- وعقابه لك.
- أيوه.. لا يعاقب الله إلا الفقراء أما الأغنياء...

وهز راسه بحزن:

- يا رجل الله لا يفرق بين عباده كل له عقابه،
- وعقاب الفقير في المقدمة.
- هل كفرت؟

كان حائراً!

وظل الرجلان صامتين، ولكن كل منهما يفكر بأشياء كثيرة. فالحاج بدأ يشك في كيفية معرفة السيد أمين بأمر عبده سعيد الا تكون المراة التي قال عنها عبده سعيد قد زارت السيد أمين في منزله وحدثته في الأمر، ولكن ذلك أمر صعب فهو يعرف أن السيد لا يستقبل الناس إلا نادراً ثم كيف يستقبل مومس تبيع نفسها للناس.

وفي أعماقه كان يصدق أن السيد أمين كذب عليه، ولكن لماذا أيضاً لا يكون ما يقول حقيقة ففي كلا الحالتين فهو سعيد قد قال الحقيقة فالله سبحانه وتعالى هو الذي أختاره لهذه المهمة التي

بدت الآن فقط أنها صعبة ومتعبة، وأن كان السيد كاذباً فالسيد يتحمل التبعة وسينال هو – الحاج – الجزاء الطيب من الله.

- ها يا عبده فيما استقر رأيك؟
- لا أعرف.. الأمر صعب جدا.

وهنا قال مبتسما ومشجعا:

- يا راجل.. الأمر بسيط فكر فيه تماما – اليوم وغد وسنعود إليك بعد ايام – إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا فأنت تنقذ حياة إنسان تضمه إلى الدين الحنيف بدلا من تركه في أيدي الكفار.

ومد يده مصافحاً.. وكذلك فعل الحاج وبعد لحظات كانت السيارة قد اختفت في نهاية الشوارع. وعبده واقف أمام باب دكانه يفكر.

- أجر.. أنهم يتحدثون عن الأجر وهم ملاعين يرتكبون الفضائح ولا أحد يقول لهم أنتم.. أما نحن الفقراء فإنهم يحصون علينا أنفاسنا.

أجر، إذا أرادوا إنقاذه ابن الكلب فليأخذوه هم- لماذا حكم علي أنا، لعنة الله على الشهوة، من قال لها أن تحبل، أن تلد.. يا إلهي أستغفرك ولكن عبدك مسكين.

ولكن الله خلقه، وهو المتكفل به فإذا كان السيد أمين قد أوحى إليه الأمر فمعنى ذلك أن الله يعرف أمره وهو سيتكفل بأمره، نعم ولكن أنا أبوه الله يعلم، كلا، الله غفور رحيم ولن يأخذ فقير على ذنب يا رب سوف أحج سوف استغفر عن كل الخطايا، وسأبقى إلى نهاية حياتي تقياً ورعاً أخرج عبدك من هذه " الورطة ".

وفي المساء لم ينم، كان قد ذهب إلى – الفيلا – وهناك قال لها كل شيء ابتسمت وهي تنظر إليه وهما فوق السرير:

- إذن لقد عرفوا.. ماذا يهمك، تستطيع أن ترفض ما دمت لا تحمل في قلبك حباً أبوياً نحو هذا الطفل المسكين، وما داموا يريدون إنقاذه من أن يصبح كافراً فليتكفلوا به هم.

كانت تحدثه وسخرية تملأها، وهي تنظر إلى الرجل النائم بجانبها.

- يا لك من إنسان، تصنع أطفالاً للفقراء، أما لي أنا.. كم أريد منك طفلا، أوه يا إلهي، لو منحتني طفلاً، لذبحت لك أيتها العذراء كل يوم، ولصليت لك أيها القديس جرجس أمام عشرات الشموع المحترقة تحت تمثالك، لأطعمت المساكين أوه. أيتها العذراء، هلا منحتني طفلا؟

(٥)

كان السيد ينظر إلى الحاج عبداللطيف ويهز رأسه وأخيراً قال بصوت حازم ورهيب وقد ترك مسبحته ترتمي على الأرض.

- إذن لقد جلب لنفسه الدمار لقد ارتكب معصية ولا يريد أن ينفذ مشيئة الله ، سينتقم منه، نعم سينتقم منه ، إن الله لا يرحم أنه شديد العقاب.

دعه في غيه أن المعاصي تتراكم ولكنها تكون في النهاية طوفاناً.. لقد جلبلنفسه الدمار، ولقد أعذر من أنذر.

كان يتكلم وكل لحيته تهتز، وقد أحمر وجهه، وظهرت عروق يديه.

- والآن يا حاج دعني اختلي إلى ربي أشكو إليه ظلم خلقه وفسادهم.. وتوجه أنت إلى الطفل أنقذه يا حاج أنقذ نفسا مسلمة من الكفر لقد اصطفاك الله لتنقذه لا تتأخر اذهب يا حاج.. اذهب.

وقبل أن يجيب الحاج عبداللطيف كان السيد قد اختفى في زاوية وأسدل على نفسه الستار وفاحت من الداخل رائحة بخور عطرية.

وشعر الحاج بأن مصيبة قد حلت به؟ ما العمل؟ كيف يتصرف الآن أنه أمام أمر واقع.

ولعن في سره عبده سعيد، وكان يهم أن يلعن السيد أيضاً لولا بقية خوف ومضى إلى الدكان وهو مهموم.. أيضيف على عائلته الكبيرة طفلاً لا يعرفه بل ولم يره مرة.. كل ذلك لكي ينقذه من الكفار، ما ذنبه هو؟ ألم يخلق الله هذا الطفل؟ أليس متكفلا به؟ إذا أراد الله أن ينقذ روحه من الكفر فلماذا وضعه في يد إنسان كافر؟

يا إلهي لقد اختلطت عليه الأمور ولم يعرف ما هو الحل؟

لقد وقع.. وعليه أن يخرج نفسه من المصيبة ولكن كيف؟ بالأمس رفض عبده سعيد رفضاً باتاً أن يحتضن الطفل وقال أنه ليس أبا لأحد بل وقذف بشتائمه الجميع وقال لهم أن لا يتدخلوا في شؤونه الخاصة هل كان على الحاج أن يتحمل " زنوة " لإخوانه ما شاء الله أذن على كل يمني في الحبشة أن يزني وينجب طفلاً ليأتي هو — الحاج عبداللطيف — ويخلص روحه من النار ألا لعنة الله على الجميع.. تكفيه مصائبه إنه إنسان متعب.. متعب.

ولكن هل سيسمعه أحد؟ وهل سيصدقون ذلك.

ابتسم سكرتيره وقال:

- إذن.. ما الذي تأمرني بعمله.

نظر إليه الحاج بحنق قائلاً:

- إنك تضحك على المصيبة التي حلت بي أليس كذلك، لك الحق فلقد تصرفت بغباء.
- ولكن لماذا؟ إنك في الواقع تساعد في تطور اليمن.
- ماذا تقول؟
- نعم إنك تنقذ طفلاً لتصنع منه عدواً للنظام القائم حالياً في اليمن أي أنك تصنع ثورياً يهدم غداً أركان الظلم هناك.
- " إنك " سوف تربيه.

ابتسم السكرتير وهو يبتلع الإهانة التي قذفها الحاج في غضبه وقال بل أنت ستربيه.

- كأنني لم أهاجر إلى الحبشة إلا لأربي " زنوات ".. الله يفتح.
- والسيد أمين ماذا ستقول له؟

لم يجب الحاج لكنه قال لنفسه.

" دع ربه ينقذ الطفل من الكفر. أنا لم أخلقه، هو الذي خلقه " لكنه غرق في تفكير عميق.

كان السكرتير جالساً يكتب شيئاً ما على الآلة الكاتبة وكان في أعماقه يضحك على الحاج. فهو منذ أن عرف بقصة السيد حتى راح في كل مجلس يرددها بسخرية كأنه يريد أن ينتقم من كل سخريات الحاج عليه .. في الحقيقة بالرغم من أنهم يعملون مدة طويلة معاً وبالرغم من أن الحاج كثيراً ما يسخر منه بل أنه هدده بالطرد وشتمه أمام الجميع إلا أنه لا يستغني عنه مطلقاً وهذا ما يشعر السكرتير بقوته ويروح يعاند الحاج.

كانا مختلفين في تفكيرهما السياسي.. وكلما قام الحاج بجمع تبرعات – راح السكرتير يطلق في – المركاته – مختلف النكات والتعليقات أما الآن فقد رأى أن الأمر أصبح جدياً. لكم سخر من السيد أمام الحاج ولكن الحاج كان دائماً مدافعاً عنه ولكن الأمر يتعلق الآن بمصير طفل.. وابتسم السكرتير.. أنه أيضاً مولّد لذلك كان يشعر نحو هذا الطفل الذي لم يره بحب غريب أنه مثله ممزق لا يعرف وطناً ينتمي إليه أو تراباً يحتويه.. أنه غريب وسط مجتمع أغرب استخدم السخرية سلاحاً له لتنقذه من غربته التي تمزقه ، وتشعره بأنه يختلف عن الآخرين.

والده... يحلم بأرضه.. بالمستقبل هناك في اليمن عندما " يحرروا " اليمن من الظلم.. إن لديه أساساً يقف عليه وأحلاماً تؤيده وتسنده ، وأنه ليس غريباً بالرغم من أنه مهاجر قد يعود يوماً إلى

أرضه.. أنه مجرد مهاجر أما هو فمقطوع من شجرة لا جذور لها..
أنه " لا أحد " نعم (لا أحد).

وأمه .. أمه أيضاً كانت لها أحلام لها جذور ترعرعت فوقها ونمت وأثمرت لكنها وللأسف أثمرت شيئاً غريباً لا أصول له.

إن لها أرضاً ولها بلداً.. تربتها التي تحتويها بحنان.. حتى التراب يعرف أبناءه.

أما هو فغريب، لا يستطيع أن يقول أنه يمني فهو لا يعرف اليمن لم يرها في حياته. سمع عنها الكثير ولكنه لا يعرفها ترى لو ذهب إليها كيف تستقبله؟ لعلها تلفظه كما تلفظه هذه الأرض التي ليست أرضه، بالرغم من أنها أرض أمه، نعم.. إنه ويا للأسف ليس حبشياً.

إذن من هو؟ نعم من أنا؟

يقولون عليه " مولد " وأين هي أرضه ؟ وأين هو شعبه؟ لذلك كان السكرتير ينظر إلى الطفل بحنان ويحب أيضاً إنه مثله، الفارق بينهم أن أباه يعترف به كابنه وهذا الطفل يرفضه أبوه. أنه يعترف به ولكنهم أخوة! إنهم في مكان واحد. وفي شعب واحد، إنهم الضائعون الذين سيبقون دائماً معلقين في المنتصف يجذبهم حبل إلى مالا نهاية ولا يستطيعون مطلقاً أن يحددوا مصيرهم فلذلك هم غرباء حتى ولو وجدوا في النهاية المكان الذي يحتمون به.

نظر الحاج إلى سكرتيره وقال:

- ها، هل وجدت حلاً؟

ابتسم السكرتير وقال وعلى شفتيه ابتسامة كقلبه مليئة بالحب:

- نعم قررت أن آخذه إليّ سيكون كأخي.. بل أخي الصغير.

نظر إليه باستغراب:

- ولكن..

- لقد قررت ذلك وأقولها بصراحة لا لأنقذه من كفر أو إلحاد ولا لأجعله مسلما هذا الأمر سيقرره بنفسه عندما يكبر ولكن لا

أريد أن يكون غريباً أتعرف أن المرء دونما جذور ذلك صعب أن تميزه بسهولة ولكن أعرف ذلك،
نعم سيكون أخي... آه لو استطاع كل المولدين أن يجدوا لأنفسهم منقذاً.. لو استطاعوا فقط أن يقرروا أن يجدوا نهاية المتاهة التي يتخبطون فيها.
كانت الدهشة تملأ وجه الحاج فهو لأول مرة يستمع إلى هذا الحديث الجدي من سكرتيره كان يمزح في الماضي أما الآن فالأمر جد.. ترى ماذا يتصور وسأله بحيرة:

- أتعني أنكم المولدين بلا وطن.
- قد يكون ذلك ما أعني وقد يكون الأمر مختلفاً .. نحن شعب جديد لنا مميزات ولنا وجود خاص، نحن لا نعرفكم..أنتم تحلمون بخرافة ونحن نعيش واقعنا بألم.

أنت تتحدث أربعاً وعشرين ساعة عن تحرير بلادك.. ولكن لن تحررها مطلقاً.. لقد هربت أتعرف من هنا لن تستطيع إلا أن تصرخ بملء فمك أيها الظالم سننتقم.. ولكنك تفتح فمك ولن يسمع أحد صوتك سوانا ونحن – آه – نحن يا سيدي لا نعرفك نستغرب عندما نرى ألمك ونبتسم أحياناً وبسخرية عندما نراك تحاول الصراخ.. ولكنك لم تقنعنا بالواقع.. إن تحرير بلادك يحتاج أولا وقبل كل شيء أن تحرر نفسك.. أن لا تخاف وأن تحارب لا من وراء البحار.. ولكن من هناك أمام العدو وجهاً لوجه.
وقاطعه الحاج محتجاً:

- هل جننت اليوم.. ولكن نحن نعمل من أجل أن يأكل الناس في بلادنا.. لم نهاجر إلا لنحاول أن ننقذ بلادنا.

ثم أضاف وفي صوته نوع من السخرية:

- أنا أعرف أنكم أنتم " المولدين " لن تهمكم مشاكلنا .. وأنتم لن تفهموا سواء حسب علينا أننا نريد أن نحرر بلادنا أولاً أم لا، ولكنكم أتيتم لتكونوا عبئاً علينا..

- كلا يا سيدي أنتم لم تأتوا لتحرير بلادكم، لقد أتيتم هنا هروباً من شبح الأمام.. لقد خفتم ولو كنتم حقاً تريدون ذلك فلماذا أذن تزوجتم وانجبتمونا لتقولوا في النهاية هذا الكلام؟

أقولها لك بصراحة أنتم لن تحرروا بلادكم، وإن حررها أحد فهم أولئك الذين بقوا هناك! وربما نحن!

- أنتم .. أنتم المولدين.

- نعم نحن .. إننا نبحث عن وطن، عن شعب عن أمل. لا تعرف كيف يكون الإنسان عندما يشعر بأنه غريب لكننا سنحاول، قد ننجح ولكنا لن نقف متعذرين بأن الآخرين يعوقون طريقنا.

ضحك الحاج قائلا:

- اتعرف هناك كتاب يقول " سيهدم الكعبة قوم يخرجون من الحبشة لا تربطهم بالحبشة سوى روابط الولادة ".

كل ما عملتموه هو أنكم خرجتم عن دينكم وعاقرتم الخمرة، وتجرون وراء النساء.. ستهدمون الكعبة.

كان السكرتير يبتسم!!

- نعم سنهدم " الكعبة " ولكن أي (كعبة) سنهدم (كعبة) الظلم والفساد و(كعبة) الرجعية والإقطاع سنهدم الخرافة التي هربتم منها وسنعيد إليكم يا سادة الطمأنينة، لا تخف فإن الله يحمي " كعبته الحقيقية " لكنه لا يحمي (كعبة) تستعبد الناس الذين ولدوا أحرارا أما أننا كفرنا وعاقرنا الخمر وعشقنا النساء فأنت تعرف تماما – كما أعرف – أن كلاً منا لديه أصدقاؤه ومكانه الخاص، طرقنا مختلفة لكن المكان واحد أليس كذلك؟

خفض الحاج بنظره إلى الأرض كان يشك من قبل أن سكرتيره يعرف عنه هذه الأشياء أما الآن فقد أدرك وهو لا يستطيع أن يذكر إلا أن الذي هزه أكثر كان صراحة السكرتير معه.

- إذن يا سيدي فقد قررت أن أخذ الطفل إلي وهكذا ترى أنك خرجت من ورطتك.

سأله الحاج:

- وماذا تريد مقابل ذلك:

ابتسم السكرتير قائلاً.

- أن تعيد النظر إلى الواقع.

(٦)

كان الشتاء يهبط على أديس ورياح باردة تهب على " سدست كيلو " في المساء فتنخفض مع هبوط المساء الأشباح السوداء التي تحتمي في منازلها المصنوعة من اللبن أو القش ولا يبقى في الشوارع سوى السكارى الذين وقفوا وفي أعماقهم كميات من نيران "الطجا".

كان عبده سعيد يرتجف في دكانه والساعة تقترب من التاسعة. قبل لحظات – ودع آخر عملائه ولكن ربما يأتي شخص ما يحتاج إلى أي شيء.

وفكر هل سيذهب هذا المساء إلى الفيلا .. وسرت في عروقه حرارة .. أن الجو هناك دافئ .. وهناك حضن أدفأ .. ولمح من بعيد شبح سكران يعانق شجرة ومرت من فمه تعويذة صغيرة.

وقرر فجأة أن يغلق الدكان..

كان يرتجف وهو يتوضأ لصلاة العشاء وبعد الصلاة تمدد على سريره وراح يحلم بعودته.. لقد كتب قبل أيام رسالة إلى القرية أنه سيعود ولكنه لم يحدد الميعاد.. دعهم ينتظرون .. وابتسم .. ستتحدث القرية منذ الآن عنه .. وسينتظر الجميع مقدمه ورأى القرية أمامه كما تركها قبل خمسة عشر عاما، وابتسم أنه يعرف أن الجميع سيحملقون في الطريق كما لاح شبح قادم.. وسيقولون دون شك.

- ها هو ذا عبده قادم.

نعم كلهم اليوم يتحدثون عنه، وعنه وحده وسيرسمون حوله مختلف الأساطير أنه شخصية لها قيمة.. لها قيمة..

وارتجف من جديد.. كان الموقد الغازي قد أعاد إلى رمقه بعض الحرارة.. وبدأ يلتهم الخبز.. ولكن البرد في المساء كان شديدا.. آه لو ذهب إلى الفيلا .. لكنه خائف وربما كان زوجها هناك؟

إنه لم يرها منذ أيام، قالت له آخر مرة أنها متعبة وأنها سترسل له خادمتها لو تطلب الأمر مجيئه، ولكن الخادمة لم تأت.

لو أقبلت مرة أخرى، أي امرأة، وفكر لساعته " بطائتو " تلك التي لم يعد يذكرها إلا وشعر بالحرارة في خده، ولكنه لم ينسها.

فالبرغم من أنها جلبت له الكثير من المشاكل، إلا أنه أصبح يشكرها الآن لأنها كانت السبب في أن سكرتير الحاج عبداللطيف قد تبنى ابنه وتخلص إلى الأبد من المخاوف التي كان يتصور أنه لن يتخلص منها مطلقا، وأكثر من ذلك شعر بقوة تربطه إلى هذه المرأة التي لم يكن يفكر فيها مطلقا منذ ذلك اليوم الذي صنع منها امرأة كانت بالنسبة له مغامرة، إحدى النساء الكثيرات لكنها الآن أصبحت تختلف عن الجميع، وأدرك أنه فقد شيئا ما — لكن ذلك سرعان ما سينتهي بمجرد عودته إلى القرية ولكن القرية .... إنه لا يعرف عنها شيئا ، إنه يتصور كل شيء كما كان قبل هجرته، إن أحاديث الحاج عبداللطيف وصالح سيف جعلته يشك في أشياء كثيرة لأول مرة يفكر بالوضع هناك، فقد قال له الحاج بعد أن يئس من تبنيه لابنه " إنك تستعجل " مغادرة الحبشة ولكن تأكد أنك سوف تدفع الضرائب التي تهربت منها هنا للعامل والحاكم والعسكري في القرية هذا إذا لم تفقد كل شيء.. كيف يمكن أن يتصور هذا، يفقد كل شيء، كيف؟ هذا لا يصدق، لماذا إذا هاجر.

يقولون — كما يدعى الحاج — أن الكثير من المهاجرين فضلوا العودة على البقاء هناك.

وإن البعض فقد كل شيء في محاكمات وخصامات.. لكنه لن يحاكم ولن يخاصم أحدا. إنه إنسان يريد أن يعيش بهدوء يعبد

الله ويخدم أرضه. إنه لم يتشرد إلا لهذا، من أجل أن يعود يوماً إلى قريته ويغازل أرض والده بفأسه ويعزف عليها عرقه. ليرى بعد ذلك أغصاناً. خضراء تنمو وتنمو ليأت آخر العام يعد الكيلات التي حصل عليها، أحقيقة أنه لن يجد ذلك؟

كلا إنهم يحسدونه فقط ، وإلا لما اهتموا كل ذلك الاهتمام بالطفل وتبنيه.. إنهم لا يريدونه أن يسافر، فهو إنسان لا يتدخل في السياسة.. ولم يكن يوما ضد الإمام.. فهو يرسل لأهله كل عام نقود الضرائب للإمام.. حقيقة إن أهله في بعض رسائلهم يشكون إليه كثرة الضرائب ولكن ذلك لا يعني أن هذا شيء سيئ — ما دام يدفع، وابتسم.. مهما كان الأمر سيعود.. سيرى كل شيء بنفسه.. وعندها سيسخر من أولئك الذين حسدوه.. سيعود وسيرى ابنه وزوجته.. ترى هل كبرت زوجته إلى درجة لا يعرفها.. وماذا في ذلك، فهو غني وسيترك امرأته تستريح ويمكن لو رأى فتاة تعجبه لتزوج بها وجعلها تخدمه وتخدم زوجته، التي تعذبت من أجله، ها، ها يالها من فكرة، أنه لا يريد أن يعذب زوجته، فتاة صغيرة، الحمد لله ديننا طيب لقد سمح لنا مثنى وثلاث ورباع وهو إنسان غني، ماديا. و، ها ها، يا لها من حياة رائعة سيراها، سيخرج يوميا إلى أرضه، سيرعى الغنم والبقر.. سيكون لديه السمن واللبن — لن يعرف رائحة هذا الدكان الذي بدأ يجفل منه لعنة الله على البرد، ما العمل، أنه لا يريد أن يستهلك الموقد جازاً أكثر.

قام وحمل من الخارج نصف (تنك) مليء بالتراب والرماد.. أحضر فحماً وأقفل الباب وترك على الفحم قليلاً من الجاز. حتى تنتشر النيران بسرعة وتدفئ المكان، وتمدد عبده على سريره لكنه لم ينم.

كان اللهب الأحمر المنبعث من المدفأة الجديدة يثيره. فيتذكر عندما كان طفلا كيف عاد أحدهم من المهجر وأقام وليمة ضخمة تحدثت عنها القرية أياما وأياما. ووضعت القدور على نيران كانت تلتهم السماء بلهيبها.

سيعود وسيقيم أضخم وليمة عرفتها القرية سيجعلهم يتحدثون عنه لا أياما ولكن شهورا متواصلة. لقد تعب كثيرا – وقد آن الأوان لكي يستريح إلى الأبد.. وطافت بشفتيه ابتسامة فشعر بالدفء وكان النوم يداعب عيونه.

وبدأ الفحم يحمر، ويرسل دخانا وانطفأ اللهب الذي امتص كل الجاز المسكوب، وكان الدخان ينبع بصمت .. وعبده سعيد يحلم: كان عائدا إلى القرية وامتلأت دروب الجبل بالناس، والأطفال يتسابقون إليه وعلى شفاههم ابتسامات. وهو قد فتح كيسا حمله بيد وراح يوزع عليهم أنواعاً من الحلوى، ويصيح الأطفال فرحين.

- عبده سعيد روح. عبده سعيد روح.

ويهمس في أذن أحدهم بشيء، ويمد له بكمية من الحلوى، وينطلق إلى القرية، ومن خلفه عشرات الأطفال أنصافهم عراة، بأقدامهم السوداء الحافية وفي القرية يرتفع صوت أحدهم،

- أحسن دار، دار من؟

ثم يصرخون – أوراه.. أوراه.

وينظر أكثر.. وأبعد إلى قلب القرية والرجال يهرعون لاستقباله والنساء يقفن على السطوح أو في أركان منازلهنينظرون إليه بحياء، يرى في عيونهن أشياء كثيرة. والرجال يحيونه بتبجيل، وفي أصواتهم تملق.. والعجائز يتقدمن إليه.. قائلات:

- ما شاء الله.. ما شاء الله.

- سبحانك اللهم رب العرش العظيم.

وتضع بعض النسوة الأشواك في الطريق.

كل ذلك وعبده سعيد يبتسم ويرى الجميع وهو في ملابسه الحريرية وفي جاكته الصوفية التي ذهب من أجلها بالأمس إلى – الباسة – ليخيطها عند أحسن خياط وعلى رأسه شال وبيده عصا وعلى ظهره أحدث بندقية وعلى شفتيه ابتسامة.

كان يحلم ويبتسم والدخان يملأ المكان، أكثر من أن تملأ النيران الفحم الدافئ في المكان.

- من أغنى من في القرية؟
- ويصرخ الأطفال.
- اوراه.. اوراه..

وتفرقع في البعيد صوت - الطماش - وعند باب منزله يذبح كبشين، ويرى بعينيه امرأته - تختفي في إحدى الطرق، إنه الحياء لكنه سيراها في المساء ويدخل الزجال إلى - المبرز - وتتوافد النساء إلى امرأته، وينشغل البعض في حل أربطة الحمير التي تحمل مختلف الأمتعة جلبت من - عدن - أكثر من خمسة حمير.

نعم إنه رجل غني

ويبدأ البعض في سلخ الكباش.

- والله أنكم باتتعشوا معنا..

ويرسل أحدهم إلى أي مكان لشراء قات - كلا.. كلا، سوف يحضر القات معه ويسعل عبده لكن الحلم أجمل، ويلعلع صوت الأطفال. مختلطا بصوت - الطماش -

ويتساءل رجال القرية المجاورة.

- عرس من؟

وتأتي الأخبار بسرعة:

- لقد عاد عبده سعيد من البحر.

وكانت الابتسامة تتسع.. ويتقلب الرجل على سريره الخشبي.. وصوت سعال يرسله فمه - كان الليل يقترب من الواحدة - وحرارة تسري في دكان عبده سعيد، والدخان يتصاعد من الفحم وعبده في أحلامه، وكان يتقلب وفي رأسه أصوات الأطفال.

- أحسن دار في القرية دار من؟
- دار عبده سعيد.

- أوراه..أوراه.
- هذه الأرض حق من؟
- حق عبده، أوراه.
- أحسن بندق في القرية.. حق عبده .. أوراه.

❖ ❖ ❖

في الصباح كان الدكان مغلقا وانتظر العملاء أن يفتح ولكن دونما فائدة. وبدأ القلق يسيطر على البعض بينما ابتسم آخرون، وكانت همسات، ومن ثم بدأ الكلام يشمل الجميع.

- ما الذي حدث؟
- لعله مريض..

لا تقل ذلك، لماذا لا يكون عند أصدقائه في المركاته.

- ولكن ذلك لم يحدث مطلقا.

ويهز البعض رؤوسهم.. ويبدأ التجمع على الدكان.

- عبده .. عبده.
- إن الدكان مقفول من الداخل.. كأن شيئاً حدث للرجل.

وكانت عيون النساء تحملق بخوف أما اللواتي كانت لهن ذكريات مع عبده سعيد فقد أدركن أن خطراً ما يحدق بالرجل الذي منحهن سعادة عابرة.

- يجب أن يحضر أحد اليمنيين ليرى الأمر.
- أو فلنتصل بالبوليس لعل في الأمر سرقة أو..
- وأضاف أحدهم بهدوء.
- قتل..

وتعالت في الجو صيحات النساء مستنكرة:

- لا سمح الله.. لا سمح الله.

وفي الداخل كان ينبعث أنين خافت.

ألصقت إحدى النساء أذنها مشيرة إلى الجمع قائلة:

اسكتوا قليلاً لعلني أسمع صوتاً ما.

وبعد ثوان قالت:

- اسمع أنيناً.. إن الرجل مريض .. يجب أن نعلن الخبر لأحد اليمنيين.

- ربما يكون الأمر خطيرا.

وأسرع أحدهم إلى أقرب دكان يملكه يمني في المنطقة معلنا له الخبر.

لم ينقل عبده سعيد إلى المستشفى إلا في المساء فقد ذهب ذلك الرجل إلى المركاته وأعلن الخبر بدوره لصالح سيف الذي أسرع بعد أن فرغ من أعماله إلى (سدست كيلو) ولكن عبده سعيد كان قد فقد القدرة على الكلام.

كان شاحباً وعيناه جاحظتين ببشاعة وقد ألصق شفتيه بعضهما ببعض بقوة كأنه لا يريد الاعتراف أمام تعذيب وحشي.

وعندما رآه الدكتور أسرع بتمزيق ثوبه ومن بين شفتيه بصق بشتيمتين وقال:

- قوم همج كيف يستطيعون الحياة بهذه القذارة.

ولكن أحدهم لم يعرف ما قاله سوى الممرض الذي ابتسم وأجاب:

- ولكنهم يعيشون.

وأجابه الدكتور:

- ليموتوا كالحيوانات.

- وانتشر النبأ في كل " سدست كيلو " لقد توفي العملاق الذي وقف على قدميه في أرضه المريعة أكثر من عشر سنوات. فقد انهار في النهاية ودمعت عيون كثيرة. وفي المساء كانت الشموع توقد في غرفة الرذيلة طويلاً لكنها تضم في جدرانها قلوباً بشرية أرق من الفضيلة نفسها.

ولم تنم ليلتها امرأتان.

كانت " طائتو " أمام صدر (ماري جرجس) الذي يحمل رحمة ليغمده في قلوب الحيوان البشع وكانت شمعتان.

لو مر أحدهم في ذلك المساء لرأى الحزن الذي خيم فجأة ولسمع أصوات نساء كانت بالأمس تصرخ المًا في معارك لا نهائية ليسمع هذه الأصوات تنطلق بدعوات لا نهاية لها لقد ارتفعت في تلك الأمسية في " سدست كيلو " إلى السماء أصوات مئات البشر حملوا الحب لهذا الرجل لا لشيءٍ إلا أنه مثلهم يعاني عذاباً ولكنه بصمت. ولأنه كان غريباً وغريباً طيباً يحمل ابتسامة.

أحقا أن المرض يمكن أن يصرعه في ليلة. كانت " طائتو " تعتقد أن غضبها وغضب ذلك الرجل الطاهر " السيد أمين " هو الذي صرع رجلها ولكنها لم تكن تريد ذلك.. إنها تحب هذا الإنسان ولا تعرف لماذا تحبه .. طوال الليل كان الدكتور جالسا إلى جانب سرير عبده وقال للمريض:

- لقد صمد هذا الرجل ببسالة أمام كميات هائلة من ثاني أكسيد الكربون.

ولو صمد إلى الصباح لاستطعت إنقاذه يا له من إنسان.

كان الممرض يعرف عبده وراح يقص للدكتور كل ما يعرفه عنه وكان الدكتور إيطاليا يعبد الحبشيات وعندما سمع ما قصه عليه الممرض قال:

- بغرابة لا أتصور مطلقاً أن يعيش هذا الرجل في ذلك الجحر كيف يمكن ذلك يا إلهي إنها حياة كالجحيم.

- ولكن ما الذي يستطيعون أن يصنعوه سوى هذا.. لقد تركوا أرضهم، بلادهم، وأهلهم وراء لقمة العيش، أنهم يموتون جرياً وراء اللقمة قبل كل شيء .. هذا ما يفكرون فيه.

- اللقمة أنني أوافقك ولكن من أجلها يجب أن نرمي كل أسلحتنا في الهواء تقول تركوا أرضهم لماذا لأنهم لم يستطيعوا أن يقفوا ببسالة ضد أوضاعهم القذرة .. شعب يهاجر من أرضه – شعب خائن لتلك الأرض –

- الظلم يجعل الخيانة شيئاً بسيطاً.

- ولكنه لا يبرر الفرار.
ولكن عبده سعيد للأسف لم يكن يستمع إلى هذا الحديث ولو استمع لفتح عينيه تعجبا ولقال عما يتحدث هؤلاء المجانين؟
إنه يعلمهم بعالمه السحري الذي أصبح ملكاً له وحده وإلى الأبد لم يستطيع الدكتور أن يصنع شيئاً.
لقد انهار العملاق وعندما غطى الدكتور جسد الرجل المثلج قال:
لقد انهار لأنه صمد أكثر من الواجب إنها حياة لا تستحق أن تعاش.
ولكن الدكتور لم يعلم أن عبده سعيد كانت له أحلام أخرى.. أحلامه وحده لم يشاركه أحد فيها سوى الموت ولو علم فربما عزاه وربما ألقى نظرة أخرى على حياة مئات من البشر مثل عبده سعيد.
كان المأتم بسيطاً تماماً مثلما كانت حياة عبده سعيد نفسها ولكن الألم كان يمزق صدرين صدر امرأة وحيدة في غرفتها أمام صورة احترقت تحتها شمعتان وصورة امرأة أخرى فوق سرير من حرير يتحرك في بطنها الطفل الذي مات أبوه بالأمس.
خرجت إلى المركاته لتودع عبده سعيد إلى مقره إلى قصره الأخير الذي لم يحلم به مطلقاً قبره المتواضع الذي .. لن يصرخ الأطفال حوله قائلين:
" أجمل قبر في الدنيا قبر عبده سعيد ".
كان الحاج عبداللطيف واقفاً بصمت أمام القبر الذي يواري ترابه. ونظر إلى الشجرة الباسقة التي تربض بالقرب من القبر بجانب حافة النهر الذي تغطيه أشجار لامتناهية الخضرة والجمال.
- لقد وجد قبراً أحلم أن يكون لي مثله.
نظر إليه السكرتير وابتسم..
- أهي القبور نهاية المطاف لكل هذا النضال وهذه الحركة؟
- ماذا تعني؟

قالها الحاج وبعينيه غضب.

- لا شيء أجاب السكرتير كل ما أعنيه أن القبور هي المكان الصالح لدفن حركات معينة.. أنت تعرف أنه مات ولم يترك شيئا طيبا في حياته سوى الآلام.. امرأة مهجورة منذ أعوام بعيدة وابنٍ لم يعرفه.. وأرض لم يقدم لها أي قطرة من دمه.. لقد مات غريبا كما يموت مئات اليمنيين في كل أنحاء الأرض يعيشون ويموتون غرباء دون أن يعرفوا أرضا صلبة يقفون عليها.. أما هذا القبر فهو ليس قبره إنها ليست أرضه وليست أرضنا.. إنها قبور أناس آخرين.. قبور الأحباش نحتلها نحن ألا يكفي أن نلتهم اللقمة.من أفواههم، لنلتهم حتى قبورهم! يا إلهي! كم نحن غرباء، كم نحن غرباء!!

ولكن أحداً لم يستمع إليه كان الحاج قد ذهب إلى قرب القبر يقرأ الفاتحة وفي أنحاء متفرقة من المقبرة وقف أناس آخرون يتحدثون عن أشياء كثيرة كلها لا تمت بصلة لهذا الإنسان الذي تنهال عليه حبات التراب.

حمل السكرتير طفل عبده سعيد إلى بعيد، وأشار إلى المقابر قائلا:

- انظر يا صغيري هنا في كل هذه المقبرة نيام إلى الأبد أناس غرباء لم تلدهم هذه الأرض ولم تنشئهم وتربيهم ولكنها قتلتهم لأنهم قوم غرباء.

لقد خانوا تربتهم حتى أنهم لم يدفنوا فيها كم هو سعيد ذلك الذي يدفن في تربته.. في أرضه.

كان الصغير ينظر إلى السكرتير ولا يفهم شيئاً، ولكن الدموع التي تساقطت فجأة أخبرته أن الرجل حزين وراح هو أيضاً يسقط دمعات.

والتفت السكرتير إلى الطفل:

ونحن يا صغيري أين هي أرضنا ؟ نحن أكثر غربة منهم ....أكثر غربة نحن... لا أرض لنا.. لا تربة لنا .. إننا ضائعون تقريباً.

كان آخر من في المقبرة.. وقبل أن يذهبا التفتا ليلقيا نظرة أخيرة إلى المكان الذي تضلله أشجار الكافور الباسقة برائحتها الزكية.
وفي زاويتي المقبرة خرجت امرأة وذهبت إلى القبر الذي أصبح شبيهاً بالقبور الأخرى كانت في ملابس سوداء وكانت عينها دامعة وفي يديها زهور وماء.
انظر .. إنها " طائتو ".
وجرى الطفل إلى ذراع المرأة.
وقف السكرتير ينظر إليهما كانا يبكيان معاً كان ينظر إليهما وفي أعماقه أشياء تتفجر.
ترى هل سنجد في النهاية طريقنا الحقيقية؟ هذه المرأة التي تضع الزهور على قبر هذا الإنسان ،بملابسها السوداء ،بوجهها الجميل، حتى عندما يكون حزيناً ترى ما الذي تحمله لهذا الغريب الذي مات دون أن يترك شيئا سوى قبره؟
وعندما رأى المرأة والطفل يتحركان في طريقهما إليه ابتسم بحزن لقد أدرك شيئاً لم يعرفه من قبل.
وغادر المقبرة تماماً عند المغيب أشباح ثلاثة..

" تمت "

عمنا صالح

مجموعة قصصية

عمنا صالح

أعجبني كثيراً.. كنت أظل معظم ساعات النهار أتابع حركاته وأراقب سكناته .. كان يسير على قدميه وكأنه يقود سيارة.. فلديه، كما لكل سيارة أربع قوى تميزه.. الأولى وكانت بطيئة وكانت الثانية للانطلاق وتأتي الثالثة ليستخدمها لأقصى السرعة ونادرا ما يستخدمها هنا في السجن .. أما القوة الرابعة فهي للعودة إلى الخلف.

كل من دخل سجن القلعة منذ أكثر من عشرين عاماً يعرفه وربما منذ أكثر من عشرين عاماً لحيته البيضاء الكثة دليل إنها لم تعرف موس الحلاقة من زمن بعيد كما لم تعرف الصابون بالتأكيد.. وأظافر يديه وقدميه طويلة تحتها كميات من الأوساخ تحولت بفعل الزمن إلى لون أسود مخيف.

هم يطلقون عليه لقب مجنون ليلى.. لكنني أنا أسميه دائماً وأدعوه باسمه صالح العمراني، أول من عرف قيادة السيارات في بلادنا في الثلاثينات عندما وصلت أول سيارة إلى صنعاء.

قصته أصبحت معروفة في كل مكان، داخل السجون وكلما دخل معتقلاً جديداً. نسيت أن أقول لكم أن سجن القلعة هذا هو المعتقل الخاص بالمعتقلين السياسيين والمجانين وهذا بالتأكيد من صنع عبقري يمني لا يعرف أحد من هو ومتى كان.. لذلك فإن المجانين في هذا السجن ينعمون براحة

أكثرهم لأنهم يعيشون مع معتقلين سياسيين يقدمون لهم الشراب والسجائر والقات.

ولأن كل شيء ممنوع – أقول كل شيء ما عدا القات والسجائر والأكل والهواء، فإن ما عدا ذلك من العن المحرمات على السجناء.. فلا كتب ولا صحف ولا راديو وحتى ألعاب التسلية ما خلا المجانين.. وطبعا فإن أشهرهم وأذكاهم هو عمنا صالح

العمراني الذي يمتاز عنا جميعاً بالعراقة والأسبقية ولذلك اخترناه عميدا للمساجين طبعاً وللسياسيين، ومن هنا كان يحصل على امتياز خاص يومياً.. قصعة حليب وعلبة سجائر وقليلاً من القات.

ولكن لماذا كل هذا الحديث.. ما دمت أريد أن أقص عليكم سبب وجوده هنا، وقصته هذه- واقسم لكم لم تكن من بنات أفكاري ولا بعض مؤلفاتي القصصية، وبإمكان الذين لا يصدقونها أن يذهبوا إلى هناك وأن يدخلوا سجن القلعة ليتأكدوا من أنني لم أقل غير الحقيقة.. لأنهم سيجدون عمنا صالح العمراني بقامته القصيرة المربعة وجسده القوي رغم اليد والأوساخ ولحيته الكثّة وأظافره الطويلة السوداء وطريقته العجيبة في السير، وقدرته على استخدام مختلف القوى.. وتماماً كما تقود أنت سيارتك يقود نفسه وستجده يقف أمامك منتصباً معتزاً بنفسه يقول لك في كبرياء:

- إدي[1] ورقة.

وإذا كنت لا تعرف قصده فإنه سيشير إلى جيب قميصك، وأنت في السجن لا تلبس البنطلون لأنه سيعيق حركتك مع القيد الذي يشد قدميك إلى بعضها منذ دخولك السجن حتى خروجك منه ولا يستثنى من القيد سوى بعض المجانين اللطفاء.. أما السياسيين والمجانين المؤذيين فإنهم يقيدون بعناية وقيودهم تراقب يومياً عندما يجمعون " للعراضة " أمام شاويش الحبس وعكفته.

لكن لماذا هذا القفز.. لقد قلت إذا لم تصدق فما عليك إلا دخول القلعة أما كمجنون: وهذا صعب لأنهم لا يأخذون إلى هناك إلا المجنون الميؤوس من شفائه، وأما كمعتقل سياسي، وهذا من أسهل الأمور، وهناك ستقابل عمنا صالح العمراني وستعرف قصته.. وإذا كنت خائفاً تخشى هذه التجربة وتتهيبها فما عليك إلا أن تصدقني وأنا أقص عليك قصة عمنا صالح العمراني.

كان شاباً وسيماً فتياً، وهذا ما ستلحظه باقياً حتى الآن، فرغم ابيضاض شعره الذي زحف على كل شعرة في رأسه وذقنه إلا أن ملامح الوسامة لا تزال بادية خاصة في اشعاع عينيه الواسعتين، كان شاباً وسيماً أذن ومن القلائل الذين تعجبهم قيادة السيارات، وكان يعتبر أيامها شخصاً يصنع المعجزات وهو يقود سيارته في شوارع – آسف لم تكن في صنعاء يومها شوارع –بل طرقات متربة أو موحلة تثير تيار الغبار كلما سارت دابة فما بالك بالسيارة.

المهم .. وقع صاحبنا هذا في شراك الحب وصنعاء أيامها ريالها .. وحتى اليوم لا تزال بحق مدينة الحب بكل أنواعه لكن صديقنا أو عمنا صالح للأسف وقع في حب نجس أثار عليه حفيظة صنعاء وأهلها – وبالمناسبة فإن صنعاء عندما تثور من أجل مثل هذا الحب فإنها تقيم الدنيا وتقعدها.

لقد وقع أذن عمنا صالح في الحب .. ولكن في حب من .. حَبّ يهودية صغيرة في السادسة عشرة من عمرها .. عيناها في سواد الليل وشعرها طويل وغزير.. جمالها.. ويا لله لا أروع منه تثير حسد كل الصنعانيات اللاتي كن بالطبع يتنافسن على كسب وده وحبه وهو الشاب الذي يقود صاروخاً – آسف يومها كان يقود سيارة – ويسير بها وكأنه يسير على تراب القمر وملايين العيون تتابعه من أجهزة التلفزيون – أسف هذا بالطبع مبالغة – فقد كن فتيات من شابات صنعاء يتنافسن على كسب وده وكن يلاحقنه من خلف النوافذ في منازلهم ويتمنين اللحظات التي يلتفت فيها اليهن. لكنه كان عنيداً كما هو الآن.

- أي ورقة

- ما عد تفعل بها.

اشترى بها شقاره."٢"

وإذا أعطيته ورقة بعشر بقش أو نصف ريال يرفض قائلاً:

- أديني عبدالغني علي[٣]، ما عد أفعل بهذا الرحمى. ولا يتركك حتى ينال منك ريالاً سليماً.. وعندها سيعود إلى الخلف بعد أن يغير قوة محركه إلى الخلف وسيقف أمام الدكان – ولعلني نسيت أن أقول لك أن في سجن القلعة دكاناً محترماً وصاحبه كذلك إنسان محترم – وسيشتري منه قليلاً من ورق الشاي وشيئاً من السكر واللبن وسيتوجه من ثم إلى حوض المساجين حيث يدعوهم جميعاً إلى حفلة شاي.

لقد أصر على حبه لتلك اليهودية الحسناء وكانت صنعاء مليئة يومها باليهود. ولو لم يكن هو الذي وقع في حبها لكان تزوجها لكنه ما دام الشاب الوسيم الذي يسوق سيارة وإن لم تكن ملكه لأنه لم يكن يحلم بأكثر من أن يكون سائقاً لتلك المعجزة المتحركة التي هبطت صنعاء يومها من الجو. يصنع مثل أول رجل تجول حول الأرض بصاروخ.

وتعصبت صنعاء كعادتها وثارت حول قصة الحب تلك ولو لم تثر هذه القضية فلربما نسى صاحبنا تلك اليهودية أو أهملها بعد أن ينال منها وطراً، لكن ما دام هناك مانعاً لهذا الحب فلا بد من أن تتكرر قصة قيس وليلى، والمشكلة دائماً أن هذه عادة في البلاد المتخلفة – يشعلون النار وفي اعتقادهم أنهم يطفئونها .. فما أن يجدون أن قيساً قد جن حباً في ليلى حتى يبدون سخريتهم منه ويأخذون في رميه بالحجارة، وربما دفن المجنون أحياناً حياً وهكذا تطورت قصة عمنا صالح، حب محموم بين شاب وسيم وفتاة في جمال القمر والحاجز القائم بينهما يمنع هذا الحب.

- جلنا[٤] أسلمي.. جلنا أسلمي يا جحبة[٥] .. جلنا أسلمي ولكنها رفضت أن تسلم .. وحتى لو أسلمت فهل ترضى صنعاء عن هذا الزواج الذي يطعن كرامة جمال بناتها الجميلات بالفعل؟

القضية إذاً ليست قضية إسلام اليهودية لأن الجميع يعرفون أن صالح في إمكانه أن يتزوج يهودية وهو المسلم دون أن يطلب منها أن تدخل دينه.. وهذه قاعدة إسلامية معروفة.

إذاً لم تسلم .. ؟ هذا الشرط رفضته فيما يبدو فلديها هي أيضاً اعتزاز لا بدينها فحسب ولكن بجمالها كذلك.

لقد احبها صالح، لا لأنها يهودية ولكن لأنها جميلة فليتزوجها كما هي.. أنها تريد أن تتحدى حسان صنعاء لتريهن أن هذا الذي يقود سيارة لم يقدها أحد قبله أحبها هي ولم يحب ساكنات القصور اللاتي يشرن له بأيديهن من وراء زجاج نوافذهن.

- جلنا أسلمي يا جحبة .. جلنا أسلمي .. لكن ليلاه اليهودية لم تسلم وغادرت صنعاء، دونما كلمة وداع.. وغادر صالح العمراني عالم العقلاء إلى عالم آخر خاص به وحده، وأصبح من يومها في سجن القلعة يقود نفسه وكأنه سيارة.. وعندما يهبط المساء يظل يصرخ طوال الليل بلوعة وعنف:

- جلنا أسلمي .. يا جحبة.. جلنا أسلمي.

لكن هل هذه فقط كل قصة عمنا صالح..؟ لا أعتقد أن هناك شيئاً خفياً وراء الرجل، وهذا ما جعلني أعجب به، وأنا أدفع طبعاً ضريبة إعجابي يومياً.. فما أن يصحو من نومه، وهو يصحو متأخراً جداً، حوالي العاشرة وأحياناً الحادية عشرة لأنه لا ينام طوال الليل حيث يمسي يناجي حبيبته ويحاورها ويصرخ فيها بصوته الجهوري مطالباً إياها أن تسلم.

ما أن يصحو حتى يشعل موتور سيارته ويدفع بقوته الأولى أولاً ثم الثانية، ويجدني باستمرار في المسعى حيث أظل مع بعض الرفاق في نقاش سخيف يتكرر يومياً كما يتكرر نداء عمنا صالح لحبيبته يطالبها أن تسلم.. ومع أن نقاشنا لا جدوى منه ولا أمل إلا إننا بالتأكيد لا نريد أن نتخلى عن ظاهرة النقاش السخيفة التي يتميز بها كل المثقفين وخاصة مثقفي العالم الثالث الذي يسير

بخطوات سريعة نحو التقدم وما آن يراني عمي صالح وأراه حتى أترك حلقة النقاش واتجه إلى الشخص الوحيد الذي أعجب به لأدفع له ضريبة الإعجاب ريال كل صباح.

ولا أريد طبعاً أن أقول إننا نتجاذب أطراف الحديث لأنه لا حديث مع عمنا صالح.. كل الكلمات التي يستخدمها في حياته لا تتعدى المائة كلمة.. تتكرر كل يوم بل أنه أحياناً لا يستخدم؛ إلا بعضها، تماماً مثل نقاشنا نحن الذين نسمى أنفسنا معتقلين سياسيين.

- أدي ورقة.
- حمراء وإلا خضراء..؟
- مع "٦".. عبدالغني علي.

ولا أدري ما الذي كان يستخدمه قبل ظهور ورقة الريال الحالي.. هل كان يسمي الريال ماريا تريزا ريال ليلى أم الحبيبة.. أم ماذا..؟ ولقد فشلت فعلاً في استقصاء ذلك، فالمسجون الوحيد الذي كان موجوداً في فترة ما قبل الثورة أعدم بعد دخولنا القلعة بأيام لأن شخصاً ما تذكر أنه قتل شيخاً قبل الثورة وهكذا فقدنا الأثر الوحيد الذي ربما أفدنا بشيء من تاريخ عمنا صالح قبل الثورة.

ولكن حوارنا الأخرس ما زال مستمراً بينما كنا نسير إلى الدكان.. راح يسايرني ببطء.. لذلك فهو يستخدم قوة السرعة الأولى كثيراً.. ولأنه لو استخدم قوة السرعة الثانية لسبقني بالتأكيد لأنني لا أستطيع أن أجاريه والقيد يثقل قدمي، وقيدي والعياذ بالله يزن أكثر من عشرة أرطال.. ومن هنا فإنه مراعاة لسرعتي يعود إلى استخدام قوة سرعته الأولى حتى نصل الدكان.

- إدي سكر.. وادي شاهي.. وادي لبن.. وادي بردقان ببقشتين.
- لمن البردقان"٧"بالبقشة الثانية يا عم صالح..؟

ويشير بيديه وهو يرد:

- للأردني.. للأردني.. قالي يشتي بردقان.

وساعتها كان الأردني كعادته يراقبه ويؤشر له بقوة .. ويصدر أوامره بشدة.
والأردني بالمناسبة مجنون آخر يقال أنه كان ضابطاً أردنيا في جيش الملكيين اعتقل ووضع في السجن.
ومنذ دخلت السجن كنت مع غيري استمع إليه وهو يردد أغانيه البدوية الحزينة التي كان يبيت يرددها طوال الليل أحياناً.
المهم .. أن عمنا صالح يأخذ كل شيء ثم يمضي إلى جناح المجانين داخل السجن.. وبعد دقائق نراه يأتي إلى المسعى أو السجن وينادي بصوته الجهوري.
- هيا يا قاضي الحداد، هيا يا سيدي ماجد، هيا يا أخ محمد.. هكذا يدعو جميع المجانين غير المتوحشين منهم إلى غرفته المليئة بالعلب الفارغة التي يجمعها من كل أنحاء السجن ليقيم لهم حفلة الشاهي الصباحية، ولديه طبعاً حفلة شاهي مسائية كذلك.
وذات يوم قررت أن أمضي معه إلى جناح المجانين، وجناحهم بالطبع جزء من السجن الذي نستخدمه جميعاً كما نستخدم جميعنا المسجد والدكان، ونفس المطعم وحتى حنفية المياه للشرب ومثلها دورات المياه.. كل ما يميزنا عنهم هنا أن غرفهم منزوية في زاوية أحد جدران السجن حيث يتكدسون كالحيوانات خاصة الشرسين منهم.
أما عمنا صالح فلديه غرفة مليئة بأغرب كمية من علب الصفيح الفارغة.. علب اللبن، وعلب التونا، أو علب السمن والبن. إنها أغرب مجموعة شاهدتها من العلب في حياتي، وهو طوال فترة الظهيرة والعصر يجلس معها.. ينظمها بعضها فوق بعض حتى تصير مجموعة من الأهرامات.
والغرفة سوداء تماماً من كثرة ما أوقد فيها لتجهيز الشاهي.. أما براد الشاهي نفسه فإنه يبدو كقطعة فحم من شدة سواده.. وهو

يستخدم القصع"٨" الفارغة كأكواب الشاهي يشرب منها هو وضيوفه.

وفي الزاوية حصيرة قديمة عليها مجموعة ممزقة من الملابس والبطانيات. لكن هناك ميزة أخرى لعمنا صالح.. هذه الميزة هي التي تجعل كل من في السجن يحترمه ويخافه.

فهو يغضب بشدة إذا ما سأله أحد مننا في النهار:

- ماذا عد يجري"٩" غدوة يا عم صالح؟

وسرعان ما يزمجر ويشتم بكلمات لا تفهم في وجه كل من يوجه إليه هذا السؤال.. ثم يعود بعدها إلى غرفته غاضباً.

وفي المساء عندما يخيم الصمت على السجن، خاصة بعد أن تنطفئ الأنوار الكهربائية بعد العاشرة فإننا جميعاً ننصت إلى صوت الأردني وهو يردد بحزن شديد أغنية بدوية لا نعرف معنى لكلماتها.. لكن كل واحد منا يبني لها الكلمات التي تتناسب ومثار أحزانه وأحلامه.. ولكننا إذا ما بدأ صوت العم العمراني الجهوري يردد:

" جلنا أسلمي .. يا جحبة .. جلنا أسلمي " فإن صوت الأردني يختفي ولا تبقى غير أصداء جلجلة صوت العمراني وصراعه العنيف مع الأهرام التي بناها من علب الصفيح الفارغة التي تسمع الأصوات الناتجة عند ارتطامها بالأرض ثم صوت سقوطه معها وكأنه دوي مدافع أو قصف رعد.

وحين يهدأ بعد ذلك نكون قد علمنا أنه سيبدأ الآذان:

- الله أكبر .. الله أكبر .. الله أكبر.. الله أكبر .. ثم ينتقل بأذانه فجأة وبدون أية رواية إلى نهايته – لا إله إلا الله..

عندها يخيم الصمت رتيباً ثقيلاً على جميع غرف المساجين ولا يسمع المرء عندها حتى حفيف النسمات.. يمسك كل سجين أنفاسه.. حتى المرضى المصابون بداء الصدر كانوا يحبسون

السعال ويتوقف حتى شخير النائمين لأن الجميع يتوقعون سماع شيء ما بعد الآذان.

وإذا ما قال بعدها:

- " يا هلا يا مرحبا.. يا هلا " فإن الحزن يصبح أكثر ثقلاً والكآبة أعمق أثراً، ويندفع البعض من المساجين في بكاء صامت إذ في ذلك يعني أن مساجين جدد سيدخلون في اليوم التالي:

أما إذا قال:

- " في وداعة الله.. مع السلامة .. مع السلامة " فإن الفرحة والأمل يتدفق ويعقد في أعماق كل سجين حتى المجانين منهم لأن ذلك يعني أن مساجين سيطلقون في الغد.

والغريب – أقسم لكم – أن ذلك تحقق أكثر من مرة طوال بقائنا مع العم صالح العمراني.

١- إدي – هات

٢- الشقارة : السيجارة

٢- عبدالغني علي:وزير الخزانة بعد الثورة كانت الأوراق المالية تحمل توقيعه

٤- جلنا : قلنا

٥- جحبة : قحبة

٦- مع: لا

٧- البردقان: السعوط، مسحوق التبغ

٨- القصع: جمع قصعة :العلب

٩- عديجري: سيجري

لا جديد

إلى م.أ. غ.

صاحب الطريق الطويل

الإرهاق يمتص كل عظامها. في كل أجزاء جسدها صرير، الراحة عندها كلمة لا تعرفها. امتص العمل كل شبابها. وامتص طفلها الذي تركه " مدهش " في أحشائها نظارة ثديها، أصبحت خرقة قديمة ممزقة.

الطفل يزحف بعظامه فوق أتربة الغرفة، والنور لا يدخل إلا مسلماً عابراً. فالدار من ذلك الطراز القديم من الأبنية اليمنية.. نوافذ لا يطل فيها وجه إنسان، ولكنها مكان صالح لاستخدام البندقية، الهدوء مات منذ أن بني الدار. وعمر الدار كعمر الزمن مجهول. قالوا أنه قد تهدم منها طابق. لكنها تكتفي بما تبقى. فالبقرة مع غنيمات في الصبل(١)، وصوتها هو الموسيقى الوحيدة التي تسمعها كل يوم. وتكتفي من الغرفة بزاوية حادة، فرشت فوقها حصيرة بالية وفراش قد تمزق وخرج منه القطن وأخذ لون القطن لون الغبار.

الوقت عصراً، عادت قبل قليل من الحول(٢)، والأمطار بخلت قليلاً هذا العام. والعيدان التي كانت قد بدأت تخضر أخذ الجفاف اخضرارها، لكنها تداوم كل يوم على العمل. الحبوب القليلة التي تبقى لها من المدفن. يبعد عنها شبح الجوع. وإن كان الجوع هو حياتها. مرت جارتها من أمام الدار. سمعت صوتها. تركت الطفل يمضغ التراب وراحت تحدث صاحبتها. كانت جارتها في ثوب شبه جديد، ومقرمتها(٣) التي تلبسها في الأعياد عرفت أن الجارة في طريقها للزيارة.

- إلى أين يا بنت عمي؟

قالت الجارة وكأنها تخفي فرحة :

- يقولون " الجمالٌ(٤) قد وصل من عدن.

دق قلبها. لعل رسالة تصل مع القادم.. وتابعت الجارة:

- تشتيني أسأله لا في جواب (*) لك؟

مضى وقت طويل لم تسمع عنه، الصمت يغلف وجوده هناك. ومايرد لا يشفي القلب الموجع. وهل ترى عودة الجمال من عدن ستشفي غليلها، بكلمة أو نبأ.

لم تستطع إلا أن تهز رأسها موافقة. لم تنتظر الجارة، حفيف ثوبها يشي برغبتها في الإسراع إلى دار القادم. قالت لنفسها الحق لجارتها أن تسر، فزوجها يعيش في عدن، ولم يكن كزوجها هي يمخر عباب البحار ويرتاد البلدان.

لم تستطع أن تحرك نفسها. رأت بقرتها بجانب الدار، ولم يعد الراعي بأغنامها التي تدفع ربع سعرها زكاة سنوية للإمام.

كان عقلها في منزل الجمّال، مع النساء الفرحات، وكل واحدة منهن في هذه الدقيقة تستلم الرسائل والنقود والهدايا والثياب.

تعلقت أبصارها بمنزل " الجمال " كأنها تريد أن تعرف المجهول. في قلبها شبه يقين بأنها في هذه المرة ستعرف الأنباء.

مضت إلى غرفتها. الطفل لا يزال يعلق من التراب، وفمه وخده تلوثا بلون ما يلعقه. وفتحت صندوقها القديم، نفضت منه أكوام الغبار. تريد أن تخرج بدورها ثوبها الذي تلبسه للعيد، ومقرمة طوتها باهتمام. تذكرت أن هذه الأشياء لم تلبسها من قديم. من العيد الذي مضى. وكان زوجها قد سافر للعمل في رمضان قبل العام. وكان في أحشائها طفلها الذي يزحف جنبها الآن، ليلقي نظرة على ما تخفيه في صندوقها المصنوع من خشب. طفلها ولد بعد أن سافر زوجها بأشهر ثلاثة. وكتبت لزوجها بأنه جميل وأنه يشبهه. فأرسل له بعد أن مضى على ولادته أشهر كثيرة ملابس قالوا لها أنها من بلاد اسمها " الجعفان " وكان زوجها كلما يمر في موانئ قريبة، يرسل النقود والملابس. ثم انقطعت أخباره. وقال

العائدون بأنه في بلد بعيدة أسمها " مريكان " وأنه يعمل في جبال الفحم. وانه عندما يعود سيحمل معه النقود والملابس.

كانت تريده هو. وكتبت له وكتبت. وعلمت أن الجواب يضيع في الطريق. وعلمت أنه كان هناك حرب، وأن بواخر يعمل فيها من أبناء اليمن تغرق باستمرار.

الليل دائماً يطول عندها. هواجس كثيرة ومقلقة، لعله غرق، لعله مريض، لعله تزوج، لعله.. لعله.. لعله.

اقفلت الصندوق، ولم تعد جارتها .. والطفل فاتح فمه، عيونه غائرة ووجه مصفر وكلمات عذبة تخرج من فمه.

- أمه .. أمه .. أمه..

رغم أن عمره قد قارب العامين لكنه لسوء ما يأكله ويشربه لا يستطيع أن يسير على قدميه. والكلمات عنده شبه مبهمة لكنه كزوجها صموت.

وسمعت صوتا يهتف باسمها. مضت مسرعة وقابلت جارتها. كانت تحمل أشياء. وفي صوتها فرح، وكان قلبها يدق باستمرار. وحلقها قد جف، وعقلها يصدر الأشياء بسرعة الشريط.

- الجمال معه جواب..لك.

لم تسمع البقية، مضت بسرعة تلبس ثوبها ومقرمتها، وخطفت طفلها، وتركت البقرة بجانب الدار.

وقلبها يدق باستمرار. هل أسرعت، وكيف وصلت. وهل رأت النساء خفق قلبها. كان حياؤها يمنعها من الكلام.

ونظر الجمال صوبها، ولاح في وجهه المجعد العجوز ظل بسمة. واخرج الجواب من كيسه الذي تعرفه من لونه الذي قد صنعه العرق.

- زوجك بخير.. ويسلم على ابنه كثير.. وأرسل لكم مصاريف وحق الرعاية وحق بيت المال. وهو يشقى(٦) في بلاد " المريكان ".

كان يعد أمامها الملاريا تريزا (٧) وسمع الجمال صوتها الخجول:

- وما يقولش أيحين يعود؟.

هز العجوز رأسه المنحوت من سنين:

- لا ما يقولش..

في قلبها تمزق شريان. وفوق وجهها نمت سنين لم تعشها. وطفلها ينظر باستغراب. وأذنه تسمع كل طرقات قلبها الولهان. ويده تشعر بالحرارة التي يقذفها الجسد المنهار.

رأت أمامها كومة من النقود:

- هاذي مائة ريال.

آه. وماذا تصنع النقود. مائة ريال ثروة كبيرة. لكنها مصروف أشهر عديدة. وربما للقحط أن أتى مثلما أتى قبل عام والتهم النقود والحبوب والنفوس.

وبيت مال مولانا الإمام له نصيب من هذه المائة، وربما كان نصيب بيت المال أكثر من نصيبها، والشيخ والعاقل لهم نصيب.

وذهب الجمال لغرفة بعيدة، لعله يأتي معه " بصدارة " جديدة.

تلفتت رأت عيون لا تعرف عددها تحملق وتحملق. والوجوه مغبرة ومفجعة لنسوة حزانى، ينتظرن مثلها كلمة أو نبأ أو صدارة.

مواشتنفع البيس[8] هذي؟. كم قالوا ما أرسل لك شيء. والدولة تشتي كل شيء. والمطر ما هلوش.

وهزت العجوز المتكلمة رأسها استعجابا:

- قاهو اشكل من غيره. الله يحفظه ويرزقه، عاده ما بوش شيء يرسل ولو مرة في العام. لكن الثانيين المضيعين حتى ولا جواب. الله يعلم فين مدفونين. ولم تسمع الحديث الدائر حولها، في رأسها مشاكل كثيرة، لكنها ستشتري غدا لحما ودجاج، وليشرب الصغير معها المرق.

أكثر من ثلاثة شهور لم تر لون المرق ولم تذق قطعة من لحم.

وأقبل الجمال يحمل في يديه بقية أشياء:

- هذي صدارة من مدهش، سكر ورز ومقرمة وثوب وملابس للابن، مع صابون.. يا حظها السعيد.. هدية من أثمن الهدايا. لم تعرف الصابون من سنة، والرز لم تذقه، فالحرب قد اخفت الأشياء.

الطفل لا يصدق أن أمه ستحمل هذه الأشياء كلها للدار.. فرحتها لم تكتمل، فعودة زوجها هي مطلبها، لكنها ظلت طوال الليل تدعو له بالعافية، وأن يعود بالسلامة.

راحت تقبل الخطاب، وتخبر الصغير حنينها بأنه سيقرأه عندما يذهب للفقيه.

ومرت السنين، وتبعتها سنين، والخطاب قد تمزق لكثرة التقبيل والبكاء.

---

(١) الصبل : المراد الاسطبل.
(٢) الحول : الحقل.
(٣) المقرمة : غطاء على الرأس تضعه المرأة اليمنية، وهو مشهور في جنوب اليمن.
(٤) الجمّال : القائم برعاية الابل ،وهو هنا يؤدي دور ساعي البريد.
(٥) جواب : رسالة .
(٦) يشقي : يعمل .
(٧) الملاريا تريزا :العملة النمساوية التي كانت تستخدم في اليمن .
(٨) مواستنفع البيس : ماذا ينفع المال.

ذئب الحلة

هذا الرجل كان يوماً من البشر، ملامحه بدأت منذ فترة تفقد إنسانيتها ويبدأ يتحول تدريجيا إلى حيوان وحيوان أليف. نظرته الشاردة القلقة تعبر عن لا شيء، وطريقته في فتح فمه تدل على بله لم يكن فيه من قبل. وانتفاخ جسده دليل على فراغ في الأعماق.. كل شيء فيه كان حيوانياً.

لم يكن يخرج من غرفته في السجن إلا نادراً، وكنا نراه من ثقوب الباب القديمة.. كان يقبع تحت غرفة "حاشد" في سجن القلعة في مطبق[1] منفرد مليء بالغبار والتراب الخفيف ومليء بالحشرات والبق.

لم يكن لديه لغة مفهومة. صراخه غير الإنساني يجعل كل المساجين يهربون منه .. لأن فيه.. شيء يخيفهم.

وقال أحدهم:

- إن هذا الرجل يخيفني، تحول إلى حشرة تجعلني أنكر أن مصيري قد يكون مثله يوما ما.

حول قصته قيل الكثير، ولكن الحقيقة وراء سجنه تظل باستمرار مجهولة، تماما كما هو وضع بقية المساجين، لا أحد منهم يعرف تهمته ولا مدة سجنه. وذئب الحلة.. أحد هؤلاء. قيل أنه قبض عليه في قاع جهران ومعه رسائل ملكية يحملها إلى أحدى القبائل. وقيل أنه عذب ليعترف ولكنه لم يعترف، ربما لأنه لا يعرف شيئاً عن مهمته التي كلف بها. وربما – كما ظن معذبوه – لا يريد أن يعترف، واعتبروه صلباً فسجنوه.

كان راعياً – كما يقال – في قاع جهران. وكان من "الحدا"[2] شاب في السابعة عشرة من عمره، حتى الآن لم تنم شعرة في لحيته، ذا ملامح فيها حلاوة، متوسط القامة، ممتلئ الجسم. ولكن كل ذلك قد فقد شكله الآن، وأصبح حيواناً يزحف على الأربع.

عندما يطلقونه من " مطبقه " في العاشرة صباحا يتمدد فوق الأرض يبحث عن دفء الشمس. كان مطبقه غارقاً في الأرض، رطباً، لا يعرف لون الشمس. لذلك كان " الذئب " يرتجف باستمرار ويمد يده للشمس يريد أن تمنحه دفأها.

ويقال – وهذا عن لسان من له فترة طويلة في السجن – أنه كان أكثر تماسكاً عندما حضر إلى السجن قبل ثلاثة أعوام.

ولكنه فقد شكله الإنساني تدريجيا.. من أمر بحبسه شدد على ذلك. ونسوه بالطبع مع مرور الزمن، ولم يكن هناك شخص ما يتابع قضيته ولم يكن هو يدري ما يراد به.

ربما كان أبلهاً. وبالفعل فكل ما فيه لا يدل على ذكاء أو إصرار على عدم الاعتراف. قالوا أن الملكيين كانوا يستخدمون الكثيرين من أمثاله في إيصال الرسائل، فهم لا يلفتون الأنظار، وأن وقعوا في الأسر فلن يضروا مطلقاً، ولن يفقدوا شيئاً بالتالي.

عندما يقدم له الطعام، كان يرفض أن يتناوله من أي وعاء، ولا يشرب الماء إلا إذا ما أنسكب على الأرض.

كل من في السجن يتجنب أن يراه، خاصة عندما بدأ وجهه الطفولي في الانتفاخ، قال العسكر وهم يضحكون " إن ذئب الحلة يسمن في السجن " وقال المساجين " ان الانتفاخ غير طبيعي ".

وعندما بدأ المساجين يعرفون بأنه يأكل بقاياه ويشرب بوله لم يأبه أحد لذلك. وكان الحديث يدور وينتهي بآهة حزن وألم من لا يستطيع أن يقدم شيئاً.

قال أحدهم يوماً:

- قدمت له قطعة خبز فرماها في الأرض وتبول فوقها ثم أكل القطعة.

وقال آخر:

- قدمنا له قطعة لحم فمرغها في التراب وجلس يلعب بها أكثر من ساعة ثم بدأ يأكلها.

ومهما قيل عن " ذئب الحلة " فقد كان ذئباً حقيقياً في السجن، تماما مثل قيده الذي يدمي قدميه.

همس أحدهم يوماً في أذن سجين وقال:

- هل تعرف أنهم عندما عذبوا " ذئب الحلة " استفعلوا فيه!

ولم يفهم السجين.

وقال الآخر موضحاً:

- اقصد ... لقد ...

ولم يستطع أن يكمل.

وكان السجن يتحدث كثيراً عن " ذئب الحلة " ولكن أحداً لم يكن ليستطيع أن يصنع شيئاً.

وقدمت لجنة المساجين السياسيين يوماً طلباً لإدارة السجن بنقل ذئب الحلة إلى أحد المستشفيات، فهو في النهاية سجين سياسي.

وضحك مدير السجن كثيراً، ولم يحدث شيء.

وقال العسكر:

- إن المساجين الجمهوريين أصبحوا ملكيين.

ولم نشاهد " ذئب الحلة " لعدة أيام. وكان ذلك عقاباً لما حدث من تدخل.

وذات يوم اكتشف العسكر أن أحد المجانين كان يختفي في مطبق" ذئب الحلة "، وضرب المجنون يومها بجنون من قبل العسكر. وارتفع صوت ذئب الحلة بشكل غريب. وكان يصيح بكلمات غير مفهومة، ثم أصبح يعوي كالذئب. وكان في صوته ألم.

وقال العسكر:

- إن المجنون كان يعشق ذئب الحلة.

وضرب الذئب نفسه.

وتحدث المساجين كثيرا عن ما حدث:

- هل يعقل أن المجنون يفعل ذلك مع ذئب الحلة؟

- أن ذئب الحلة قد أصبح مريضاً بعد تعذيبه.

- أن المجنون يعطف على الذئب.

ولكن الحديث المحموم انتهى فجأة في اليوم التالي عندما خرج المساجين ليجدوا جسداً ممداً هناك! ومغطى ببطانية قديمة ممزقة.

وبدأ الهرج يسود:

- ماذا حدث؟

- من مات؟

قالوا " ذئب الحلة ".

وقال آخرون " لعله مسجون سياسي قد قتل " !

وقال فريق ثالث " أنه أحد المجانين ".

واستمر الجسد في الساحة من الصباح حتى بعد الظهيرة.

وعندما سألوا لماذا لا يخرجون الميت. قيل لهم أن الإدارة تنتظر الأمر بالإفراج عن الميت!

وضحك البعض بمرارة. وبكى آخرون.. حتى الميت لا يسمح له بالخروج من سجن القلعة إلا بأمر إطلاق!!

واجتمعت لجنة السجناء وحاولوا الاتصال بالمدير ولكن المدير لم يكن في السجن.

وقال بعض العسكر الطيبين:

إن الميت هو المجنون الذي قبض عليه في مطبق ذئب الحلة، وأنه حاول في المساء أن يترك ساحة المجانين ليذهب إلى مطبق ذئب الحلة وينام هناك، إلا انه وقع على الصرح وضرب رأسه في الأسمنت ومات.

وعندما وصل أمر الإطلاق للميت خيم الصمت على السجن كله.

ورفض السجناء أن يتركوا الجثة تخرج إلا بعد أن يتولوا هم غسل الميت والصلاة عليه في مسجد السجن.

وهكذا كان.

- هل صدقتم أنه وقع على الأسمنت ومات.

- لقد مات نتيجة الضرب المبرح الذي تلقاه من العسكر.
- من يجد الشجاعة ليقول للعالم أن العسكر ضربوه حتى مات؟ من منا هو الشجاع الذي يستطيع أن يقول الحقيقة؟
- ولكن أين الحقيقة.. مع العسكر؟ أم مع الميت؟ أم مع ذئب الحلة؟
وقال البعض:
- لقد سمعت صراخاً شديداً وكان أحدهم يقول " واهمدان[٣] غيروا عليّ. واهمدان غيروا عليا".
ولم ندرك ما حدث.
- المجنون كان من همدان .. ولذلك كان يطلب الإغارة من قبيلته.
- ولكن لماذا هذه الإغارة؟ وإذا كان المجنون يعطف على الذئب فماذا يضر إدارة السجن.. أن المجنون والذئب لم يعودا من البشر.
- ولكن الإدارة تحافظ على شرف السجن وسمعته.
وفي غرفة أخرى كان المساجين يتحرون، وأصبح الحديث عن الميت شاملاً.
قال أحدهم:
- لقد سمعت العمراني في الليل يؤذن ويقول " مع السلامة، في داعة الله، مع السلامة، في داعة الله ".
وقال آخر:
- فعلا.. لقد خرج سجين من السجن.
وعلق آخر:
- ولكنه سجين ميت.
وقال ثالث وهو يبكي:
- أفضل أن يخرج ميتا من أن يبقى مثلنا ويتحول إلى شبه إنسان.
ولم نسمع لمدة أيام صوت ذئب الحلة. ولم يخرج من مطبقه مطلقاً. قال البعض إنهم يسمعون همهمات صامتة. وقال آخرون أنهم

سمعوا ذئب الحلة وهو يبكي. ولكن سكان غرفة " حاشد " لم يسمعوا شيئاً رغم أن ذئب الحلة كان يعيش تحتهم.

وقال أحد سكان حاشد بعد أن أطفأت الأنوار وتمدد الجميع:

- لو طلع علينا ذئب الحلة من تحت ماذا تصنعون؟

وتقافز المساجين، وسمع صليل القيود، وتصارخوا جميعاً بجنون ودهشة:

- فأل الله ولا فالك يا شيخ.

- عذبل من الشيطان يا ساقط.

- با اهرب من الشباك لو طلع علينا.

وقال صاحب الاقتراح:

لا تنسوا أنه يعيش تحتكم تماماً.

وعاش سكان حاشد وكل منهم يشعر بأن ذئب الحلة قريب منه، وكانوا يشعرون بالتقزز والاشمئزاز.

وعندما خرج ذئب الحلة من مطبقه بعد أسبوع كان قد أصبح هيكلا عظميا، وشاهد البعض أنه كان يقضم العظام ويأكل التراب.

ولم يكن يلبس شيئا سوى خرق من الملابس القديمة البالية.

ولم يبق من شكله القديم سوى عينان بارزتان سوداوتان لا تعبران عن شيء. ورغم أن المساجين كانوا يحاولون إبداء العطف عليه، إلا أن معظمهم كان يهرب من طريقه ويبصق البعض إذا ما لمح وجهه.

أما العسكر فكانوا يمرون عليه ويطلقون الضحكات.

وذات يوم رأى السجن مجموعة من العسكر يحملون ذئب الحلة وقد أصبح كتلة مشوهة من العظام والجلد وقد تساقط القيد من رجله. بعد أن كان القيد مشدودا على قدميه، ووضع فوق الحجر الخاص بدق القيود، ورأى السجناء العسكر وهم يضعون له قيداً جديداً يناسب قدميه التي فقدت اللحم.

وكل يوم يمر والذئب يزداد نحولا، وكانت عظامه كلها قد تحولت إلى عجينة لينة لا تتماسك مطلقاً.

قال أحد السجناء يوماً:

- لقد رأيت ذئب الحلة وهو يمسك بفأر ميت ويقضم لحمه.

وسرى الخبر في السجن كله.

ويومها لم يأكل سوى المجانين أكثر مما أكلوا من قبل.

واختفى الذئب عن الأنظار أسبوعاً وأسبوعين.

وصرخ أحد المجانين ذات يوم:

- يا عو يا باه.. يا عاو يا باه.

وبدأ يفرغ ما في معدته أمام مطبق ذئب الحلة. ثم ارتمى على الأرض وهو في حالة عصبية شديدة.

وليلتها أذن صالح العمراني لمدة طويلة.. وكان في صوته رنة حزن وعند الصباح كان يردد، وكل المساجين تسمع صوته:

- في وداعة الله، مع السلامة .. في داعة الله، مع السلامة.

ولم يطلق ذئب الحلة من سجنه، وقد أصبح جسداً هامداً، إلا عند غروب اليوم التالي.

وخيم حزن كئيب على السجن استمر أسبوعاً، ثم نسي سكان سجن القلعة إن إنساناً كان هناك وقد تحول بفعل الزمن إلى حشرة غير ضارة وأنه كان يعيش بينهم يوماً ما!

تعز - اكتوبر ١٩٧١

---

(١) مطبق : زنزانه انفرادية تحت الأرض.

(٢) الحدا :منطقة في محافظة ذمار جنوب العاصمة صنعاء.

(٣) واهمدان : استغاثة بقبيلة همدان .

السيد ماجد

كان جالساً فوق الدرج المواجه لباب سجن القلعة.. ينظر إلى المساجين الجدد الذين يدخلون ويلاحظ – والألم مرسوم على قسمات وجهه – العسكر وهم يضعون القيود على أقدام كل سجين .. وراح يعد المساجين حتى ملَّ من العد، أو ربما لم تكن الأرقام التي يحفظها تتعدى العشرات، بينما أعداد المساجين لا تنقطع.. عشرة.. عشرون.. ثلاثون .. أربعون .. ثم مل العد وراح يهرش شعر رأسه بحيرة شديدة، وعيناه زائغتان.. ولم يلاحظ أحد هل كانت هناك دموع أم لا .. كانت نظراته كثيراً ما تتسمر على الحجر المغروس في قاع الأرض والمطرقة ترتفع وتنخفض في دقاتها الرتيبة فوق القيود.. وعندما أدرك بغريزة ما أن سيل المساجين قد انتهى، تحرك سريعاً هابطاً الدرج وسأل آخر الداخلين وهو يحاول أن يكون لطيفاً:

- قل لي .. عد به ناس هاناك؟؟

وأشار بيده إلى الخارج..

لم يدرك السجين مقصده عندما أجاب:

- لا .. لم يعد هناك أحد.

هز الرجل رأسه وكأنه كان يتوقع الرد.

امتلأت ساحة السجن بالعشرات من المساجين الجدد.. كل واحد منهم يحمل فراشه وملابسه التي بعثرت من كثرة ودقة التفتيش عند الدخول.. كان كل واحد يحاول أن يجد له مكاناً في غرف السجن الضيقة.. وسارع المساجين القدماء يعرضون على الجدد أماكن لهم في غرفهم، بينما استمرت عينا السيد ماجد في التحديق الأبله فيما حوله.. ثم راح يسير وسط المساجين، بقميصه الممزق القذر وأقدامه العارية.. ويحاول أن يبتسم وكأنه يشجع

القادمين الجدد.. ولم يكن بالطبع ليعرض على أحدهم مكاناً بجانبه، فهو يدرك أن القادمين يختلفون عنه.

اقترب ببطء من الحاج أحمد الحداد الذي تسمر على درجات السجن وهو يراقب سيل القادمين وينظر، إلى محاولاتهم لم أشياءهم المبعثرة وقبلاتهم الحارة مع زملائهم القدامى وأحاديث الشوق المتسارعة والأسئلة التي تتناثر هنا وهناك، ولا تجد الإجابات الوافية.

قال السيد ماجد وقد أصبح بجانب الحداد:-

- إبصرابصر.. كلهم شباب.

ولم ينتظر إجابة من الحداد .. وراحت يداه تهرش شعر رأسه من جديد وكأنه يعد الشعر الأبيض الذي يتربع فوق رأسه.

قال الحداد فجأة:

هي غيثة بنت الذيب اللي وهدرتهم لاهانا .. غيثة بنت الذيب.

وعلا صراخ الحداد.. وتضاحك القدامى وعرف الجدد زملاء السجن الجديد.

وقال السيد ماجد، وكأنه يريد أن يهدئ الحداد:

- مَغْ .. مَغْ .. هم كل صنعاء.. قلنا كل صنعاء قد جوا لاهانا.. الله يعلم ما به هاناك.. ومن عاد بقى.

ولم يلتفت أحد للحوار الدائر بجانب درجات المسجد، حيث تجمع بقية المجانين، وراحوا ينظرون باستغراب إلى زملائهم الجدد.

وتعرف السجناء بعدها على من في السجن.. وأصبح ماجد أحد ألطف المجانين – صديقاً لأغلبهم.

ولم يكن أحد ليمانع في إعطائه ما يريد عندما يسأل ماجد، وابتسامة استغراب مرسومة على شفتيه.

- إديشقارة وكبريت..

ثم ينطلق إلى المسعى حيث يرتمي عند أحد الأركان ويدخن بتلذذ وانسجام، ويرسل حلقات الدخان عالية، وتغيب معها عيناه.

كان ماجدا أهدأ مجنون في القلعة، ولذا فهو طليق هناك دون قيود.. ويقال.. أنه المجنون الذي لا يثور إلا نادراً.. وهو كثيراً ما يغني .. كلما راح يدخن سجارته، أغنية قديمة، نسي معظم كلماتها، ولكنه يدندن بشكل حزين.

وعندما يكون مزاجه رائقاً فإنه يختار أي شخص يجلس إلى جانبه محملقاً في وجهه وهو يقول:

- للمه كلكم شباب هكذا ؟ ما فعلتم هاناك.. من عاد به خارج ؟؟..

وكثيراً من الأسئلة التي لا ينتظر جوابها إذ يترك محدثه فجأة ليذهب إلى آخر.. وهكذا.

وتسأل السجناء عن السيد ماجد وقصته، وككل شيء هناك لا توجد القصة كاملة، وتظل الأمور غائمة، والحقيقة غير متوفرة أبداً.

قال البعض، ويقولها أحياناً وكأنه يعرفها بدقة:

- إن ماجد جن عندما أحب فتاة وتزوجها، ثم اكتشف فيما بعد بأنها تخونه، ولأنه كان يحبها، لم يستطع- لشدة حبه – أن يتركها، فأصيب بانهيار.. ثم فقد عقله.

وقال آخرون: إن ماجد كان شاباً طموحاً أراد أن يشق طريقه وسط الأسرة الحاكمة.. وبما أنه كان هاشمياً فقد بدأ يعد نفسه لينافس الإمام، وأنه كان يتصل بالأحرار ويحضر مجالسهم السرية ويناقش قضايا الإرهاب والتخلف.. وقد بلغ ذلك الإمام، الذي تبنى ماجد وأراد أن يجعله أحد أعمدته.. فما كان من الإمام عندما سمع تمرد ماجد إلا أن سجنه وعذبه حتى جن، ثم رمى به في السجن منذ أكثر من عشرين عاماً، حيث لا يزال هناك هادئاً مفكراً ولطيفاً إلا في لحظات معينة تأتيه نادراً يثور فيها فيمزق ملابسه ويعتدي على أي إنسان يواجهه.

وكان ماجد من القلائل الذين لا يأتي من يزوره من خارج السجن.. ويحكم أنه لا يتحدث عن من يزوره ولا يرى السجناء طبعاً الزائر، إذ أن المنادي نادراً ما ينادي بصوته الجهوري:

- السيد ماجد .. السيد ماجد، يجاوب الباب.

وعندها يهرج ماجد وهو يردد لحنه الحزين، ويغيب خارج الباب، حيث يقضي بعض الوقت، ثم يعود ومعه قات وسجائر وبعض الحلوى.. وأحياناً بعض الملابس. وقد قال أحد المساجين يوماً: أن زائر ماجد هي والدته.. وأنها تأتي لزيارته باستمرار، وأن لأسرته بعض الثروة التي توفر لماجد بعض الملابس والأكل وطبعاً القات والسجائر.. وكان غرام ماجد الحقيقي في السجن هو القات. فتجده دائماً أمام كل غرفة يجمع بقايا القات الذي يرميه المساجين، ثم يذهب إلى زاويته المفضلة في المسعى حيث يتكئ هناك ويقضم الإعشاب والفروع.

وكثيراً ما كان يثير المشاكل – عندما تستبد به رغبة إلى القات – مع المساجين فيحاول أن يختطف القات من أمامهم، مما يؤدي بهم إلى طرده من الغرف.. ولكن إصراره على الحصول على بقايا القات تظل دائماً هي قضيته، حتى مع المجانين الآخرين الذين يحاربونه في سبيل الحصول على البقايا.

مرة قال أحد المساجين: أنه يعرف ماجد عندما كان طفلاً.. وأن اسمه هو السيد عبدالله ماجد.. وقد كان عاملاً"١" قبل أكثر من عشرين عاماً في ذمار.. وكان مشهوراً بعلم الفقه والحديث..

وأضاف السجين: بأن ماجد كان ولوعاً بالقات الجيد حينذاك حتى أن مبرزه[٢] في دار العمالة، كان مشهوراً جداً.. يأتي إليه الكثير من العلماء والقضاة والمشائخ.. وأن ماجد كان أنيقاً جداً ويحب الملابس البيضاء الناصعة.. وأنه كان يلبس عمامات مختلفة تظل دائماً نظيفة.. وأن سبب جنونه - كما يقول

السجين – هو إدمانه القات إذ كان يظل مخزناً حتى منتصف الليل.

ولم يوجد، بالطبع، من يؤيد قصة السجين وإن كان " المزين ""٣" وهو مقيم في السجن – أصبح المنادى الرسمي للسجن – يقول: بأن ماجد كان موجوداً في السجن قبل وصوله بفترة طويلة، وانه كان قد استعاد عقله ذات مرة حتى أن مدير السجن قرر تسليمه إلى أهله.. ويقول المزين: انه بعد أن أطلق سراح ماجد تسلمته والدته فرحت بعودة عقله إليه، لكنها سرعان ما أعادته بعد أيام حين انتشرت إشاعة بأنه حاول أن يعتدي على أمه جنسياً لولا أن أنقذها الناس.

ومن يومها لم يخرج ماجد من السجن.

ويظل ماجد – كما هو بالنسبة لبقية المجانين – لغزاً محيراً .. لا يعرف أحد حياته أو ماضيه وهم بالتأكيد لا يتحدثون عن ذلك الماضي الذي أصبح بعيداً وغير موجود، ويعيشون يومهم كما هو، استغراب كامل وضياع سخيف.. ولم يعد لهم حاضر أو مستقبل.

ولكن ماجد يظل بالنسبة للمساجين الآخرين صديقاً لطيفاً ودوداً في كثير من الأحايين، رغم صراعه معهم في محاولاته المستمرة لأخذ قاتهم من أمامهم.

استمر الحال كذلك حتى حدث شيء جديد في السجن ذات يوم إذ أنطلق صوت المنادي والسجناء لا يزالون في متاكئهم يمضغون القات والبعض الآخر يحضر للعشاء حتى ارتفع الصوت؛

- كل في محله يا محابيس .. كل في محله يا محابيس.

ودخل العسكر بأعداد كبيرة وبأيديهم عصيهم الغليظة يخبطون بها الأرض وأصواتهم الغاضبة تصرخ في المساجين.

- هيا قلنا .. كل في محله بسرعة..

وأسرع المساجين.. وتعالى صليل القيود يملأ ساحات السجن وكل منهم يحاول أن يصل غرفته قبل أن تصله ضربة على كتفه أو

رأسه.. وترك كل سجين ما كان بين يديه، حتى القات ترك بعضه دون أن يمس.. وساد السجن رعب حقيقي.. ووقف السجانون فوق الأبواب يصرخون:

- هيا بسرعة .. كل في محله.. عاتسمعوا وإلا صميل"٤" هانا..

صليل القيود، وجو رهيب من الخوف والرعب ساد الجميع..

وعندما قال أحد المساجين:

- حاضر .. بس أشتي قليل ماء صرخ أحد السجانين:

لا ماء ولا شيء .. قلنا محلك..

وتلقى السجين ضربة على ظهره، وسمع أنينه ثم ارتمى على الأرض.

وحاول السجان أن يكرر الضربة لولا أن سارع بعض السجناء وسحبوا زميلهم بسرعة إلى غرفته، وقد ارتمى وعاء الماء الخاص به في مجرى الأوساخ ولم يلتفت أحد إليه.

كان ماجد يسير مسرعاً إلى زاوية المجانين وهو ينظر بقلق إلى ما حوله.. وعند مدخل الزاوية وقف بعيداً ينظر إلى ساحة السجن التي كادت أن تكون خالية – إلا من العسكر.

- اقفلوا الشبابيك.. ولا حد ينظر منها..

كان صوت العسكر مصحوباً بالأحجار المقذوفة على بعض النوافذ المفتوحة.

لم تكن سوى لحظات.. ولكنها لحظات طويلة ومرعبة مرت على الجميع كأنها دهور.. ولم يبق في الساحة سوى العسكر وماجد الذي انزوى بهدوء وراح يراقب الساحة.. ولم يكن العسكر ليهتموا بالمجانين

وأطفئت الأنوار فجأة – وساد ظلام دامس.

كانت قلوب السجناء مليئة بالرعب.

وكان البعض يرتجف من الخوف.

ماذا حدث.. ماذا هناك..؟

ترامت الأسئلة بكثرة من كل غرفة.. وحاول البعض أن ينظر من خلال شقوق النوافذ رغم الظلام.. إلا أن أحجاراً كثيرة بدأت ترتطم بالنوافذ.. وكأن العسكر كانوا يدركون بالغريزة نوايا السجناء.

كانت الساحة مظلمة إظلاماً تاماً، حتى لو حاول أحد السجناء أن ينظر فلن يجد إلا الظلام.. وكان الخوف يعمي ما تبقى من إدراك عندهم.

ومضت لحظات أخرى خالها المساجين عصوراً من الزمن.. مضى الوقت بطيئاً بطأً قاتلاً.. وكان الكل يتوقع أسوأ الأمور.

قال أحدهم، وهو يرتجف من الرعب:

حتى الشمس اختفت فجأة..

وقال آخر بصوت يرتعش خوفاً، وإن حاول أن يمزح:

- لقد سمعت العسكر وهم يأمرونها بأن تكون في محلها:

ولم يضحك أحد للنكتة.

وفجأة فتح باب السجن الداخلي وسمعت أصوات قيود تدق بعنف.. وصوت المطرقة وسط ذلك السكون كان مرتفعاً ومزعجاً.. ثم ضربات سريعة بالعصي على لحم.. وصوت أنين إنسان...

- داج .. داج..

- آح .. آح

واستمرت المطرقة في الدق..

دق.. دق .. دق.

- داج .. داج .. داج

- آح .. آح.. آح.

وبدأ بعض السجناء يحاول أن يحصي عدد دقات القيود ليعرف عدد المساجين الداخلين.

- واحد .. اثنين.. ثلاثة..

ولم يستطع أن يستمر، إذ سمع صراخاً حاداً..

- ملى بس.. أنا عند الله وعندك.. بس ضرب .. يكفي ضرب.

وسمع صوت السجان:

- أسكت عاق والديك.

وصاح آخر:

- البجه، هذا الزنديق..

- داج .. داج ..

- ملي بس ضرب أنا فداء لك .. يكفي.

واستمر الضرب .. وسمع صوت سحب إنسان على الأرض وصوت القيد وهو يرتطم بالأرض..

وصرخ المضروب..

- ملي بس قلت لك..

ثم صرخ بأعلى صوته..

- يلعن عارك ملي.. قلت لك بس.

وأستمر دق القيود عنيفاً وكأنه لا يريد التوقف.. وأصوات العسكر وهم يسحبون الذين قيدوهم.. ثم فتحت المطابق الأرضية.

وبكى أحد السجناء في إحدى الغرف بتشنج وراح في هستيريا:

بايقتلونا.. أقول لكم بايقتلونا.

وتقافز زملاؤه يريدون إسكاته ولكنه تشنج أكثر.

وضرب أحد العسكر بعصاه فوق باب الغرفة.

- عاتسكتوا .. وإلا مع .. عا نرجع نربيكم..

وكأن الضربة كانت دواء .. فقد سكت وراح يبكي بحرقة بصوت مكبوت.

امتلأت القلوب برعب وحشي .. وارتمى معظم السجناء على الأرض. وراحوا يدثرون أجسامهم بالبطانيات .. ويغلقون آذانهم بعنف.

وسمع صوت ارتطام الأجسام فوق أرض المطابق.

وتوقف دق القيود.. واستمرت أصوات السحب فوق الأرض وارتطام القيود بالأحجار.

- ملى بس .. قلت لك دلا.
- يا أخي أنت توجعني .. خليني أمشي.

ثم قذفت الأجسام فوق أرض المطبق.

مضت لحظات أخرى طويلة وخرساء حتى أغلقت المطابق.. وسمع صوت ضرب العسكر بعصيهم فوق الأحجار والأبواب وقذف البعض أحجاراً إلى النوافذ.. وساد بعدها هدوء مليء بالرعب والترقب.

- سيخرجوننا بعد قليل للضرب.
- يمكن يعدموا البعض..
- يا أخي فال الله ولا فالك.. ربما جاءوا بمساجين جدد.
- ولكن لماذا كل هذا التخويف.؟
- ربما يكون القادمين الجدد مهمين
- من يا ترى .. من يا ترى..؟

واستمرت التساؤلات تملأ غرف السجن.

- تعرف أن العدد كبير..
- لا.. يمكن خمسة .. أو ستة..
- يا شيخ هناك أكثر من عشرة..
- أنا عددت القيود .. يمكن يكون العدد كبير..

ولم يكن يعرف عدد الداخلين ليلتها سوى ماجد الذي قبع في مخبئه ورأى كل شيء.

واستمر الظلام الكامل طوال الليل.

في الصباح منع العسكر مرور أي سجين من أمام المطبق الذي وضع فيه مساجين الليل.

وحاولت كل غرفة أن تعرف من بقية الغرف ما حدث في الليل.. ولم يجدوا شيئاً جديداً، فالكل يحاول أن يستنتج شيئاً .. حتى العدد لم يعرفه أحد.

مضى ماجد يخطو بخطواته الراقصة دائراً في السجن وكان وجهه معبراً عن حزن أليم.. وبعد ساعات مر وهو يدندن بلحنه الأليف أمام باب المطبق وسمع فجأة صوت إنسان وكأنه يأتي من بعيد.

- نشتي سيجاره .. نشتي سيجاره.

ومضى ماجد وكأنه لم يسمع شيئاً.. وبعد دقائق مر ماجد أمام تجمع للمساجين في المسعى وقال بصوت أليم:

- أشتى سجاره.

وقدم له أحدهم سجاره.. وأخذها منه ثم التفت إلى آخر وقال..

- أشتى سجاره.. سجاره كثير.. كثير.

ونهره السجين بعنف، فقد كان يناقش مع زملائه أحداث الليلة المرعبة.

ومضى إلى آخرين وقال:

- أشتى سجاره .. سجاره كثير..

وقدموا له لفافة أخرى.. ثم نهروه عندما ألح في الطلب.

وتركهم ومضى إلى آخر.. واستمر ماجد يجمع السجائر حتى وصل إلى المكان.. وابتسم في وجه العسكري الذي يبيع السجاره وقال له:

- اديسجاره.

وأعطاه العسكري ما طلبه..

مضى ماجد بطيئاً إلى المطبق وهو يلتفت يمنة ويسرة.. ولم يكن هناك من يراقبه من المساجين.. أما العسكر فقد كانوا يراقبون المساجين حتى لا يمروا من أمام المطبق.. ولم يكن ماجد مراقباً منهم.. وعندما وصل أمام المطبق برك أرضاً وجعل يقلب نفسه في

التراب بشكل مضحك حتى اقتربت يداه من ثقب ضيق تحت باب المطبق.. وهناك رمى بالسجائر من الفتحة إلى المطبق.

ثم قام وجعل ينفض عن جسمه التراب..

وأتاه الصوت الإنساني من بعيد.. من تحت الأرض..

- شكراً.. شكراً .. ونريد أيضاً كبريت..

ومضى ماجد يبحث عن كبريت.

---

(١) عاملاً : بمعنى والي او حاكم للإمام .
(٢) مبرز : مجلس القات.
(٣) المزين : الحلاق.

ليلة حزينة أخرى

انطفأت الأنوار فجأة، لم تتجاوز الساعة العاشرة بعد .انطلقت لعنات وأضيئت عيدان كبريت، ومضى كل إلى محله.

كنا عشرة. في غرفة صغيرة مرتفعة الجدران. كان الليل حزيناً. هبت ريح من الخارج، وانطلق صوت الحارس يردد أغنية حب، وضحك حارس آخر من مكان حراسته. وسمعنا صوت عصا تضرب علبة فارغة،وتصطدم عصا بجدار السجن. ربما كان ثملاً كعادته. لكنه يغني بصوت مرح.

- إنه الهمداني.
- كلا، ولكنه الذماري.
- ماذا يهم فكلاهما من نفس الطينة.

ساد الصمت داخل الغرفة، أشعل أحمد سيجارة وتقلب عبدالله على فراشه بقلق.

- لعنة الله على هذا العمود الفقري، ألم يجد وقتاً لينكسر إلا ونحن في السجن.

كان يتألم بصمت منذ وقت طويل. ولكن أحداً لا يهتم.. لكل مصائبه ومآسيه.

- ستنطلق المظلات لتتساقط بعد قليل وأشعل الأصلع ثقاباً وراح يبحث في طيات فراشه عن بقية تسريت.

وقال المغترب:

- لا تتعب نفسك فأن للبقة نصيبها من دمك ،مهما حاربتها.

ولم يضحك أحد..

سعل عبدالوهاب في ركنه ،وقال الرهينة:

- هل تريد فينجانين..؟

كلا، شكراً،

- ولكنك تسعل.

- وسأظل.

تسلل أحمد ببطء نحو النافذة، وفتح أحد جانبيها.. لكنه لم يكد يتحرك حتى سمع صوت.

- : يا حاشد.. يا حاشد .. أغلقوا الطاقة.

وقبل أن ينتهي الصوت، كان صوت ارتطام حجر يتردد في أنحاء الغرفة وصاح الأصلع.

- صلعتي يا ناس، صلعتي.. وأرتمى أحمد بسرعة فوق فراشه.

وكانت النافذة لا تزال مفتوحة ومرقت حجرة من الجزء المفتوح وارتطمت بالجدار المقابل وتهاوت شظاياها فوق الأصلع وعبدالوهاب.

- آه يا رأسي، اقفلوا الطاقة قبل أن تستشهد صلعتي.

وكان عبدالعزيز يحاول أن يقفل النافذة لكن حجراً ثالثاً كان يرتطم بها وصوت وحش يأتي من الخارج.

- يا حاشد أغلقوا الطاقة، وإلا عانوديكم المطبق.

ونجح عبدالعزيز في إغلاقها.

بينما قبع أحمد والشعور بالذنب يعذبه لكن أحداً لم يقل شيئاً.

- آه يا عمودي .. آه يا فقري لو وقعت الحجرة عليك!!

وأتى صوت الأصلع مرتعشاً.

- لو لم أضع المخدة على صلعتي لاستشهدت.

اشعلت سيجارة، كنت وعلي الوحيدين اللذين لم يتحركا، كان مكاننا بعيداً عن النافذة وعن مستوى تساقط الأحجار.

وبدأ الحزن يهبط ببرودة، عيون السجائر وحدها تلمع في أنحاء الغرفة، كان الدخان هو العزاء الوحيد.

- أنه لا يريد أن ينسى.

- ارتطم حجر رابع فوق الطاقة.

- أنه يريد أن ينتقم.

وقال أحمد:

والعسكري غبي للأذى فطن
كأن ابليس للطغيان رباه
جاء صوت المغترب هادئا:
- هذا لا يبرر جريمتك.
- شيطان الشعر تحرك من جديد. فلا نوم هناك.
وهدأت الأصوات.
رغبات حارة في الكلام، ورغبات أخرى أحر للصمت.
قال: عبدالعزيز: محمد هل تقص لنا قصة؟
قلت: لقد انتهى ما في الجعبة.
قال ابحث عن جديد.
قلت: لقد نسيت كل ما عرفته قبل السجن.
قال الأصلع: سأقص عليكم قصة من يوغسلافيا..
ولكن أصوات الرفض تعالت:
- لا..
- بحق السماء لا..
- لا نريد سجناً فوق السجن..
تحرك قيد من مكانه. كان صوته يملأ الغرفة ووصل إلى الباب المغلق من الخارج. أخذ أحدى العلب الفارغة. سمعنا صوت شخص يتبول وعاد القيد إلى مكانه. وقام آخر.
قال المغترب؟
- يا إلهي.. أنقذونا من هؤلاء. ألم يجدوا وقتا للتبول إلا الآن. ألا تكفينا الجراثيم التي تحوم حولنا.
ولم يجب أحد.
كلما انطفأت سيجارة أشعلت أخرى، كانت الغرفة مملوءة دخاناً.
سعل عبدالوهاب. وسمع شخير صالح.
- يا إلهي لقد نام.
- لم يخذله النوم.

ومن خلال الشقوق فوق الباب اندفع شعاع ضئيل للقمر.

وهتف أحمد.

- أنه القمر.. أنه القمر..

أجاب المغترب:

- كلا.. هذه نظرات الحارس الذي يتجسس علينا.

يحاول أن ينام. لكن المحاولات تفشل وتظل الرغبة في الكلام وفي الصمت متلازمتين.

ومضت دقائق. خلناها دهراً، والصمت يخيم على الجدران المليئة بالدخان.

أتت دندنة خافتة.. ورحنا نسمع وبدأت ترتفع، لم تكن من خارج الغرفة كانت تأتي من عبدالله. الذي بدأ بصوت حزين يغني:

"ساعة، ما بشوفك جنبي

ما أقدرش أداري وخبي"

ورحنا نستمع، صوته فيه بكاء حزين وكانت الأشعة تخترق الشقوق وتنفذ إلى الداخل وسحب الدخان تتراقص.

الريح تعصف في الخارج حزينة مثل الأغنية وعبدالله يلون اللحن.

تخيلته في الظلام، واضعاً يديه تحت رأسه ومخدته تحمي العمود الفقري، المكسور الذي لم يجبر بعد، ولا زال يعذبه كل يوم.

أحمد في ركنه يرافق الأغنية، وفي أعماقه رغبة في البكاء.

وتنهد يحيى بجانبي، وتحرك الرهينة مولياً وجهه ناحية عبدالله.

وشعرت بأن كل العيون التي لم تنم تمزق الظلام وتنغرس في عبدالله وتشارك الأغنية. الحرمان العنيف الذي يواجهونه منذ أشهر تجعل للكلمات قوة سحرية.. كل شيء ممنوع هنا ما عدا الهواء والماء. حتى الهواء لا يسمح به إلا في النهار، أما الليل فكل شيء مغلق حتى النافذة.

"صبرت الشوق على بعدك

كان أملي تحفظ عهدك"

في الصوت رقة الصدق التي لم نكن ندركها ونحن خارج السجن الصدق في كل شيء.

"خليتني أنسى أحبابي
ووهبتك زهر شبابي"

سمعت صوت بكاء خافت كان المغترب يبكي أنه يبكي كلما سمع أحدا يغني، يبكي عندما يغنينا هو إحدى الأغاني الانجليزية الحزينة أو أغنية أفريقية.

حتى القيود فوق أقدامنا والتي كانت لدقائق مضت تتدلى وتصطدم، هدأت- وبدأ كأن الدخان يسمع معنا.

وتكون الصمت من جديد.

"يا نور عيوني
زادت شجوني
ذبل جفوني
كثر النواح"

الأصلع يذكر صديقته اليوغسلافية ويتنهد بعنف. صالح لم يعد يشخر رغم أنه ما زال نائماً. عبدالوهاب هدأ سعاله.

وكل واحد كان يحلم، الكلمات لم نسمعها من قبل ولم نسمع اللحن، لكن الآن، في هذه الغرفة ومع قيودنا أصبحت جزءاً منا، لم يكن عبدالله يغنيها باستمرار، كان يحدث ذلك عندما يتذكر أطفاله وزوجته، عندما يبلغ به الحزن مداه ولم يكن يغني أغنية أخرى، ربما لا يعرف إلا هذه، يشاركنا دائما في أناشيد وأغان أخرى لكنه يبدع في هذه الأغنية:

ومضى الصوت الباكي

"تهجرني برضه أحبك
تلوعني برضه أحبك
تنساني برضه أحبك
ما أقدرش أنساك"

الصمت يصاحب الأغنية، حتى الحارس في الخارج لزم الصمت ولم نعد نسمع صوته وهو يلعن بقية غرف السجن أو يرميها بالحجارة أو بعلب فارغة. أو يضرب بعصاه أي شيء أمامه في ساحة السجن.

كانت الأغنية تنتهي. ودموع أعرف تماماً أنها تسيح على وجنات زملاء الغرفة، وكان الرهينة أكثرنا بكاء، لم يسمع طوال ثلاث سنوات من سجنه صوتاً حزيناً كصوت عبدالله، لذلك كان يبكي كلما انتهت الأغنية.

همد كل شيء، لم نعد نسمع سوى التنفس المنتظم للمجموعة، ساد الصمت الموحش يلف المكان وكنت أحملق في السقف ولا أرى شيئاً.

جمعنا الحزن في ذكريات متشابهة، وأمام كل واحد كانت صور أحبابه – أبنائه تتراقص.

وفجأة بدأ العمراني المجنون يؤذن أتى صوته من بعيد، قوياً مخترقاً جدار غرفته والمسافة وجدار غرفتنا. وأمسكنا تنفسنا. ماذا سيقول. وطال الآذان حتى خيل لنا أن انتظارنا طال دهراً.. وانتهى الآذان أخيراً.

وجاء صوته القوي.

- يا أهلاً.. يا مرحباً.. يا أهلاً.. يا مرحبا كنا ندرك أن كل غرف السجن تسمع صوت المجنون وأنها كلها تشعر بالحزن عميقاً وهي تسمع ترحيبه.

ولا أدري من قال بصوت حزين فيه بكاء.

- سجناء جدد.. سجناء جدد متى سينتهي ذلك.

ولفنا من جديد الصمت الذي كان يبكي.

النهاية

لم تكن لديه فكرة محددة وهو يغادر منزله في ذلك المساء كل ما فكر فيه هو أن الجو جميل.كانت السماء قد أمطرت صباحاً. وغسلت أحزانه التي قذف بها بعيداً بعدما فرغ من مضغ قاته.

هبت ريح ناعمة فهب يستنشق المزيد من الهواء. فكر أولاً في أن يذهب إلى المقهى لأخذ كوب من اللبن الساخن. لكنه عندما اقترب من المقهى رأى وجوهاً معروفة لديه. كره اللبن ومضى بعيداً.

- الأفضل أن يأخذ كأساً من الويسكي أن ذلك سوف ينعشه كثيراً.. وعندما استقر رأيه على ذلك قرر أن يأخذ تاكسي إلى ابعد نقطة في أديس أبابا، حيث لا أصدقاء ولا معاريف.

كلهم يشربون مثله تماماً، ولكن كل واخد منهم يخاف أن يراه الآخر، لذلك يشرب كل منهم بعيدا عنهم وعن نفسه أحياناً بحكم الخوف أو المظهر.. مضى التاكسي بعيدا.. كان يشعر بفرح غامض ذلك المساء.

ولكن لم يقرر أن يذهب إلى " زينب " لأنه لا يراها إلا مرة واحدة في الأسبوع وعندما كان يمضغ القات شعر بحرارة في جسده وفكر فيها. ولكنه الآن لا يريدها ولم يسأل نفسه لماذا؟ لعله يريد شيئاً جديدا في هذا المساء لم يستغرب عندما رأى صاحب التاكسي يخوض شوارع لا يريدها. لديه اندفاع إلى شيء ما مجهول.

عندما توقف التاكسي، كانت الساعة قد اقتربت من الثامنة مساءً نعم لديه حسابات كثيرة هذه الليلة ولكن سيدعها إلى الغد.

كان الشارع خالياً، ومضى فيه حتى النهاية. هناك " بارات " كثيرة ولكنها خالية أنه لا يحب مثل هذه الأحياء، فمضى بعيدا.. ربما جذبه لون الضوء المنعكس على الأرض وربما يكون السبب هو

انعزال المكان. كان قد اجتاز نهراً صغيراً، لذلك بقيت تسمية القصة وضعتها مجلة " الحكمة " وقد وجدت هذه القصة التي لم تنشر بين أوراق قاصنا الشهيد بوضعها هذا دون عنوان.

أطراف بنطاله مبللة بالماء عندما قفز محاولا اجتياز النهر. لكن الرذاذ تطاير، لذلك كان منهكا بعد أن صعد التلة الصغيرة الكامنة في أحضان غابة من الكافور. لقد جذبته رائحة الكافور المغسولة بمياه الأمطار.

- مساء الخير.

واصطدمت عيناه بعجوز قابعة في منتصف الغرفة. منهوكة وذابلة العينين. نظرت إليه بلا مبالاة. ثم قادته إلى غرفة داخلية مخترقة ستارة جميلة المنظر، ذات أطراف مطرزة تنام بتكاسل على الأرض.

الغرفة عادية كمئات الغرف التي رآها، ولكن فيها شيئا ميزها عن غيرها – لم يكن " البار " بالطبع .. بالرغم من احتوائه كل أصناف الخمور وعلى آلة موسيقية حديثة يبيعها هو في دكانه بأكثر من خمسمائة دولار.. ربما ما جذبه إلى الغرفة هو لونها العصري ولم يكن ذلك موجوداً في معظم منازل النساء، الصالون الجميل مع بساطة ألوانه الغامقة. خاصة بعد انعكاس الأضواء عليه. لون الزجاج الذي يتلون بصورة هندسية جميلة على الجدار. الصورة الرائعة المعلقة بسهولة منبسطة حتى النهاية، والرائحة العذبة التي تحتوي المكان.

لم يكن باستطاعته وصف المكان. رأى الكثير من ذلك في السينما وحلم بأن يصنع لنفسه صالوناً كذلك، ولكنه لم يجد المنزل الملائم له.

- مساء الخير.

بدت مرحة طيبة بسمرتها، موسيقية الصوت والابتسامة.. مضت سريعة وجلست:-

- هل أقدم لك شيئاً؟

- نعم ويسكي بالصودا
- انني أفضل الجين مع التونك
- يمكنك شرب ذلك على حسابي ومضت تعد ذلك...
- أليست تلك خادمتك؟
وأشار إلى حيث مضت المرأة العجوزة.
- أوه .. كلا .. تلك والدتي.
وهز رأسه ببلاهة.
- إنها تعيش معي..
- أوه..........
اقبلت حاملة كأسها
- ألم تخدعني؟؟ اعتقد أنَ كأسك فيه ماء وليس جينا......
- يمكنك أن تتذوق لتتأكد.
- أذن صدقتك
وضحكت.
كانت صغيرة قدَّر عمرها بستة عشر عاما إن لم يكن أقل من ذلك.
- ألست جديدة هنا؟
- أوه .. أشهر ستة.
- ولكنك فيما يبدو غنية.. وأشار إلى الغرفة.
- كلا .. أن عشيقي رجل يستطيع صنع ذلك..
- آه.....
وضحكت قائلة
أنه طيب .. لا يغضب..
- أعرف ذلك.
وراح يشرب كأسه ببطء، بينما قامت إلى جهاز الموسيقى..
- هل تحبها صاخبة..
- كلا.. هادئة.
وأدارت أغنية حبشية رقيقة.

- أنها أغنيتي المفضلة.
- وأغنيتي أيضاً.
- هل أنت مولد..؟
قالتها وهي تنظر إليه بعينيها السوداوين الواسعتين..
- نعم ... لماذا؟
- أنني أحب المولدين...
- آه ... أما أنا فأكرههم..
- لماذا؟
- لأنهم تافهين.
- أنا أيضاً مولدة.. فهل أنا تافهة؟
- ما دمت مولده.. فنعم.
ضحكت! أنك غريب.. أول مولد أراه يقول ذلك.
ولم يكن يبدو عليها مولدة.. أن أمي نفسها قد نسيته، مرة تقول أنه إيطالي ومرة أخرى تقول أنه يمني.
- قد تكون كاذبة...
- ذلك لا يهمني.
- إذن لماذا تقولين أنك مولدة ما دمت لا تعرفي ذلك؟
- مهما كان والدي فأنا مولدة.
شعر فجأة بإحساس غريب...
هل يمكن أن يكون ذلك؟ لا يهمك من يكون أباك؟.. ولكنك مولد لا ... حقيقة لقد شعر مرات بأنه منبوذ، وكذلك يشعر الكثيرون مثله، لكنه يعرف من هو أبوه.. ومن هي أمه.. ويعرف من أين أتى أبوه. بل ويعرف أسماء عائلة والده وقريته، كل ذلك مرسوم في أعماقه بالرغم أنه لم يرهم. كان يفكر مرات بزياراتهم ولكنه نبذ تلك الفكرة بعد ذلك، بعد أن مات والده الذي عاش هنا أكثر من خمسين عاماً.. لقد بقى هو وحده.. ماتت أخته منذ أعوام قليلة وبقى هو. لا تزال الرسائل تصله باسم أبيه ويكتب لهم أيضاً

بنفس الاسم. أنه يخاف من الوراثة. يقولون أن أباه كان مزواجا في اليمن. قالها أبوه أكثر من مرة.. ويقولون أنه طلق.. ولكن هل لديه أطفال؟ لقد سمع أنهم ماتوا. ولكنه غير متأكد.. لذلك لم يكتب لهم بأن أباه قد مات حقيقة، لقد نسي أبوه أشياء كثيرة، هناك لن يتركوه، إذا علموا أن الرجل كان غنيا هنا.

- بماذا تفكر..؟

كان الكأس أمامه فارغا

- أوه لقد انشغلت.. أرجوك كأسا أخرى.

- كأسين .. تقصد

أوه .. نعم .. نعم.

رغبة

كان كل من في المنزل قد غادره إلى مكان ما للزيارة.. ولم يبق أحد سواي.. والدي ذهب كالعادة بعد الغداء إلى (المبرز)، ومنه سيذهب إلى الدكان حيث لن يعود إلا قرب منتصف الليل، وكنت أعرف أن أمي لن تعود من زيارتها لأقاربها إلى مساء الغد.

كنت وحيداً في المنزل.. حملت أمام الجميع كتبي وأغلقت على نفسي باب غرفتي، حيث ظن الجميع أنني استعد للامتحان النهائي لكلية عدن، ولم أكد اسمع صوت سيارة والدي تغادر الشارع حتى اسرعت وفتحت الباب، وجلست أنظر إلى الشارع.

الساعة تقترب من الثالثة، كل شيء هادئ، وشمس عدن تعذب الأرض بلهيبها.. السماء فارغة بلا لون.. نسيم يحقنه الاكفهرار.. وماتت الحركة في الشارع تقريباً. وفي أعماقي تتولد قوى مخيفة.. عيوني تحملق في الشارع بشراهة.. قذفت بكتب الكلية وتناولت رواية تتحدث عن حب رخيص، من خلال السطور كنت أشم رائحة اللذة التي يصنعها أبطال القصة.

أشعر بالحيوان في داخلي يمزقني.. كنت أعرف أنها ستحضر بعد وقت قصير، ولهذا كان الريق يجف بحلقي، فأسرع إلى الثلاجة أعب من قوارير مائها البارد. خلعت كل ملابسي ورحت أقطع الغرفة (بفوطه) حريرية خفيفة.. ومن وقت إلى آخر القي بنفسي تحت ماء (الدش).

الشمس ترسل لعناتها ويمرح الشيطان في رأسي. أنني أردد مقطعاً في صفحة من الرواية الجنسية حيث كانت اللذة في أوج قمتها. كنت محروماً.. طافت برأسي صور قامات الراقصات اللاتي كنت أراهن في السينما، وأتخيل أجسادهن اللولبية في حركاتها الأفعوانية بجانبي، فأسرع إلى (الدش).

الساعة تقترب من الرابعة.. رأيتها تقطع الشارع إلى منزلنا، وخفق قلبي بشدة، وشعرت بالعرق، حلقي يجف. كانت دقات قلبي قد وصلت إلى فتحة فمي.. ارتجفت قدماي وأنا أسمع صوت أقدامها في الزقاق. كان علي أن أتصرف بسرعة، لقد انتظرت هذه اللحظة منذ أن عرفت أن هناك حيوان يصرخ في أعماقي. لن أجد إذاً فرصة أخرى.

فتحت الباب .. نظرت إليها .. كانت قد بدأت في مزاولة عملها المعتاد.. سمراء طويلة القامة، نهداها يتسربان من تحت ثوبها وقد أحنت قامتها.. وشعرها المفلفل يسبح تحت طبقة من الزيت، كان يتساقط على وجهها بعد أن نفحته أشعة الشمس وأذابته. وقدماها حافيتان.. شدت قميصها إلى ما فوق ركبتها فظهر ساقها المرمري الأسود يلمع وكأنه قد دهن بزيت. لا أعرف كيف ألقيت عليها التحية.. وأنا الذي يمر بجانبها كل يوم بغطرسة، دون أن يفكر بالحديث معها.. مع أن عيوني تلتهمها بشهوة – وردت التحية .. وشجعني ردها وابتسامتها الصغيرة.

- والدتي تريد منك أن تدخلي المنزل لإعطائك شيء ما ..

ونظرت إلى عينيها .. كانت لا تصدق ذلك، خفت أن تشك في الأمر فأسرعت بالدخول وكان الأمر لا يعنيني تاركاً الباب مفتوحاً.. سمعت صوت المكنسة وقد وضعتها على الأرض ثم رأيت ظلال جسدها على الباب، كانت لا تصدق أن تدعى لدخول منزل رجل غني.

- أدخلي.. أمي في المطبخ..

ومضت إلى المطبخ.. أقفلت الباب وذهبت وراءها .. كان الصمت مخيماً على المنزل. ومنذ دخولها، كانت رائحة جديدة تسيطر على المكان. رائحة عرق وزيت، ورائحة أخرى قذرة أثارت في الشبق. كنت أشعر بالحمى تكوي رأسي والعرق وقد نشف تماماً في وجهي. عيناي كانتا تحملقان في ردفيها وهي تسير نحو المطبخ. شعرت

بالحرارة تجري في عيوني والدم يتدفق في شراييني بقوة، كان كل شيء حولي أحمر. أحمر كالشهوة ورأيت أبطال القصة وهم يبتسمون لي، وأخيراً وجدت نفسي أمامها وجهاً لوجه في المطبخ، أنظر إليها بفم مفتوح.. وهي لا تزال تبتسم. قلت لها بصوت مرتعش:

- مالك .. أجلسي.
- فين ستي؟
- ستأتي الآن..

كان في المطبخ فرش على الأرض، رأيتها تنظر إلى الفراش كأنها لا تريد أن تلوثه، رغم قدمها، قلبي يخفق وقدماي ترتعشان، رأيت الشك في عينيها لكنها كانت صامتة.

- تشربي حاجة؟

لم تجب.. فتحت الثلاجة، أخرجت منها بعض المشروبات وقدمتها لها. وكان هناك أيضاً بعض الأكل.

- كلي..
- فين ستي؟
- مالك .. تني.. ذلحينباتجي.. لكنها بقيت واقفة. مضيت إليها، امسكتها من يدها.. وأخذتها إلى الفراش محاولا إجلاسها بالقوة. لكنها رفضت.
- أيش تشتي مني؟
- ولا حاجة.. كلي.
- شبعانة.
- طيب أشربي
- ما أشتي.
- طيب.. ملي.. أجلسي
- ليش؟
- بس.

واندفعت نحوها كحيوان أطبع القبلات على شفتيها الزنجيتين، كانت تحاول الهرب مني.. وكنت أقوى منها. حاولت جاهداً رفع ذيل ثوبها، رائحة أبطيها تثير شبقي، وكذا لون نهديها الأسمرين اللذين اندفعا من خلال فتحة الثوب فوق الصدر. سمعتها تهمهم بكلمات.. أعماني منظر نهديها فمزقت الثوب عند الصدر.

- مالك .. تجننت؟

لم اجب.. مضيت ألتهم نهديها بقبلاتي المتوحشة، تماماً كما يفعل أبطال القصة.. حاولت أن تتخلص من ثقل جسمي عليها ولكن دون فائدة. ملأت أنفي رائحة أبطيها، تمزق الثوب. ولم تكن تلبس أي شيء غيره، سمعت صرخة مكتومة..

- آه.. أوجعتني .. أوجعتني.. عادني بنت .. آه.. عادني بنت.. ملي استني. وكان كل ما حولي أحمر كالجمر المتقد. الشبق.. رائحة أبطيها.. نهداها في فمي.. عيناها تبحث عن وجهي والفزع يسيطر عليها.

خمدت ثورتي.. أنطفأ كل شيء فجأة.. شعرت بالقذارة في فمي.. ازكمتني. أحسست بالغثيان، كان الفراش قد امتلأ بنطف من الدم والفوطة الحريرية قد ارتمت بعيداً تحت الثلاجة.

ولاحظت نقطاً حمراء متفرقة بذيل قميصي الأبيض، كان ثوبها قد تمزق.. حاولت أن تغطي نهديها بيدها وهي تنظر إلى الأرض بفزع. الشمس ترسل أشعتها فوق رؤوس البشر.. سيارة تنطلق بكسل على أرض الشارع ونسمة قذفت للحظة بستارة النافذة في الهواء، لتعود الستارة إلى مكانها من جديد.

- مالك؟

لم تنظر إلي، كان وجهها صغيراً.. صغيراً.. ورأيت دموعاً على خدها، وعينيها السوداوين وقد غارتا بحزن صامت.. وكانت تنطلق نهدات من بين شفتيها أمسكتها من يدها، وقفت.. كأن شيء ما يمزقها.. والدم قد بلل ساقيها المرمرين.

- تعالي.. وسحبتها إلى الحمام.. ادخلي اتغسلي..

وقفت أمام باب الحمام تحملق في صمت. رحت إلى غرفتي وأحضرت لها منشفة.

- خذي اتنشفي.. الصابون فوق.. هناك.

كانت واقفة، لم تتبين ما الذي حدث حتى الآن. وجرجرت ساقيها وأنا أدفعها إلى الداخل. سمعت بعد قليل صوت (الدش) وأنا أتذكر ما حدث.. لم أكن أصدق كل ذلك.. لقد بدأ كل شيء وانتهى بسرعة، ولكن بقع الدم فوق الفراش وعلى أطراف قميصي يفضح كذب القضية. ودق سؤال في رأسي بعنف.. وإذا عرف والدي؟ أسرعت إلى الباب، كان مغلقاً بالمفتاح ونظرت إلى النافذة حيث كان كل شيء هادئ. السرر الممدودة على أرصفة تحت ظلال العمارات.. وناس يمضغون قاتهم وقد خيم الصمت عليهم، ونسمات رقيقة تعبر الشارع.. جبل شمسان بدأ يغطي جزء من المدينة في حين كانت شمس الساعة الخامسة تودع أشعتها الحارة، فوق مياه البحر.. وأغلق (الدش) رأيتها تخرج من الحمام.. شعرت بشيء ما يهتز في أعماقي.. كانت جميلة. عيونها واسعة كغابات أفريقيا، نهداها يتحديان قدرة الآلهة.. لونها الأسمر يميل إلى السواد هزني. في نظراتها انكسار وحياء، رسمت فوق وجهها الربيعي مئات من صور عذبة.. أوتار قلبي تدق. وقفنا ننظر إلى بعضنا والحياء يمزقنا. اقتربت منها، وبهدوء طبعت على خدها قبلة وسحبتها إلى غرفتي، كانت لا تزال بثوبها الممزق. ذهبت إلى غرفة أمي وأحضرت لها ثوباً لها.

- خذي.. ألبسي.

شهقت وهي ترى الثوب الحريري شبه الجديد.

- لا ما أشتي هذا..

- ليش. لم تجب.. ألقت نظرة صامتة على الثوب، ثم علي.. سألتها.

- كم عمرك؟ فكرت ثم ردت:
- ما أعرفش.. يمكن أربعة عشر سنة. كان في هذا الحدود.

اقتربت نحوها..

- وأنت؟.. أجبتها بفخر من يعرف متى ولد: ثمانية عشر سنة راحت تفكر.. وأحضرت لها شيئا من المطبخ..
- فين راحت ستي؟
- زيارة..
- متين باترجع؟
- بكرة.. ثم قالت والحياء يحمر خديها.
- معاك ابره وخيط
- أيوه ليش.. وأشارت إلى ثوبها الممزق...
- أيش بايقولوا علي لما أروح كده؟ ورأيت شبح دموع في عينها.. عندما راحت تخيط الثوب، كنت التهم نهديها.. حاولت أن ترفع يديها لتخفيهما، اقتربت نحوها.. ضممتها إليَّ وقبلتها. ظلت ساكته.. غبنا معا على السرير..
- مالك .. أيش باتسوي؟ ولم أجب
- حرام عليك.. أوه وجع. وجع.. وخفت صوتها وكنا عاريين تماماً.

كانت السابعة عندما غادرت المنزل.. وعند بداية الشارع، رأيتها تلتفت إلى الشباك.. حيث وقفت ثم نكست رأسها ومضت، من البعيد كانت الشمس قد غرقت في البحر.. وخلفت دماء حمراء على بساط المياه.

بدأت عدن ليلها.. انطلقت السيارات وكثر الزعيق راح الناس يلتهمون الشوارع بعيون حمراء. كنت وقتذاك أغسل الأرض.. وقميصي الأبيض.

قصة لم تنشر من قبل ويبدو انها من بدايات الكاتب عثر عليها اخوه عبدالفتاح عبد الولي ووضع عنوانا لها .

أعمال مسرحية

الشيخ بشر بن الحافي

يرفع الستار على ميدان يسوده ظلام. تظهر أضواء خافتة في مؤخرة المسرح حيث تبدو سماء شاحبة وتحتها في أعماق المسرح قمم منازل، كأنها رؤوس لأشباح سوداء أو مشاهد قبور. في الجانب الأيسر يبدو جزء من منزل كبير محاط بسور هائل. وتبدو قمة المنزل كضريح ضخم.

وفي الجانب الأيمن بقايا سور للمدينة وباب واسع أشبه بأبواب المقابر. وفي باب المسرح بجانب المدينة تل صغير من الأحجار وطريق مهمل.

يضاء الجانب الأيمن ببطء.

يبدو الشيخ بشر بن الحافي وهو يسير متوكئاً على عصاه ومنحنياً ينظر إلى الأرض. رافق الضوء خطواته.. بينما تغرق أعماق المسرح في الظلام.

الوقت ليل. ونجوم صغيرة تلمع في السماء السوداء. صوت من الظلام: من هناك؟ قف.. لا تتحرك؟

(يقف الشيخ بشر. يتلفت يميناً ويساراً. ثم يتابع طريقه).

الصوت: قف، قلت لك قف. ألا تسمع؟

(يستمر الشيخ بشر في طريقه منحني القامة)

(يظهر من جهة اليسار صدى يحيطه ظلام. شاهراً رمحه إلى صدر الشيخ بشر بن الحافي).

(يقترب من الشيخ ثم يخفض رمحه)

الصوت: قف.

لقد أفزعتني عليك.. لماذا لم تجب على ندائي

(ينظر إلى النجوم في السماء السوداء)

لم أكن أظن أن الوقت قد مضى سريعاً هكذا!!

الشيخ بشر: الأحجار في الطريق إجابتك واهتزاز الأشجار عندما كررت نداءك تخبرك عني. حتى النمل الطيب في أعماق الأرض كان يصرخ في وجهك ويقول لك أنه الشيخ بشر بن الحافي.

الجندي: (وهو يعود إلى الظلام).. لا تزال كما كنت مجنوناً.

(يمضي الشيخ بشر نحو التل الصغير ويجلس.. فيختفي الضوء)

صوت من وسط الظلام: أنها التاسعة مساء.

صوت آخر: وكيف عرفت؟

الصوت الأول: لقد وصل الشيخ بشر بن الحافي إلى زاويته.

صوت آخر: أنني لا أعرفه مطلقاً.

(صوت أقدام تقترب من بعضها. يضيء المسرح قليلاً ويبدو في كل جانب أحد الجنود).

الجندي الأول: أنك جديد هنا!! لم أراك من قبل..

الجندي الثاني: اسمي جبلان. وأنت؟

(يتقدم نحوه ويصافحه)

الجندي الثاني: وأنها سهلان.

(يصافحه بحرارة)

جبلان: أنني أحرس الطرف الأيسر

سهلان: وأنا هناك في الطرف الأيمن. وقد رأيت هذا الإنسان وهو يعبر فاعتقدت أنه أنت؟.

جبلان: أنك سترى أشياء مسلية هذه الليلة.. بعد قليل سيصل إلى هنا كل من الشيخ الراوي بن كتيبة والشيخ الشاعر بن طبيلة، حيث يقضون لياليهم في الحديث الذي لا ينتهي. عن الذي " يأتي ولا يأتي " وعن " بوابات العالم السبع " . وعن..

سهلان: وهل تستمع إليهم كل ليلة؟

جبلان: نعم حتى أستطيع أن أقضي على الملل. وحتى يمر الليل السخيف الذي يخيم على المدينة حتى ليظن أننا لن نرى شمس نهار آخر. لو لم يكن هؤلاء هنا لما رضيت أن أحرس هذه المنطقة

مطلقاً. مضى أكثر من عام وهم يسلون ليالي حراستي. اجلس هناك في الظلام أسمع وأسمع.

سهلان: وهل تفهم ما تسمع؟

جبلان: أن يوجد حديث بالقرب حتى ولو لم تفهمه يجعل للحياة طعم الاستمرار.

سهلان: وهل يمكنني أن استمع أنا أيضاً؟.

جبلان: نعم، ولكن لا تغفل عن حراستك. وإلا فإن " مولانا " لن يعطيك متعة أن ترى نهاراً جديداً من الغد.

سهلان: (مستغرباً). ولماذا؟

جبلان: (بصوت بارد) أنك جديد. ألم تر تلك البئر خارج المدينة. انها تستقبل يومياً ما لا يقل عن عشرة أشخاص، أي إنسان يخطئ في مدينتنا يجد البئر تنتظره بفارغ الصبر (يضحك). وربما بشوق ولوعة.. (يقف وقفة عسكرية) " مولانا " لا يرحم من يقف ضده أو ضد إرادته.

سهلان: (بصوت مفجوع).. يا إلهي.. يا رب السماء والنجوم.. لم أكن أظن أن " مولانا " قاس إلى هذه الدرجة.

جبلان: (ينظر حوله بقلق).. أس.. اصمت عليك اللعنة.. (يستمر في الالتفات بخوف) .. ماذا قلت بحق الجحيم.. أنك تريد أن أفقد حياتي لبلاهتك؟؟ أحمد الله أنني لم أسمعك تنطق بتلك الكلمات.. (يرفع صوته) .. أن " مولانا " أكثر الناس عدلاً في العالم.. (يعود إلى صوته وهو يتحرك إلى نقطة حراسته) سأعود إلى عملي.. إلى اللقاء. يا إلهي كلهم أغبياء هؤلاء القادمون من السهول.. أغبياء .. وألسنتهم طويلة .. سترك يا " مولانا " .. فأنا لم أسمع اليوم.

سهلان: (يقف مستغرباً ينظر إلى زميله يمضي متمتماً).. إلى اللقاء .. يا إلهي.. لماذا تغير وجهه هكذا. لقد نطقت كل قسماته

بـالخوف.. مـاذا قلـت؟ .. (يحـك رأسـه مفكـراً) مـاذا قلـت؟ (يهـز كتفيه).. لم أقل شيئاً.. (يمضي في الاتجاه الآخر):

الشيخ بشر بن الحافي: (تسلط عليه الأضواء خافتة.. مع أضواء متراقصة على مشاهد المدينة والقصر)..

- لقد قلت يا بني كلمة قاسية.. لا تعرفها المدينة.. الناس في مدينة الأحياء هذه يخافون أن تمس آذانهم مثلها. لقد تعودوا أن يستمعوا إلى الطف وأنعم الكلمات فقط.

سهلان: (يعود إلى قرب الشيخ بشر) ولكني جديد هنا يا سيدي.

الشيخ بشر: ستتعود على كل جديد كما تعود من كانوا قبلك (يفكر قليلاً) ليس في العالم كله ما هو أسهل من أن يتعود الإنسان على شيء.. (يهز رأسه).. قل لي يا بني.. لماذا أنت هنا؟.

سهلان: أنني أحرس. لقد استدعاني أمير حرس " مولانا " وقدم لي هذا السيف وهذا الرمح وقال " اذهب إلى باب اللذة " وتولى حراسته.

الشيخ بشر: ومن أي شيء تتولى حراسته؟

سهلان: (حائر يحك رأسه).. لا أدري.. يا سيدي نسيت أن أسأل.. صحيح.. نسيت أن أعرف لماذا؟.

الشيخ بشر: أنت حر – مادمت لا تعرف – في أن تسمح لكل إنسان أن يمر.. وأنت حر أيضاً في أن تمنعه.. فأيهما تختار ما دام الاختيار لك..

سهلان: لا أدري يا سيدي.. حقاً لا أدري؟.

الشيخ بشر: (يقف .. يسير نحو سهلان).. في مدينة الأحياء لم يجد إنسان نفسه في موقف كهذا إلا واختار أن لا يكون حراً.. (صمت).. أنه يصنع ما لم يطلب منه.. (ينظر إلى سهلان).. أنك ستمنع الجميع من الدخول أو الخروج يا بني.. أليس كذلك؟

سهلان: (بصوت حائر) لا أدري يا سيدي.. حقاً لا أدري.

الشيخ بشر: أن منعت الجميع فقد يكون " مولاكم " من ضمنهم.. فهو يحب أحياناً أن يمر في مثل هذه الليالي ليتفقد أحوال رعاياه ويطمئن إلى أنهم يتمتعون بنوم هانئ.. حارماً نفسه من لذة النوم.. وقد يسألك " لماذا منعتني؟ ألا تعرف أنني مولاك؟ " وإن سمحت للجميع فقد يكون هو من ضمنهم وسيقول لك أنك تتآمر ضده.. (يضحك) .. تلك معضلة يا بني وفي مدينة الأحياء هذه يجب أن تسأل ماذا تعمل قبل أن تبدأ العمل.. أذهب.. واسأل.. لربما عرفت شيئاً جديداً.

سهلان: حاضر يا سيدي.. أنني جديد هنا، لذلك لا أعرف شيئاً.. سأذهب.. سأذهب لأسأل.

الشيخ بشر: (بصوت خافت كأنه يحادث نفسه).. أنتم دائماً هكذا تحملون قلوباً ناعمة، كالأرض التي تعرقون عليها. تعطي عطاءها حتى ولو لم يطلب منها ذلك. أذهب.. أذهب ومارس عبوديتك يا بني.

(يمضي سهلان نحو الظلام.. بينما يعود الشيخ بشر نحو تلة الأحجار.. يجلس القرفصاء ويرفع عصاه ويبدأ حديثه وكأنه فقيه في مسجد يدرس أطفاله).

الشيخ بشر: توقفنا في درس الأمس.. عند قصة سليمان والنمل. واليوم أريد منكن أن تسمعن جيداً، خاصة أنتن أيتها النمل أخرجن من مساكنكن فقد مضى سليمان القديم الذي يعرف لغتكن وأقبل أكثر من سليمان جاهل ومدعي.. أن الليل يحمل في أعماقه لكن حبه وتقديره ويغطي على سخف أي سليمان جديد.

(يسعل.. ويفكر قليلاً.. الأضواء تنعكس عليه كأنها أشعة قوية.. تهبط من مكان مجهول من السماء)..

في القديم.. القديم عاشت امرأة.. اختلف الناس على اسمها ولكنها كانت امرأة.. كانت جميلة.. وكانت عاقلة.. وكانت مفكرة.. أعطاها الذي يوزع الأشياء كل ما عنده. حرم الآلاف ووهبها هي

كل ذلك. كان العدل طريقها.. والعمل سريرها.. والفهم هواءها.. والعطر شمسها.. أخذت عنه من قبلها الحكمة والعلم وأعطت الناس خلاصة ما لديها، فأصبحت بلادنا جنة.. صغيرة.. الماء يجري بين الأشجار وفوق الأرض. كانت الشمس القمر من بين آلهتهم.. هكذا تعلموا ممن قبلهم.. ولأنهم يعبدون الأرض عملاً.. لم يفكروا كثيراً في السماء، كانت الأرض والبحر ملكاً لهم.. كل القوافل تعيش من خيراتهم. وكل البحار تحمل أثمارهم.. حتى الوحوش علموها أن تكون عاقلة. فنسيت طبيعتها الشريرة.. فعاشت مع الناس في البيوت والشوارع.. وعملت معهم في نقل الأحجار وشق الجبال وبناء " سدود " على الوديان. الماء.. الماء.. الماء.. يهبط من السماء ويجمعونه ويوزعونه. كأن بناء العالم هماً لهم. على شواطئ بعيدة بنوا مدناً صغيرة لها حصون وكانت مراكز لما يأتي ويذهب. ويوماً ما يا أبنائي أرسلوا قافلة إلى ما وراء البحر.. حيث تغرب الشمس وهناك رأى أجدادنا بناء عظيماً. فظنوا أنه سد أكبر من سدودهم. وقالوا سندرس ما عمل هؤلاء.. سنعمل أكبر مما عملوا.. ذهبوا يسألون عن ما رأوه.. فقالوا لهم أنه قبر لملك منهم مات.. وضحك أجدادنا يومها وقالوا أنهم ظنوا أنه سد: ولم يفهم أصحاب ما وراء البحر ماذا تعني كلمة " سد " وكلما شرحوا لهم معنى " سد " ظن أولئك أن أجدادنا مجانين. فعادوا من هناك وقصوا على أهلنا ذلك. وأصبحت من يومها أسطورة ترددها الألسنة وماذا حدث من ذلك اليوم وحتى الآن؟! لقد أتى حكم " الموالي " وحطموا كل شيء.. انهارت السدود وتفرق الناس وأصبح الاغتراب يطلق عليه اسم بلدنا. وتعلم الذين كانوا جهلاء يومها كيف يبنون اليوم سدوداً أكبر. وأطلقوا من الماء حيواناً كبيراً مثل البرق الذي يلمع من السماء بينما نسينا نحن ما عمل الأجداد.

(بينما يلقي الشيخ بشر بن الحايف درسه يقترب ببطء من طرف المسرح الشيخ الراوي بن كتيبة وهو أعمى تقوده عصا في يده ويمضي بمشيته حتى يصل إلى مجلس الشيخ بشر ويجلس صامتاً يستمع إليه). (بينما يبدو من خلفهم كل من جبلان وسهلان في زاوية حراسته. ينظران إلى الشيخين ويصيخان السمع.

الشيخ بشر: كانت تلك المرأة جميلة.. كانت تبحث عن شيء يدفئ صدرها. في أعماقها كانت أنثى.. تبحث عن الحقيقة والحب.. ورأت يومها هدهداً جميلاً فأعجبت به. وكان وراء الهدهد رجلاً. وكانت هي تبحث عن رجل. رجل يشعرها بما تملك من كنوز. وكان أجدادنا يرون فيها عقلا وعدلا .. وحكمة.. ونسوا أنها تملك شيئاً آخراً. ومضت يومها وراء الهدهد تبحث عن الحقيقة والحب. ومن يومها انقطعت عنا الأمطار. وعشنا على مياه السدود حتى نفدت فبدأ السد ينهار للفراغ الذي يحتويه.. ومات العقل في رؤوسنا، دفناها عند أقدام السد الميت.وهكذا حدث الاحتجاج الكبير من السد فانهار، لأننا لم نملك بعدها جرية التفكير.

(يتوقف .. يسعل.. وينظر إلى الشيخ الراوي).

الشيخ الراوي: يا صديقي.. أنعمت مساء.

الشيخ بشر: أواه يا صديقي.. أنت هنا إذن، كنت أتحدث إلى أبنائي .. ألا ترى أن النمل زاد هذه الأيام حولي..

الشيخ الراوي: إنني أشعر بذلك يا عزيزي ولعلهن يعجبن بقصة أجدادهم من النمل.

الشيخ بشر: وهل من جديد لديك يا شيخ الراوي؟.

الشيخ الراوي: نعم. لقد رأيت رؤيا يا صديقي.

(يتوقف.. يسعل الشيخ بشر.. يدق الشيخ الراوي بعصاه على الأرض بقلق. ينصت الشيخ بشر وكذلك الحارسان .. صمت شامل.. الأضواء تتراقص.. خاصة في خلفية المسرح).

- رأيت أبواب السماء وقد انفتحت فجأة. وانهمرت أمطار غزيرة.. أمطار لم نسمع بها في كل تاريخنا الطويل.. كانت الأمطار تتساقط كأمواج بحر غاضب. قرب ضخمة تفتح أفواهها فجأة وتسكب ما فيها وكان هناك برق ورعد وعواصف، كل ذلك كان قادماً يا صديقي من الشمال.. الشمال البعيد.. عواصف وصواعق ملأت الدنيا أضواء وضجيجاً. رأيت الجبال تتهاوى بعد أن يفجر البرق صخورها، وكانت تتساقط على المدن والقرى.. كان الرجال يفرون هلعاً.. والنساء يمشين وقد احتضن الأطفال.. أما الشيوخ فقد ذهبوا مستسلمين إلى بقايا السد يصلون للآلهة التي ماتت عندما دفن آباؤهم العقول عند أقدام السد. كانت الأمطار تغرق الشمال كله.. أما الجنوب.. أما الجنوب فقد اغتسلت أرضه بالماء من السيول.. لكن الرؤيا يا صديقي مخيفة.. كانت الأرض تموت وهي تبتلع مياه السيول. وبدلاً من أن تثمر، كانت تزداد جدباً. والناس يصرخون.. وكلما زاد صراخهم زادت الأرض جفافاً. ورأيت طيوراً غريبة.. جميلة الأشكال وكانت تفر خوفاً من أي شيء يتحرك. ولكنها كانت تلتهم كل شيء اخضر فوق أديم الأرض. وخرجت وحوش رهيبة من أعماق الجبال المنهارة.. وراحت تزحف.. تهاجم الطيور وتبتلع الجثث. وكانت هناك معارك رهيبة.. أبيض شعر رأسي هولاً منها عندما صحوت، كان كل شيء غارقاً حولي حتى أعماقه في الوحل والطين، وكانت أصوات العاصفة والبرق ترن حولي كصدى أسطوري.. يا إلهي أي شيء كان ذلك.. أي شيء .. لا زلت في حيرة حتى الآن.

(يظهر الحارسان تحت النور في مقدمة المسرح).

جبلان: أرأيت.. ألم أقل لك أن أموراً طريفة تجري هنا كل ليلة.

سهلان: ولكنهم يتحدثون عن الأمطار.. (بعدم تصديق) .. ذلك مستحيل.. لا يعقل.

جبلان: (مستغرباً).. ماذا؟.. ماذا حدث لك؟.

سهلان: أننا نزرع لأن السماء تمطر.. وهو يقول أن الأرض لن ؟؟؟؟ شيئاً.. كيف ذلك.

جبلان: (ضاحكا) ذلك لا يهمني، فبلادي جبلية لا تزرع إلا النادر من الأشياء. أننا نأخذ كل ما نريد من " مولانا " ومن رعايا " مولانا " لذلك لا تزعجني مثل هذه الأحاديث التي أسمعها كل ليلة هنا.

سهلان: ولكنهم أرسلوني إلى هنا كرهينة. أن " مولانا " يخاف أن يخرج عشيرتي عن طاعته.. لذلك طلبني وأبقاني هنا، يصنع بي ما يشاء إذا ما قامت عشيرتي بالخروج عن طاعته. أن " مولانا " يخاف أن يفقد المحاصيل من أرضنا الخضراء. أن بلادنا تزرع ذهباً وفضة وجواهر، كل بقعة من سهولنا وجبالنا وأشجارنا.. تعطي دون بخل.. (يسير على المسرح بقلق.. في صوته نبرة شك). كنا نعيش في سعادة وسرور. كنا نمرح ونغني ونضحك ونرقص. لكن " مولانا " (يصمت قليلا ينظر حوله بخوف) حفظه الله " مولانا " قد أضفى على حياتنا معان جديدة لم نكن نعرفها من قبل. لذلك فأنا هنا.. أقوم بحراسة هذا المكان.

جبلان: تلك شريعة الحياة.. أنتم تذرون و " مولانا " يأخذ.. ونحن نأكل.

سهلان: ولكن لماذا؟

الشيخ بشر بن الحافي: قالوا: " نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين".

جبلان: أسمعت.. إنه مستمر في درسه.

سهلان: ولكن ذلك لا يبرر.. لم تكن نريد أن نتطفل على أحد كنا نملك أكثر مما نريد. لذا أعطيناه، ثم عندما وجدنا كرماء أخذ كل ما نملك. بل وأرسل إلينا من يأخذ مما نملك. أخذوا الأرض التي تزهر ياقوتاً ومرجاناً وعقيقاً وقطفوا كل الزهور والرياحين. وبقينا نحن نسبح بحمد " مولانا " ولم تعد الأرض

ملكاً لنا. لقد اكتشفنا أننا أصبحنا عبيداً للأرض.. وأرسلت إلى هنا كرهينة مع أن عشيرتي لم تعد تستطيع حتى أن ترفع صوتها ولو بالدعاء. لقد مات كل شيء فيهم منذ أن أصبحت الأرض غريبة عنهم، والآن يقولون أن الأمطار ستحيل كل شيء إلى خراب.. يا إلهي كيف سنعيش .. (يتهدج صوته بالبكاء).

جبلان: (مقاطعا) أصمت.. دعنا نسمع، أنكم دائماً لا تعرفون كيف تعيشون، إذا جاء المطر فإن ذلك يعني المزيد من العمل سأذهب بأمر من " مولانا " إلى أي مكان وأبقى هناك باسمه إلى أن تنتهي الأمطار. سآكل وأشرب وأملأ جرابي بكل غال ونفيس. أنت لا تعرف معنى الأمطار لإيجاد عمل. إن جدي قال أنه حدثت في زمانه أمطار شديدة. وكان جدي يعمل مع " جد مولانا " وقد عاد إلينا بعد تلك الأمطار يحمل أشياء ثمينة. وكذلك كان والدي يعمل مع " والد مولانا " .. (يضحك)..اليوم .. ولكن دعنا نسمع لعنة الله على عقولكم أنتم الحرس الجدد.

الشيخ بشر: ثم ماذا يا أخي الراوي بن كتيبة.. لقد أثرت أشواقي.. وقلبت موازين أفكاري.

الشيخ الراوي: لقد خيل إلي أنني استعدت بصري، لقد حدث ذلك بعد أن سقطت (برقة) بجانبي ثم شعرت بأن ديداناً كثيرة قبيحة الأشكال تهجم على وجهي.. ذهبت أبحث عن مأوى أهرب منها إليه. ولم أستطع.. حتى طردها، كانت كثيرة، ولكن رأيتها تهرب فجأة.. كان الجراد يصطادها من كل مكان.. حتى من وجهي.. وأبصرت غشاوة تتراقص.. ولكن الجراد كانت تملأ الدنيا.. الجراد في كل مكان.. في كل غرفة.. أكلت كل الديدان. حتى الوحوش هربت.. والذباب. اختفى.. ولم يبق أمامي سوى الجراد. ثم رأيت لحمي يذوب في أفواه جيوش الجراد. ولم يبق سوى العظم وعينان واسعتان تلتهمان كل ما حولي.. كل ما حولي.. وصحوت يا شيخ

بشر.. وأنا خائف وبقيت خائفاً أفكر طوال هذا النهار.. ولا زلت يا شيخ بشر.. لا زلت خائفاً حتى الآن.

الشيخ بشر: ذلك عجيب.. ذلك عجيب.. يا صديقي الراوي.. ذلك عجيب..

(يلتفت حوله).

- لقد تأخر الشاعر بن طبيلة عن موعده حان الآن يا صديقي.. ترى أرأى ما رأيت؟. أم أن وراء تأخره كأس خمرة عصفت بأشواقه..

الشيخ الراوي: لا أدري.. لم أسأل عنه لما أصابني من الرؤيا.

جبلان: (يخاطب سهلان).. أنظر في اتجاه نقطة حراستك.. أترى شيئاً يتحرك في الظلام.

(يلتفت سهلان ويقف مستعداً وهو يريد أن يسدد الرمح إلى القادم الذي يشق الظلام لاهثاً من السرعة).

سهلان: قف من أنت.. لا تتحرك؟؟

جبلان: أنه الشاعر.. لا تفجعه، فهو دائم التأخر عن زملائه.

(يتقدم الشاعر قلقاً.. مسرعاً وهو يلتفت إلى الخلف)

(من أعماق المسرح نستمع رعود وصواعق دقات مرتفعة على الطبل سريعة وغاضبة. ثم أصوات صرخات غاضبة في مؤخرة المسرح فوق المنازل والسور والقصر أضواء حمر، يهتز المسرح مع وصول الشاعر بن طبيلة إلى التل الذي يجلس عليه زملاؤه).

سهلان: يا الله.. يا الله لقد صدقت رؤية الأعمى.

الشاعر بن طبيلة: (صائحاً) أنها تشتعل.. أنها تشتعل.

جبلان: يا إلهي ماذا أسمع.. ماذا يحدث هناك.

الشاعر بن طبيلة: (صائحاً) أنها تشتعل.. أنها تشتعل.

الشيخ بشر: إنها نور الحقيقة.. يا شيخ الراوي إنها نور الحقيقة، لقد انتهت النهاية (ينظر إلى البعيد، ترتفع الأصوات على الرعود والصواعق).

- أيتها الأطيان الجميلة، انتهى كل شيء.. هذه هي عواصف الزمان تقتلع الجذور.. إنها النهاية.. أيها الأصدقاء إنها النهاية.. وسنحتاج إلى زمن طويل لنصنع جذوراً أخرى عميقة بدلاً من تلك التي تنهار اليوم.

الشيخ الراوي: أنه الحلم (يرتجف) الأمطار تتحقق.. ستتلف كل شيء.

الشاعر: (يستعيد أنفاسه).. لقد ابتدأوا مع المساء أنطلق الوحوش من المدينة، وهرب الناس إلى البيوت.. رأيت قصر الظلام تلتهب فيه النيران. لقد رأيتهم قسماً.. كانوا مجموعة صغيرة في البداية.. متمردون صغار.. هربت منهم إلى الحانة.. كان الغضب مرسوماً على كل ملامحهم وداسوا كل شيء أمامهم. أنه الغضب.. الغضب يا شيخ بشر.

(يفر الحرس من زاوية إلى أخرى، نيران دخان في الخلف، أصوات مرتفعة).

جيلان: آه أنها تلسعني. إنها تجري خلفي.. النجدة. لا استطيع .. لا أستطيع.

بشر: لقد حلت اللعنة على الجميع.. وسيدوم أذاها زمناً طويلاً..

سهلانا: (يضحك ويبكي) أنهم يدفعونني إلى هناك أن قدماي تتحركان دون أن أدري.. إلى أين، أسمع أصواتهم.. نداءهم .. فلأسرع.. فلأبتعد عنهم يا إلهي أصوات نساء.. أصوات أطفال.. أنهم ينادونني.. القصر تلتهمه النيران وقد هربوا منه فلأسرع.. إنهم يحترقون ويحرقون.. (يصرخ عالياً) أنا قادم إليكم.. أنا قادم إليكم .. انتظروني .. انتظروني..

(يجري نحو اليسار.. يصرخ.. يختفي خلف المسرح يأتي صوته. مختلطاً بصوت المجموع.. أنني هنا.. أنني هنا.. إليكم..إليكم. الدخان والنيران.. تتركز الأضواء على منظر المدينة.. وأشباح المشائخ واقفة فوق التل.

أصوات قتال شديد.. سقوط أحجار وصليل سيوف.

جبلان: أنهم يفتكون بمولاي.. أنهم يقتلون مولاي.. مولاي.. أنني فداك.. (يجري نحو باب السور.. يقف..)

لقد بدأوا النهب.. سينهبون كل شيء ولن يبقى شيء لي فلأسرع.. فلأسرع .. (ينطلق خارجاً وقد رمى رمحه في الميدان).

صوت: خذ.. لك اللعنة.

صوت آخر: خذ هذا مني.. ومعك كل شياطين الأرض.

صوت ثالث: إلى الجحيم .. إلى الجحيم.

الشاعر: أنها اللعنة.. أنها اللعنة.

بشر: بل قل محاولة الخلاص التي لم تثمر بعد.

الراوي: إنها الرؤيا.. إنها الرؤيا..

بشر: دعونا من الماضي.. لنجلس ونرى كل شيء.. العالم لما ينتهي الآن. دعونا نبارك أولئك القادمين الجدد مع ضوء الشمس المشرقة.

الشاعر: ولو فشلوا.. ولو فشلوا ستجري أنهار من الدماء.. ولن نجد ماء.

الشيخ بشر: لن يفشل أبنائي.. ما داموا يؤمنون بأن الحياة تسير إلى الأبد. فانتصار اليوم لم يكن سوى فشل الأمس، وإن كان فشل اليوم فليس هو انتصار الغد. دعونا نصلي من أجل الكلاب التي سوف تؤكل لحومها، ومن أجل الوحوش التي تجوب الشوارع حتى أننا نخاف أن نواجهها.

الشاعر: ولكنها خدعة.. لقد رأيتهم.. لقد انتزعوا منها أنيابها.. أما أظفارها فهي مفقودة مع الزمن.. ليس لديها سوى أقدامها وزئيرها.. لا شيء آخر لا شيء آخر.. أنهم يخدعون بهم العالم.

الشيخ بشر: أنهم أذكياء.. وسينتصر أبنائي.

الشيخ الراوي: إنها الرؤيا.. إنها الرؤيا.

مشهد مسرحي

تفتح الستارة.. على المسرح شخص ما.. الزمن غير محدد.. قد يكون قبل ألف عام.. وقد يكون بعد ألف عام.. ديكور المسرح مجرد سماء سوداء معلق في منتصفها قمر..

الشخص يلتف حواليه.. يرفع يديه نحو السماء.. ويردد:

الرجل: سلام على الكون في وحدته..

سلام على الضائعين

سلام علي.. لقد مات طفل

ثم يسير بهدوء مردداً كلاماً غير مسموع.. تظهر على المسرح مومس

المومس: في مواخير الآلهة نبحث عن حقيقتنا.

لكنا أضعنا الله

الرجل: ماذا..؟ أسمع كلمة..

هل أنت تنطقين..

لم تبك السماء بعد.

المومس: السحب التي تغطي السماء الرصاصية والجبال منتصبة عالياً وأنا أبكي وحيدة بلا أمل.

الرجل: أنا أحلم بعينين تنزعان الحقد.. من قلوب البشر.

المومس.. تقترب.. من الرجل:

المومس: أتشتري يا سيدي عينين بلا حياة بلقمة خبز..؟

الرجل مبتعدا ينظر إلى القمر:

الرجل: القمر حزين..

والكآبة تمضغني

والكلب ينبح بملل

المومس: وفي منزلي حيث الضياء وعطر خفيف، على النافذة نعم من اللذة.

الرجل (مقاطعا): الأوحال أغوص فيها والحيوان يصرخ داخلي
وجسدك يتلوى جوعاً.
المومس: أراك تخرف.
وصمت المساء وبرده.. يناديك أن تتقدم
الرجل: جسد عذراء قارورة نبيذ معتقة.
والآخرون.. إلى الجحيم.
المومس: عندما تلتقي أجسادنا في جحيم من اللذة
....
الرجل (ينظر إليها): سيدتي .. أقولها صراحة:
أنت أشرف مني.
لأنك تملكين عملاً.
المومس: لا أحد يشتري.. لا أحد. وفي الغرفة ماتت جوعاً قطة
وفي البرد كدت أتجمد
الرجل: انظري إلى السماء
القبر يتلوى من الألم
الا تدرين أنه يعاني من الجوع.
المومس: ما عدا نفسي.. لا أحد يهمني ماتت الحقيقة عندي
الرجل: لذلك أنت حزينة
لن تري مطلقاً جمال العالم، مادمت بعيدة
المومس (محتدة): ومتى تركت لأشارككم الحياة.
قذفت بعيداً كجرذة.
الرجل: بعيداً.. كذلك نحن نهيم على الأرض.. لنقضي جوعاً.
المومس(مقتربة): من أين أنت
يا جميل العيون..
أأنت وحيد
الرجل:أنا من هناك..
المومس (مقاطعة): لماذا طردت..؟

الرجل: عندما قلت لهم الحقيقة.
حملوا عصيهم وطردوني
آه.. كان علي أن أسقيهم خمراً.
المومس: عندما تغسل الأرض خطاياهم.. وترتدي بساطها الأبيض يغوص الإنسان في حقارته.
يدخل المسرح في تلك اللحظة الشحاذ.. ينظر قليلاً ثم يتابع سيره كأنه لم ير أحداً.
الشحاذ: الزمان بلا ضياء
ونافذة حمراء اللون.
يموت فيها القمر ألف مرة
المومس (بصوت هادئ): ماذا..؟
الرجل(يقف أمام الشحاذ): إلى أين؟
الشحاذ: أبحث عن الشجاعة.. في جمال الكلمات.
(ينظر إلى المومس) وأهرب بعيداً عندما ألمح امرأة.
المومس: ألست مغفلة.. لأنني أعطيت جزءا مني..
لرجال آخرين..؟
الرجل: غطت أحقادنا وجه القمر..
لماذا نتغزل بالجمال..
مادمنا غارقين في التفاهة.
الشحاذ: لن أتحدث مع قطيع.
سأبحث عن الطبيعة حيث توجد الحقيقة.
الرجل: قل كلمتك وامض..
إلى أين..؟
القبر يفتح فمه ضاحكاً
المومس: الأمطار تغسل قلوب العذارى والثلوج غطت صمتي..
لا شمس .. لا دفء .. ماتت الحقيقة..
الشحاذ: أيها السادة..

أقولها لكم حقيقة..
أنتم أنصاف بشر
الرجل: في قلب المجنون خمرة أبدية..
أقفلوا عليه الأبواب.
المومس: ما فائدة الحياة.. إذا لم تبتسم لك عينان لا يهمني أن تكونا جميلتين
الشحاذ: الأطفال يبتسمون بمرح..
لكن الأغاني حولهم حزينة..
لماذا يا ترى تجري السحب في السماء..
يخرج الرجل قارورة خمر ويقترب من المومس
الرجل: جسد عذراء..
وقارورة نبيذ معتقة..
والآخرون.. إلى الجحيم.
يقترب الشحاذ مادا يديه
الشحاذ: سأتعبد مساء كل يوم بالحسن الذي يحتويك أترى..
سأعرفك بعد مائة عام
المومس: ما أروع الإنسان على سرير مومس.. بعد أقداح صلاة التوبة.
الرجل: عطر.. وامرأة.. ودخان. أربعة أجسام بوجهين
خلود الرب في شفتي سكير
المومس (هامسة): ذلك عندي
الشحاذ(وهو يشرب): الصليب حمل عليه إنسان..
مشت..
خلفه قطعان
ضحك الرب في السماء
يدخل طفل في السادسة من عمره.. ينظر إليهم دون أن ينطق..
المومس تقترب من الطفل

المومس: دعوني أسقي الطفل خمرة
دعوني أقدم له نفسي
أليس الأفضل أن يعرف كل شيء
تتحرك نحو الطفل.. دون أن يتحرك أحد..
يشير الطفل إلى السماء..
الطفل: في السماء السوداء.. مأدبة ونساء..
....
الرجل: الصليب مصلوب في وجه إنسان..
الدموع تحولت إلى بحار
قتلوا بالأمس مومساً..
الشحاذ: كانت أماً لطفل..
ابتلع التراب فضيحة
وراحت أخرى تدب عليها
المومس تسقي الطفل
المومس: تائهون .. تائهون..
من يظنون أن باستطاعتهم قتلنا ونحن في السرير.
ينظر الطفل إليها.. يضحك
الطفل: شعر منغولي..
عيون عربية
وجسم شركسية
أو نندثر بعدها في بحر الضياع
تبتعد المومس عن الطفل..
يبتسم الرجل مجيباً الطفل ماداً له كأسا أخرى.
الرجل: فتاة " الجيشا "
وموس حبشية.. أفضل من الفضيلة
يرفع الشحاذ يديه يطلب خمراً
الشحاذ: سيزيف أكثر منا تفاهة..

فليترك صخرته
ويحمل إلى القمة امرأة
الطفل: بروميثيوس عاد إلى الشمس قلبه عذراء.. وفي عينيه خطيئة
عشقت الحرية عندما رأيته
الموسى (منتحبة): سأبقى وحيدة
لا مال ..لا رجل
حتى الأطفال كبروا
الشحاذ: علينا أن نحقد
لأن الأمطار تحولت إلى سيول
لأنهم باعوا نساءنا
الرجل يشرب.. الطفل يجلس على حافة بئر..
الموسى تسير على المسرح والشحاذ يتابعها بقلق
الشحاذ: قمر.. سحب.. وعواصف.
هذه هي الصفات التي أريدها في حبيبتي.
الطفل (مخاطباً الرجل): زرقة البحر الميت
كبطن امرأة حبلى
بخطايا الإنسان.
دخان.. مائدة..
خمر.. ونساء
تلك هي جنتي..
(ثم يشرب)
الموسى: الدم يسيل في واد عميق الغور
وفي السماء سحب رمادية
الشحاذ: أن تبكي يا حبي للقلب المجروح..
امر أشد مرارة
الموسى: جمال هذا العالم هو أننا كنا أطفالاً..
النهر لا يعود إلى منابعه.

يقترب الطفل منها محاولاً تقبيلها.. فتبعده
الرجل: أيتها المرأة الفاضلة
أنت أشرف منهم.. لأنك تبتلعين رذائلهم
الطفل: جسمك أسود..
لذتي سوداء..
لكنا أكثر منهم بياضاً
الشحاذ(مبتعد): لن أقول لكم أنني المسيح..
ولست محمد..
أنا من طينة أخرى.. أشد مرارة..
المومس: نامت بنات لوط معه.
خدعت الكبرى أختها.
سكر الأب حتى الثمالة..
الطفل (ناظراً إلى الجميع): أضحك بطفولة
عندما أرى عيونكم تقول:
كم هو تافه..
الرجل: على حافة قبر.. تغني قبرة حبها المدفون..
الطفل (يغني): كان هناك ماء..
غنى للقمر وهو يحتضنه
لكن الماء ابتلع الحبيب
وضاع الماء في السواد
آه.. كم هي تافهة
عيونكم وأنتم تسكرون
وأنت أيتها المرأة
دعينا نمضي..
المومس: كلا يا طفلي الصغير..
أخاف أن أحبك..
وفي غرفتي ماتت قطة من الجوع..

يسيرون بصمت على المسرح..
الرجل جالساً يمتص القارورة الفارغة.
الرجل: من يأتيني بقارورة خمر
أهبه هدية..
نصف عمري الحقير
الطفل: أنا..
ويسرع بالخروج
الرجل(واقفاً): المطر يغسل قذارة الشارع
والخمرة تغطي حرارة للفكر
لكنا نغوص في الأوحال..
المومس: من يغسل قلوبنا..
من ينزع هذا الثوب الأسود
من يمطر سحب السماء..
يدخل الطفل وفي يده قارورة خمر
الطفل: أنا..
الشحاذ يندفع نحو الطفل يختطف منه القارورة..
الرجل يتصارع مع الشحاذ..
الطفل ينظر إليه ويبتسم..
المومس تقترب منه.. تنظر إليه .. يغمز لها.. يخرجان ويده في يدها.. يلتفت قائلا..
الطفل: سأعود .. لدي هنا عمران
الرجل: إلا التافه..
ألا ترى أنني بعت حياتي بقارورة.
الشحاذ: ألا ترى أنني تركت الحقيقة
لأن أبوللو يغش .. لأن الحياة سخيفة
يجلسان .. يشربان.. ينظر كل منهما إلى الآخر.. ينظران إلى المسرح.. لا أحد .. القمر يقترب.

الشحاذ: كم أشتاق.. كم أشتاق
إلى لحم امرأة بيضاء..
إلى جحيم من القبل..
يشرب بشراهة
الرجل (وهو يشرب): ما أروع جسدها الأسود
عندما ترقص بألم..
أين ذهب الطفل؟
الشحاذ (يقترب): الألم.. اغنية مجروحة
بخنجر الإله.
الرجل (يشرب): عندما يغطي الغمام قمم جبال الخطايا
يعود أوليس من رحلته..
الشحاذ: خانته اندريب
ذهب ولم ينته الثوب
مع غلام إلى الشاطئ
حيث شراع.
الرجل: عندما يأتي عام جديد
سنضحك ببلاهة..
وتقول:كم كان تافهاً ما مضى
يشريان.. صوت قوي يقول:
الصوت: لن تكون هناك أعوام
الزمن توقف.. مات.
الطفل يغني على سرير" الحكمة "

هذا العمل الأدبي الذي ينشر لأول مرة يكشف مراحل الولادة الأدبية عند فقيدنا الشهيد محمد عبدالولي.. ويبدو من خلال النهاية أن الفقيد لم يتمه.. ربما كان كغيره من أعماله التي تركها دون أن ينهيها..

شيء اسمه الحنين

مجموعة قصصية

وكانت جميلة

لا زلت أذكر هذا اليوم.. كانت الشمس تخترق السحب وتبدو لنا من خلفها رائعة والغيوم تتهارب من فوق الجبال وتبدو القمم رائعة.

الساعة كانت قد تعدت الثامنة صباحا والجبل أخضر.. فالشهر في نهاية صيف وبداية خريف، الأشجار خضراء والتلال أكثر خضرة.

وبدت في أول الشارع. لم ألحظ شيئاً في البداية فالكل يمر أمامي دون أن ألحظ شيئاً جديداً.. الوجوه هي نفسها تمر يومياً، وحتى يدي ترتفع وتنخفض في رد السلام بشكل آلي وفي ساعات ودقائق معلومة.

ثوبها كان مثلها شابا، وعلى قدميها حذاء، وكان الحذاء يومها شيئاً أكثر من كمالي وعلى رأسها سلة صغيرة وخلفها امرأتان تحملان سلالا أكبر وتسيران في خطوات متناغمة، كأنهما تعرفان أنها القائدة وعليهما أن تتبعاها وتنغما على خطواتها خطواتهما.

.. يا رب ... سترك

ارتفع الصوت حاراً، دافئاً، ونظرت حولها والتقت بعيونهم وهي تلتهم القادم الجديد من بداية الشارع.

احمرت وجنتاها، وطرفت عيناها بخجل. كانت تجربتها الأولى مع الجماهير، ولكنها كانت صامتة وخطواتها لا تزال في وقعها ونغمها المتناسق.

كانت أكثر من جميلة، أكثر من رائعة، في حوالي السادسة عشرة من عمرها، في أوج نضجها الأنثوي.

كان يومها الأول في المدينة، وتجربتها الأولى بالذات في الاحتكام بالجماهير.

وقف الناس.. وكانوا قلة يومها ينظرون بدهشة.. وفي منتصف الطريق كان أول زبائنها يشتري.. وتكونت حلقة صغيرة ثم بدأت تكبر الحلقة حولها.. أول زبائنها كان أكثرنا شبابا وأكثرنا غنى، وبالتالي كان أكثر جرأة، وبدأت بقية الأيدي تمتد لشراء قاتها وفواكهها، ولم يبد أن هناك شخصا يساوم أو يناقش في الأسعار، أسعارها كانت واضحة وغالية، مثل جمالها الإلهي الدقيق الصنع وكنت آخر من اشترى منها، وكنت ارتجف أمام جمالها الرائع، ولم أدر ماذا اشتريت يومها فالذي دفعني بجانب جمالها وشبابها كان احتواء الناس في شارعنا لها وتجمهرهم أمامها.. وعادت بعد أقل من ساعة إلى الجبل، ولكن المدينة لم تهدأ بعد ذلك، فالحديث طوال ذلك اليوم كان عنها.

من هي؟ ما اسمها؟ ومن أية قرية أتت؟ ولماذا لم نرها من قبل؟ وهل هي متزوجة أم لا؟ مئات الأسئلة كانت ترمى في الشارع ولا تجد من يلتقطها مطلقاً، وإن كانت هناك همسات تقول أنها ليست جديدة على المدينة أو أنهم رأوها من قبل طفلة كانت تنزل من الجبل مع أمها ولكن لا تأكيد هناك بشيء، ابتسم أحدهم إنه يعرف أمها التي كانت تشبهها تماما وأن الأم كانت مثلها جميلة عام ١٩٤٨. وإن عشاقها والراغبين فيها كانوا أكثر منها. ولكن الأم ماتت في ظروف غريبة بعد أن ولدت طفلتها هذه. وأنها لا تعرف أمها مطلقاً، وأن الذي رباها كان والدها الشيخ الذي يرفض أن ينزل من الجبل وأنه قابع هناك يزرع أرضه ويرعى ابنته كل يوم. تحدثت المدينة أكثر وأكثر واعتقد أن مدينتنا لم تنم تلك الليلة وإن نامت فقد كانت تحلم وتتمنى أن تراها كل يوم.. كل ساعة وكل دقيقة.

وعادت في اليوم التالي وكانت مجموعتها أكبر من المجموعة السابقة، وبضاعتها أغلى من سعر يومها السابق، ومرت الأيام وهي تزداد جمالا وروعة وتزداد بضاعتها ارتفاعا في الأسعار والسكان

يتسارعون ليشتروا منها كل يوم ويعشقونها بعيونهم في كل مرة تمر بهم.. وتقدم منها أول خاطب، كان ضابطا في قسم الشارع الذي نعيش فيه.. ويقال أنها رفضته، وبرغم أنه كان يحظى منها باهتمام أكثر مما نحظى به كلنا. وكانت عيونها تعطيه اهتماماً أكثر مما تعطينا، كان ذلك في شهرها الأول.. وشاعت حول ذلك إشاعات صامتة ولكن لا احد يثبت شيئاً. ونزل بشارعنا ضيف من الخارج يبيع بشارعنا بضاعته التي أحضرها معه، كان وكيلا لشركات خارجية.. وكان وسيما وشابا أنيقا رغم أنه لا يأكل قاتنا إلا أنه تعود على ذلك بعد أن بدأ يشتري منها، وكانت نظراتها أيضاً نحوه تمتلئ باللطف وربما الاهتمام وكنت أعشقها بعنف، وأريد أن أتزوج منها ولكني كنت أجبن عندما أراها.. ولا أجرؤ على التحدث إليها.. آخذ منها ما تقدمه لي دون أن أطرح عليها أي سؤال. وكانت في كل علاقاتها قد حددت أسعارها بذكاء، تأخذ من كل واحد سعر بضاعتها دون أن يناقش وأصبحنا جميعا ندفع لها دون أن نحتج.

كانت هناك قناعة لدينا بأنها لا تكذب وأنها تعامل الجميع حسب ميزان دقيق وضعته لنفسها. ومضت أشهر قليلة ، وحدثت مشادة ذات مرة حولها بين اثنين، أدعى عليها الأول أمام الآخر، زاعما أنها تعجبه وأنها تبادله الإعجاب وانتهت المشادة إلى صدام، وتدخلنا جميعا، وعلمت هي بما حدث وقاطعت يومها المذنب ولم تقدم له شيئاً وعرفنا أنها حكمت عليه بالابتعاد عنها ولم تنظر إليه.

كان حكمها قاسياً. حاول أن يتمرد في البداية ولكنها رفضت حتى التوسط له، وبدأ يتذلل لها، ويعتذر ولكن حكمها صدر. وقضت أياما وهي تنزل وراءها جيش صغير يحمل كل ما ينتجه الجبل من خيرات، قاتا، خضرواتٍ وفواكهَ وأصبحت تعود إلى الجبل وهي تحمل بضاعة أخرى.. راديوهات. مسجلات ساعات وذهباً.

اصبحت تتعامل معنا بذكاء تأخذ ما تريد وتعطي هي ما تريد.
ولم نكن نناقش أو نحتج.
ولكن... حدث شيء اهتز له شارعنا يومها. فقد حدثت جريمة قتل.. وجدوا الضابط المسؤول عن شرطة الشارع مقتولاً في مكتبه وقيل أنه سرق، وأن مبالغ كبيرة كانت في حوزته. وأشارت الأصابع إلى عدة جهات. ولكنها لم تستقر على أحد. ومن الغريب أنها لم تهتم بما حدث حتى أنها لم تقل " رحمه الله " وبدأت أفكر، لن أستطيع أن أنالها، لأنها مرتفعة أكثر من أن أستطيع الوصول إليها، فعليّ إذاً أن أراقب كل شيء عنها وعندما وصلت إلى هذه القناعة كنت أحارب قوى داخلية رهيبة، فهي عندما تصل إلى دكاني، وكان عبارة عن مكتبة صغيرة، تنظر إلي بود وأحياناً بحنان وتقدم لي ما تريد ثم تمضي بعد أن تقول لي: ألا زلت تأكل الكتب.. وتطلق ضحكة أو ابتسامة واسعة وتذهب بعد أن تترك في قلبي جرحاً عميقاً.
احياناً أظن أنها تحبني وأنها تميل نحوي بعنف فقد لاحظتها كثيراً لا تكلم رجال الشارع، صاحب المخبز أو الحداد والنجار والتاجر الكبير صاحب "البخّار" وبائع قطع الغيار والمصور. لأنها كانت تحييني دائماً: صباح الخير، وعندما تستعد للذهاب تقول مودعة: إلي اللقاء، ولا ترهق عينيك بالقراءة. وهكذا أصبحت جزءاً هاماً من شارعنا، تأتي فتأتي معها حركة واسعة، وتمضي فينتهي كل شيء.
أصبحنا نحبها جميعا، وكل حب يختلف عن الآخر، هناك من يريدها زوجة وآخر يريدها عشيقة وثالث يريدها من أجل مالها، وهكذا. وكان الغريب يعود إلينا دائماً، حتى أصبح وجوده في شارعنا شيئاً عادياً.. يأتي ومعه كل جديد من العالم الخارجي. ولكنه كان يقف ضدي تماماً، يقول إن الكتب ليست عملاً تجارياً وأن علي أن أتخلى عن المكتبة وأن أعمل غيرها، عملاً آخر، أي عمل.

- بيع فول يا أخي... وحتكسب أكثر من شوية الزفت دول.

ولكني رفضت فالكتب هي حياتي.

وقالت ذات يوم:

- لماذا لا تسمع إلى الأستاذ لتصبح غنياً...

قلت لها:

- وهل ستتزوجينني عندها..؟

ابتسمت وقالت:

- سأفكر يومها.

ولكني أعرف أنها تقول ذلك فقط مجرد قول ولا تعني أي شيء.

ومن يوم أن قررت أن أراقبها أصبحت أكثر وداً وأصبح حديثنا يطول ويتفرع.. قلت لها ذات يوم:

- لماذا تعذبينهم هكذا؟

- قالت: إنهم يعذبون أنفسهم، لم أطلب من أحد شيئاً.

- قلت: لماذا لا تختارين أحدهم وتتزوجين؟

- قالت: لم يحن الوقت بعد.

ومضت السنة الأولى على نزولها من الجبل واحتفلت به يومها بأن اشتريت منها أكثر مما كنت أشتري.

- قالت مستغربة: لست ككل يوم!

- قلت لها: إنه عيد ميلادك الأول يا سيدتي.

استغربت ولم تعرف ماذا أقصد.

- قلت لها: في مثل هذا اليوم من العام الماضي نزلت من الجبل.

- ضحكت وقالت: ألا زلت مكانك تدور في الماضي... العالم حولك يتحرك وأنت مع الورق والكتب والذكريات.

- قلت لها: أشعر أن قلبي مخزن للحب.. والذكريات ليست سوى جزء منه.

- قالت: ستموت وأنت مختوم على قلبك.

وتزوجت فجأة..

لم نعرف بالخبر مطلقا إلا يوم زواجها لأنها لم تنزل فيه من الجبل.

او تدرون من زوجها الأول.. إنه صاحب المستودع الكبير أغنانا جميعا.. وهكذا احتجبت، وإن كنا نتحصل على ما نريد من قاتها وفواكهها وخضرواتها، لأن قافلتها كانت مستمرة في النزول يومياً بدونها.

وعادت فجأة إلى الشارع بعد شهرين.. فجأة مثلما غابت. وتحرك الشارع بعنف يستقبلها وقد أصبحت أكثر نضجاً وأنوثة..

- قالت لي :سئمت السجن بين أربعة جدران.
- قلت لها: قلوبنا مكانك، إنها لك.
- قالت: لا أريد أن أكون فأرة لكتبك.

وسمعت يومها أنها رفضت الزواج من أي كان وأنها أصبحت عشيقة لشخص لا يعرفه أحد.

كانت وجنتاها تزدادان احمرارا وكان ذوقها في اختيار ألوان ملابسها لا يضارع. أصبحت تختار الجديد من الثياب. وليس حولها من تضاهيها.

همس لي المصور ذات يوم:

- أتعرف يا صاحبي أنني رأيت حبيبتك بالأمس تخرج من شقة التاجر الذي يأتي كل شهر؟..
- ضحكت في وجهه وقلت: أنت مخرف.

ولم يعاود الحديث من جديد. وإن كنت أسمع الإشاعة في الشارع تدور همسا.

نزل شارعنا ضابط جديد للنقطة.. كان وسيماً وشاباً. وأصبح بسرعة أحد زبائنها، وكانت تعطيه ما يشاء من بضاعتها، وإن لم نكن نراه يدفع لها. وقيل إنه يدفع لها مقابل بضاعتها حمايتها من كل شرير وصدقنا ولم نصدق. ولكنه كان عنيفاً مع أي فرد يحاول أن يعتدي على ممتلكاتها وكان هؤلاء قلة. ورغم أن الجبل

صدّر للمدينة مجموعة أخرى شابة من الفتيات إلا أنها ظلت النغم الرائع بين الجميع.

وأصبحت أرقبها.. قالت لي ذات يوم:

- هل لا زلت تسجل تاريخي..؟
- قلت لها: بدقائقه.
- قالت: ولكنك لا تعرف الحقيقة.
- قلت: الحقيقة دائماً لا تقال لأنها لا ترى.
- قالت: إذن ماذا تسجل..؟
- قلت: عواطف الناس نحوك، عواطفهم الصادقة وعواطفهم الكاذبة.
- قالت: وهل تكفي..؟
- قلت: أحياناً..
- قالت: إنك تزيف الأشياء إذن.
- قلت: ما هي الأشياء في حقيقتها. ألا يوجد الزيف دائما فيها كلها..!!؟
- قالت: ما دامت الحقيقة ضائعة!؟؟
- قلت: ليست كلها ضائعة..
- قالت: أتمنى أن تكون صادقاً..

وذات مرة أخرى.. قالت:

- هل تريد أن أقول الحقيقة لك حتى تسجلها.
- قلت: لا.. لا أريد لأنني لا أقوى على تسجيلها.
- قالت: لماذا؟
- قلت: لأن الناس لن يصدقوها.
- قالت: هل كل هذه الكتب لا تقول الحقيقة؟
- قلت: ليس كل كتاب يقول الحقيقة كلها.. إن الحقيقة مجزأة في كل كتاب ولذا فإنني أقرأ الجميع حتى أجدها.
- قالت: وهل وجدتها؟

- قلت: ليس بعد.

وأصبحنا أصدقاء.. كانت تأتي وتجلس أحيانا فوق كرسي مجرد هكذا لترتاح.. وأحيانا لا تتركه وكانت تسرح ببصرها بعيدا. تفكر ثم تمضى دون أن تقول كلمة.

وكنت ألاحظ أنها تزداد جمالا، وأن هناك حزناً قد بدأ يلمع من خلال نظراتها. ولكنها كانت كاملة النضج والأنوثة..

- قالت مرة: كم عمري عندك؟

- قلت: الزمن كله.

قالت: هل أنا خالدة.

- قلت: بالنسبة لي نعم !!

- قالت: وبالنسبة للآخرين.

- قلت: عمرك سنوات.

- قالت: ما الذي تعنيه.

- قلت: عند البعض أنت بعمر الزهور، وعند البعض الآخر بعمرّ ما يمتلكه من نقود، وعند البعض بقدر جمالك الذي يذوي وعند غيرهم عمرك مثل قاتك.. صباحا أخضر ومساء غيره.

- قالت: وعندك؟

- قلت: الزمن كله.

- قالت: لماذا.

- قلت: لأنك مثل الحقيقة لا توجد متكاملة والبحث عنك قد يستغرق العمر كله!!

- قالت: هل تحبني إلى هذه الدرجة؟

قلت: لا أدري؟

ومضت أشهر وهي تزداد جمالا ولكن عيونها تزداد حزنا وبدأت ألاحظ شحوباً على وجهها وكآبة. ولكنها كانت لا تزال محتفظة بمرحها وطفولتها. وكانت الإشاعات تزداد قوة وبدأ

أعداؤها يثرثرون حولها، قيل أنهم هاجموها ؟؟؟؟ وهي تنزل من الجبل وسرقوا ما معها. وعندما سألتها عن ذلك قالت:

- حتى أنت تصدق ذلك؟

وعندها قلت لها:

- لماذا تبدين شاحبة أحيانا؟
- قالت: ألا تمرض أحيانا؟

ولم أجب.

وتزوجت من جديد. وكان زوجها هذه المرة هو نفسه ضابط أمن المنطقة واشترطت عليه أن تمارس نشاطها في العمل فلم يمانع. وأصبح زوجها أكثر سمنة بينما ازدادت هي شحوباً وضعفاً.. ولم يدم زواجها طويلاً، فبعد عدة أشهر قالت لي فجأة: ألا تجدني سعيدة اليوم؟

- قلت: لماذا.
- قالت: أصبحت حرة من جديد.
- قلت: ومتى لم تكوني حرة.
- قالت: حتى وأنا متزوجة ألا زلت تعتبرني حرة؟
- قلت: الحرية ليست أن تكوني عازبة أو متزوجة ولكنها شيء آخر تماما.
- قالت: إنك تفلسف الأمور وأنت قاعد على كرسيك هذا الذي لم تغيره منذ أن عرفتك.

ثم قالت: لقد طلقته.

- قلت: كنت أنتظر ذلك منذ زمن طويل.
- قالت: لماذا؟
- قلت: لأنك لم تخلقي لتكوني زوجة لأحد!!

وخرجت إشاعات جديدة عن عشاق آخرين وعن عروض جديدة للزواج. ولكن أحداً لم يكن يعرف الحقيقة. ولم يكن هناك شخص

يستطيع أن يقدم الدلائل. وقيل أنها رفضت مبلغاً من المال لقاء طلاقها الأخير ولكنها لم تقدم لي شيئاً.

ويوماً.. أقبلت نحوي وجلست صامتة.. كانت مرهقة ومتعبة ورأيت عرقاً في وجهها الذي كان يبدو شاحباً.. قلت: ماذا حدث؟

صمتت.. ولم تتكلم.. ثم رأيت دمعة تنساب.. لقد راحت تبكي في صمت.. وقفت أمامها بقدسية: أن تبكي ملاكي فشيء لا يصدق..!

- قلت لها: ارجوك لا تبكي.
- قالت: ألم تقل أنت يوماً أن الدموع تجعل العيون واضحة أكثر.
- قلت: بل أكثر من ذلك أنها تجعل العيون أكثر روعة وجمالاً.. ولكني لا أحتمل أن تكون دموعك دموع حزن.
- قالت: دعني أنزع حزني.

ولم تقل لي أسباب حزنها ولكني عرفت أن بعض الجنود أخذوا أشياءها بالقوة ولم يدفعوا ثمناً لذلك. وحدث شيء عجيب بعدها بأيام فقد ألقي القبض على الجنود وقام قاضي المنطقة بمحاكمتهم وأصدر حكمه عليهم بشدة وعادت الابتسامة إلى وجهها، قلت لها: هل أخذت حقك؟

- قالت: ليس المهم أن آخذ حقي المهم أن أجد من يعرف حقي.
- قلت: المعرفة تختلف كثيرا.
- قالت: لست سوى جبلية. الكلمات عندي لها معنى واحد.
- قلت: ولكن قد تندمين على ذلك.
- قالت: الحياة شريط متقطع من الندم.

وأصبحت أسعارها مرتفعة، وكان الناس قد عجزوا عن الاستمرار ولم يعد ببضائع جديدة.. وأصبحت المتاجر تفرغ ما فيها.. وأصبح سعر النقود في انخفاض. ولكنها كانت تجد زبائنها دائماً. قلت لها يوما:

- لن أستطيع الاستمرار في الشراء منك.
- قالت: أعرف ذلك ولذا سأقدم لك ما تريد بدون مقابل..

- قلت: لماذا؟ لم أطلب منك إحساناً.
- قالت: أقدم ذلك لا كإحسان ولكن لأنك الوحيد الذي عاملني طوال هذه السنوات كإنسانة.
- قلت: شكراً، هكذا أنا ولم أكن افتعل ذلك.
- قالت: لا تعرف معنى أن تكون إنساناً دقائق طوال الأربع وعشرين ساعة الفارغة.
- قلت: إذاً تريدين أن تقدمي لي عطفاً بدلاً مما قدمته لك طوال السنوات الماضية.
- قالت: لا أدري.

ولم أقبل أن تقدم لي إلا بمقابل.. أن تأخذ مني كتاباً مقابل بضاعتها. وهكذا كان.

ومضت سنوات. افتقد الناس فيها أشياء كثيرة ووصل الأمر إلى إفلاسات كثيرة في شارعنا. وبدأ البعض يشعر بأنه لا يستطيع أن يقدم حتى الأكل لعائلته وبدأ شبح المجاعة يهدد الجميع. وعندها فقط غير ضابطنا القديم والسمين وأصبح لنا من جديد شخص آخر. لم نكن نعرفه من قبل وإن كانت أخباره تصلنا بأنه عنيف وشديد. ويحب النظام والعدل، وابتسم شارعنا لمقدمه، بعد أن أوشك النظام أن يفلت وأصبح الإنسان يخاف أن يخرج من منزله بعد صلاة العشاء وأن يسير وحده وفي جيبه بعض المال لأن ذلك يعني أنه هالك لا محالة. ورحبنا بشخص يعيد الأمن إلى القلوب ولا أدري لماذا جذبت المكتبة الناس إليها، فأصبحوا يجتمعون فيها دائما خاصة بين صلاة العصر وصلاة العشاء، وأصبحنا نناقش كل شيء، حتى أن فتاة الجبل لم تكن تلتقط الكثير من حديثنا فقد كنا ننساها بعد أن تغيب عائدة إلى الجبل. ولكنا ما إن نراها صباحاً حتى يعود سحرها إلينا من جديد فتشدنا بشذاها وجمالها وسحر عيونها التي يغيب فيها الحزن، حتى شحوبها كان يزيد من جمالها.

وبدأ الضابط الجديد عمله، وفي الأسبوع الأول قضى على عصابة، كانت تسرق المنازل وتقطع الطريق. وفي الأسبوع الثاني علق رأس قاتل هارب، وفي آخر الشهر رفع للموظفين مرتباتهم، وبدأ شارعنا يشعر بالأمان وكنا نصفق للرجل كلما مر ونعطيه ما يشاء وبدأ يطلب وبدأت عيونه تغازل جمالها، ولم يكن يتحدث إليها رغم محاولاتها للاقتراب منه. ولكن بدأ يعبر عن حبه لها بطريقة اخرى. سجن أول أزواجها وأطلقه بعد فترة عندما تأكد أنه لم يعد له بها أي علاقة وبدأ يلاحق من يروج الإشاعات بأنه عشيق لها، وفي كل يوم كان يختفي أحدهم ليعود للظهور من جديد، لكنه يهرب أول ما تنزل إلى الشارع.. قالت يومها:

- الإنسان يدفع ضريبة رهيبة على جماله.
- قلت: أصبحت مصدر وباء بعد أن كنت مصدر سعادة.
- قالت: اللعنة عندما يهربون من مبرر حقيقي.
- قلت: الحب أحياناً يكون أعمى فلا يبدو شيئا.
- قالت: هل تلك الحقيقة التي أخبرتني يوما عنها.
- قلت: لم أعد أدري بما هو حقيقة.
- قلت: ألا تخاف أن تلحق بالقطار.
- قلت: أن كل حبي نحوك ليس سوى كلمات والكلمات هنا لا تؤذي أحداً.
- قالت: أنك الفائز الوحيد إذن.

قلت: بماذا ؟

قالت: بالابتعاد عن الخوف.

لكنهم أقبلوا في المساء وأمروني أن أصحبهم إلى النقطة. وهناك رأيته. كانت عيونه غاضبة ويده ترتعش. وعندما رآني صاح: لم يبق إلا أنت يا آكل الكتب، هل تتحداني أنت يا صعلوك.

- قلت: حاشى يا سيدي.. فليس لي قدرة على تحدي أحد.
- قال: إذن لماذا لا تهرب من طريقها.

- قلت: وهل أستطيع؟
- قال: كيف لا.. ألا تنظر إلى الآخرين؟
- قلت: الآخرين يا سيدي يجرون وراءها وهي تهرب منهم عندما تريد. أما أنا فأنها تأتي إلي أحياناً وتجاذبني الحديث وترتاح قليلاً ثم تمضي.
- قال: يعني...
- قلت: أنها لا تشعر بالخوف مني.. أنها فتاة متأكدة أنني لا أستطيع إغواءها.. بل أنها تعرف أنني حتى ولو أردت فلن أستطيع.
- قال: وقد بدأ يبتسم: هل أنت يمني.
- قلت: ربما أكثر من ذلك، أن أكون يمنياً فذلك بسيط يا سيدي ولكن أن تفرض عليك فذلك هو الشيء الرهيب.
- قال: إذاً لا بد أن تقول لي كل ما ترويه لك.
- قلت: لا أستطيع يا سيدي.. ذلك لا أستطيعه.
- قال: سأسجنك إذاً.
- قلت: لن تستفيد من سجني.
- قال: تبدو أنك الوحيد الذي تقول الحقيقة.
- قلت: لأنها لا توجد.

وفي الصباح أطلق سراحي، وعندما عدت إلى مقعدي في المكتبة كان الشارع ينظر إلي في ذهول وفي المساء سرت إشاعة وفي اليوم التالي أقبلت نحوي وقالت: هل وصلت إلى قناعة أخيراً؟

- قلت: ماذا تعنين؟
- قالت: أنك الوحيد الذي خرج بسرعة.
- قلت: لأنه لا توجد ضدي تهمة.
- قالت: أنت الوحيد الذي أتى إليك.
- قلت: وأنا الوحيد الذي لا أستطيع.
- قالت: إذاً بعتني.
- قلت: أنا لا أملكك حتى أبيعك.

- قالت: الناس يقولون.
- قلت: ما أكثر ما يقولونه.
- قالت: أستعود إلى بحث الحقيقة.
- قلت: الحقيقة ماتت ولم تجد من يدفنها فانتشرت في الجو رائحة عفونتها وصدق الناس أن الحقيقة حولهم.
- قالت: لا أصدق.
- قلت: إذاً لا تأتي إلي.

وأصبحت تأتي إلى شارعنا، والناس يشترون منها ولكن لا أحد منهم يستطيع أن ينظر إلى عينيها مباشرة. كانوا كالأشباح، يأخذون ما يريدون ثم يمضون بسرعة. يختفون من أمامها ولا يقولون كلمة. وعندما تأتي لتجلس على المقعد الذي في المكتبة كانت نظراتها تعبر عن حزن دفين. حزن قرون من الزمن ثم تمضي دون أن تقول كلمة.

وعاد النظام إلى شارعنا ولكن الحديث أصبح أكبر مما كان في السابق، وأصبح الناس يتشدقون في إشاعات وأقاويل، ورغم أن الشارع ازدهر فقد أعيد فتح بعض الدكاكين التي أقفلت وظهرت سيارات جديدة وعمارات إلا أن الحزن كان موجودا.

ولم تأت بانتظام.. أصبحت زيارتها تتقطع قيل أنها مريضة، وقيل أنها تزوجت وقيل .. وعندما كانت تظهر أحياناً لا تترك لأحد فرصة الكلام. ومرة رأيت شبح ابتسامة وصدمت حين وجدت أن أسنانها قد تحولت إلى ذهب وصرخت أعماقي بشيء محزن ومضت دمعة تائهة. كان ثمنها بئر من الذهب.. بئر قبيح المنظر. ومرة أخرى رأيت أن تجاعيد قد بدأت تظهر على وجهها، ورأيت يديها وقد تغضن جلدهما. ولكنها كانت جميلة..

ومضت الأيام، وبدأت تفقد سحرها القديم ومرت ذات يوم وقالت دون أن تجلس: هل نسيتني؟

- قلت: وهل أنسى عمري.

- قالت: ألا تزال تحلم كما كنت في الكتب.
- قلت: أليس الحلم أفضل من الواقع.

ومضت.

وقابلتها بعد عام كامل... وأدركت يوم رأيتها أنها كانت جميلة..

- قلت لها: هل أستطيع أن أسأل سؤالا واحداً.
- قالت: أسمح لك وحدك أن تسأل كما تريد.
- قلت: طوال السنوات التي عشت فيها مع شارعنا.. هل وجدت من يفتح قلبك وشعورك ووجدانك.
- قالت وهي تنظر إلى البعيد.. البعيد.. إلى قمة الجبل الذي تغطيه السحب.
- لا.. لا زال قلبي شاباً.. ولا زلت عذراء.. لم يستطع رغم كثرة الفرسان أن يشق أحدهم طريقه إلى قلبي سوى...

نظرت إليها وفي أعماقي ينبع أمل.

- قالت: .. سوى فارس مجهول.. ضاع في إحدى صفحات كتاب من الكتب التي أخذتها منك.

ومضت مبتعدة..

ومن يومها أصبح شارعنا مقبرة للجمال.. وأصبحنا أكثر حزناً بعدها.

ليته لم يعد

ترددت الصرخات من جانب الجبل. ولم يكن في القرية سوى أطفال ونساء مسنات أما الرجال والنساء القادرين على العمل فكانوا في الحقول، وردد الصدى أصواتاً مبهمة.. ومن الوادي كان رجال يحملون نعشاً تمدد عليه شبح إنسان.. ولم يكن قد مات بعد.

القرية تحتويها شمس كئيبة.. وريح تصر، والأرض ظمأى تنتظر المطر والسماء لا تنذر بشيء .. العام عام آخر من القحط.. تهز العجائز رؤوسهن.

- لم أر ألعن من هذه الأعوام..
- كانت أيامنا أيام خير..

وتهمس نساء.

- لقد هاجر الرجال..

وكانوا يعودون، ولكن على أكتاف رجال آخرين..

الآن النعش يزحف في عوارض الجبل ببطء.. العرق يتصبب من وجوه الرجال.. وكانت أصوات لا تزال تسمع..

وقالت إحداهن:

- هل تسمعون الصوت..

ولم يحمل الهواء سوى مقاطع مبهمة، العرق لا يشبع عطش الأرض، ولكن الرجال والنساء يستمرون بإصرار في منح الأرض اليابسة مزيداً من عرقهم.

وردد الجبل الصدى.

- أوه.. أواه..

كان المنزل مغلقاً حتى الأطفال كانوا مع أمهم في الأرض اليابسة.

كانوا ثلاثة.. أم وطفلان أرهقها العمل.. جلست لتمسح عرق جبينها وشرب الأطفال ماء.

وصك سمعهم النداء..

- هل عاد..؟

صاح الأطفال:

- إنه أبونا.. يقولون إنه أبونا في الطريق إلى القرية.

ركض الأطفال نحو الجبل..

وجمعت المرأة أشياءها القليلة وعادت لتستقبل زوجها العائد، في أعماقها ضربات سرور. لقد عاد أخيراً من رحلة استمرت أعواماً لم تعد تذكرها.. أنها كانت بعمر صغيرها. الذي راح يركض نحو الجبل لا يعرف حتى شكل أبيه.

حملق الأطفال في الرجال القادمين كانوا يسبحون في عرقهم، وسمعوا صوت أنين خافت من على النعش.

سأل الصغير بقلق:

- من هو أبونا.

كان الكبير خائراً، إنه لا يتذكر وجه أبيه ،فقد غاب عنه ذلك الوجه منذ أن انعطف قبل سنوات من إحدى منحدرات الجبل وكان أخوه لا يزال قابعاً في بطن أمه.

نظر الرجال بصمت إلى الأطفال وتجمعت نسوة فوق منازل القرية.

وحمل النسيم أصوات نساء..

- لقد عاد.

- يقولون إنه مريض..

- إنه محمول على جنازة..

- لقد أصابه شيطان البحر..

كانت توقد المدفأة. وتعد بقلب واجف قهوة للرجل القادم.

نظرت إلى نفسها صدفة في مرآة محطمة.. كانت خائفة لقد عجزت ولم تشعر.. بدأ من فوق دارها خيط من الدخان ستعد له عشاءً دافئاً. ذهبت تجري إلى ديمتها أخرجت من تحت سريرها الخشبي القديم وعاء أسود، احتفظت فيه بكل ما جمعته من

السمن.. حرمت نفسها وأطفالها منه واحتفظت به للعائد الذي اقترب موعد وصوله.

كان الأطفال يتهامسون.

- لماذا هو على النعش؟

أجاب الكبير..

- لأنه متعب..

سمعت أصوات رجال على السلم.

- أحمل من تحت.
- بهدوء.
- لا تجعله يهتز..

لعلهم يحملون أشياءه التي أتى بها معه

وسمعت صوت طفلها من خلفها.

- أنه مريض.. أنه محمول على جنازة..

لم تشعر بأن يدها كانت تلمس ناراً تجمدت عيونها على الظلام وفي أعماقها كان يتفجر شيء غامض.. مخيف لا تعرفه.

صوت الرجال لا يزال على الدرج المظلمة.

- أين نضعه؟
- هناك في غرفة النوم.
- لا.. لا.. الأفضل في المفرش.

هناك الهواء أكثر.

وصاح أحدهم.

- أين أنت يا زوجة؟.

لم تكن هناك.. أحقاً أنه لم يعد.. أحقاً أن ما يحدث هنالك تحت هو شيء واقعي..

غاب كل شيء عنها.. حتى عيون أطفالها الفضوليين.

عاد الرجال إلى القرية، وكانت النساء يتحدثن عن أزمة القرية..

- ماذا ستصنع الآن زوجته؟

- لعلها ستعتني بزوجها..
- يقولون أنه لا يملك شيئاً..
- لقد سرق الأطباء كل نقوده.

همست عجوز.

- لقد سحرته امرأة في المدينة..

نظرت إلى الزاوية حيث مددوه، كان هيكل عظمي أسمر، لا شيء من ذلك الرجل الذي اعتصرها فترة حتى كادت أن تموت.

عيناه فقط تدلان على أن الوجه له..

حملق الأطفال في الجسد الممدود..

لم يتخيل الصغير أنه أبوه.. لقد رسم له في أعماقه صورة أخرى عملاقة، قوية، عاطفية.. كان كالأغنية التي كانت أمه ترددها وهي تطحن مساء حبوب الشعير..

أما الكبير فلم يكن يعرف ماذا يفعل.. ظل مبهورا لساعات.. أبوه الذي قبله قديما لم يكن هو هذا الممدود هنا، لعل الرجال في الوادي، قد أخطأوا ونقلوا إليهم شخصاً آخر. ولكن أمه ظلت صامتة لا تتحدث إنها تنظر إليه لعلها لم تتبين الخطأ..

- أماه.. إنه.. ليس..

وقاطعه صوت أنين.

- أريد ماء.. ماء.. ماء..

جرت الأم إلى زير الماء.. اقترب الأطفال من الجسد. حتى العيون أغمضت..

لم تترك الأم مكاناً لولي إلا وزارته، ولا سيداً إلا نذرت له، ولا مسجداً إلا وأعطت من يقرأ فيه القرآن، حبوباً وسمناً ولبناً، لكنه ظل على السرير، لا يتحرك عيناه تزوجتا بالسقف ورأسه لا يتحرك ولكنه لم يمت؟

مومس

لا أحد، الليل ولّى، ولن يضمني أحد، لا شيء، سوى برد جاف... ونظرت إلى سريرها الغارق في ضوء أحمر هادئ.

لا أحد، مضت ليالي وأنا منتظر. معظم أبوابهن قد أغلقت.. إن هناك رجالاً، فلماذا لا يمرون علي... ألست مثلهن، أملك سريراً وباراً، ونوراً أحمر، وربما حضناً أكثر دفئاً من أحضانهن...

يقولون إننا نحن المولدات أكثر حرارة وابتسمت بمرارة لقد فقدت طعم اللذة منذ زمن بعيد.. بعيد.. متى كان ذلك.؟؟

وبدت على وجهها الأسمر تجاعيد ربما كانت تحاول التذكر.. لقد فقدت حتى الذكريات... النسيان أفضل..

لماذا اتذكر.؟ لو عدت إلى الماضي لأدنت نفسي.

ومدت يدها تتحسس عنقها..

وهذا الصليب، إنه يدفعني بالتهمة، لقد خنت الجميع حتى نفسي.

كنت مسلمة.. يا إلهي.. والآن! وبدت دهشة مروعة .. والآن ! وابتسمت بسخرية، الصليب على صدري.. إنه عاري.

ومر رجل أمام بابها.. نظر إليها بشراهة، فابتسمت له بألم لكنه مضى، دون أن يلتفت مرة أخرى.

حتى الصعاليك لا يريدونني .. ألأني مولدة؟

أم لأنهم يعرفون أنني تنكرت لذلك الدين الذي ولدت عليه.

وغابت في بحار الألم... وضعت الصليب لكي لا يقولوا مسلمة، لكي لا يعرفوا أنني منهم بل أنا مولدة..

ولكن في أعماقي... آه لا أستطيع أن أنسى... موت أبي ... وكيف أنساه، وعلى شفتيه اسم ربه.. واسمي .. كان ينظر إلي وعينيه تنظران بخوف إلى المستقبل... لم يعرف مدى إجرامه لأنه أوجدني في هذا العالم إلا في تلك اللحظات..

كانت صغيرة .. لا تعرف شيئاً وكان الموت رهيباً وهو يمثل مسرحيته أمامها، لقد تصدى أباها
المسكين كثيراً، بعيداً عن البشر، كانت ليلة، ليلة واحدة، لكنها لا تنسى، حتى عندما تهب جسدها لمولد مثلها كانت ترى أباها، وعينيه المخيفتين وقد دفنت رأسها.. ومن ورائها كان نور أحمر كوهج جهنم.
لماذا تعذب نفسها كل ليلة.؟ نظرت إلى الشارع، ليت أحدهم يدخل إليها، لن تطلب منه مالاً، يكفي أن ينقذها من نفسها من العذاب المر الذي تراه في عيون أبيها.. وهو يموت.
كانت أنوار الشارع تموت بصمت، لقد تعدت الساعة منتصف الليل. ومعظم الأبواب حيث الأنوار الحمراء، قد أقفلت وفي الداخل، حيوانات تصرخ بوحشية وتموت وهي تلهث تعباً.
الغثيان في فمي، لو كان لدي خمراً، لقد انتهى كل شيء وصاحب المكان سيطالبني بالإيجار بعد أيام، والبار خال سوى من زجاجات كولا..
وأشعلت سيجارة، لأحترق، لم أر أحداً هذا المساء، لقد هجرني الجميع.
وعاد الماضي..
لا أب .. لا أم.. وحيدة مع صليب.
لماذا أتذكر كل ما فات، لقد نسيني الجميع.
وتنهدت بعنف، وقذفت بكمية من الدخان.
لماذا أتى؟ ليزرعني ويموت كالكلب.. آه وجوده كان لإيجاد هذا الشقاء، كان بعيداً، ولد هناك، وترك كل أهله، كان يحدثني عنهم عندما يكون مرحاً، ويصف لي جبال بلاده ووديانها. كنت صغيرة، كم كانت عيونه تضحك وهو يحكي كل ذلك، لقد نسيت اسم قريته، اسم أبيه زيد.. أن بلادهم بعيدة، وذلك ما كان يخيل إلي عندما كان يمد يده مشيراً إليها..
هناك –هناك .. خلف الجبال والبحار.

لقد أخذني،وكنت طفلة، بعد أن ماتت أمي،لم يحدثني عنها كثيراً ترى هل ماتت حقا؟كثيرون من أمثاله يكذبون على أبنائهم أكان يكذب؟ لقدكان طيبا.. ضائعا..تغرب في قرى ومدن صغيرة كان يبيع أشياء كثيرة. ومات في الضياع، في قرية نائية بعد أن أصيب بحمى، لم يكن يعرفه هناك أحد.

وتشردت وحيدة.. طفلة صغيرة ووحيدة، بعد أن دفنوه في حفرة سوداء مليئة بالطين. ولم يصلي عليه أحد وأخذوا كل ما لديه.

يا إلهي، كم كان طيبا.. كذلك الطفل الذي حضر منذ أكثر من شهر. مر أمام بابها. كانت ليلتها جميلة تركت شعرها الأسود يسبح فوق كتفيها العاريتين، كانت في ثوب قصير، اشترته من ثمن رحلة غرامية مع أحدهم. كان طيباً معي ليلتها، لقد قبلني كثيرا، علمني كيف أحب قبلاتي بإخلاص، يا إلهي لقد شعرت معه بالسعادة كان مولدا مثلي، لقد سألني فأنكرت، وقلت له إني أثيوبية، ابتسم كان ذكيا وهو يلعب بالصليب ويتحسس نهداي.

قال لي بصمت:

- أنا أعرفك انك مثلي، وأعرف أنك تضعين هذا الصليب خوفاً منا، أنت مثلنا، لكن ضياعك أكثر غربة أنكرت بشدة، أقسمت له بكل القديسين.

قال:

- اقسمي بالله وبمحمد إن كنت صادقة..

صمتت بعمق، كانت خائفة لم تحلف في كل حياتها بهؤلاء أنهم في نظرها أكثر طهراً من أن تلوثهم بشفتيها الخاطئتين. كانت ممزقة..

- إذن أنت صامتة.. لا يهم، أنا لا أدينك فلست أملك حق الإدانة، أنت تعرفين ظروفك أكثر مني، وأنا لا أستطيع إلا أن أتألم لك دون أن أصنع لك شيئاً، لأنني مثلك ضائع.

وشعرت يومها بالدموع. ضمته بحرارة إلى صدرها، وبكت السماء مطرا.

لم تنم ليلتها:

وهبته كل حنانها، متصورة أنها تعوض نفسها عن حنان لم تعرفه.

- هل تشردت طويلا؟
- ليس أقل من الباقيات.
- ألم تجدي شيئا أفضل من هذا؟

كان في عينيها جوابا جعله يصمت وقالت له:

- وأنت؟

شعر بحزن، كان وجهه رقيقا تحت الضوء الأحمر كأن ألم حاد يمزقه.

- لم أفقد الكثير، إنني أعمل، رأيت بلادهم، أقصد بلادنا، إنها أكثر تعاسة منهم.

لكنها لا تستطيع الفرار مثلهم، إنها جميلة وحزينة.

وقاطعته.

- وهل قبلوك هناك؟ صمت كيف يخبرها. لكنه تغلب على قلقه وقال:
- إنني رجل، وهم لا يسألون ما دمت أملك نقوداً وفي يدي عمل.. ممكن آخرين ضاعوا، كثيرون هم الذين ضاعوا، لأنهم لم يستطيعوا أن يوفقوا بين الواقع الذي يعيشونه وبين أنفسهم...

وصمتت قليلا..

كانت تحلم...

- ولو ذهبت مثلا؟
- ستكونين أكثر تعاسة، ستفقدين كل شيء ولن تستطيعي أن تحتفظي بحريتك.
- لكني أريد أن أعيش شريفة... كالأخريات.

صعب جدا...

وكأن خنجراً يمزق صدرها كان الشارع مقفراً.. أتقفل الباب؟ إن السرير ثعبان بارد لا تستطيع احتماله وحدها...

آه لو كان والدي حياً لذهبنا إليه سوية، لو كان موجوداً لما كنت هنا.. كنت الآن زوجة لأحد هؤلاء التجار الذين يخونون زوجاتهم معنا.

لماذا لم يعد إليها، أعرف حقيقتها ففر منها، فر من نفسه، إنهم يخافون من أنفسهم عندما ينامون معي، يشعرون بالخجل وبالجريمة يا لهم من أطفال طيبين ولكنهم حمقى مستعدين لارتكاب جريمة حتى لا يرونا هنا... ولكنهم لا يملكون شيئا لإخراجنا من هنا لقد تحمل تلك الليلة معي بشجاعة، كان الصليب يعكس صورته الحمراء على وجهه، وكان ذلك يقلقه، لقد شعر معي بالسعادة، لم يقل لي ذلك، لكنه مد لي بوريقات حمراء مطوية، لم أحصل على مثلها من أحد فكرت أنه ربما كان ذلك عطفاً علي، لكنه لم يأت من جديد. لقد نسيني إنه يشعر بالعار معي.

يا إلهي كم هم أشقياء أخوتي هؤلاء.

وصدمتها كلمة " أخوتي " أيمكن اعتبار نفسها أختاً لهم، إنها تعطي نفسها حقاً كبيراً. أيمكن أن تتساوى مع فتيات الأسر واللاتي يمرقن أمامها في سيارات آبائهن.

لقد فقدت هي كل شيء، ولم تعد تعرف أحداً من أهلها.

حتى لغتي لم أعد أعرف منها سوى كلمات بدائية، فلماذا إذن أعطي لنفسي الحق أن أكون أختاً لهم، إنهم لا يريدونني إن نظراتهم تأكلني، آه لو كنت أقل بياضا مما أنا عليه. إنهم لا يصدقون، إن دمي يفضح عاري أمام الجميع، حتى قلبي يدق بعنف إذا ما استسلمت لمسيحي... لكن يجب أن أحصل على لقمة لكي أعيش... أأعيش.. وكادت أن تصرخ في منتصف الليل...

لماذا لا يريدونني؟ هل قلّ الرجال في هذه المدينة الملعونة! أنهم يكثرون عندما تكون الضحية طرية، جديدة، وصغيرة...

ورمت ذكرى ليلة مؤلمة... ومخيفة... كانوا أربعة... وكانت وحيدة طفلة فرحت عندما لمس أحدهم نهديها لكنها صرخت بوحشية، لم يرحمها أحد، كانوا وحوشاً بلا قلب.

وعندما ذهبوا كانت امرأة عجوز تبتسم بوقاحة، وهي تمسح نقطاً حمراء ودموع، كانت ليلة رهيبة، المرأة العجوز التي آوتها قبل يومين عندما وجدتها تهيم وحيدة في الشوارع،فقدمت لها قطعة لحم ولحوح، فاستلمت ثمن ذلك حيائها، وطفولتها.

كانوا أربعة.

أما الآن، فالشارع خال، ومنازل أخرى تغلق أبوابها، وسمعت صوت سرير جارتها يئن تحت ثقل جسدين.

لو عاد الليلة... لن آخذ منه شيئاً، سأهبه كل ما اختزنته من دفء وحب...

حب، أيمكن أن أعرف ما هو الحب... آه يا إلهي؟

وماتت تحت كعبها آخر سيجارة.. سوف أنام...

لقد مر ليل آخر ... وقبل أن تقف كان شبح يترنح أمامها بنشوة.

نظرت إليه بحنان .. ربما كان وحيدا مثلي .. وقبل أن يمضي ليغيب في الحارة الجانبية نظر إليها.

كانت عيناه غائرتان. ورأت شفتين تهتزان بضعف، كانت تنظر إليه، وكان قد اقترب.

- لست سكراناً بل أنني في قمة النشوة، وأنت أيتها الحسناء، أتنتظرين عشيقك؟ لقد تأخر كثيراً فيما أرى؟

واقترب منها.

- أتسمحين لرجل عجوز ونشوان أن يسليك قليلاً، إنني أرى آثار حزن على شفتيك.

ابتسمت .. كانت قلقة... وجلس أمام الباب.

كان كبيراً، وربما مضت عليه سنون لا تحصى، وكان يلهث ورائحه قذرة تفوح من فمه... رائحة خمرة رخيصة ومتعفنة وكان ينظر إليها.

قالت له بصوت هادئ.

لماذا تنظر إلي هكذا ؟ هل أعجبك ؟

لم يجب.

وأرادت أن تداعبه.

إذا أردت فلن أجعلك تدفع كثيراً!!

لكنه استمر في صمته.

وشعرت بالخوف.

ترى في ماذا يفكر؟ عيناه تشبهان عيون أبيها... كان ينظر إليها هكذا يقول...

" إنني أخاف عليك من الأيام " لكنها لم تكن تعرف معنى ما يقوله. وأحيانا كان يردد " لماذا لم تكوني ذكراً، حتى لا أقلق على مستقبلك؟ إذا ينظر إلي هكذا؟ أنني أخاف من هذه النظرات إنها تقتلني.

وسألها فجأة؟

- كم عمرك يا صغيرتي؟ ألك مدة طويلة هنا؟

إنني خائفة، ما الذي يريده مني هذا الغريب؟

وكانت صامتة.

واستمر يقول.

- يخيل إلي أنني أعرفك، أعرفك منذ مدة طويلة، لست غريبة علي، كنت شاباً في مثل عمرك، لقد رأيتك في مكان ما، إنني متأكد من ذلك.. أقسم بربي.

يا إلهي، كان أبي يقول أنني أشبهها، أتراه يعرفها؟ أترى هذا الرجل قد رآها.. أين؟ ومتى؟ وكيف؟

كان ذلك منذ زمن بعيد، لم أذكر شيئاً، ربما كان ذلك كله حلماً مر...

- ولكن حاول؟ أين رأيتني ألا يمكنك التذكر؟ قل كلمة بحق الآلهة. كانت عيونه تبحث في الأرض عن شيء ما...

- كلا... لقد كانت تلك أخرى، أكثر سمرة منك أنت بيضاء، لقد كانت تلك سمراء لكنها كانت جميلة مثلك " امرأة حقيقية، ماتت منذ سنوات قليلة مضت...

كان يحادث نفسه وهو يرسم شيئا ما على التراب.

- كنا شباباً، كانت متزوجة من أحدنا، كنا معاً، لكنه كان أكثر شجاعة مني وتلك كانت أياماً حقيقية.

وقاطعته.

- أأنت منهم؟ أأنت أيضاً من هناك؟؟

أعطاها عيون ميتة، ولم يقل شيء، هز رأسه موافقاً وسعل بشدة، كانت رائحة غريبة تفوح من فمه.

كانت أيام وكنا شبابا.. شجعاناً..

خرجت من فمه آهة.

حتى الوحوش كانت تخاف منا...

وغابت في بحر عميق من الذكريات.

وفي السماء كان هلال هزيل يلوح، وفي البعيد أنجم ضائعة تتلألأ...

وصوت حزين يمزق صمت الليل.

كانا حزينين، وكان الضياع يحيط بهما من كل جانب.

لن يأتي أحد، لا أحد، لقد مضى يوم تعيس.

لقد شربت، وشربت لكي أنسى، أن بلاداً أخرى تنتظرني، وبأت عجوز محطم وبأني كنت شجاعا يوماً.. ما..

والتهم الليل ضوء أحمر وكان شبح يترنح. وفي ذهنه ذكريات مميتة وثعبان بارد يلتهم جسد شاب. وكانت أنجم تضيع في السماء.

الشيء الذي لا يمس

- رمضان كريم

وتحركت أحشاء المدينة بعنف ولاحت ابتسامات شبه غامضة وآلاف الوعود انهالت.

- سأشتري لكم ملابس للعيد..

- لك ثوب جديد..

ومرح الأطفال بين القمامات المتناثرة بجانب بيوت الكرتون والخشب وقال أحدهم:

- سندخل كهرباء:

وصاح آخر:

- نريد ماء هذا العام.

والمدينة تنام نصف النهار، وتستيقظ نصف الليل والدعاء يدور، والسماء ستفتح أبوابها للجميع.

رمضان كريم:

الزحف يتدفق نحو المنخفضات،وزحف آخر يخترق الرمال،زحف من كل مكان يتجمع عند أبواب غرفتها،منذ سنوات توزع بسمات يائسة باسمهم، تشتري بها أسهما من كل نوع.

❖ ❖ ❖

الليل لا وجه له. والجبل شامخ كعادته. الكتاب يقولون عنه شامخ والشعراء يتغزلون بوثبته الخالدة والأدباء يوزعون عليه ألقاب الشرف لكن الجبل كان يبكي مع الليل وتحت أقدامه تنام عشش ومن أزقتها تنبعث رائحة لا تشمها المدينة المعطرة.

والجبل يدمع وهو يسمع سعال امرأة وحيدة، في غرفتها الكرتونية. والباب مفتوح على عيون بلهاء تحملق في الزقاق الترابي وتثلب

بقايا عظام عفنه. الجوع منزله كان هناك، والأطفال صادقوه بإخلاص والأم بئست، أرهقها السعال.

قال طفلها الكبير:

- أماه .. هناك يوزعون حق الله.

بصقت دماً. ودفنت رأسها فوق التراب.

- ومن يحملني إلى هناك؟

ألقى نظرة إلى أخوته. أنصاف عراة يتسابقون إلى الزقاق خلف قشرة موز قذفت خطأ، ويمضغونها بشراهة.

- سنحملك نحن:

أجابته بسعلة طويلة.

ومن المدينة تعالت أصوات وانطلقت سيارات مختلفة الأشكال والأحجام،وكانت الأنوار تصنع بحيرات من الضياء

وأمام الأبواب تدفق حشد هائل، قذفته أرجاء المدينة، وقال أحدهم وهو يضغط على فرملة سيارة.

أف من أين أقبل كل هؤلاء؟ ردت عليه هيفاء عطرها تتلاعب به الرياح تجلس بجانبه مرتخية.

- خذ حذرك وإلا سيحسب عليك إنسان.

ضحك وانطلقت سيارته تخترق الشوارع وقذف مسجد بالمصلين وهتف أحدهم- أوف ما هذه الرائحة الكريهة أجابه شخص بلحية وملابس بيضاء نظيفة.

- هذا رمضان.. وهؤلاء يبحثون عن حقوق الله.

صاحت طفلة من نافذة سيارة.

- أماه –أماه- من هؤلاء؟ جذبتها أمها بعنف وقالت:

- لا تنظري إليهم.

وانهالت عصا على مجموعة منهم، وصاح الشرطي وهو يفرقهم من أمام باب معروف- أذهبوا قبل أن أقضى عليكم- انتهى حق الله- انتهى التوزيع ولم يبق شيئا.

الليل يتخذ له لونا قبيحاً رغم أن الأنوار تحاول أن تجمله.
صمت السعال إلى الأبد- وقال الطفل لأمه.
- أماه- أماه- لماذا لا تردين؟ كان أخوته ينظرون بإعجاب إلى رغيف جيد واحد من الذين عادوا به من بحيرة الضياء.
وصاح فيهم:
- اذهبوا- تفرقوا
كانوا يريدون معرفة كنه ذلك الشيء الذي لم يعرفوا لونه من قبل وبكى الطفل الكبير على جثة أمه.
وقال الشرطي.
- لقد ذهبوا جميعاً- كادوا أن يمزقوا ملابسي هؤلاء القذرين.
وابتسم وقدم الشكر باتزان ودس في جيبه شيئاً ومضى بعد أن أدى التحية.
ووقفت سيارة أمام باب معروف وقال سائقها الذي نزل منها —لدى موعد مع... وعندما دخل كانت أحضان وقبلات ورمضان كريم وكل عام وأنتم بخير..
وانطلقت السيارة والسائق يصفر، سيشتري للعيد مزيداً من الملابس، وكذلك سيقيم حفلة صغيرة خاصة والجبل أرخى رأسه وتساقطت دمعات ولم يعد ينظر إلى الأنوار التي تتلألأ تحته، كانت أنظاره معلقة بالغرفة الكرتوينة وبالأطفال الذين يحملقون ببلاهة ولا يعرفون شيئاً.
كانت الرائحة تزكم أنف الجبل فهناك في أحضانه كانت توجد أشياء لا يمكن أن تمسها سوى الأحزان والصمت والليل الذي لا يغيب.

شيء اسمه الحنين

الطريق يتلوى كالأفعى والشمس تختفي خلف سحابة سوداء، ورذاذ بسيط يتساقط. السيارة تنطلق مسرعة وهي تتلوى مع الطريق بألم.

كنا اثنان والصمت ثالثنا منذ أن غادرنا صنعاء بعد ظهر يوم كئيب تهطل الأمطار فيه منذ الصباح وها هي السحب هنا فوق الطريق تنذر بالسيل. السيارة صغيرة وسريعة والطريق طويل والجبال تحيط بنا من كل جانب، ولن ينبسط الطريق إلا بعد أن نتعدى " باب الناقة " ونستقبل تهامة الرحيبة.

كنت أريد أن أقطع الصمت، فإن يسوق الإنسان سيارة سريعة لمسافة طويلة عمل ممل ومتعب، والأعصاب مشدودة والرذاذ يعمي زجاج السيارة الأمامي، والماسحة تعمل قليلاً ثم تقف:

قلت: بماذا تفكر؟

نظر إلي، ابتسم وهز رأسه.

- لا شيء، الحقيقة لا شيء ذو بال..

صمت قليلاً، أشعل سيجارة ثم قال.

- هذه البلاد تقتل في الإنسان حاسة التفكير، تبلد الحس، وتنهى مع مرور الزمن نشاط خلايا المخ القابلة للتفكير.

إننا نتجمد نتبلد نموت كل يوم.

ضحكت، وانطلقت السيارة بعد أن خرجت من انحناء جبلي، وهطل المطر بسيطا في البداية ثم انهمر بغزارة، كانت المساحة تعمل بكسل وشعرت بحبات المطر تخترق النافذة وتنهمر فوق وجهي كانت حبات منعشة لذيذة، وأخرجت يدي إلى المطر فابتل القميص وكنت في منتهى السعادة بينما أغلق صديقي النافذة المجاورة له وراح ينفث دخان السيجارة بشراهة. قلت- لو كان

معنا قليلا من الشراب لوقفنا هنا واحتسيناه فوق قمة هذا الجبل مع ماء المطر البارد.

قال- لقد توقفت عن الشراب منذ ستة أشهر، أصبحت مدمنا، تمزق كبدي، ولم أعد احتمل: قال الأطباء إما أن تنتهي أو تقف، وتوقفت لا قات، لا شراب لا نساء ضياع كامل في هذا البلد، لعن الله الساعة التي جعلتني أتشجع وأعود إليها أما كان الأجدى أن أبقى هناك إلى الأبد- قلت: ولكنك ستعود قريباً، هز رأسه: ولكن بعد ماذا، بعد أن شبت، وأصبحت هيكلاً لا يصلح لشيء هنا، ولا أدري هل سأستعيد ذلك هناك إذا عدت.

قلت والسيارة تنطلق والأمطار حولنا وجبل النبي شعيب مهيباً على يميننا شامخاً كعادته ينظر إلينا وإلى الطريق وربما إلى صنعاء التي غابت بعيداً باحتقار. هل وصل بك الحال إلى هذه الدرجة من اليأس إذن ماذا نعمل نحن المساكين الذين حكم علينا بالبقاء هنا ربما إلى الأبد، إذا كنت أنت الإنسان الغير مرتبط بشيء لا عائلة؛ لا أطفال.. وأمامك المستقبل كاملاً، فأنت شاب صحيح الجسم ماذا ينقصك، ستجد أمامك أمريكا كما تركتها وربما أكثر نضجاً وأكثر شباباً ستجد (الهيبيز) هناك بكل سخافاتهم وإيمانهم، أنت لم تفقد شيئاً بعد، أما نحن...

وانطلقت السيارة، وصوت العجلات فوق مياه الأمطار الساقطة تصل إلينا كموسيقى صادحة، وجبال بني مطر تتابع أمامنا.

نظر إلي وقال:

بالله قل لي هل هؤلاء- وأشار إلى القرية المعلقة في الجبال- يعيشون حياة إنسانية، أتذكر قبل سنوات والحرب دائرة أنهم كادوا يقتلوننا هنا مجموعة من الحفاة العراة، كل ما له قيمة كانت بندقيتهم فقط، أية حياة بالله أن تكون نهايتك على يد مثل هؤلاء؟ ألهذا تعلمنا وسافرنا؟ وحلمنا بالعالم الجديد؟ وبأننا سنناضل ونبني!! لمن؟ لهؤلاء!! الذين يبيعونك بجنيه ذهبي

وأحياناً بلا شيء، يا إلهي. واختنق صوته.. كان ألماً ما يمزق أعماقه، ويأس قاتل يحتويه، كنت أعلم من قبلٍ أنه يعيش في ألم كبير. تخلى عن أسرته، وأصدقاءه، وعاش وحيداً في سهول تهامة، يحفر الآبار لمن يدفع ويستلم راتبه، لا يشرب، لا يأكل القات ولم يتزوج، تمزقت أحلامه منذ زمن بعيد ومنذ ذلك الوقت وهو يحلم بالعودة إلى الولايات المتحدة حيث كان يدرس قبل الثورة. عرفته عندما عاد يحمل في عقله مشاريع وفي أعماقه حماس لا ينضب ومر الوقت وتساقطت الأحداث. وتساقطت معها مشاريعه وأحلامه، ومن يومها وأنا أراه ينحل، وظهره ينحني؛ والأعوام ترسم على وجهه خطوطها القبيحة.

أطلت جبال الخيمة، وكانت الأمطار قد توقفت. المدرجات تحتضن الجبال وقد ارتوت والمنازل عالية فوق القمم الإنسان هنا نسر يحلق عالياً، ولكنه يحيا حياة القاع.

- هل نحن هنا في القرن العشرين؟

لا أصدق!! ما حولي يوحي بأننا جزء من كتاب تاريخي قديمٍ، فتحت صفحاته خطأ.. رجعت أعيش في هذه الصفحات، أحيانا وأنا أسير في شوارع تعز أو الحديدة أو صنعاء أتذكر أنني كنت يوماً ما في شيكاغو، ولا أصدق! لا صدق أنني لم أزل هناك، أقول لنفسي فجأة أين أنا في الحقيقة؟، هناك في أمريكا، أم هنا وسط صفحات التاريخ القديمة، واحتار كثيراً اختلطت الأمور علي. لا تنظر إلي، أنظر أمامك لا أريد أن أموت على الأقل هنا، إذا كنت أنت يائساً فذلك شأنك، أما أنا فإنني سأذهب إلى هناك قريباً.

ضحكت وقلت: لا تخف ستصل سليماً إلى الحديدة، ولكن هل تخليت فعلا عن كل شيء، الوطن، الحرية، المستقبل، الضمير، كل شيء هكذا فجأة.

ضحك باستهزاء..

كلمات، يا عزيزي كلمات، لا معنى لها أن كل ما قلته الآن يباع في كل مكان بالمجان.. الذين علمونا الحرية هم أول من طعنها، الضمير لا وجود له لأنه عملة زائفة أما الوطن فأين هو؟ هذا الذي حولنا لا تملك منه شيء.. الوطن هو ذلك الذي تستطيع أن تغير فيه. أن تستنبت فيه أشجاراً جديدة، أن تمنحه ويمنحك الحب، الوطن ليس هنا لقد كنت مخطئاً أنه هناك حيث تعمل، وتكدح، وتفكر. هناك كنت يساريا فعلا، كنت أناضل مع الطلبة، كانت قضية ما تربطني بالجميع أما هنا، فنحن نعيش في داخل أنفسنا ما نفكر فيه لا نستطيع أن نقوله بصوت مرتفع، الكذب غذاؤنا اليومي، هل تعرف عندما عدت من هناك كنت أفكر في حزب، في عمل جماهيري، في الالتحام والذوبان، والإبداع، والتضحية، وعندما دخلت مع مجموعة، اكتشفت أنني أعيش وأعمل وسط مجموعة من المجانين. اليساريون عندهم كلمات لا يعرفون تفسير معناها. تصور واحد منهم يلعن أباه لأنه برجوازي عفن. والأب صاحب صندقة لبيع السجائر. هكذا تقسم التقدميين مجموعة من البلهاء والصعاليك أصبحوا يسارا هنا، لأنهم لا يملكون فكرا أو فهما لا شيء، لا شيء مطلقا.

لقد صدق الذي قال يوما ما " بأن الوطنية آخر ملاذ للوغد"

قلت: ولكن كل هذا ليس مبرر لليأس، أن تفشل مرة أو مرتين أو عشر لا يعني أن تتخلى أن تهرب.

ضحك مرة أخرى.

- لن أهرب ولن أتخلى، ولكن ببساطة سأعود إلى جذوري إلى هناك لعلني هناك استطيع عمل شيء.

بشارة سرحان عمل هناك أكثر مما يستطيع أن يعمل لو كان هنا، هنا ببساطة سيقتلونه كما يقتل الحكام اليوم المئات مثل بشارة.

وهنا وأشار بيده إلى الجبال. هنا يا عزيزي قتل أيضاً المئات من أمثالنا شباب فيهم حيوية وإيمان. وكانت لهم أحلام، ماتوا من أجل قضية.

والآن ماذا بقي منهم؟؟ هل يتذكر أحد عنهم شيئاً!!! لا.. حتى التضحية هنا جريمة، عملية إجهاض سري لا أوافق عليها، أعرف أن الجميع سيقولون لقد هرب، لقد تخلى لقد انتهى، ولكني أقول لم أهرب ولم أتخل لأنني لم أبدأ بعد نحن اليمانيون مكتوب علينا أن نهاجر ونهاجر.. بلادنا ليست لنا، هذه حقيقة تاريخية أن لعنة ذويزن تطاردنا وستظل تطاردنا نحن غزاة غيرنا، سيوف غيرنا، بناة بلاد أخرى، هذه الجبال اللعينة عليها أن تسحق أن تذوب لأنها لا تحمي إلا من يماثلها في الكآبة والفراغ، جرداء هي وجبالها وجرداء هي عقولها وعواطفنا. ماذا نستطيع أن نعمل؟؟ طاحونة هائلة تبتلع وتبتلع لا أمل سوى أن نذهب بعيداً، لعلنا هناك نستطيع أن نعمل.

وانزلقت السيارة وبدأت تهبط حولنا منازل عالية كانت يوم ما مسكونة، آثار القنابل لا تزال واضحة، الجدران تبتسم ببشاعة وقد حطمتها القنابل، آثار الحرب على الحقول الجرداء رغم مياه الأمطار الغزيرة.

وصمت صاحبي، في رأسي تدور وتدور طاحونة، أنه على حق في رأيه ولكن هل يعني أن تهرب!! هل ذلك مبرر كاف!! إنه يعمل ويعمل بصمت وأكثر مما يعمل الآخرون سهل تهامة يشهد له.. حفر ابارا روت عطش مئات من المزارع الصغيرة وكان هو من أخرج المياه لها لتشرب. كان صامتاً في عمله، أكثر من بقية مثقفينا الساكنين في مقاهيهم وملاهيهم، ولكنه الآن سيهاجر، سيعود إلى البلاد التي لعنها يوما وخرج يحاول أن يهدمها من الخارج والآن يعود إليها.

وجاء صمته، في حزن عذب.

- أمريكا، هل تعرف أنها عالم بذاته كل ما فيها رائع، جبالها وديانها صحراؤها قمم الثلج وبحارها، الله هناك لم يبخل أعطى ريشته حرية كاملة في أن تبدع. أما هنا فإن الريشة مرت ومعها تراب الأرض، وأصبحت يمننا غبراء، يا إلهي أنني أكره كل شيء كل شيء.. لم أعد احتمل، لو بقيت فترة أخرى لجننت.

أمامنا كان جبل مناخه شامخاً. وكانت الشمس قد تخلصت من السحب حولها ولكنها كانت باهتة. وبرد المرتفعات يلفنا. وأوقفت السيارة ونزلت. الهدوء يخيم على المنطقة: المناطق عالية فوق قمم جبال حراز من هنا انطلق يوما الصليحيون، وأصبحت اليمن واحة خضراء، ولكنها عادت من جديد إلى الجدب ولم يعد هنا صليحيون آخرون.

نظرت إليه، كانت عيناه تعانق الجبال والوديان، كان صغيراً هناك أمام ضخامة الوجود. المنازل المعلقة قرب السماء كانت هي أيضاً صغيرة والشمس تختفي خلف الجبال:

في خده دمعة تلمع. كان حزنه أليماً وكنت أفكر.

" من مناخه .. " تبدأ الطريق في الانحدار فهنا تنتهي السلسلة الجبلية الكبرى ومن هنا سنخترقها إلى التهائم.الأرض التي أحبها صديقي وأعطاها الكثير. ومن أجلها تخلى عن المدن ولكنها لم تعطه الراحة:

قال فجأة:

- قل لي صادقاً، هل تعتبرني جباناً هارباً؟ قل رأيك صريحاً، فأنا على الأقل احترمه. لن أقول لك بأنني سأغير رأيي بعد أن تقول رأيك.. كلا ولكني أريد أن أعرف، فقط أن أعرف.

أدركت أنه يتألم بصمت وأن شيئاً لا يزال يعذبه.

قلت: وهل كل من يهاجر اليوم إلى السعودية أو الخليج يعتبر هارباً متخلياً عن وطنه؟

قال: لا تقارني بأولئك، إنهم يبحثون عن لقمة لهم ولأبنائهم وأسرهم أنهم يبحثون عن عمل لم يتحصلوا عليه هنا في بلادهم. أما أنا فاختلف. أنني أعمل وأجد راتباً ممتازاً يحسدني عليه الكثيرون ومركزي لا بأس به فأنا إذن لا أهاجر من أجل العمل، هنا الفرق.

قلت لا فرق لدي، فأنت تهاجر بحثا عن ذاتك، عن شيء ما فقدته هنا ولم تجده، لذلك تعتقد أنه هناك في مكان ما. أن هجرتك مثل هجرتهم تماما، بحثا عن شيء ما ينقصك. وبدونه لا تستطيع أن تعيش وكما قلت لو استمر الأمر. فإنك ستجن، لذلك لا بد لك أن تهاجر، لتجد ذاتك.

فكر كثيراً ثم قال:

- قد تكون على حق ولكن... ولكنني لن أعود.. ليس هناك شيء يربطني بهذا المكان لقد انتهت علاقتي بالكل. لن أعود.

قلت: ذلك شيء لا تستطيع أن تقرره يا عزيز، في أعماق كل واحد منا شيء اسمه الحنين، إننا نهرب ونغيب ونلعن كل ما هو حولنا لكن الحنين يتغلب في النهاية، ستعود يوماً ما، لا أدري متى، ولكن هناك لن تجد نفسك، قد تجد ما فقدته هنا، الشوارع المضاءة والنساء الصخب والعنف، السرعة الجنونية والهدوء الأكثر جنوناً، ستجد كل ما فقدته طوال هذه السنوات، ولكنك ستكون منفصلاً عن واقعك نحن كما قلت جزء من تاريخ قديم صفحاته حقيقية ولا تزال موجودة في هذا القرن، ونحن جزء منها. أتذكر رواية الأفق المفقود؟ ذلك الجزء الغائب في أعماق الصين حيث يكتشف الناس سر الخلود الكل شباب والشباب دائم وأبدي. ولكن ما أن تغادر الوادي الأخضر ذلك الأفق المفقود حتى تنهال عليك السنين وتصيح فجأة وقد أصبحت محطماً وقبيحاً.. هكذا نحن، هناك سر ما في بلادنا هذه، أنا معك جرداء وقاحلة، وأن الأمل في أن لا يقتلنا هؤلاء الذين لا قيمة إلا لبندقياتهم. ولكن لا نستطيع

هكذا الخلاص منهم بسهولة، هناك قدر ما يربطنا بهم ولا نستطيع منهم فكاكا نحن جزء واحد من كل هذا التخلف، نحن، جزء منه. ولكننا لسنا متخلفين هنا، هناك في أمريكا أو أوروبا نحن لا نستطيع أن نكون متخلفين مهما كانت ثقافتنا. أما هنا فإننا نحن الواقع لأننا المستقبل. ما فعلته أنت في تهامة ليس تخلفاً، أن تحفر بئرا أو تزرع شجرة أو ابني طريقا كل هذا هو ما يقودنا إلى الأمام.

الاستمرار ذلك هو الشيء، وأنت لن تستطيع هناك الاستمرار لأن التربة هناك ليست في خلايا جسدك وفي خلايا مخك.. في..، خلايا تفكيرك فيك أنت وأنا وكل هؤلاء من هذه التربة الشيء الكثير.

صدقني هناك ستفقد كل شيء قد لا تندم غداً ولكن اليوم سيأتي سريعاً والحنين مع الندم يكونان سمفونية عنيفة قاسية ومرعبة، لا نستطيع الانفصام عن وجودنا لأنه مهما كان الهروب كان الحنين أكبر.

أمامنا كان باب الناقة، والسيارة تنطلق أسرع وأسرع، كانت الشمس قد غابت وإن بقي الضياء.

ورائحة تهامة، رطبة ممزوجة بالملوحة، مع هواء مشبع بالحرارة.. مزيج غريب هو ذلك الذي تشمه حولك، الطريق الآن أمامنا طويل ومستقيم والسيارة تسابق الرياح، وزميلي يدخن بصمت.

وكان الصمت مع هبوط المساء حارا ممزوجاً بالرطوبة ومشبعاً بالحرارة.

يمامة

أسموها يمامة. ولم يكونوا مخطئين.

كانت بيضاء اللون نقية الوجه لها أنف إغريقي رائع وفم صغير تبدو منه حبات اللؤلؤ، وعيونها بلون البن.

كانت متوسطة القامة، نحيلة برشاقة وكان جمالها حزينا.

كانت أفكارها الهادئة أكثر حزنا. ابتسامتها كانت نادرة، وكأن الابتسامة كنز تخاف أن ينتهي.

قلت لها: لماذا أسموك يمامة؟

قالت: الناس تحب الأسماء الرقيقة القابلة للكسر أو الذبح.

قلت: أحيانا تكون الأسماء مطابقة.

قالت: عندما يصلون إلى عمق الأشياء.

خرجت من سجنها العشرين قبل أيام من لقائنا. دوهمت ذات ليلة عندما كانت مع مجموع من الرجال والنساء.

قالت أنهم كانوا يحتفلون،، وعندما سئلت بماذا؟ كانت إجابتها بأي شيء. الحياة ملل وعلينا أن نحتفل كل يوم لننسى.

وكان نصيبها السجن وشدد عليها أكثر عندما رفضت أن تغادر السجن في إحدى الليالي لتحتفل مع من اعتقلها.

وبقت أكثر مما قدر لها عندما استمر رفضها.

وفي السجن تعرفت على نساء أكثر. لكل منهن قصة وكانت قصص نادره لسماع قصص أندر.

كانت اليمامة من أجل من في السجن وكانت البراءة تموت فوق عيونهن.

وكانت هي أكثرهن براءة.. مزق التشرد حياتها وكانت عائلتها أقسى عليها من القدر صنعت مأساتها وقذفتها إلى الشارع طردتها بعد أن سحبت منها البركة والاسم واختفى اسمها الحقيقي ومات بعد أن كانت " اليمامة " تنطق بكل شفاه.

صنعت ملجأ لها بعد الخروج من السجن وفي أعماقها جرح لا يندمل. ودم يسيل في قلبها، وسخرية من الكون كانت مع من شرد في منزل واحد يحتفلن بسخطهن على العالم وعلى من سجنها وأكثر على من أطلقها من سجنها.

وكان صوت الحارسة وهي تصرخ " مطلقة مع أداتك " تتمنى، وتتمنى في نفسها أن لا تطلق خوفاً من أن ينقطع النقد مقابل خدمات ما بعد الغروب.

" يمامة " حزينة وكئيبة دائماً لا تعرف شيئاً سوى جدران السجن معظم أيام العام. كان طريق السجن في فم كل ضابط أو جندي ترفض أن تمنحه متعة لا ترغب فيها.

ولم تكن تهتم، أخذوها أكثر من مرة وحقدوا عليها مرات. ولكنها لن تهتم.

في عينيها تظل براءة مطلقة، وفي وجهها صفاء ملائكة لم يعرفوا خطيئة.

قلت لها ذات يوم بعد أن خرجت من سجنها ألما بعد العشرين.

- ألا تخافين أن تنتهي هكذا.

قالت: قلت يوما أن زرقاء اليمامة قتلت لأن أهلها لم يصدقوها.

قلت: نعم أذكر.

قالت: أنا مثلها.

قلت: ولكنك لا تملكين قدرتها على الرؤية.

قالت: اكتشفت الواقع بما أعانيه.

كانت تمنح اللذة هكذا، دون أن تأخذ منها شيئاً من كل ما في هذا العالم.

عندما يأتون تكون قد استعدت، وعندما تسجن لا تقول لا، الحياة عندها مهزلة سخيفة، ويجب أن لا تنظر إليها باهتمام وكانت لا تزال تملك فراشها الذي تركته ينتظرها في سجنها.

قالت ذات يوم: أتعرف أنك أبله.

قلت: لماذا

قالت: لأنك تأخذ الأمور مأخذاً جاداً.

قلت: وهذا في نظرك بلاهة.

قالت: وهي تهز أكتافها بعدم اهتمام.

- نعم- لا شيء في اليمن يستحق الاهتمام، حتى الحب أصبح بلا طعم.

وغابت عني أيام. وسألت عنها فقيل.

- مسكينة- ألم تعلم.. إنها في السجن.

هكذا كانت اليمامة تمنح في السجن بإخلاص كل شبابها ولم تكن تهتم.

سينما طفي لصي

الخريف يطل برأسه على مدينتا بهدوء، فتبدل الفصول من الصعب ملاحظته فجونا متشابه في معظمه، لكن فصول هذا العام كانت متمايزة عن ما قبلها.

الأشجار القليلة المبثوثة في جوانب المدينة أصفر لونها وتساقطت أوراق بعضها، وإن ظل البعض الآخر فوق قمم الأشجار وكانت رياح باردة تهب في بداية المساء ويهطل البرد مع الضباب وتستمر برودة الجو حتى ساعات الصباح.

ومدينتنا بدون فصولها مملة، وكئيبة، فهي صغيرة جداً وضيقة جداً، وقذرة جداً، والناس فيها متشابهون ويعرفون بعضهم بعضا بالأسماء، وإذا وقف أحدهم في مكان واحد لمدة ساعة فعليه أن يحرك يده بالسلام طوال الفترة.

ولا أدري لماذا اختارت إدارة السينما الوحيدة في مدينتنا هذا الوقت بالذات لعرض هذا الفيلم " السيد " أو "El-Seid" كما هو مكتوب في الإعلانات الإنجليزية للفيلم. تحت صورة فارس عربي يمتطي حصانه الأبيض وبيده سيف بتار.

فمدينتنا من النادر أن تشاهد أفلاماً أجنبية، ومعظم ما نشاهده هو " عنتر بن شداد " أو " فارس الصحراء" و " ألف ليلة وليلة " وأحياناً " دموع الحب " أو " أمير الانتقام " ومن كثرة مشاهدتنا لهذه الأفلام أصبحنا لا نستغرب أن نراها مرات ومرات. بل قد نغضب إذا لم نشاهدها مرة في الأسبوع.

وتداعى الناس إلى مشاهدة " السيد " وكما قالت إعلانات الفيلم أنه قادم لتوه من الخارج.

ومهما يكن فقد كان الملل من اللاشيء يدفعنا لمشاهدة أي شيء.

وتكاثر الناس واختفت التذاكر لتصبح بعد دقائق تباع في السوق السوداء. بضعف أسعارها ولكننا وجدنا مكاننا في البلكون الصف

الثاني في الوسط وبجانب المشى. وكالعادة كان سكان الشارع الرئيسي من مدينتنا يحتلون البلكون وكان بجانبهم كبار الموظفين والمدراء وكبار محتلي مقاعد المقاهي الرئيسية. وتلاحظ أن كل واحد منهم. أي مشاهدي الفيلم في البلكون كانوا في ملابس شبه نظيفة وفي أيدي بعضهم مجلات أو صحف. بينما كان أصحاب الصالة من سكان الشوارع الخلفية والأطفال وبائعي المشروبات والشاهي والسجائر وعمال المطاعم والبلدية والأشغال.

ودوت فوق سماء السينما أصوات مرتفعة ومتناقضة فصوت الموسيقى المنبعث من ميكروفونات الجدران. بعضها عربي وبعضها هندي وأحياناً لا تستطيع التمييز بين هذا أو ذاك. خليط عجيب من الموسيقى والصخب والصراخ والنحيب ومع كل هذا أصوات الناس وهم يتكلمون بأصوات مرتفعة فلا تسمع سوى هدير عجيب وغريب.

وكالعادة تأخر البدء في العرض من البداية دقائق ثم تحولت الدقائق إلى أرباع وأنصاف الساعة ثم بدأ الصفير من الصالة وتجاوب البلكون بسرعة وبدأ الناس في دق الأرض بأقدامهم وضرب الكراسي. وكالعادة أيضاً لم تستجب إدارة السينما للجمهور. وكان لديها برنامجها الخاص والذي بموجبه تسير. دون أن تهتم بما يريده دافعي النقود للدخول والمشاهدون. وفي الثامنة وبضع دقائق انطفأت الأنوار وخفتت الأصوات، وبدأت عروض متفرقة من الدعاية، أفضل سجائر في العالم. مصفف الشعر المدهش. هل قلت نعم بعد؟ تمتع بالمشروب المنعش تبعتها الأفلام التي ستعرض قريباً " حسناء ووحش ". المليونيرة اللعوب، لا تقتل ولدي. رحلة إلى المجهول. مجموعة بعد أخرى تجعل الرأس يدور مع الموسيقى في الشراب المنعش وأجسام في قمة النشوة مع الرقص. ثم الشراب

اللذيذ وهو يغادر الثلاجة لتلتقطه شفاه المرأة؛ وتتأوه الجماهير.
لا فرق بين صالة ويلكون ويصفر معجب بشدة ويصرخ آخر:
- يا رب..
وتعود الأضواء اللعينة من جديد وتنقطع أحلام وكابوس الدعاية وتندفع موسيقى متوحشة من المكرفون من جديد. وتتناغم مع أصوات الناس. شاهي لبن، سندويتش جبنة، مشروب كولا، استيم كندا، لبن بارد، شاي، سجائر.و.و..
وتحرك البعض إلى الخارج، وتحرك الآخرون إلى الداخل، وتلفتت الأنظار إلى فوق.. إلى أعلى إلى ركن النساء، وتأوه البعض، ثم بدأ الملل من جديد، وصفارات من تحت. وضرب من الكراسي من فوق وضحكات..
وانطفأت الأنوار من جديد. وبدأ الفيلم..
بدأ الفيلم بداية عجيبة. فبدلا من أن يبدأ بأسماء من مثل وأخرج ووضع الحوار وألف الموسيقى رأينا فجأة صراخاً. ثم خيولا تجري في ميدان وأخيراً معركة في الظلام، كان القتال بشعاً لا ندري مع من، وضد من؟ ولكن العيون وحدها تبرق في الظلام. وإسعاف جرحى ونزع موتى. ورؤوس تتدحرج. ودماء تتدفق. ثم انكباب خيل أبيض وأضاءت السينما أنوارها ونحن نسمع حشرجة الفيلم عندما وقف.
تلفت الناس حولهم باستغراب. قال البعض لعله خطأ فني، وقال آخرون هكذا تبدأ الأفلام الأجنبية، تدخل للموضوع مباشرة، ثم يبدأ بالإعلان عن اسم الفيلم ومن مثل وأخرج وساعد.
وقال آخرون لننتظر لنرى، فالفيلم سيبدأ بالتأكيد بعد قليل.
وانطفأت الأنوار من جديد، وبدت على الشاشة أسماء.. ولكنها كانت نهاية الأسماء وليست بدايتها، فقد اختصروا موضوع اسم الفيلم وأبطاله وكان يبدو على الشاشة الآن فقط الممثلون الثانويون أو ما يسمونهم بالكمبارس ثم قفز الشريط ولم يوضح

من أخرج الفيلم قفز إلى سهول الأندلس الخضراء وغاباتها وتلالها البعيدة.

كانت الصورة رائعة ومثيرة وجالت في خيال من قرأ عن تاريخ العرب بالأندلس أحداث تاريخية خصبة ومر شريط سريع، والصورة هي الأخرى تتنافس في الروعة والإبداع، جداول ماء تترقرق، وشلالات، وجبال خضراء وأشجار. ثم فرسان يروحون ويجيئون وأعلام ترفرف ثم مباني ضخمة جداً وقلاع.

وسمعنا صفيراً حاداً أعقبه صفير آخر ثم آخر وآخر وخرجنا من تلك الصور السماوية والألوان العذبة والمليئة جمالاً.

- ماذا حدث؟ هل هناك خطأ. وسمعنا صياحاً من تحت.

- الصوت.. الصوت.. ما فيش صوت يا ناس.

وعلق البعض من البلكون.

- ولكنها بداية الفيلم. ولا داعي للصوت الآن، سيأتي الصوت حالاً، وكانت الصور تتابع، الآن اقتربت من الأسوار ودخلت إلى داخل القلعة، الأعلام ترفرف من كل جوانب القلعة، والجنود يروحون ويجيئون، ثم ملابس مزركشة، وبدأ حديث، كان الصوت معدوما فعلا فالحديث الذي نراه هو تحرك الشفاه ولكن لا صوت هناك.

وبدأ الصغير من جديد أقوى من قبل، وصاحب الصفير ضجيج وأصوات.

- يا ناس، الصوت، ما فيش صوت.

وقالت أصوات أخرى.

- طيب فين الترجمة، ما فيش ترجمة.

كانت كل التعليقات تأتي من تحت، والصفير أيضاً أما من فوق فقد بدأ تململ واضح وسمعنا همسات.

- انتظروا قليلا، وأصوات أخرى تقول.

- لماذا الاستعجال، ربما هناك خطأ.

لكن فريقا من الجالسين فوق بدأ يتخذ خطوات التأييد للناس الذين هم في الصالة فارتفعت اصوات احتجاج ثم صفير وأخيرا صوت غاضب.

- وقفوا الفيلم!! نشتي نسمع.

وكان الشريط يدور حول حوار لامرأة ورجل في موقف غرامي والشفاه تتحرك بسرعة ولا ترجمة للحديث على الشريط.

- طيب ترجمة يا ناس.

وصفير حاد يأتي من تحت، وأصوات غاضبة:

- يا عالم، يا خيرة الله، نشتي صور.
- دفعنا فلوس علشان فيلم، مش صور.

وتوقف الشريط فجأة، وسمعنا صوت الحشرجة يحدث في الآلات ثم اضيئت الأنوار من جديد.

- الحمد لله.
- الآن بايصلحوا الفيلم.
- بس بسرعة:

كانت هذه الأصوات التحتية، أما البلكون فقد بدأ حوار بين بعض صفوفه.

- يظهر الفيلم مش مترجم.
- كيف يجيبوا فيلم وما فيهوش ترجمة.
- أيش هذا الاستغلال للناس.
- يفتكرونا خريجي بريطانيا نعرف عنجليزي.

وسمعت ضحكات هنا وهناك، ثم انطفأت الأنوار والشاشة لا تزال بيضاء، ثم اندفع شريط ضوئي من نافذة الآلة وأضيئت الشاشة، وسمعت أصوات بطيئة في البداية ثم أصبحت مسموعة ولكنها كانت كلها بالإنجليزية.

- إن هناك مؤامرة تحاك لإسقاط الأمير وعلينا أن نحذره.

- لا فائدة لقد انتهى كل شيء. والأمير لا يستمع لنصيحة المخلصين.
- ولكن كل شيء سينتهي ويقذفون بنا إلى الخارج.
- علينا أن نرتب أمورنا بحيث أن نجعل القادمين أصدقاء لنا.
- ولكن هل نتخلى عن الأمير.
- ما دام قد تخلى عن نفسه فلماذا نرتبط به.

كان الحوار مستمراً، والصوت واضح جداً، ولكن الصورة غير موجودة على الإطلاق فقط شريط متقطع من الضوء ينبعث من آلة السينما بين فترة وأخرى.

- علينا أن نغادر القلعة بسرعة.
- هل أخذت كل محتاجاتك.

ثم صرخة وصوت آخر.

- هناك متآمرون في القصر.
- بل أن القلعة تسقط. إن " السيد وجنوده قادمون .
- وهل الأميرة في جناحها؟ .
- لقد فرت الأميرة عندما رأت الأضواء من جيش العدو المحاصر للقلعة إنها تحب " السيد ".
- يا إلهي... إنها النيران تشتعل حولنا، هلموا.

وبدأت الأصوات تنطلق من جديد من تحت وكل واحد يصفر بقوة، وإذا فشل فيعود إلى الكراسي يضربها بقوة.

- فلوسنا يا سرق.
- بانكسر الكراسي.
- بدلوا الفيلم. مانشتيش فيلم.
- مرة صورة ومرة صوت، هذا ضحك على الدقون.

ومن المكروفونات سمعنا صراخ وضربات سيوف وصهيل خيول.

وصوت جهوري:

الله أكبر . الله أكبر.

ثم اندفاع شديد لخيول تجري بأقسى سرعتها والصفير يزداد حتى أصوات الكراسي وهي تئن تحت ضربات المتفرجين.

وأصوات من فوق تصيح.

- يا إدارة السينما صلحوا الفيلم.
- وإلا رجعوا فلوسنا، مانشتيش فيلم.

ومن تحت:

- نشتي فيلم عربي، نشتي فيلم عربي.

وأضيئت الأنوار من جديد.

كان الوقت قد تقدم، مضى أكثر من ساعة ونحن بين شد وجذب، صورة واضحة وجميلة ولكن دون صوت، أو صوت واضح وقوي، ولكن دون صورة.

غادر بعض الناس السينما في صمت لم يستطيعوا أن يتحملوا الانتظار وعذابه، بينما أصر الآخرون على الاستمرار، مع الصفير، والصراخ والمطالبة بعودة نقودهم. وأما البعض الآخر فقد استمر في تكسير الكراسي وكنا نستمع بين لحظة وأخرى إلى قعقعة كرسي وهو يتحطم تحت ضغط شيء ما.

وإدارة السينما مصرة على عدم الاستمرار في الإضاءة والإطفاء.

- يا عالم ما نشتيش سينما. هذه سينما لصي.. طفي هذه سرقة، سرقوا فلوسنا.

والكراسي تنكسر والناس يغادرون عندما يشتد بهم اليأس، وآخرون مستمرون.

وصاح أحدهم في الناس.

- يا ناس طيب بس نشتي نشوف الصور... بس الصور، الصور مليحة والله العظيم.

وأجابه صوت غاضب.

- روح بيتكم وشوف تليفزيون.
- وقال آخر: نشتي نرتاح على الأقل.

وصاح آخرون: نشتي فلوسنا.. نشتي فلوسنا.. نشتي فلوسنا.
وعاد الصوت الأول:
أعقلوا يا ناس ما حد بايرجع الفلوس، خلونا على الأقل نشوف الصور.
- نشتي صورة، نشتي صوت، نشتي صورة نشتي، صوت، وتحولوا إلى جوقة تردد شعارها بهستيريا واضحة، كانوا من مشاهدي الصالة، وبدأ البعض في البلكون يرددون نفس الشيء ولكن بحماس أقل.
والإدارة مستمرة في عمليتها، بصبر وأناة وعدم مبالاة، صوت واضح ثم ينقطع وتضيء الأنوار وتنطفئ بعد دقائق لنرى صوراً واضحة ورائعة ولكن بدون صوت لتعود الأضواء من جديد وهكذا دواليك.
وغادر أناس آخرون السينما، واستمر آخرون وعادوا إلى نفس الحوار القديم، صور بدون صوت، إلا الاثنين معا، والكل يعرف أن الإدارة لن تعيد لهم نقودهم.
والوقت يمضي أكثر من ساعة قد مضت ولا جديد، وفي كل مرة يحاول عامل الآلة أن يخلق شيئاً ولكن دونما فائدة. والفيلم مستمر والصور تتجدد باستمرار ولكن لا ترابط بينها والأصوات أيضا لا رباط يربطها.
- لقد هرب الأمير ويحاول أن يجمع المسيحيين للقتال.
- نحن لا نقاتل على أساس مسيحيين أو مسلمين نحن نقاتل من أجل بناء هذه البلاد.
ولكن العصابات تتجمع والجبال تحتضنها.
- لهذه البلاد رب يحميها وسنقاتل من أجل أن نعيد مجدها.
وبدأت قناعات جديدة سواء في الصالة أو في البلكون، فالذي سئم يغادر والباقين بدأوا يقتنعون بالاستمرار مع نوع من الاحتجاج أحياناً وخاصة عندما تكون الصور متباعدة بعضها عن بعض ومسار القصة يبدو واضحاً.
- طيب على الأقل نشتي نعرف القصة.

- أيوه والله أيش القصة.
- ايش عرفنا ما دام ما فيش صوت.
- ولا ترجمة.
- من منكم عرف؟ من منكم عرف؟

كان الأصوات تخفت أكثر، وأكثر صفير ضعيف، واحتجاج أضعف، والفلم مستمر، صوت بلا صورة وصورة بلا صوت، ولا ترابط بين الصوت والصورة أو الصورة التي بعدها.. وعندما شاهدوا كلمة النهاية عرفوها. جميعاً.

وأضيئت الأنوار ولم تنطفئ من جديد.

يا أخي اتخارج

كان ذلك في الصباح، وكنت متعباً ولم أذهب لعملي، ولأتأكد من أن الأطفال مع أمهم سيذهبون لمنزل جدهم وسأظل وحيداً أتمتع بيوم عادي، بعيداً عن الصراخ واللعب والعمل.

ولم يكد الجميع يغادرون المنزل حتى أسرعت إلى فراشي، كان الوقت شتاءً وبرد الصباح قارساً وكان الفراش دافئاً.

ومضت دقائق ورحت أمني نفسي بيوم رائع من الهدوء والتفكير. وربما حاولت القراءة التي انقطعت عنها منذ سنوات بعيدة. فكيف بالله استطيع القراءة وحولي أربعة من الأطفال الواحد منهم سوق كامل من الإزعاج مع أنني أعود من العمل متعباً مرهقاً.

وسمعت طرقات على الباب، بدأت هادئة وتحولت إلى نوع من الإصرار الغبي.

ظننت أنه أحد من الجيران ربما يبحث عن شيء. ولكن الصوت كان غليظاً كئيباً، شعرت بقشعريرة، وقمت وأنا ألعن هذه المحاولة التي تبدو من البداية أنها فاشلة وتمنيت لو أن زوجتي والأطفال لم يغادروا المنزل.

فتحت الباب كان واقفاً هناك. بندقيته تتدلى من على كتفه، مئزر مرتفع كأنه " ميني جيب " وعلى رأسه عمامة تطاول السماء وكان حافياً.

وفاجأني بصوته الغليظ.

- هيا جاوب الدائرة.

وتمتمت بهدوء.

- خير إن شاء الله.

قال وهو لا ينظر إلي.

- قلنا جاوب

ولكن لماذا؟ وما الأسباب!

وصرخ.

- عاده بيسأل، هيا بلا غنج.

وشعرت بالدماء حارة. وذهب البرد وصككت الباب في وجهه وأنا أقول:

- قول بالله وأترك المصايحة ما في بيني وبين أحد أي شيء.

وعاد الدق عنيفاً هذه المرة. وكان صوته هناك يزمجر وشعرت أنه يحاول كسر الباب.

عدت إلى فتحه ولم أعد أسمع شيئاً واضحاً. كان يصرخ والتقطت كلمات :

- هذا يلعن الحكومة.. يهين ممثل الدولة اشهدوا يا خلق الله.. يقفل الباب في وجه الحكومة.

وتجمع الأطفال في البداية ثم النساء وبدأ بعض الرجال ينظرون إلينا في فضول، ولم يتركني أتكلم هذه المرة فقد أمسك بتلابيب قميصي وحاول أن يسحبني إلى الخارج وصحت وقد فقدت هدوئي.

- اشهدوا يا مسلمين، هذا يعتدي على بيتي، اشهدوا يا خلق الله، ما عد في حرمة للناس في هذه البلاد.

وكان هو بدوره يصرخ.

- لما تهين الحكومة، من جالوا لأبوك. ما تفتكر نفسك؟ من أنت؟

وتدخل الخلق بيننا. وكانت الكلمات تتطاير من هنا وهناك والكل يريدأن يوجد حلا للإشكال. دون أن يكون قد تبين أو تفهم ما يحدث.

ووجدت نفسي بعد فترة حائراً تماماً فالمبادرة أصبحت في يد صاحبنا العسكري وأصبح المظلوم هو والناس كلهم يراجعونه ويرجون منه أن يكون طيباً معي.

وسمعت أصوات تقول:

- أذهب معه إلى الدائرة.

- لماذا تخاف من الذهاب.
- أنه يمثل الدولة ولا بد لك من الذهاب.

وصحت فيهم:

- يا ناس.. يا خلق الله.. أنا مظلوم ما بيني وبين أحد أي خلاف أو مشاكل وهذا العسكري يدق علي الباب من الصباح ولا أدري السبب.

وصاح صاحبنا:

- لما تقفل الباب، من أنت؟ ومن تكون حتى تعاند ممثل الدولة، وإلا فاكر أنه ما فيش حكومة.. والله لولا هؤلاء الناس كنت أبصرت ما بفعل بك.

وتدخل الناس مرة أخرى.

- هيا يا فارع.. هيا نذهب سوياً إلى الدائرة وننظر ما هناك.

ووجدت نفسي بملابس النوم أسير مع العسكري وكان يسير أمامي منتصراً رافعاً رأسه إلى السماء والناس خلفنا والأطفال يصفرون ويضحكون.

وصلنا النقطة ووجدت نفسي بين مجموعة من زملاء صاحبنا وعرفوا ما حدث فإذا بي أصبح لعبة في يديهم كل واحد يقذف بي إلى مكان ولم نصل إلى المسئول إلا وقد أصبحت في حالة يرثى لها.

وصاح فيهم:

- ماذا هناك؟

وقال العسكري.

هذا رفض يجاوب يا فندم وسب الحكومة وأهانني قدام الناس، وأشار إلى الناس الذين أقبلوا معنا.

ودون أن يسأل أحد صاح بي.

- من تظن نفسك، هيا هيا دخلوه الحبس وقيدوه وتقاذف بي العسكر من جديد، وتدخل بعض أهل الحارة عند المسئول، وعند الله وعندك، وهذا راجل طيب، وصاحب جهال ويمكن كان تعبان،

وهذا ما بقصد، وو.. واقتنع المسئول، وأعادني إليه وقد أصبح القيد في رجلي وتمزق الثوب.

وقال لي المسئول: هيا ما أسمك؟

أجبت: فارع علي سعيد.

- قال وما السبب في رفض الوصول؟

قلت- والله ما رفضت بس قلت أنه ما في بيني وبين أحد مشاكل واستغربت أن يطلب مني الوصول دون أي سبب.

والتفت إلي العسكري.

- وما تشتوا منه.

أجابه العسكري:

- يا أفندم أنت طلبت أن نحضره إليك.

وأستغرب المسئول.

- أنا... كيف..

وجعل يفكر.. وقال أخيراً آه..

وجعل يبحث عن شيء أمامه ثم قال:

- طلبت منكم أن تحضروا فارع سعيد علي صاحب المجزرة والذي اشتكوا منه الناس أنه يبيع البقري ويقول أنه رضيع.

والتفت إلى وقال: أنت جزار؟

- وصحت بأعلى صوتي:

- يا ناس وأنا والله ما كنت جزار طول عمري أنا صاحب دكان في السوق والناس تعرف هذا.

والتفت إلي العسكري وقال: كيف هذا؟

أجابه العسكري ببساطة:

- يا أفندم سألت عن فارع سعيد وقالوا لي هذا وأشاروا لي على بيته.

صاح المسئول: ولكني قلت لك أنه في المجزرة.

قال العسكري: والله ما أدري سألت وقالوا لي هو هذا. وأشار عليًّ من جديد..

فبدأت همسات بين الحاضرين وكدت اسقط من الأعياء.

وأخيراً قال المسئول:

- هيا فكوا له القيد وخلوه يذهب وأشار إلي، ولكن العسكري قال:

- والأجرة يا أفندم؟.

أشار لي المسئول وقال أدفع الأجرة وحق فك القيد وتوكل على الله وحاولت أن أنطق ولكن أحد الناس الذين حضروا معي من الحارة دفعني إلى الخارج.

وقال واحد منهم هامساً: يا أخي اتخارج وأتوكل على الله؟

الأطفال يشيبون عند الفجر

الظلام أسود أسود أسود والليل بارد بارد بارد والأشباح تملأ المكان، خوفاً وطلقات بعيدة تردد الجبال والوديان صداها، الأسلحة تجمدت فوقها الأيدي، الدم الحار التحم بالقصب البارد، حبات الرصاص كانت دافئة مثل القلوب القليلة التي تخفق في الربوة.. الليل طويل، طويل، طويل، والدقائق دهور والساعات عصور هل يدرك أولئك معنى الموت؟

الأعين تدور بامتعاض عن المدينة التي تقبع وراءهم، الربوة تشرف على سهل والسهل أجرد أغبر- ألوان الموت- لا لون آخر للسهل كل شيء أغبر الناس. والتراب، والصخور، والشجر القليل المتناثر- العيون تتعود على الظلام لكن البرد يجمد الرؤيا، ولكنه لا يبلد الإحساس، كانوا سبعة وضابط كانوا نعم سبعة وضابط... ولكن هز الليل رأسه بهزء.

سبعة أمامه بلون الظلام والبرد يضحك باستهزاء وهو ينخر عظامهم التي لم تستطع ملابس الجيش القليلة أن تحمي اللحم الذي يغطي العظام. علب مبعثرة بعضها مليان والبعض الآخر فارغ وما داخل العلب يثير الغثيان بعد أن جمده البرد. كانوا يأكلون حتى لا يموتون جوعاً كانوا يعرفون تماماً أن الموت قادم لكن لا يريدون الموت جوعاً، ولذا كانوا يأكلون في زاوية الخيمة. نعم كانت لهم خيمة قديمة من بقايا ما تعطف به الصليب الأحمر ذات يوم ليوضع في مناطق دافئة تحمي المرضى من أشعة الشمس ولكن الذين في المدينة يفهمون الفرق بين خيمة وأخرى ولذا كانت الرياح قد مزقت الخيمة ولم يبق منها سوى نتف ترفعها الرياح لتذكر المجموعة بأنهم لا يزالون فوق الربوة، بجانب الخيمة كوم من الكدم يكبر كل يوم لأنهم لم يتعودا طعم الكدم الذي يشبه بقاياهم التي يتركونها في أي مكان. كانوا سبعة

وضابط. الدفء الوحيد في الخيمة هو أنهم جميعاً معا انتقلت السيجارة من مكان إلى آخر، وضوءها الخافت تخفيه أيديهم لئلا يكتشف العدو مكانهم، ولكي تدفئ الشعلة أيديهم المتجمدة. كان الوقت نهاية ديسمبر وبعد دقائق سيحتفل العالم كله ما عداهم بقدوم عام جديد. أما السبعة والضابط فلم يكونوا يعرفون في أي يوم هم وماذا يعني عام جديد مضى عليهم منذ أن احتلوا هذه الربوة، ويقوافيها أسبوع وهم يهاجمون كل ليلة ولم ينهزموا فقدوا الكثير وعددهم سبعة وضابط برتبة ملازم ثان، ولكن هنا لا يمكن أن تجد فرقا بينهم فكلهم لم يعرف الحلاقة بعد، ولم يتعد أكبرهم السادسة عشرة الضابط نفسه كان بالأمس طالبا في الكلية، وهو الآن يقاتل منذ أن بدأ الحصار. المدفع أمامهم صغير في السن أيضاً. تسلموه قبل شهر وكان في صندوق. لم يمض على صنعه سوى سنين في مثل عمر أصغرهم ولذا فهم من جيل واحد، وكانوا جميعاً يحبون مدفعهم ويعتنون به وخاصة عندما يقهقه في وجه العدو يتمنى كل واحد أن يقهقه معه. لا قمر في السماء والليل بارد، والظلام أسود، وقلوبهم دافئة أما أيديهم فقد تجمدت على الأسلحة، تأخر العدو هذه الليلة كما تأخرت المدينة خلفهم من تزويدهم بالأغذية والمؤن وعيونهم تخترق الظلام وتمسح السهل الأغبر تحت الربوة سيسقط الجبل غداً بيد زملائهم وعندها لن يكون لمدفعهم فائدة عسكرية، وسيعودون إلى مواقع أخرى، أو إلى المدينة كان أصغرهم في الحاديه عشرة- أسمه علي، هو من عتمة. انضم الى المقاومة الشعبية قبل عام وقاتل في عدة مواقع وكان يريد أن ينام. ليحلم بالبقر والغنم التي تركها وهرب. كان راعياً لكنه مع ذلك مثله مثل بقية زملائه السبعة رعاة من أبناء فلاحي عتمة وريمه وحراز وكان واحد منهم من صنعاء واسمه يحيى، كان لصا قبل أن ينضم إلى المقاومة (وكان يعرف كل سجون صنعاء. الرادع بقى به سنة، والقلعة تردد عليها

مرات، وسجن الداخلية والمباحث الجنائية والمركز وكل السجون فقد كان لصاً.

منذ أن بلغ السابعة ومارس مهنته بجدارة حتى بلغ الثانية عشرة وقبل الحصار حمل البندقية: سرق مرة وهو يحمل البندقية وقال انها سرقة شريفة- فقد سرق مسدس أحد العقداء عندما هجم العدو وهرب العقيد.. ارتمى في الخندق وبدأ يزحف بعيداً ورأى يحيى مسدس العقيد وبعد لحظات ورغم تناثر الدانات على الموقع كان المسدس قد اختفى- أما العقيد فقد حمدالله على نجاته عندما وصل إلى صنعاء- وبعد أيام كان في مهمة إلى الخارج. وبقى المسدس مع يحيى فترة ثم باعه ليشتري له ولبعض زملائه ملابس للشتاء القارس فوق الجبال. حتى الضابط قصته عادية سوى أنه أفضل من البقية لأنه يعرف القراءة والكتابة- درس حتى المتوسط. ولم يكن يقرأ سوى بعض الكتب الدينية- وبعض الجرائد- غير أنه في الفترة الأخيرة بدأ يعرف أفكاراً جديدة لم يكن يدري أنها موجودة، وكان أحياناً يقصها لجنوده وهذا ما جعلهم يعتبرونه منهم خاصة وأنه لم يهرب من أي معركة مثل بقية الضباط.

قال يحيى بصوت هامس لماذا تأخروا الليلة؟ وأجاب علي وصوته ناعس: ربما ناموا. تحرك الضابط نحوهم وقال: لدي إحساس بأنهم يدبرون شيئاً، تجمعوا في حلقة، وكانت عيونهم تخترق الظلام ولم يكن (البرد يعني شيئاً). تحدث الحرازي وقال. اسمعوا لا بد أنهم يريدوننا أن ننتظرهم بينما هم نيام، وعند الفجر يهجمون ونكون نحن في إرهاق. فنظر الضابط في ساعته وكانت في منتصف الليل أصدر أمراً بأن ينام النصف ساعتين وأن يبقى النصف في يقظة لم يكن علي يحتاج للأمر فقد كان يحلم بأمه وهي تسقيه قهوة حارة أعادت لخده الحرارة ورسمت ظل ابتسامة فوق شفتيه.

استقبل العالم العام الجديد وفوق الربوة التي تبعد عشرين كيلو متر من صنعاء كان سبعة وضابط يخفيهم الظلام، ويحتويهم البرد، لا يعلمون بأن عاماً جديداً مر بجانبهم. هناك بالمدينة كانت بعض الأنوار. وكانت قوارير تثير الدفء وكؤوس ترفع. ولقد لاحظ أحدهم بضعة منازل أطفأت أنوارها الدقيقة ثم عادت من جديد للنور. يحي يدمدم بصوته الحنون أغنية اللصوص الأطفال التي تردد نحن في السجن. ويده على المدفع وعينه فوق السهل الأغبر. في أنفه حاسة لص وفي سمعه يقظة كلب الحراسة ومضت الساعة بعد الأخرى. وفجأة توقف غناؤه وتقدم يكلم الضابط وقال: أنهم قادمون رغم أن الكلمة قيلت همساً إلا أن الجميع تقافزوا.. النوم كان حلماً عابراً ومضى، وأخذ كل منهم مكانه. قال علي وهو يطرد النوم بعنف. لا أسمع شيئاً. أجاب يحيى: نعم لا أحد منكم يسمع ولكني أحس بهم.. السيارات تدفقت قبل قليل اعتقد أنهم على بعد بضع مئات الأمتار يتقدمون من عدة اتجاهات أنصتوا أنهم حفاة تماما، لم يخنه حدسه مرة ولذا كان رادار المجموعة.

أصدر الضابط أمراً. لا تطلقوا الرصاص حتى يكونوا على بعد أقدام ونستخدم عندها القنابل اليدوية ثم بعد ذلك أصلوهم بالرصاص. في يد كل منهم قنبلة أصبحت جزءاً من اليد الباردة، لكنها أصبحت حارة.

الدماء تثور في الأعماق وتنفجر والليل ينظر إلى الأرض تحته بغباء مرت عليه مئات السنين وهو يشاهد مناظر مختلفة لكن سبعة من الأطفال مع ضابط لم يحدث ذلك من قبل. وبدأ الانفجار يهز الليل بعنف مات الظلام وانتحر البرد وهو يشاهد النيران حوله تحرقه بعنف ولم يصدر من السبعة والضابط صوت بينما الصراخ يرتفع بعنف من الجانب الآخر. كانوا كثرة أكثر من مائتين رجل وكانوا يحيطون بالموقع- من كل جانب وفوجئوا بالقنابل

تتطاير حولهم، ولعلع الرشاش، وانطلق المدفع. سقط واحد من السبعة فصمت ولم يطلق صوت ألم، حتى الطلقة وهي تخترق الجمجمة لم تصدر إلا صوتاً خجلا وهوت قنابل يدوية بينهم وكانت أكياس الرمل حولهم في الخندق تحمي البعض، ولكن الشظايا أصابت بعضهم وكان الرصاص يتطاير من كل جانب حتى أولئك الذين كانوا عندها يحتلون الجبل قالوا أنهم شاهدوا نهاراً في قلب الليل وسمعت أصداء المعركة حتى صنعاء نفسها:

كان بابا نويل يوزع هداياه في بقاع بعيدة، في (العالم) وقال طفل: انه يريد بندقية لأن بندقتيه ذابت من الرصاص. وأهداه بابا نويل رشاش زميله القتيل. ويقال أن ذلك حدث عندما كان بابا نويل يمر فوق المعركة، لكنه كان حزيناً طوال تلك الليلة في كل بقاع الأرض وسأله أحد الأطفال عن سبب حزنه فلم يجب إلا بكلمات قليلة أن الأطفال في اليمن يشيبون مع الفجر. ولم يعرف الأطفال ماذا يعني بابا نويل. سقط الضابط أيضا بعد ساعتين من القتال. وبقي مع إشعاع الفجر الأول اثنان علي العتمي ويحيى اللص. كان مدفع يحيى حاراً، وكان الرصاص قليلاً، فقال سأقتصد وكان علي قد جمع حوله بقايا القنابل. ألقي جزءاً ليحي وقالا سنقتصد وجمعت كل الرصاصات وكل الأسلحة. يحيى أخذ الجانب الجنوبي وعلي كان في الجانب الشمالي وكان العدو قد تراجع منذ قليل وقال قائدهم جبناء موقع كهذا تفقدون فيه كل هؤلاء الضحايا ولا تحتلونه: فقال أحدهم: نحتله كيف وشياطين الخيمة كلها تقاتل هناك ضدنا. فقال القائد (إما نحن وإما الربوة) عار أن نفقد قتلانا ولا نحتل الموقع. وتناثرت القنابل. وكانت هذه المرة قليلة ولكنها مركزة ولعلع الرصاص. ولم يعد الليل بارداً ولم يعد الظلام أسود. كان الشفق محمراً في الأفق. وقال أحد الأعداء أنه شاهد الشفق يبكي في قلب

الشمس قبل أن تشرق، وكان البرد قد خجل من قسوته وحمل دثاره ومضى. كان حزين يبكى قسوته فالربوة وتحت خيمة لم يبق منها سوى أعمدتها. وتحت الأكياس كانوا (سبعة وضابط). الدماء بركة حمراء وكانت أيديهم على البنادق، والمدافع ولم تكن هناك ذخيرة. وغطى العدو وجهه وهو يشاهد الأطفال أمامه. فوق شفتي يحي حزن مؤلم لأنه لم يقاتل حتى ينهيهم. وفي شفتي علي ابتسامة لأن أمه كانت تسقيه كأس من لبن الغنم وأما الضابط فقد كان فاتحاً ذراعيه ينظر إلى السماء طالباً أن تحفظ أطفاله الذين هم في مثل عمره. تجمعوا حول المكان ولم يصدق أحد ما يراه. كانوا سبعة من الأطفال وضابط وقد شابوا عند الفجر ومن يومها لم يمر الشفق فوق بلادنا.

أصدقاء الرماد

تعز. الأضواء الخافتة، والجبل الذي عانق السماء وتحته المدينة تعتلي صهوة التلال. متى كان للطبيعة هذه الروعة، وتقدمت أصبحت المباني تقبل أقدام صبر.

الكثير تغير.. ولكن الناس لم يتغيروا.

المستشفى الرابض كحيوان ميت، أصبح جثة هامدة وأصبحت رائحة العفونة تزكم الأنوف.

الوجوه هناك كئيبة حتى وإن لم تكن مرضى. أما المرضون فوجوهم ناعمة وأجسادهم تزاد ترهلا.

- هل ستذكرني عندما تعود؟
- سأكتب لك باستمرار.
- لا أعتقد؟
- لن أنساك، سأفكر فيك كل لحظة وثانية وسأعد العدة للزواج، المنزل والأثاث وتذاكر الطائرة لكي تأتي.

ضحكت وقالت:

- دعنا من الأحلام، فهذه آخر ليلة نقضيها معا ولن أراك ولكني لن أنساك. حاولت أن أفهمها بأنني أحبها وسأتزوجها حتما لكنها لم تصدق، لم ترد أن تصدق.
- اللحظات تمر، وطائرتك ستقلع بعد ساعات هلا صمت وأعطيتني كل ما أريد لكي لا أنساك.

❖❖❖

المدير ينظر إلي بوقاحة، قال لي بالأمس:

- دكتور... أنت في اليمن.

أدركت بعد وقت ماذا يقصد، أوقفت أحد المرضين عن العمل لبيعه علاجا لمريض، وطالبت بطرده من العمل.

قلت لزميل قديم:

- كيف تسكتون على هذه الفوضى.

نظر إلي في عجل ومضى متمتماً.

- ستألف كل شيء مع الزمن.

لم أقتنع.. كانوا ينظرون إلي بكراهية. أصبحوا أعداء.

وكانت العفونة تملأ المكان. وبقايا قسم الجراحة قد تكوم في زاوية القسم. وكان المرضى صفر الوجوه، فيهم من الموت أقرب أكثر من الحياة.

قال البروفسور:

- دكتور أهنئك إنك قد قمت بعمل مجيد وناجح طوال فترة العمل معنا بعد تخرجك.

شكرته بفرح وبدون كلمات.

- أرجو أن تحمل حماسك هذا وإخلاصك إلى بلدك. فهم يحتاجون إليك هناك.

وبدت لي اليمن، رائعة، حلوة، مليئة بالعمل وحلمت بأن الناس يتهافتون طالبين العلاج لأمراضهم خرجت من غرفة البروفيسور، وكانت هناك في انتظاري.

- ماذا قال لك؟

- هنأني وشعرت بالفرح.

- إنك تستحقه فعلا.

- إنك تجاملينني.

مضت معي وهي تلبس معطفها الأبيض وقالت:

- لأنني أحبك.

نظرت إليها بحب، ووددت لو أقبلها بعنف في ردهة المستشفى.

ولكني قلت.

- ستفرح أكثر عندما نتزوج.

ضحكت. وقالت:

- لا تحلم كثيراً.

قال المدير:- فرق بين الحلم والواقع. هذه هي إمكانيتنا ولا نستطيع التغيير. وإذا كنت غير مقتنع بما لدينا فإنني أستطيع أن أخدمك بطلب نقلك إلى مستشفى آخر.

صدمتني الكلمات وقلت.

- لكن.. الأرقام في ميزانية المستشفى ضخمة... وتستطيع سد كل فراغ... وطلباتنا متواضعة فعلا، أنا لا أطلب المستحيل، علينا فقط أن نتعلم كيف نوقف السرقات والرشوات وبيع أدوية المرضى... و...

قاطعني المدير منهمكا.

- والاختلاسات أيضاً ما رأيك. تستطيع أن تقول الكثير.. ولكن هناك فرق بين الواقع والحلم ولا تنسى أنك لا تزال جديد ها هنا.

لمحت في نظراته الملل والضيق. غادرت غرفته وقد ملأتني الكراهية لكل ما في مكتبه.

قابلني زميل قديم.. مضيت معه وأخبرته بما سمعت هز رأسه وقال:

- كلنا مررنا بهذه الفترة من الحماس. ثم وصلنا إلى قناعة سخيفة تقول.. أنه ليس في الإمكان أبدع مما هو كائن.

قلت بحماس:

- ولكننا نستطيع التغيير لو تكاتفنا.

- مجرد كلمات.. الحماس وحده لا يكفي.

قلت لها: علمت من صديق يعمل هنا بأن الحكومة تعطي كل طبيب منزلا لائقا بالمجان.

قالت: ثم ماذا؟

قلت: سأعمل على إعداد عش هادئ لنا ثم أرسل لك برقية.

قالت: هكذا ببساطة؟

قلت: إنك تهزئين دائما.

قالت: كلا... ولكني أفكر.

لا منازل فارغة لدينا.

- ولكن لدي أمر من المحافظ.
- كل المنازل قد أخذت... بعضها أخذت بالقوة.
- ألا يمكن إيجاد منزل آخر.

في نظراته نوع من عدم الاهتمام.

- لا تتعب نفسك يا دكتور.
- لكن كل زملائي تحصلوا على منازل مفروشة.
- إذا استطعت أن تأخذ منزلا حكوميا حتى ولو بالقوة فلن نعارض.
- أنا أطالب بما هو حق لي.
- وأنا أقول لك خذه إن استطعت.

قام من مقعده وغادر الإدارة، تركني حائرا كالأبله.

أقبل ممرض طردته قبل أيام. نظر إلي وابتسم.

قال: دكتور أنت لا زلت شابا وجديدا هنا، الأفضل أن تعايش الناس... وإلا ...

قلت وإلا. ماذا...؟

قال وابتسامته ما زالت طرية:

- ستتعب كثيرا، ولن تجد من تعالجه و...

صفقت الباب في وجهه. وكان لا يزال ينظر إلي وفي عينيه نظرة رثاء.

قال المحافظ: أمرنا الخزانة بصرف راتبك.

قلت: لقد مضى أكثر من ثلاثة أشهر ولم استلم شيئا، والإدارة ترفض حتى إعطائي سلفة. والفندق يطالبني بدفع الفواتير. ولم أجد منزلا رغم كثرة الأوامر منكم. كما أن الممرضين يحاربونني في العمل وكل ما حولي هو الفوضى الكاملة.

ضحك وقال: أنت في اليمن وعليك أن تتأقلم.

تقدم رجل منه وقدم ورقة.

حاولت أن أواصل الحديث لكنه فتح مع الآخر حديثاً، مضت أكثر من ساعة والناس حوله كالذباب. والأوراق تتناثر فوق مكتبه وقلمه لا يكل عن العمل. الكل مظلوم. والكل له قضية. رائحة المكتب خانقة فالنوافذ مغلقة وشعرت باختناق. غادرت المكتب دون أن أستطيع إكمال الموضوع.

همس رجل في أذني:

- دكتور أنت طيب ولكنك متحمس أكثر من اللازم.

حاولت أن أتذكر أين رأيت وجهه لكنني لم استطع.

- سأتزوجك حتما حتى ولو كلفني ذلك حياتي.
- أعرف مقدار حبك لي، ولكن عليك أن تفرق بين الحب والواجب.
- أنت طيبة مثلي، وهناك سيحتاجون إلى كلينا.
- ولكني لا أعرف الكثير عن بلدك، والحياة ليست مغامرة.
- لكن الحب يصنع المستحيل.
- فرق بين الأشياء، نحن في النصف الأخير من القرن العشرين.

ولكن...

همست وهي تقبلني:

- المذياع يعلن عن قيام طائرتك، أتمنى لك حظا سعيدا يا حبيبي وضعنا في قبلة وكان عطرها الذي عشقته كل حياتي يملأ وجداني.

الليل كئيب.. والسماء سوداء، والجبل يعانق السحب القليلة، وكانت الأنوار هناك خافتة.

خلت الشوارع من المارة بعد الثامنة. وأغلقت الحوانيت.. قليلون هم أولئك الذين يعودون إلى منازلهم بعد التاسعة.

كانت دوريات الجنود تنطلق بعنف في الشوارع الخالية: فكرت كم يصرفون من البنزين كل عام.

كنت أفكر، أصحيح أن عدد المرضى في بلادنا قليل وتذكرت أنني رأيت رتلاً من المرضى ينتظرون دورهم أمام عيادة طبيب إيطالي. وفي المستشفى لا يوجد أحد. حياني رجل مر بجانبي، وعرفت فيه صاحب النصيحة في مكتب المحافظ. وكانت على شفتيه ابتسامة ساخرة. عدت إلى الفندق جرياً. وأغرقت نفسي في قارورة ويسكي.

قابلته صدفة، صديق قديم لم أره من سنين. وأصبح موظفاً كبيراً. تعانقنا ودعاني إلى الغداء معه. استغرب عندما أخبرته أنني أعيش في الفندق. وقلت له أنني بدون راتب منذ أربعة أشهر.

قل لي: لماذا لا تراجع؟

ضحكت. تذكرت أنه قال مرة " أن اليمني حيوان مراجع " كان يومها لا يزال طالباً.

قلت له: الإنسان يمل الحياة هنا. أقبلت وكلي حماس للعمل، وفي أعماقي تنفجر قوة رهيبة للعمل.. والآن ماذا أجد أمامي؟ لا شيء؟ أذهب إلى المستشفى في الثامنة، وأغادر في الواحدة وطوال الخمس ساعات لا أعمل هناك؟! هل نحن فعلا دولة تبحث عن التطور؟ المفروض أن نعمل أكثر من تسع ساعات لكي نتطور ببطء. حتى في نهاية العالم الاشتراكي لا يعملون خمس ساعات في اليوم.

كنت متألما. ظليت أتحدث وهو ينظر إلي ويبتسم.

أمامنا قارورة ويسكي، ورحنا نصب ونصب، وعرفت أن لديه مشاكله أيضاً. وأنه فقد الحماس.

قال: كلنا هكذا نبدأ وننتهي مع السأم والبعض يهرب من جديد لعالم الدراسة. والآخرين يندمجون مع الواقع. والذين يرتقبون هذا أو ذلك يغرقون في الشراب أو ينتحرون أو يجنون.

ضحكت..

قال: سأحاول أن أعمل لك شيئا.

قلت: الكل حاول.. والكل فشل.

قال: لماذا؟

قلت: لأن المرضين، والسماسرة يحكمون في بلادنا.
ضحك.. وقال: هذا يوجد في كل مكان.
قلت: ألا تعتقد أنه يوجد أمل؟
من نظراته رأيت اليأس والاستسلام وانهارت في أعماقي قوة. وشعرت بسلاسل تقيد كل حياتي.
قال: الواقع في بلادنا مر.. ومن الصعب التغلب على المشاكل.. إن التخلف أقرب منا. وجذوره راسخة. والألعن أن التخلف قد تحكم في الناس فأصبحوا جزءا منه.
تركته وأنا أرثي لحاله فقد كان طيبا على الأقل.
ذهبت إليه في منزله. كان مريضاً بالسل. نحيلاً ويائساً وفقد القدرة على الفكاهة.
في غرفة قذرة كان يعيش. الحمام بدون باب، والرائحة لا تقل عن رائحة المستشفى. كان نائماً على سرير قديم وفراشه ممزق.
حتى عندما كان طالباً. كانت لديه غرفة أنظف من هذه. أعطيته حقنة. وكتبت له دواء. وتساءلت أمن أجل هذه الحياة كافح سنوات للدراسة والتخرج.. في غرفته مجموعة من الكتب مرمية بجانب السرير ومجلات وصحف. كان لا يزال شغوفا بالقراءة عندما ناولته ورقة الدواء ضحك وقال:
- من أين يا دكتور.
شعرت بغصة وقلت.
- سأحضر لك الدواء.
- شكرا.
قالها بألم.
كانت الغرفة مليئة بالرطوبة. غارقة في قاع الأرض، زقاق ضيق مليء بالقاذورات. وأطفال أشباه عراة يتقافزون هنا وهناك شعرت بأن مجموعة هائلة من الأمراض تخرج من ذلك المكان.

قلت: ألا تستطيع أن تجد محلاً أفضل من هذا. رأيت تساؤلا في عنينه..

- وكيف؟

كان قد طرد من أكثر من عمل. وسجن أكثر من مرة وتساءلت.. ألا يساعده زملاءه.. صداقاته على الأقل حزبه الذي كان بالتأكيد من أسباب المطاردة التي يعيشها. لكنني فضلت عدم الحصول على إجابة لا أحد يعرف ما يحدث هنا.

كان زميلا قديما.. طيبا ومرحا، لكنه فقد القدرة على المرح.

ترددت عليه أكثر من مرة، وأحضرت له الدواء وبدأ يسترد صحته

قال- كل شيء فاسد في عالمنا... حتى القيم.

كان قد بدء يشكو وكنت استمع فقط.

ومرة قلت له: حتى أنتم المناضلين سأمتم.

ضحك بضعف وقال: لا شيء يشجع على الوجود.

قلت وأنا أشير إلى كتبه: حتى هذه.

قال: لولا هذه لمت من زمن بعيد.. لم يبق معي سوى القراءة، فهي العزاء الوحيد. ولكني أحيانا أقول، ولماذا القراءة؟ أنها على أقل تنقلني إلى عالم لا زلت أحلم به وأتمنى وجوده.

صرت أزوره باستمرار. فقد كان مريضي الذي يحتاج فعلا إلى عناية.

بعد أن مضت ستة أشهر تسلمت معاشا. أما المنزل فقد قطعت الأمل في الحصول عليه. اكتشفت أنني لم أرسل رسائل إليها منذ شهرين.

قالت في آخر رسالة منها " أرأيت أنك بدأت تغرق في عوالمك الجديدة. لا بأس أنني أشجعك ما دمت تعمل وتنجح. وأتخيلك الآن وسط دوامة من العمل لا تترك فرصة للراحة أو الكتابة إلي.. وربما حتى لا تجد الوقت في التفكير في حبيبتك.. فالبلاد التي

مثل بلدك مليئة بالأمراض إلى درجة أن طبيب واحد ليعتبر كنزا كبيرا".

وضحكت بعد أن قرأت رسالتها، رآني زميل وقال: ما يضحكك هكذا؟

قلت: لا شيء.. نكتة قديمة تذكرتها الآن.

قال لي صديقي المريض يوما: دكتور كل هؤلاء النساء والأطفال حولنا أمراض.. المرض يفتك كل يوم بواحد .. الموت هنا أصبح شيئا عاديا.. الفناه من كثرة تردده علينا.

قلت: وألفت الفراغ من قلة تردد المرضى علينا.

قال: لا .. لا تصدق الناس تهرب من الدفع. كل شيء عندكم في المستشفى بواحد.. وحتى النقود رغم كثرتها لا تأتي بالعلاج.. ويا ليت أن، هذه النقود التي تدفع تذهب للدولة. لقلنا أن ذلك شيء لا بأس به، ولكن.. المرضى يدفعون، ونقودهم تذهب للفراغ. للمنتفعين، للصوص، وإذا لم يدفع لا يجد شيئا.. حتى رؤية الطبيب لا يستطيعها. البعض يفضل زيارة الدكتور في عيادته من أن يزوره في المستشفى. كل شيء لديكم بالنقود.. حتى الموت.. حتى الموت.

كان يتكلم بألم.. ألم رجل جرب وتعذب ولا يزال.

- دكتور.. المدير يريد أن يراك.

ذهبت إليه. كان في مكتبه يقرأ أوراقا أمامه.

قال عندما رآني وعلى شفتيه ابتسامة.

- تفضل يا دكتور.

جلست. في نظراته شيء من الانتصار.

قال وهو يقلب بعض الأوراق.

- لدي هنا أوامر من الوزارة بخصوصك.

توقف ونظر إلي بإثارة وكنت باردا. فقلت: نعم؟

قال: يقولون أن عليك أن تذهب إلى مدينة ــح‍ــ للعمل هناك.

قلت باستغراب. مدينة ـح- ولكن لا يوجد هناك مستشفى.
قال والابتسامة لم تفارق شفتيه.
تقول الوزارة أن "العامل" هناك طلب طبيبا للمدينة، وقد وقع الاختيار عليك.
- ماذا تريدني الوزارة أن أعمل هناك؟
قال: لا أدري كل ما في الأمر- إن الأوامر تقضي بأن تتجه إلى هناك من الغد وبالمناسبة فقد تم نقل راتبك إلى هناك.
لا جدوى.. تمت اللعبة. وسمعت همساً، وكانت الابتسامات تشرق على وجوه المرضين السماسرة. الأطباء لم يتحركوا وكان علي أن أغادر المستشفى.
ذهبت إلى المحافظ وعندما أخبرته بالنقل قال بفرح.
- ممتاز.. مدينة ـح- تحتاج إلى دكتور فعلا.
قلت: ولكن لا يوجد بها مستشفى ولا حتى عيادة، لا شيء البتة، لا أدوات طبية ولا علاجات ولا حتى مبنى.
قال: تستطيع عمل كل ذلك هناك.. أنت شاب ونشيط والكل يمتدح مقدرتك وكفاءتك وإخلاصك.
المنفى الجديد منفى رائع. الشمس حارة طوال النهار. والذباب أكثر من أشعة الشمس. والناس لا وجود لهم.
قال "العامل" أنه لم يطلب أحداً. والمدينة ليست في حاجة إلى شيء.. وأن لا أمراض هناك. وكان كل شيء حار وغال.
وكانت الرياح تحمل الغبار والتراب وتتجول بحرية في الأفق ومن خلال النوافذ.
شعرت بالخمول، لا أحد يريد شيئا هنا، أو ينتظر شيئا حتى الناس لم يصدقوا أن طبيبا وصل دون أن يحمل معه علاجات، وسرر، وفرش ومبنى.
وكان علي أن أعمل شيئا.. أي شيء، حتى لا أموت من الفراغ.

صنعاء مدينة مفتوحة

رواية

ترددت كثيرا قبل أن أكتب لك.. فأنا عادة لا أحب مطلقا أن أكتب.. حتى لأقرب الناس إلي.. ولكن.. هناك شيء ما يجذبني إليك .. لعلها صداقتنا التي ولدت في هذه الظروف الحرجة.. صداقتنا التي في عمر الزهور .. والتي أتمنى دائما أن لا تذبل.. بل أن تستمر يانعة مدى الحياة.

أن وداعك لي كان بمثابة انفصال قوي عن ذاتي.. فأنا لم أتعود أن أهب أصدقائي الكثير.. ولكن بطريقة ما أخذت معظم ما في داخلي .. بل أصبحت جزءا من نفسي.

كان الوقت عصرا والشمس تميل بقوة نحو المغيب ولكن الطبيعة أرادت أن تجعل وداعنا كبيرا لا يشمل كلينا فقط بل يشمل كل ما حولنا.. فبكت السماء بقوة وعنف.. وبكينا نحن أيضا.. ولا أدري أيضا لماذا بكيت لعلها إرادة السماء ومضيت بعيدا عني ورأيتك تنتزع خطواتك من فوق البرك والأوحال التي صنعتها الأمطار.. حقا وداعا لا أستطيع أن أعبر عنه.. وغبت عن ناظري وأنا لم أزل واقفا عند بوابة " حظيرة السيارات " في " دار سعد " وأحسست عندها أن فراقنا سيطول.. ولن يكون لمدة ثلاثة شهور فقط.ولكن كذبت نفسي.. وقلت سأعود لك قريبا .. بل قريبا جدا.. لنثبت صداقتنا وندعمها أكثر من ذي قبل.

ومضت بنا السيارة الكبيرة والأمطار تهطل بشدة وعجلات السيارة تغوص المرة بعد الأخرى في الأوحال .. والبرك .. وأخيرا في رمال الصحراء . وكان سفري تعبا فقد تركت المدينة والحياة الصاخبة والأصدقاء تركت كل ما كان يدفعني ويشعرني بالحياة، ولا أطيل عليك فلقد وصلت القرية بعد يوم كامل من الإرهاق. آه كم أتمنى أن لا أتذكره، لأنه يذكرني بواقعي القذر الذي أعيش فيه. ويعيش فيه كل أبناء وطني. ولكن مالي وما لأبناء وطني.. أنني أنا ؟؟ وأنا فقط من أهتم به .. ومهما كان الطريق غير ممهد.. والصحراء تأكل سيارة تلو أخرى والأمطار

غزيرة حتى أنها تغرق القرى وتدفع السيول التي تختطف الأطفال الصغار.. والكبار كما سمعت .. بل وكما رأيت بعيني في " وادي الصميتة "، ذلك الوادي الذي يشبه الجنة في هدوئه وجماله ذلك الوادي الذي يعيش ويعيش فيه سكانه " بصمت " حتى يخال إلى أن لا أحد يعيش فيه.

مهما كان فلقد وصلت القرية. كانت هادئة .. ميتة.. لا حياة فيها لأمثالي، وكان الفراغ يملأ حياتي كل يوم.. وكل ساعة. وأنا كما تعرف شاب مندفع لا يحب مطلقاً أن يعيش بلا عجل.. بلا حركة .. بلا خفة. وشعرت بالسأم بعد أيام قليلة من وجودي فيها. لك الله يا صديق كم أذنبت في حقي حين تركتني وحدي أسافر إلى القرية ناصحا أياي واصفا لي الهدوء الذي سيعيد إلي حياتي والأوقات التي قد تعيد لي ثقتي بالحياة كلا يا صديقي فالحياة التي تملأ حياتي وتعيد لي ثقتي بنفسي هي حياتنا نحن معا في العمل الحقير الذي نعمله وفي الساعات التي نقضيها معا في حافة ذلك اليهودي.. أو في بيت عاهرة طيبة وجميلة أو في الشاطئ الممتد إلى ما لا نهاية حيث أصوات الأمواج تطغى على همسنا وعلى أصوات أقدامنا التي تقذف بعنف إلى البحر بزجاجات الخمرة الفارغة التي خلفها في الليلة السابقة عشاق الوحدة وجمال الشاطئ .. مع نساء .. أو مع أنفسهم.. أو في ساعتنا على سرائرنا الخشبية في مقهى " الحاج علي " " الخساف " وقت الظهر ونحن نلوك بين أسناننا أعشاب القات الخضراء.. المصفرة نوعاً ما .. أو مع مناقشاتنا التي تخلقها فينا حرارة القات. تلك هي الحياة الحقيقية التي أريدها. أما هنا .. فلا شيء سوى النوم حتى منتصف النهار.. والكسل .. وتخزين القات وحيدا . حيث أنني لا أحب الذهاب إلى منازل الآخرين حيث يجتمع عشائر القرية ويتحدثون حديثا مسئما.. لا أعرف منه شيئا. حتى والدي.. ذلك الإنسان البسيط الذي كنت أحبه من قبل أصبحت أتحاشى

مقابلته كثيرا. خاصة وأنت تعلم موقفه من خلافي مع أخي " سيف ". أما أمي المسكينة فهي تعيش على هامش الحياة. لقد أصبحت يا صديقي عجوزا محطمة .. بل أنني أخاف أن تفقد بصرها. وهكذا ترى أن منزلنا أصبح يسوده الوجوم.. والحزن. أما زوجتي تلك الفتاة الجميلة التي همت بها حبا حين كنا نرعى الأغنام على جبال قريتنا.. والتي أثارت ضجة حتى تزوجتها.. قد أصبحت الآن عودا يابسا.. لا حياة فيه. أن أعمال المنزل المثيرة والمرهقة قد حولتها إلى مجرد آلة من أجل الآخرين. وكم حاولت أن أعمل من أجلها شيئا.. ولكن لا فائدة. أما أخي " سيف " فلقد هجر المنزل إلى مكان آخر مع زوجته.. بل وطالب بنصيبه من الأرض حتى يستقل استقلالا كاملا عن الأسرة. ولم أكن أحب ذلك مهما كانت خلافاتنا إلا أنك تعرف أخي.. جيدا.

وهكذا تراني يا صديقي لا أجد الحياة التي جعلتني أحلم بها والتي من أجلها أسرعت إلى القرية. القرية يا صديقي أصحبت كابوسا علي.. وأصبح وجودي فيها شيئا لا فائدة منه.

أما الناس .. آه لكم ظلمتني .. أنا لم أكن أريد أن أعود إلى القرية. حتى لو مات كل من فيها. ماذا يهمني منهم؟ ولماذا أعيش بينهم. الناس يا صديقي هم ناس بلادنا.. بدون تفكير بدون أمل في المستقبل.. بدون شيء. يأكلون القات .. مرتاحون ولا حديث لهم إلا عن " فلان " الذي عاد إلى القرية وبجيبه " الريالات " التي لا تنتهي .. وعن " فلانة " التي لاحظوا أنها تتزين وتلبس ملابس نظيفة.. رغم غياب زوجها عنها منذ سنوات أربع. أحاديث تصيبني بالغثيان كلما استمعت إليها. فأهرب من الناس.. ومن نفسي .. إلى الجبل. وهنا أجد لحظات جميلة .. سعيدة . لكن أيضا لا فائدة منها. بالأمس أدركتني الأمطار وأنا أنظر من " الاكمة " إلى الوادي الأخضر تحتي ومدرجات الزراعة تكسوها الأعشاب الخضراء التي بدأت تتفتح لموسم جديد ورأيت عدة فتيات في

الوادي يملأن جرارهن من الماء العذب. ولم أهرب من الأمطار. بل وجدت لذة لا حدود لها وأنا أرى الفتيات يتسابقن في الهروب والاختباء وابتسمت رغم أنني كنت مبللا والمياه تغمرني وشعرت بطفولتي كلها تتجمع وتجعلني أقفز وأجرى وألعب بالمياه ورفعت رأسي نحو السماء وفتحت فمي استقبل به مياه الأمطار قبل أن تصل الأرض. وقبل أن أعود المنزل بعد أن هدأت الأمطار رأيت فتاة كانت قد تخلفت عن العودة إلى منزلها تجمع قليلا من الأحطاب من فوق الجبل فداهمها المطر فاختبأت في بطن كهف. وكان من سوء حظي أو حسنه لا أعرف أن رأت الفتاة كل ما فعلته وحين قابلتها ابتسمت ابتسامة جذابة .. أحسست أن فيها نوعا من السخرية ولكني تجاهلت ابتسامتها ومضيت عائدا إلى المنزل.

مضى أسبوعان لوجودي في القرية وبدأ كل فرد منهم يتحدث عني. منذ أيام سمعت أحدهم يقول أنني أعامل والدي معاملة سيئة وأنني أرفض العمل معه في الأرض وأنني أيضا أترك كل تلك الأعمال لزوجتي. نعم يا صديقي أنا لا أعمل لأن العمل هنا يرهقني بل يقتلني. وليس ذلك فقط.. بل أنني قد أصبحت متهما من الجميع هنا .. لماذا ؟؟ أنك تعرف السبب جيدا. أنا لا أحب مجالسهم.. ولا أحاديثهم .. ولا أحضر معهم الصلاة في المسجد.. لأني لا أحب الصلاة حتى صلاة الجمعة .. وأني فوق ذلك كله.. أحب أن أكون وحيدا. بلا أي إنسان. أنني أكره أي كان منهم يحاول تعكير حياتي التي رسمتها.

أنهم يقولون أن " نعمان " بخيل وأنا لا أتصورني بخيلا مطلقاً. أنني بخيل بنظرهم لأنني لم أدع أحدا منهم إلى المنزل حتى ولا لأكل القات. ولقد حاولوا ذات يوم أن يعكروا الحياة التي رسمتها لنفسي . إذ أقبلوا جميعا إلى المنزل وفي يد كل منهم " عقارة القات " واستقبلهم والدي. وحين بحث عني كنت قد أخذت " قاتي " وذهبت إلى الجبل وحيدا.. وقضيت هناك يوما جميلا.

وهناك تعرفت على الفتاة التي أخبرتك عنها من قبل ولقد رأيت أن لها جمالا مثيرا.. أنها تقضي دائما ظهر كل يوم في الجبل تجمع أعواد الحطب اليابسة.. وكانت كلما رأتني ابتسمت وفي ابتسامتها أجد عالما جديدا في هذا العالم الذي أعيش فيه ولكنني كما تعرف لن أجعل علاقتي معها أكثر من تمتعي بجمالها. لأن الحب يا صديقي لا أعرفه.. بل لا أحس بوجوده. خاصة هنا في هذه القرية بعد تلك القصة التي أثارت قريتنا منذ خمس سنوات حين أصررت على الزواج واخترت زوجتي بنفسي.. لأني كما قلت في ذلك الوقت كنت أحبها. وتحت إصراري وثروتي تمت الزيجة. وكان كل شاب في قريتنا يحسدني لأنني تزوجت حسب رغبتي. وقال البعض أن حياتي المستمرة في المدينة قد جعلتني أشد تمسكا برأيي عن أن أوافق على رأي أهل القرية.

أما الآن .. فأنا لا أعرف ما هي تصرفاتي إزاء زوجتي. لعل أهل القرية على حق في قولهم أنني لا اهتم بها. ولكم تساءلت: لماذا لا أحاول خلق ذلك الحب القديم..؟ ويكون جوابي سلبيا في معظم الأوقات. لا تصدق أن في داخلي شيئا إزاءها. إنني أريد إنقاذها من الجحيم الذي تعيش فيه ولكني لا أستطيع فهي الإنسان الوحيد الذي يستطيع رعاية والدي ووالدتي.. بل أنني لا أغالي إذا قلت أنها أصبحت لهما أكثر فائدة مني ومن أخي " سيف " وهكذا ترى أن علاقتي بزوجتي أصبحت في حكم المقطوعة .. أننا لا نرى بعضنا إلا في ساعات المساء.. وأحيانا لا أراها طوال النهار.

أما والدي فقد أصبح المسكين لا يستطيع التحدث معي. إني أرثي لحال هذا الإنسان القوي.. الجبار الذي مارس حياة عنيفة في بلاد الآخرين حين كان في الخارج... أصبح اليوم إنسانا محطما لا يستطيع تقويم حياته هو وحده.

إنني يا صديقي لا أستطيع أن أجد لتصرفاتي تبريرا معقولا.. إن الفارق بين جيل أنتمي إليه وجيل سكان القرية هو السبب الذي

جعل حياتنا معاً لا تحتمل .. فلا بد لأحدنا أن يخلي السبيل للآخر.. ولن نكون نحن.

سأغادر القرية.. هذا هو شعاري. إن حياتي أصبحت لا جدوى منها هنا فلا بد من الرحيل .. ولا بد لي من ممارسة حياتي العادية.. انني لا أتصور أن " نعمان " الشاب ذو الخمسة والعشرين قادر على البقاء لمدة ثلاثة شهور بلا رفيق سوى الوحدة. وفتاة الجبل النارية الجمال أصبحت جزءا من حياتي .. أخاف منها اليوم أكثر من خوفي من الآخرين. إنها يا صديقي زوجة لأحد أصدقاء الطفولة.. لا استطيع أن أتخيل هذا الإنسان يترك مدة أربع سنوات جمالا بديعا كهذا الجمال. أنني أصبحت أقضي معظم وقتي فوق الاكمة أنظر إليها وهي تجمع الأحطاب وأتعمد أن أجعل عيني تلتقيان بعينيها.. وابتسم لها. ولولا خوفي من السنة الناس لتحدثت معها بل.. لقضيت معها ساعات جميلة. أنها في العشرين من عمرها.. سمراء بلون الأرض التي تعيش فوقها ذات شعر أسود كالليل .. وأنف مدبب حاد عليه سيماء الحزن الذي ترسله عيناها السوداوان الكبيرتان ذات الشعاع اللامتناهي من الحنان والرقة... وهناك شفتاها الصارمتان.. والرقيقتان معا. أما قوامها فلا أستطيع تحديدا له.. إلا أنه جميل.. رائع تحت ثوبها الأسود الحزين كحياتها.

لن أبقى لحظة.. سوف أغادر القرية.. سأعود إلى المدينة .. إلى الصخب.. والدفء.. والصداقة.. إلى الحياة التي تشعرني.. الإحساس بها...

اذن لقد تركتني .. لقد أحسست بذلك منذ أن ودعتني في ذلك اليوم الممطر. أتمنى لك حياة سعيدة أينما ذهبت.. أنني أعرف أن صداقتنا كانت من أروع ما عشته في حياتي. يا صديقي أبكيني اينما كنت .. لأنني أتمزق.

سأنهي إجازتي في القرية.. ولكن سأقفل منذ الغد باب الحجرة.. ولن أرى أحداً. سأظل أطل من نافذتي الصغيرة على العالم.. سأرى الأمطار وهي تتدفق فتمحوا كل ما رسمته أقدامنا من خطوط.. وأعلق نظري على أكمة الجبل حيث تجلس فتاتي الجميلة. نعم يا صديقي .. أنني أشعر أن بداخلي شيئا يتحرك شيئا سيحطم حياتي كلها.. وربما حياة من أعيش بينهم. ولكني سأستمر ولن أتوقف مهما كانت الخطورة. دعهم يتحدثون بما يشاءون. فليقولوا أن " نعمان " يعشق زوجة " درهم بكر " وليقولوا أنها أيضاً تعشقني.. فما دمنا كلانا نجد السعادة في أحضان.. الحب.. أو الخطيئة.. سمها ما شئت.. فلا يهمنا ما يقولون. لأن دماء الشباب الحارة المتدفقة لا يستطيع أحد أن يوقف تدفقها.

لم تخبرني إلى أين ستذهب للعمل. كل ما سمعته أنك ذاهب إلى فرنسا.. حيث وجدت لك عملا.. لا تنس.. واجعل رسائلك دائما مليئة بالحياة. وصف لي ما سيحدث لك فربما.. ربما فقط أهرب من حياتي هذه .. وأرافقك. ولا تنسى صداقتنا هذه لأنها ما زالت طرية.. كعود الياسمين لا تتحمل هزات الرياح البسيطة.

كل شيء يا صديقي صامت .. حزين.. كأنني في مقبرة .. وحولي شواهد القبور المخيفة.. كم أكره المقابر.. وسكانها. وداعا يا صديقي وبلل دائما خدك بالدموع كلما تذكرتني لأنني سأفعل مثلك.

لم يبق سوى شهران.. وأغادر الجميع إلى المدينة مرة أخرى. آه يا صديقي كم أنا مسرور.. وحزين أيضاً.. مسرور لأنني سأغادر " مقبرة الموتى "هذه، وأرى مدينة الأحياء من جديد، وحزين لأنني سأغادر فتاة الجبل السمراء.. وأقسم لك أننا لم نتعد مجرد الأحاديث في البداية. لقد كان كلانا خائفاً من " أفواه الموتى " التي لا تصمت والتي تصنع كل يوم قصة جديدة لتجدد إحساسها بالحياة.. على حساب آلام الآخرين. أن الحياة عند هؤلاء الناس

هي في موت الآخرين وأن الطيب لديهم هو من يسرقهم ويضحك على لحاهم البيضاء الوقورة. دعني أقص عليك حادثة بسيطة.. أضحكتني .. وآلمتني معا..

كان ذلك منذ شهر حين توقفت الأمطار فجأة وبدأت البراعم الخضراء تذبل.. وتصفر.. ثم يبس معظمها. وهلع الناس لتلك المصيبة التي حلت بهم وامتلأ المسجد ذات يوم بكل سكان القرية يصلون.. ويدعون.. كأن صلاتهم ودعواتهم .. ستنزل عليهم المطر. ولكن مضى أسبوع ولم تفد الصلاة. واجتمع ذوو الدقون البيضاء الطويلة والمسابح " الكهرمانية " الغالية ليقرروا قرارا هاما إزاء إصرار الأمطار على عدم نزولها. وقرر الجميع وسط بكاء النساء وضحكات الأطفال الذهاب إلى الأكمة.. مكاني الصامت الهادئ المقدس.. والصلاة هناك ونحر ضحية لله لينزل الأمطار من " بحر القدر ".. وذهبت الضحية إلى بطون الأطفال ولم تنزل الأمطار وابتدأ الهمس حتى وصل إلى سمعي. أنهم يقولون أن " نعمان " هو السبب في عدم نزول الأمطار. وخفت في أول الأمر.. ولكن القضية تافهة فلم أعرها التفاتا. ولكن فتاة الجبل السمراء قاطعت الأكمة.. لقد شعرت أن الأمر يعنيها أيضاً. ولكن بالرغم من ذلك لم تنزل الأمطار وأحسست بالشعور يملأني فرحا وأنا أرى هؤلاء الناس يولون بل وتصفر وجوههم.. وأفرح أكثر لمرأى الخوف البادي على تصرفاتهم. ولكني شعرت ذات يوم بأن المأساة تخصني.. حتى وإن كنت بعيدا عنها. وذلك حين عدت من " الأكمة " ورأيت زوجتي تبكي في أحضان أمي.. التي بدأ بصرها يكف أكثر وأكثر وسمعت أبي يحدثها قائلاً:

- لا فائدة منهم أن طلعوا رجال.. فليفيدوا أنفسهم على الأقل .. أما أنا فسأموت غدا.. ولا أحد سيذكرني.. وأرى أن موتي أمر محقق أن استمرت الحال علي ما هي عليه. وأجابته أمي والدموع تتساقط من عينيها الكفيفتين قائلة: لهم الله ولا كأنهم يعرفوننا

.. وسمعت صوت زوجتي ولكنه كان رقيقا هادئا.. كأنها لا تتكلم ولكن تبكي.. ولم أسمع ما قالته.. وصمت الجميع حين أحسوا بقدومي.. وماتت الكلمات وكدت أصيح فيهم:

- لماذا تتوقفون؟؟ استمروا في أحاديثكم.. العنوني.. ألقوا جام غضبكم علي.. اطردوني .. أنني لا أريد أن أعيش معكم..

ولكني لم استطع.. لأن الحزن كان قد بدأ يحتل مكانا في قلبي.. وخفت على نفسي أن انهزم لأن مشاركتي لهم في أي أمر معناه انهزامي وهذا ما لا أرضاه لنفسي.

المهم لم تسقط الأمطار طوال شهر كامل.. وشعر الناس أن المأساة قد أصبحت حقيقية وأنه لا مفر منها.. وهنا ترى الجشع يظهر لأول مرة.. فهؤلاء الناس الذين كانوا بالأمس أصدقاء يعيشون.. ويتحدثون ويصلون قد انقلبوا إلى أناس لا يعرف بعضهم بعضا. لقد كان كل واحد منهم يخاف أن يطلب منه الآخر نقودا لشراء حبوب لأسرته.. أو يسلفه قليلا من الحبوب المخزونة لديه. وصارت الأفواه التي كانت تنادي بالتعاون ضد الزنادقة والمارقين أمثالي، تنادي الآن بأن يجنبها شر كل الناس. آه لكم كنت أحب أن تكون هنا في القرية لعلك ترى كل ما دار وما سوف يدور. تصور أن والدي ذهب يطالب بعض الناس دينا كان عليهم فأنكروا.. بل أشد من ذلك أن شيخ القرية ذلك الحاج الذي زار بيت الله الحرام أكثر من مرة أنكر جميع النقود التي أرسلت معه من المهاجرين بقريتنا.. والتي هي مرسلة بواسطته إلى زوجاتهم وأولادهم. أن هناك عشرات غيرها من القصص.. التي تضحك وتبكي معا. لقد أراد والدي أن لا يجعلني أتحمل عبء الأسرة وحدي فكتب لأخي أن يرسل له قليلا من النقود حتى يستطيع أن يواجه المجاعة التي سببها عدم سقوط الأمطار.. ولكنه لم يرد بكلمة.. وهكذا كان علي وحدي تحمل كل أعباء المجاعة لماذا؟ لا أدري.

أن كل ما جرى يا صديقي شيء بسيط. فمنذ أيام فقط.. رأيت رجلا في حلة بيضاء وعمامة كبيرة تحيط برقبته سلسلة كبيرة من المسابح اللامعة وفوق وجهه لحية بيضاء كثة وتحت قدميه حذاء غريبة اللون.. ولم يثر في حين رأيته سوى السخرية تجاه هؤلاء " الدراويش " الذين لا عمل لهم سوى التطفل على الآخرين.
ولكن الذي حدث بعد ذلك بأيام كان مثيرا.. فقد ذهب ذلك الرجل إلى المسجد وأوهم الناس أن شخصا ما قد وضع فوق الاكمة " رسمة " فيها ورقة تمنع نزول المطر.. وأنه يعرف مكان هذه " الرسمة " أن دفع له مبلغ معين من قبل الجميع.. وكما تعرف وافق الجميع بدون تردد وكان الجميع مؤمنين بأنني أنا الذي وضعت تلك " الرسمة " فوق الاكمة لترددي كثيراً عليها وشعرت أن المسألة تمس كرامتي أنا أكثر من الآخرين.
وبعد أيام قاد الرجل جميع سكان القرية إلى الاكمة حيث طلب من الجميع أن يصلوا ويطلبوا من الله الرحمة. وبعد انتهاء الصلاة رايته يتمتم بكلمات ثم أشار إلى أن يأتوا بشيء ما وتبينت أن ذلك الشيء كان خروفا أبيض اللون تماما. وقبل أن يذبحه كان شيئا في داخلي يدفعني للاحتجاج فصرخت بالرجل:
- أنت كاذب.. ليس هناك شيء..
فنظر الجميع إلي في صمت ثم سمعت هدير الحاضرين.. ولكن الرجل ابتسم وهو يقول:
- أنا لا أكذب..
- أذن هل لك أن تخبرني كيف عرفت أن هناك " رسمة "؟
- الله يلهم من يشاء. وأشار إلى السماء في خشوع ثم سجد إلى الأرض ورأيت كيف طرف عينيه وهي تنظران إلي في سخرية.. كأنه يقول:
- إنك لا تستطيع عمل شيء

وكان موقفه التمثيلي ذلك سببا في أن سجد الحاضرين.. ذبح الخروف.. وشمر الرجل ساعده وبدأ يحفر .. ورأيت أنه يحفر بخطة مرسومة.. والجموع من حوله تنظر بلهفة خاصة الأطفال.. والنساء. بينما جلس الكبار يتمتمون.. وينظرون إلي بأطراف عيونهم.. وأخيرا أخرج الرجل من التراب شيئا ما.. وسجد بنفس حركاته التمثيلية وصاح:

الحمد لله.. الحمد لله .. أتى الفرج وضاعت صيحته وسط صيحات الناس الذين أدركتهم المفاجأة.

وضحكت في نفسي لأنني رأيت الرجل أمام عيني وهو يخرج تلك " الرسمة " .. وغمز لي منتظرا. ولم أستطع أن أجادله أمام هذا الجمع من الناس المؤمنين بكل ما يعمله.. ولكني تنحيت بفقيه القرية " الحاج جازم " وجعلت أناقشه في الأمر؟ قلت له: أنك رجل عاقل متعلم.. وأنت تعرف أن هذا الرجل يغش الناس ويسرق نقودهم.. هل يأمرك الدين يا فقيه أن تسايره فيما يقوله.

وهز الفقيه رأسه وأجاب: لا .. ولكن ما دام الناس يعتقدون ذلك.. فليس لدي حيلة..

- ولكن كيف تتركهم لنصاب..
- أنه يعرف ما يعمل.. ولا يستطيع أحد أن يناقشه..
- ولكن الأمطار لن تنزل لمجرد أنه أخرج شيئا ما من تحت التراب..

وأقسم لك أنني قد رأيته يدسها في التراب بعد أن أخرجها من جيب قميصه.. ونظر الفقيه إليه في حذر وقال: أنك تعرف ما يقوله الناس.. وأشار إلي محذرا..

ولكني أجبته بهدوء: إن كان الله يصدق كلام الدجالين فليس هو بإله.. وأنا أعرف تماما أن الأمطار لن تنزل.

وتركت الفقيه والناس والرجل يختلفون. ومضى اليوم الأول.. ولم تنزل الأمطار. وتبع الثاني وفي اليوم الثالث كان الرجل قد اختفى فجأة كما ظهر.. واختفت في جيبه أكثر من ١٠٠ريال.

ومضى الأسبوع وبدأ الناس يهمسون قائلين.. أن الرجل قد أخرج " الرسمة " من قميصه .. دون أن يراه أحد وبعد أسبوع ثاني كان الأمر حقيقة عند كل شخص في القرية.. ولكن بعد أن ذهبت الريالات إلى جيبه.

وهكذا لم تنزل الأمطار.. وازداد خوف الناس أكثر من ذي قبل وبدأ شبح المجاعة يعود إلى أذهانهم.. خاصة وأن مجاعة (١٩٤٨) ما زالت ماثلة في أذهانهم.. ولم يزل الكبار يذكرون كيف كانوا يأكلون " الحلص " وحده.. وكيف كانت حبة " الغرب " أغلى من الذهب.

وعادت الأمطار فجأة..

كان الوقت ليلا والقمر يرسل أشعته الفضية على قريتنا وعلى الجبال المحيطة بها فيصنع جمالا رائعا وهدوءا غريبا جعلني أحس " بالجمال " الحقيقي لطبيعة بلادنا. كنت جالسا أنظر إلى السماء وإلى القرية والجبال ذات المدرجات الزراعية البديعة الهندسة وبجانبي زوجتي تصب لي قحا من " القشر " وأشعة القمر تنعكس على وجهها الأصفر الضعيف.. فتبدو لي جميلة إلى حدود بعيدة وبدا لي ثوبها الأسود الحزين آية في الروعة والتناسق مع جسمها وأحسست أني أملك جمالا نادرا.. لم أشعر بوجوده من قبل. وبدون شعور وبعد أن غلبني سحر القمر والليل احتويتها بين ذراعي وقبلتها.. وأخذتها المفاجأة. فأنا لم أتعود أن أفعل ذلك. بل أنني لم أشعرها مرة واحدة منذ سنوات ثلاث بحبي لها.. فكان أن بكت. وشعرت بدموعها الحارة تلهب صدري.. وتدفئه معا وشاركتنا السماء في تلك الليلة وغمرتنا بدموعها. ونظرنا سويا إلى السماء ورأينا السحاب وهي تغطي شعاع القمر الفضي ثم وهي ترسل دموعها أكثر غزارة ولم نهرب.. ولكنا تعانقنا وتركنا الأمطار تعانق الأرض العطشى.. وتفعل ما تشاء.. وحين عدنا إلى غرفتنا كنا مبللين تماما.

يا صديقي.. أنني تائه.. لا أدري ما الذي أعمله. إن زوجتي ليست في جمال " فتاة الجبل السمراء ".. ولكنها بسكوتها وحزنها الدفين.. ووجهها الأصفر الضعيف تقلب حياتي رأسا على عقب. أنني أعرف آن حبنا القديم لن يعود إلى الحياة.. لأنه مات بعد زواجنا. لأنه كان مجرد رغبة عابرة انتهت. إن الزواج والحب في بلادنا.. ليسا سوى مجرد لعبة الرجل بالمرأة التي ليست سوى خادمة .. للأرض.. والبيت .. والزوج. إنها مجرد زهرة تتفتح قليلا ثم تموت.. حين ينهكها العمل. وكذلك هي زوجتي.. كانت ناضرة.. كزهرة.. فأصبحت الآن عودا يابسا. وأصبحت .. رغم أنها لم تتجاوز الخامسة والعشرين .. عجوزا .. كأنها على أبواب قبرها. إنها منهكة مريضة.. قل لي ماذا أعمل لكي أسعدها. أنها تحبني حبا حقيقيا عنيفا.. لا يعرف قيودا أو حدودا. لقد كانت تبكي فوق صدري ومياه الأمطار تغرقها وهي تردد اسمي نعمان .. نعمان .. نعمان. كأنه صوت موسيقي إلهي.. ذو نغم رائع. وحين عدنا إلى غرفتنا كان شيئا ما في صدرها يثقلها.. ويسرها معا..

وكانت كأنها تغالب شيئا ما.. ولكنها أخيرا قالت لي:

- نعمان.. إن في داخلي شيء يتحرك.

ونظرت إلي في عذوبة كأن ذلك الذي في داخلها يدفعها إلى الابتسام.. والرقة.. ولم أستطع أن أخفي سروري فعانقتها .. وغمرتها بقبلاتي.. أنني حائر ماذا أعمل..؟؟ أنقذني يا صديقي .. أنني الآن فقط أدرك إنني لا أستطيع أن أكون مسئولا عن إنسان أنا السبب في وجوده.. الا يكفي أنني أشقي في وجودي لأكون السبب في شقاء الآخرين.. ماذا أعمل؟؟ قل لي بربك.. الأمطار .. الأمطار .. لقد انقلبت إلى جحيم . كل ذلك التلهف والترقب .. والدعاء كله يا صديقي ذهب هباء.. إلا أن الأمطار لم تعد الخضرة إلى البراعم التي كانت قد بدأت تتفتح فوق المدرجات. بل لقد حملت تلك المدرجات ورصتها بعضها فوق بعض وحملت

الطينة السمراء إلى الوادي. لقد أصبحت الأرض الخضراء تسيل فوقها المياه. لقد خرب كل شيء وذهب تعب الأجداد في بناء هذه المدرجات.. ربما إلى الأبد. بالأمس خرجت كعادتي إلى الجبل رغم أن مياه الأمطار لم تنقطع منذ أسبوع.. ووجدت الطريق قد أصبح كله بركاً.. من الطين الذي حملته المياه من المدرجات ووجدت الجبل رغم أن مياه الأمطار لم تنقطع منذ أسبوع.. قد تغيرت كل ملامحه.. فأصبح مجرد أحجار صماء لا حياة فيها. ووجدت أن فتاة الجبل لم تكن هناك. وعدت إلى القرية التي لم أرها منذ أسبوع.. منذ بدأت الأمطار لبعد منزلنا عن القرية كما تعرف. أتدري ما رأيت؟ كانت خالية.. حتى الأطفال لم يعودوا يملأونها حياة بضجيجهم.. ولعبهم. بل أنني رأيتهم جالسين في وجوم ينظرون ناحية الجبل الصغير.. حيث المنازل القديمة. واستمريت في طريقي.. ووجدت أن جميع سكان القرية تقريباً قد ذهبوا إلى تلك المنازل القديمة النائمة في حضن الجبل الصغير. وأسرعت أنا أيضاً إليها. وسألت بعض من قابلتهم.. فقيل لي أن هناك منزلاً قد انهار بالأمس.. بفعل الأمطار. فالدار الذي انهار ليس فيه رجل واحد. إنهم كلهم في الخرج.. كمعظم منازل قرى بلادنا. هناك حول الدار المنهار رأيت النساء يبكين.. وجلس الشيوخ فوق عدد من الصخور يدعون "الله" أن ينجي المدفونين تحت الإنقاض.. وكان هناك خمسة رجال فقط "هم كل من تبقى في القرية" يعملون في شق طريقهم تحت الأنقاض بحثاً عن سكان الدار. وكان منظراً بشعاً صديقي أن أرى إنساناً يدفن تحت نظري.. بدون اختياره.. وخاصة إذا كان هذا الإنسان امرأة.. أو طفلاً. كسكان هذا الدار.. ووجدت نفسي قد حملت فأساً وجعلت أزيح الأحجار والأخشاب مع الآخرين دون أن يكلمني أو يلتفت إلي أي من الآخرين. وأقول أن هناك عدد من النساء عملن معنا ذلك اليوم أكثر مما عمل الرجال. لقد كنت أظن أن النساء ماهرات في جميع الأعمال ما

عدا الإنقاذ. ولكنهن خيبن ظني. أما لماذا عملت مع الآخرين؟ فهذا ما سأقوله لك الآن. إن الذي دفعني إلى ذلك ليس عملاً إنسانياً أحسست به فجأة.. بل لأن ذلك الدار الذي انهار يا صديقي هو دار "فتاة الجبل السمراء" تصور ذلك الجمال الإلهي وهو مدفون في داخل حفرة.. وقد تهشم كل ما هو جميل فيه. كلا.. إن مجرد تصور ذلك الآن أمر مفزع. إن مجرد سماعي إنها كانت في الدار حين انهار.. خلق في داخلي جديداً لا أعرفه. كان مزيجاً من الخوف.. والأمل.. وعملت كما لو أنني لم أعرف العمل من قبل حتى إن سكان القرية.. أكبروا عملي في ذلك اليوم.. ووصفني البعض أنني بطل.. لأنني أيضاً أنقذت رجلاً من الخمسة زلت قدمه.. وكاد أن يدفن حياً.. لولا أن سارعت بجسمي القوي وتلقيت الكتل الخشبية التي كانت تستعمل في حمل أسقف الدار.. وكان العرق يتصبب مني رغم مياه الأمطار والأوحال التي كنت أغوص فيها إلى منتصفي.. المهم.. لم يخرج من تحت الانقاض إنسان حي.. أما فتاة الجبل السمراء.. فقد كانت مشوهة حتى أنني لم أتعرف عليها.. لولا أنها كانت المرأة الثانية في الدار. وكان رأسها الجميل ذو الخدود السمراء.. المحمرة والعيون السوداء الكبيرة والشعر الغزير.. كل ذلك كان قد تهشم تحت صخرة كبيرة. وانبجست الدموع ولم أستطع ان أبكي.. رغم أن كل شيء كان يدعو إلى ا لبكاء. لعله التعب أو المنظر نفسه.. آه يا إلهي ما أبشع ذلك.

ودفن الجميع صباح اليوم. وسرت في الجنازة رغم أنني لم أنم بالأمس.. فقد استعدت كل ذكرياتي مع "فتاة الجبل السمراء".. كان لقاؤنا بعد تلك الابتسامة الساخرة . التي ألقتها عليّ حين كنت ألعب تحت مياه الأمطار . بأيام. وجدتها في نفس مكانها.. وقد بدت في أجمل صورها.. نعم يا صديقي كانت في ذلك اليوم جميلة إلى أبعد الحدود التي أتصورها للجمال. ولكني لم أحدثها

بل تركتها بعد أن ابتسمت لها ابتسامة كبيرة. وتعدد لقاؤنا.. وتعدد مع لقائنا.. اهتمامها بنفسها. فكنت أراها كل يوم أجمل من اليوم الذي قبله. وذات يوم.. وكانت الشمس ترسل أشعتها الذهبية في حنان.. والزهور الصفراء تتفتح مع تفتح أشعة الشمس.. وغناء عصافير صغيرة من فوق الأشجار بثمارها الناضجة.. تحدثت إليها.. كان حديثاً عادياً.. ولكن كان فيه انجذاباً.. ما.. سألتني قائلة:

كيف حال "هند"؟

قلت لها بحياء. صدقيني.. كان جمالها يخيفني.. ويشد لساني.

إنها بخير..

لقد سمعت أنها تنتظر مولوداً. ونظرت إلي نظرة فيها معنى كبيراً.. لم أدركه.. تسخر.. أم تتهمني بعدم اهتمامي بزوجتي؟؟

لم تخبرني بذلك.. ولعلها مجرد إشاعة.

ولكنها أخبرت جميع النساء في القرية..

وركزت نظرتها أكثر بحيث كنت كلما حاولت أن أنظر إليها أجد عينيها ترشقاني بنظراتها النارية.. وأكملت قولها:

لعل بينكما شيئاً؟..

كلا.. ليس هناك شيء.

لماذا تحاول أن تكذب.. إن الجميع في القرية يعرفون ذلك.. لماذا لم تعد تحبها..

وأحسست بأنني تلميذ صغير أمامها.. وأنني لا أستطيع أن أجيبها.. وبسرعة حولت الحديث وجعلت نفسي أنا السائل وهي المجيبة. قلت لها بدون أن أعير سؤالها اهتماماً وكأنني لم أسمعه.. متى يعود زوجك؟

وخفضت وجهها نحو الأرض.. وهي تجيب.

لا أدري..

ألا يكتب لك؟

كلا..

ألا تكتبين له؟

إنني لا أعرف أين هو حتى أكتب له.

ومن أين تأتيك المصاريف إذن؟

يرسل أخي لي أحياناً بعض النقود..

لابد إذن أن حياتك صعبة نوعاً ما..؟

وابتسمت.. لماذا تظن ذلك..؟

وهززت كتفي دون أن أجيب..

واستمرت تنظر إلى الأرض.. وتابعت..

إن حياتي ليست صعبة.. فأنا أعمل.. في الأرض وفي البيت.. وأجد لقمة العيش... دائماً.. كذلك أجد ملابس من أخي.. أو من والدي.. أما زوجي فأنا لم أعد أهتم به.. لأنه لا يهتم بي..

لماذا لا تطلبين الطلاق...؟

إن ذلك ليس بسيطاً.. لأن الأمر ليس في يدي. وهو ليس بالبساطة التي قد تتخيلها.

وعرفت ما تعنيه..

واستمرت علاقتنا.. نتقابل كل يوم ونتحدث.. وأخيراً كان ذلك الكهف. الذي عرف جزءاً كبيراً من أيام صبانا حين كنا نرعى. كان مكان لقائنا. وتمتعنا بالحياة. أقول لك الحق أنني شعرت بالمتعة الحقيقية مع هذه الفتاة أكثر مما عرفتها مع غيرها حتى زوجي. كنت يا صديقي امرأة محرومة من زوجها منذ سنوات. وأنا لا أجد ما أريده في المنزل. زوجتي في عملها منذ الصباح حتى المساء.. وأنا لا عمل لي منذ الصباح حتى المساء. وهكذا وجدنا أننا نستطيع أن نهب بعضنا السعادة. لقد كانت بداية علاقتنا.. علاقة بريئة.. ولكن لماذا لا تستعمل الفرصة.. وتتمتع. هل هناك مانع.. في داخل أنفسنا.. لكن كنا خائفين في البداية.. ولكن خوفنا تلاشى عندما أدركنا.. أنا سعادتنا هي فوق كل خوف..

والآن يا صديقي.. ماذا أعمل؟ سوى لن أذهب إلى ذلك الكهف الذي ذقت فيه أروع أنواع المتعة.. وأذرف الدموع لقد ماتت.. ويا ليت موتها كان موتاً عادياً.. بل لقد سلبها الموت أجمل ما فيها.. جمالها يا صديقي. الآن لو عرف سكان القرية علاقتنا.. لقالوا إن الآلة انتقم منها.. ودفنها تحت انقاض دارها.. أما أنا فإنني ألعن الأمطار في كل ساعة. وكل دقيقة.. لأنها سلبتني المتعة.

لقد عاد الفراغ من جديد.. أرجو أن أجد مخرجاً منه.. في العمل.. في الحقل.. أو في أي شيء. خاصة وأنني قد طلبت إطالة إجازتي حتى أستطيع أن أساعد والدي.. في إعادة بناء أرضنا من جديد.

عاد الجمال من "عدن" بالأمس وحمل معه أخبار كثيرة.. إضرابات العمال.. والمظاهرات التي قام بها سكان المدينة ومقتل طالب في السادسة عشرة من عمره في إحدى هذه المظاهرات.. ونزول قوات إنجليزية جديدة في المدينة.. وغيرها من الأخبار التي لا اهتم لها كثيراً. ولكنه حمل معه أيضاً رسالتين.. منك.. ومن "الصنعاني" إن رسالتك كانت رائعة حقاً. وأظنها ستكون مساعدة على جلوسي في القرية أكثر مدة ممكنة. أما الصنعاني.. لم أكن أتوقع أن أجد منه رسالة.. خاصة وأنه لم يكتب لي منذ مغادرتي "عدن" يقول إنه متشوق إلى لقائي. لعنه الله.. إنه منافق كبير.. كما تعرف. لقد فصل من عمله بسبب الإضراب الذي قام به عمال الميناء الشهر الماضي.. وكان هو من المحرضين على هذا الإضراب. إنه كما تعرف رجل فوضوي.. لا يهتم بشيء ما في حياته.. سوى النوم.. وأكل القات.. وشرب الخمر في حافة اليهود. إنه الآن ينافقني وأظن أن بينه وبين أخي "سيف" سوء تفاهم لأنه يمتحني كثيراً. وأنت تعرف موقفه من قضيتنا أنا وأخي.. وإنه كان من الواقفين في صفه لأنه أحد أفراد مجموعة "سيف" التي تقضي سهراتها الحمراء معاً.. في "السيسبان" عند "فاطمة".. خاصة بعد أن اختطفها أخي مني..

آه كلما تذكرت ذلك التهبت نفسي.. لقد هزمت في تلك المعركة. لا لشيء.. إلا لأن أخي كان يملك مبلغاً من المال لم أكن أملكه أنا.

لماذا أتذكر الماضي.. دعني أستمر في وصف الحاضر.. لقد بدأت الأمطار تقل تدريجياً.. لكن تهدم المدرجات الزراعية لا يزال مستمراً. فبالأمس تهدم أكثر من خمسين مدرجاً الواحد تلو الآخر. وأصبحت الأرض.. التي بجانب الجبل من الناحية الشرقية للوادي مجروفة بعد أن جرف السيل الذي نزل من قمة الجبل كل الطين الموجود في المدرجات.. وأصبح الآن العمل لا ينقطع.

لقد عاد "محمد مقبل" من "عدن" بعد أن سمع أخبار الأمطار ولكم سرني ذلك لأن وجوده بجانبي يساعدني على تحمل أيامي في القرية. ولو أن هذا العجوز سيكلفني يومياً ثمن "قاته" و "تمباكه". لكنه سيمتعني بأخباره ومغامراته. إنني لم أنس بعد أيامنا في "مقهاية الحاج علي" وهو يحكي لنا اشتراكه في "حرب الحبشة" مع ا لإيطاليين. إن هؤلاء المغامرين.. ممتعون حقاً. لو كنت رأيته بالأمس.. لقد كان يضحك من كل شيء.. رغم أن كل شيء يدعو للبكاء. لقد أخبرني بأن أخي "سيف" أصبح هذه الأيام لايذهب إلى العمل كثيراً حتى أنه قد يفصل. وأن فاطمة" قد استحوذت على كل ما يملك.. نقوده لها. لقد أصبح سبه. أما زوجته فقد عادت مرة أخرى إلى منزلنا بعد أن نفد كل ما كانت تملكه من حبوب. عادت مع ابنها الصغير.. واستقبلها أبي بدموعه. لقد بدأ منزلنا يترك صمته. ولكن بعد أن حدثت المأساة.

أن محمد مقبل يعيش معنا في المنزل.. فأنت تعلم أنه لم يتبق له أحد من أهله بعد أن ماتت زوجته . وهو في الحرب . وهاجر ابنه الوحيد بحثاً عنه. ولم يعد.. واستولت الحكومة باسم الوقف على كل أملاكه. أما داره فقد تهدمت.. إنه ينفعنا كثيراً فهو لا يسأم العمل مطلقاً. إني لأعجب كيف استطاع أن يحبس هذه القوة

العملية الخلاقة على مدى عشر سنوات في "عدن" بدون عمل.. إنه يبتسم كلما سألته عن ذلك ويجيب.. قائلاً: "نحن لا نعجز أبداً.. انظر إلى هذه القرية.. إن أجدادنا هم الذين حملوها إلى هنا على هذه المدرجات وهي رغم السنين الطويلة.. ما زالت شابة.. تنتج كل عام.. فلما تريدنا نحن أبناء هذه التربة أن نعجز. أنه ما زال فيلسوفاً كما أعرفه..".

لقد بكى والدي بالأمس.. وجعل يثني علي إليه. إنني في نظره قد خلقت من جديد. وكانت زوجتي تنظر إلينا.. وهي تبتسم من خلال دموع الفرح النازلة من عينيها. آه كم هي الحياة جميلة يا صديقي.. حين تعمل لقد كنت غبياً من قبل. ولكن هذه الشهور الثلاثة في القرية أعادت إليّ شيئاً من الأمل ماذا أقول لك يا صديقي هل أقول أن موت "فتاة الجبل السمراء" قد هزني من أعماقي. كانت جميلة.. وكنت أؤمن أن ا لجمال لا يموت. ولكنه مات. ووجدت أن الأشياء التي أومن بها تتحطم.. الواحدة بعد الأخرى. ذهبت مني "فاطمة" اختطفها أخي. واختطف القدر مني "فتاة الجبل السمراء" فلابد إذن أن أنتقم من ا لاثنين. بأن أعمل أن أعيد ما حطمه السيل.. أن ابني أرضنا من جديد.. ،أن أخلق في قلب والدي أملاً جديداً.. بأنني أعظم من أخي. دعه يموت هناك في المدينة.. دعها تحطمه.. إنها تنتقم لي بدون أن تشعر. آه يا "فاطمة كم أنت جبارة.. حطمية لا تتركي منه شيئاً..

آه يا عزيزي لماذا تراني أكره أخي كل هذه الكراهية. أفتاة تصنع كل ذلك؟ . أن "محمد مقبل" يقول لي دائماً " لقد مارست الحياة أكثر منك.. وأنا أعرفها.. إنها غدارة.. فلا تؤمن لها.. بل لابد وأن ننتزع منها المبادرة" كيف أستطيع أن أتحدى القدر.. نعم لقد وجدت الوسيلة.. أن أكره القدر.. أن لا أؤمن بأن هناك قدر. هكذا سأنتصر عليه. أن "محمد مقبل" يمثل المرأة بالحياة.. إنه يقول "إن الحياة غدارة يا بني. والمرأة كذلك فهي تبتسم لك

دائماً.. ما دام في يدك شيئاً. أما حين تكون فارغة.. فلا تنتظر منها سوى بصقة على وجهك: إنه على حق في نواح ولكنه مخطئ.. خذ مثلا زوجتي.. مهما عملت لها.. فلن تبصق في وجهي. لماذا؟؟ لا ادري.

وأخيراً سأودع القرية .. لدي ساعات قليلة قبل أن يحل الليل.. ففي الغد سأكون في السيارة في طريقي إلى " عدن ". أترى يا صديقي سأجد الحياة كما تركتها. إن "محمد مقبل " لا يريد أن يعود. أنه يبتسم لي دائماً ويمد يديه إلى الأمام ويتنفس بشدة ثم يقول: " اتريدني أن أترك كل هذا النعيم.. هذا الهدوء الملائكي لأعود إلى ضجة الشمس.. إلى الماخور. كلا .. إن المسجد سيكون مكاني المفضل.. سأعمل.. وسأعيش.. وسأموت.. في هذه القرية لن اتركها بعد الآن. لقد آمنت إن الإنسان يجد الهدوء في آخر حياته ".

وهكذا ترى أنني لن أجد في " مقهى الحاج علي " سوى الصنعاني وقد أجد أخي " سيف" كذلك . وسأحاول أن أكون طيباً معه. لأن الأشياء التي رأيتها هنا في قريتنا تحتم علينا أن نتحد. وهذا العام الذي مات فيه كل الزرع..وأصبح الخراب شيئاً حقيقياً والمجاعة شيئاً حقيقياً، يحتم عليه أن يشاركني في تحمل أعباء الأسرة.. أو على الأقل في تحمل أعباء ابنه وزوجته.

لو ترى الخراب الذي عم هذه الأرض.. لامتلأت عيناك بالدموع ولرثيت لحالة هذا الشعب.. الذي أنهكه كل شيء حتى حكومته. تصور.. وصل بالأمس إلى قريتنا أكثر من عشرة " عساكر " من " العكفة " مع " جابي الضرائب ". وطلب من قريتنا ضرائب هذا العام.. بل أنه طلب ضرائب الأرض.. وإنتاجها. أتتصور ذلك.. الناس لا يجدون نقوداً لشراء حبوب تقيهم عامهم القادم كله من

المجاعة والحكومة تطالب بضرائب زرع لم يجنوه.. وضرائب على رؤوس ماشية جرفها السيل ذات يوم.

آه لقد نسيت أنني لم أقص عليك هذه الحكاية من قبل، ففي يوم من أيام الشهر الماضي خرجت الأغنام والماشية مع صغار أطفال القرية إلى الجبل يرعوها خاصة وأن الجو كان صافياً نوعا ما.. ولم يكن هناك دليل على أن الأمطار قد تسقط. وغرهم الجو وجمال الوادي.. وخاصة وأن هناك بركة كبيرة صنعتها الأمطار. فنزلوا مع أغنامهم وماشيتهم إلى الوادي.. وذهبوا إلى البركة يلعبون ويسبحون. كان كل شيء عاديا.. الأغنام في وسط الوادي حيث وجدت الكثير من الأعشاب بفعل الطين الذي حمله السيل من فوق الجبل والصغار في البركة يسبحون.. والسماء صافية.. والجو هادئ. وبدون مقدمة سمع الأطفال هديراً صاخباً يأتي من الناحية العليا من الوادي.. وخرج الصغار من البركة هاربين إلى كل ناحية من نواحي الوادي. ولم يكن هناك وقت كاف ليسوقوا الأغنام والماشية من داخل الوادي. وأقبل السيل.. وفي مقدمته كانت الأشجار والماشية.. بل والأطفال الذين خطفهم من القرى الأخرى ومن ضفاف الوادي العليا. وذهبت معظم حيوانات القرية. وكذلك أخذ السيل ابن " علي الزغير " وابن " مقبل الحاج "الذين كان من سوء حظهما.. ومن إحساسهما بالواجب أن بقوا يكافحون من أجل إخراج أغنامهم وماشيتهم من الوادي. فكان أن ذهبوا أيضاً مع السيل.. حتى ملابس بعض الصغار لم يرحمها السيل. فعادوا " عرايا " يرتجفون من البرد والخوف.. وكانت دموعهم لا تهدأ.. ورغم ذلك فقد ضربوا كلهم في بيوتهم لإهمالهم. لم يفرح الآباء لعودة أبنائهم أحياء.. بل أن حزنهم على فقدان الماشية كان أكثر من حزنهم حتى على أطفالهم.. لأن الماشية تعتبر الآن وفي هذا الوقت من أوقات المجاعة .. عصب الحياة

الأول. وفقد سكان القرية لماشيتهم معناه فقدانهم الكثير من مقومات الحياة.

وهكذا ترى يا صديقي أن السيل .. والأمطار .. كانت لا تحمل الخير هذا العام. بل أنها كانت فظيعة.

بالأمس.. ودعت كل الأماكن العزيزة على نفسي " الأكمة " والكهف والجبل الذي تنام فوقه المنازل القديمة. ورأيت آثار الدار الذي تهدم.. وأسقطت دمعتين ومضيت إلى المقبرة. وكان ذلك بعد أن غربت الشمس وضعت على القبر وردة حمراء جميلة كانت تعشقها " فتاة الجبل السمراء "، فتاتي التي أخذتها الأمطار.. وتركتني أصلي من أجلها..

كل شيء هادئ الآن في القرية . الظلام يسيطر على كل شيء. ومن وراء الغمام يبدو وجه القمر ضاحكا.. مسرورا.. كأنه يقبل حبيبته. أرى أمامي المدرجات وقد بدأت تستعيد حياتها من جديد.. بعد صيف طويل .. شقي. وفي الجانب الآخر من السقف حيث أقف.. تجلس زوجتي تنظر إلي ولا تتحدث. أنها ما زالت صامتة كما أعرفها. ويدور في خيالي أمل.. في أنني قد أستطيع أن استقر في " عدن " هذا العام.. وأجد مكانا صالحا.. أخذ إليه زوجتي.. وأخلصها من عذابها .. الصامت. واسمع صوت والدي في " ألم " يستعجل أهل البيت في إنهاء ما قد أحتاجه في السفر.

أما " محمد مقبل " فقد انعزل هذا اليوم عني.. كأنه لا يريد محادثتي. لأن الوداع.. كما يقول صعب لا يتحمله. ولكن الحقيقة أنه يحاول أن يتركني وحيدا مع زوجتي. لعلنا نستطيع أن نتحدث بهدوء ونتساءل فيما نتحدث..؟ فلا أجد جوابا. كل منا جالس في مكانه صامتا ينظر إلى الآخر ثم يبتسم لعلها ابتسامة .. كئيبة.. يضعها كل منا حتى لا تدمع عيناه.

وداعا يا قريتي.. وداعا يا زوجتي.. وداعا يا كل أحبابي لن أنساكم .. مهما كان بيننا.. لأن المأساة الكبيرة تجمع بيننا.

اكتب إليك الآن من عدن.. حيث الحر.. والفراغ. أكتب إليك بعد أن نجوت من الموت بأعجوبة. نعم.. كل شيء في بلادنا أصبح هذه الأيام يؤدي إلى الموت. الأرض.. الأمطار.. الجبال. الصحراء وكل شيء.

بعد أن ودعت القرية وغابت عن ناظري كان معي اثنان أبيا أن يتركاني.. حتى أصل إلى الوادي. زوجتي ومحمد مقبل. كم كانت زوجتي رائعة. لقد كنت أرى الدموع تكاد تخترق عينيها الجميلتين.. الحزينتين. ولكنها بابتسامتها تحيل كل شيء كئيب إلى جميل. وكان حقا كل ما رأيته وأنا أغادر القرية كئيبا محزونا. كانت الأراضي تبدو كعجوز.. تحطم كل شيء فيها وبانت الأخاديد على وجهها.. بشكل بشع. وكانت الأشجار الجميلة التي تغطي مدخل قريتنا قد تحطمت بفعل الرياح والأمطار فنامت على جانبي الطريق كجثث القتلى بعد معركة رهيبة. والمياه.. تشق طريقها وسط كل شيء.. حتى الصخر. إن النعمة الوحيدة للأمطار.. هي أن كل امرأة تستطيع أن تأخذ ماءها من أمام باب المنزل.. بدلا من الذهاب إلى البئر.

وكان " محمد مقبل " يسير بجانبي يحدثني عن كل شيء. وأصبحت لأول مرة استمع إلى نصائحه. لأن في صوته كان ينمو شيء جديد.. ينبئ عن الحزن.. والألم. كانت التجربة التي يعيشها في القرية.. قاسية. لكنها بالنسبة له كانت درسا لأنه أصبح أكثر جدية من ذي قبل. أنني أعرفه في عدن.. يعلق على كل شيء.. ويجعل الأشياء الكبيرة تافهة. كانت له تجارب وتجارب كثيرة جعلته يمارس حياته ببساطة. وكنت أضحك منه من قبل أما الآن فكان حديثه جذابا لا يمل منه الإنسان.

وحين وصلنا إلى الوادي كانت مياه السيل هادئة لأن الأمطار كانت قد بدأت تهدأ. وكان في أمكان السيارات أن تمر وسط الوادي.. وأن تعاود نشاطها. خاصة بعد أن توقفت تقريبا خلال

فترة الأمطار الكثيرة. ورأيت في الوادي سيارة حمول كبيرة وقد انقلبت وغاص الجزء الأمامي منها في رمال الوادي وطينه وأصبح انتشالها أمرا صعبا.. لعدم وجود رافعات في بلادنا كلها.. لا في الوادي وحده. وإخراجها الآن يحتاج إلى أيدي عاملة كثيرة.. وصاحب السيارة لا يملك أجرا يدفعه لهذه الأيادي. وقد حدثني أحد الأشخاص الذين يعيشون على جوانب الوادي عن المآسي الكثيرة التي رآها. وخاصة هاتين الحادثتين اللتين أثرتا فيه كثيرا.. بكى من الأولى.. وضحك من الثانية. الأولى يا صديقي قصة رجل وطفليه. فتاة في السادسة.. وفتى في العاشرة تركوا منزلهم ليذهبوا إلى قطعة أرض يملكونها في الضفة الأخرى من الوادي حيث كان الوقت صباحا ومياه الوادي تترقرق هادئة.. حالمة.. وأشعة الصباح تغمر الكون.. بلونها الهادئ. ولكن الحال لم يكن كذلك في الشمال حيث كانت الأمطار تسقط بعنف.. وتتجمع المياه من الجداول الصغيرة لتلتقي أخيراً في وادينا الكبير. كان الوادي واسعا.. بعد أن جرفت المياه الأراضي الطينية التي كانت على جانبيه. ومر الرجل مع طفليه بالوادي وأراد العبور.. ولم يسمع صوت السيل الذي كان قد اقترب.. لأنه أصم. وقبل أن يصل الضفة الأخرى.. كان السيل قد بان في منعطف الوادي.. وكان أسرع من الرجل الذي أمسك أبنيه بين يديه وحاول أن يجري. وتعثرت رجل ابنه الصغير فسقط وأبتلعه السيل. ووقف الرجل بابنته مذهولا من الصدمة. ورأى ابنه يصرخ ويرفع يديه.. ثم يختفي لتظهر رجليه. وقذف الرجل بابنته وخاض الماء لينقذ ابنه. ولكن السيل كان قد اختطف الفتاة أيضا. وكانت مأساة.. أن تسمع الأبناء يصرخون بأبيهم.. والأب يصارع الماء أيضا ولم تنته القصة هنا. فقد مات الأب.. ومات أبناؤه. وسمعت الأم بالقصة فتركت كل شيء لتقذف بنفسها في السيل.. لعلها تلحق برجلها وأبنائها.

أما القصة الثانية.. فقد حدثت في اليوم التالي حين كان الوادي ممتلئا. وكان قد قلب إحدى السيارات التي كانت في طريقها إلى " المصلى " تحمل " أتناك " مليئة بالجاز. وحملت المياه هذه التنك معها. وكان على الشاطئ أحد " الأخدام " فرأى تنك الجاز تتدحرج فوق المياه. وكان لا يخاف السيل.. مثل كثيرين من " أخدام " بلدنا. فغاص حتى منتصفه يلتقط التنك ويخرجها إلى الضفة ويتركها.. ليعود يلتقط غيرها. وكان كلما ازدادت عدد التنك التي يلتقطها.. ازداد طمعا في أن يلتقط غيرها.. خاصة وأن سعر الجاز قد ارتفع لانقطاع الطريق بين " عدن " و " الداخل ". وقبل أن يتم العشر تنك.. كان السيل قد التهمه. فقد شعر الرجل بالتعب فلم يستطع المقاومة والتقطت جثته في " **سوق السبت** ".

عادت زوجتي.. بعد أن وصلنا إلى الوادي. وتابعت المسير أنا ومحمد مقبل لنصل إلى " المفاليس " لعلنا نجد سيارة مسافرة إلى " عدن " وكان محمد مقبل صامتا طول الطريق ينظر إلى المياه.. ثم إلى الأرض.. والسماء ويتمتم بكلمات ثم يسكت. وتابعت تمتمته حتى أدركت أنه يقول: " إلى متى هذا العذاب يا رب "؟ ولم يكن يعني بالعذاب نزول الأمطار.. ولكنه كان يعني العذاب الكبير الذي كان السبب الأول لشقائنا.

ولم نجد سيارة في " المفاليس " وكان علينا أما أن ننتظر إلى أن تأتي إحدى السيارات.. أو أن نتابع سيرنا حتى (سوق السبت) لعلنا نجدها هناك. ولكني شعرت أن محمد مقبل لا يستطيع مواصلة السير.. فانتظرنا. وكان محمد مقبل ينظر إلى " الجمرك " ثم يبتسم ويعلق ساخرا: " أنها زرية حيوانات ". ثم يشير إلى الحمير الواقفة أمام الجمرك.. ويقول أنظر.. أنها اكسبرس اليمن.. السريع.. ويقهقه وأقبل أحد الجنود إلينا ثم حيا محمد مقبل

ومضى. ورأيت شعاع الغضب في عين محمد مقبل.. ثم بصق على الأرض. وسألته:

- هل تعرفه..؟

- لقد شرفني بمعرفته حين أقبلت من عدن.

واستمر يشرح لي الظروف التي جعلته يتشرف بمقابلة ذلك العسكري.

كنت قد تركت السيارة في سوق السبت. بعد أن عجزت عن مواصلة السير حتى المفاليس لوجود سيل قوي في ذلك اليوم. وكنت أحمل في يدي ملابسي القليلة وأبريق شاي كنت قد أخذته من عدن كهدية لك. وحين وصلت إلى المفاليس قابلني هذا العسكري وسألني: هل أتيت من عدن؟ وهززت رأسي إذ أنني كنت في غاية التعب. وحين أدرك ذلك تقدم مني وطلب أن يفتشني لأدفع الضريبة على ما أحمله. وشرحت له أنني لا أحمل سوى ملابسي وذلك الأبريق ولكنه رفض إلا أن يفتش وبدوري رفضت أن أسمح له. ونادى على زملائه العساكر.. حيث قادوني إلى بيت رئيس الجمرك فوق الجبل. وكنت متعبا جدا.. حتى أنني عندما وصلت هناك كنت أشعر بأنه سيغمي علي. ووقفنا أمام رئيس الجمرك الذي كان متكئا يمضغ قاته وأمامه " مداعة " كبيرة مزينة بأنواع من الرسوم. ونظر إلي باحتقار.. وأشار بيده إلى العسكري كأنه يسأل عن قضيتي. وأخبره بما حدث. فنظر إلي مرة أخرى ثم قال من وراء (القات) المحشي في فمه..

- لماذا لا تدفع له؟

وركز عينيه في وجهي وأعاد نفس نظرة الاحتقار. وأحسست بالكراهية تملأني.. وكدت أبصق في وجهه لولا أن العسكري كان واقفا خلفي..

- من أين أتيت..؟

- من عدن.

- ماذا تحمل؟

وأشرت إلى ما في يدي من أشياء..

- ألا تحمل غيرها؟

كلا..

- لماذا؟

وبحركة احتقار أجبته..

- لأنني فقير.. مشرد.

وابتسم ابتسامة نصر.. وهز رأسه مرات وهو يقول: أنكم دائما تدعون الفقر.. مع أنكم تملكون مال قارون.

وأجبته: نعم نحن لسنا فقراء.. بل أغنياء ولكن الآخرين.. والآخرين دائما.. يسرقوننا بأسماء كثيرة.. و.. لكنه قاطعني بأن أشار إلى العسكري أن يفتشني ولما لم يجد شيئا.. نفخ مأمور الجمرك الدخان من فمه بقوة ثم أشار إلينا أن ننصرف. إلا أن العسكري أوقفني.. قائلا.. أمام المأمور:

- حق العكفة يا خبير.. " الأجرة ".

واستعنت بالله في ذلك الوقت.. نهرب من الشيطان يظهر لنا عفريت. ولم أجاوبه لكنه بكل بساطة شدني والمأمور يتفرج على ذلك ولكني أيضا أصررت أن لا أدفع للعسكري أي شيء. وتدخل المأمور.. أمر أن أدفع للعسكري.. وابتسمت.. لكني في الحقيقة كنت أتمزق غيظا. ونظرت إلى المأمور وصحت فيه.. لماذا أدفع له.. أنني لم أقل له أن يأتي بي إلى هنا. وقد أخبرته من البداية أنني لا أملك شيئا. ولكنه رفض وقادني إلى هنا أتعبني وأتعب نفسه. أن من حقي أنا أن أطلب بأن يدفع لي ثمن تعبي.. لا أن أدفع له أنا ثمن تعبي.. وتعبه. لكنه قاطعني صائحا:

- يا عسكري خذ الأبريق منه.

وبوحشية انتزع العسكري الأبريق من يدي ومضى..

وخرجت من بيت المأمور وأنا ألعن الأبريق.. العالم.. والحكومة وكل شيء.. حتى نفسي. لكني حين وصلت الجمرك.. رأيت عددا من العساكر يضربون أحد الفلاحين. كان قد رفض أن يعطيهم أجرتهم.. وحمدت الله على أن قضيتي لم تصل إلى الضرب. وهكذا تركوني خاليا. ولو لم يكن في يدي الأبريق.. لانتزعوا ملابسي من يدي.. بل لا استغرب أن ينتزعوا ملابسي هذه التي ألبسها.

وهز محمد مقبل رأسه وهو ينظر إلى العساكر.. بملابسهم المتباينة.. وفوطهم الممزقة. والبنادق القديمة الصدئة. والعمائم البيضاء والسوداء الممزقة. المبللة. والأحذية. والأقدام العارية التي يسرون بها. هز رأسه ساخراً.. جيش.. جيش بلادنا الذي يدافع عن حدودنا. قالها متهكما.. وأردف أن لهم الحق في أن يعاملوا الشعب هكذا.. لأنهم لا يجدون شيئا. وعلى كل واحد منهم.. أن يضمن لنفسه.. راتبه.. ويبحث عن لقمة عيشه.

وانطلقت بي السيارة تاركة خلفها محمد مقبل يرفع يده إلي مودعا. ورأيت الوادي خلفه وأشجار النخيل.. والجمرك رأيته يختفي ثم يتمدد الوادي أمامي من جديد.. بأشجار النخيل.. وأراضي زراعية مكسرة.. وجثث حيوانات على ضفتي الوادي.. وأشجار ضخمة.. حملها السيل منذ أيام. وكان صوت محمد مقبل يتردد في أذني: " أننا لا نستطيع عمل شيء لأنفسنا.. ولا لأرضنا.. ولا حتى لهؤلاء العساكر.. إذا لم نخلق من جديد.. نخلق كل شيء.. الناس. والأرض. والوادي. حتى أنفسنا. أننا لا نستطيع أن نعيش مع الحمير في حظيرة واحدة. ولا أن نعامل معاملة الحمير. يجب أن نجد لأنفسنا مفهوما.. وأن نعرف حقيقتنا ".

وانطلقت السيارة بسرعة. كأن ماردا جبارا يطاردها. وكانت ترتفع.. وتخفض. وتصطدم بالحجارة.. وتغوص في أوحال.. وبرك.. ثم تميل على جانبها. ويمسك كل واحد منا نحن الذين فوق

السيارة.. قلبه.. ويتمتم البعض بالفاتحة.. وآية الكرسي. وتغيب الشمس وراء الأفق. وتترك خلفها خطا دمويا.. على طول الأفق البعيد. ويرتفع من جانبي صوت " الجروش بوي " الأسمر بأغنية يمنية.. حزينة. وألمح في عينيه.. قصته كاملها. بكلمة واحدة.. والمأساة. وترتفع مقدمة السيارة.. لتميل بعدها بكل قوتها إلى اليمين.. ونتساقط كلنا من فوقها.. كأوراق الخريف. وننجو من الموت بعد أن غرست عجلات المقدمة في حفرة كبيرة. لم يتبينها السائق.. إذ ظنها مجرد.. بركة.. صغيرة من الماء.

ويبتسم " الجروش بوي " -معاون السائق! وهو يختفي تحت السيارة ليعمل على رفع العجلات المدفونة في الحفرة. ويسارع بعضنا إلى مساعدته. ورغم ذلك يرتفع صوته القوي بالأغنية اليمنية.. الحزينة.

وتنطلق السيارة من جديد. بعد أن خلصت من فخها الأول.. لتقع في الفخ الثاني. ونتساقط من جديد. أن كل منا يصنع له مكانا فوق السيارة.. بحيث يستطيع ببساطة أن يقفز حين تميل السيارة.. إلى أحد جانبيها. وننتهي من الوادي. الوادي الكبير.. حيث أحلام المئات قد دفنت. ويحتفظ الوادي بصمته.. وباسمه " وادي الصميته " لتستقبلنا خلفي.. إلى الجبال والمنازل المعلقة عليه.. والمدرجات الزراعية التي تبدو مخرومة في منتصفها. والجداول الصغيرة التي تبدو في شقوق الجبال فتنتهي أذني في صمت تلك الصحراء. هادئا. حنونا. كلياليـنا الصيفية فوق سطح المنزل. " نعمان. أنني أتمنى أن لا أموت. حتى أرى بلادنا هذه. كتركيا. أتمنى أن أرى الطريق مرصوفة وخطوط السكك الحديدية تخترق جبلنا. كتلك التي تخترق جبال الحبشة. وأرى السدود على وادينا هذا. وغيره من أودية بلادنا الكثيرة. فلا يموت السيل ولا تضيع مياهنا في الصحراء. ولا يلتهم السيل أطفالنا وماشيتنا وأرضنا. أتمنى أن أرى بلادنا كبلاد الآخرين.. أتمنى أن

لا أموت حتى أشاهد ذلك ". وكنت ابتسم له. وأشعر يا صديقي.. أن أمنيته هي أمنيتي. أمنية الجميع. ولكنني. لا استطيع أن أنسى نفسي. لأنني لا أؤمن إلا بما أرى. فبلادي كما أراها ليست سوى " زريبة للحمير ".

ويكبر الوادي أمامي.. فجأة. فأخاله غولا.. كبيرا رهيبا.. فاتحا فاه.. يلتهم كل ما يقترب من فمه. الناس والحيوان والآله. غولا أسطوريا.. بل إلها. لم يعرفه البشر. ويمضي الوادي.. بعيدا.. فيغيب عن ناظري.. وأشعر أنني تركت خلفي. أرضا.. غريبة انفصلت عني.. بمجرد خروجي من ذلك الوادي ولكن صمت الصحراء يحمل مرة ثانية صوت محمد مقبل..

" لا تنسوا أنتم.. أن هذه الأرض. لن تنفصل عنكم مهما هربتم منها. إنها جزء منكم. تطاردكم. ولا تستطيعون منها فكاكا. انتم يمنيون. في كل أرض.. وتحت كل سماء لقد كنت مثلك.. أحاول أن أهرب من واقعي. حملت السلاح وقاتلت الناس.. ناس لا أعرفهم. ولا يعرفونني. ليس بيني وبينهم عداوة.. ولكني قتلتهم. قاتلت مع الإيطاليين وقاتلت ضدهم. كنت أبيع نفسي لمن يريد شراء أداة لإطلاق الرصاص وكنت مستعدا أن أبيع نفسي للشيطان ما دام سيدفع ثمنا مرتفعا. كل ذلك يا نعمان. لأني أردت أن أنسى.. أنني يمني.. ولكن الحقيقة. هو أنني كنت أعمل كل ذلك.. لأنني يمني.. لأنني أريد أن انتقم. من الذين شردوني. ومزقوني وسرقوا أرضي.. أردت أن انقم منهم. ولكني أخطأت الطريق. أما الآن فأنا أعرف الطريق. ولن أخطئ. أن ما يؤلمني حقا.. هو أنني أدركت الحقيقة متأخرا. لكني أحمل الأمل. في أنكم أنتم جيل هذا الوقت ستدركون الحقيقة.. سريعا. عد يا نعمان. ولا تهرب. سواء كنت في عدن أو في القرية. فأنت تمارس المأساة.."

وتغيب أشجار النخيل. حين تقطع السيارة طريقها إلى قلب الصحراء. ولكن الجبال لا تغيب. إنها تقف. كالمارد. كبيرة. مخيفة سوداء.. بعد أن غابت عنها الشمس. كأنها تذكرنا.. أنها موجودة فعلا. وإن في داخلها ذلك العالم الغريب المجهول. ومما يزيد من رهبتها يا صديقي سكون الصحراء. هناك في الشمال الجبال والضوء. والموت. والسيل.. وهنا. الرمال. والسكون. عالمان مختلفان. يؤدي الثاني إلى الأول.. ويهرب الإنسان من الأول عن طريق الثاني. الصحراء هي الطريق يا صديقي.. إلى الجحيم.. ومن الجحيم.

وأخيرا. ها أنذا في " عدن " أتراني حصلت على حياة جديدة؟ كلا يا صديقي. فالأشهر التي قضيتها في القرية قد غيرت من نظرتي الآن؟ ولا أدري كيف حدث ذلك.
الحياة في عدن فقدت جمالها. وفقدت سحرها. لقد أصبحت الآن ميتة. أخي " سيف" كنت أحب أن أراه هنا ولكني وصلت متأخرا. فقد فصل من عمله. بسبب إهماله. وبسبب الإضرابات. ولم يجد بدا من أن يغادر " عدن " فسافر إلى " جدة " لعله يجد هناك حظا أسعد. ويبتعد عن " فاطمة " بعد أن انهكته. وقذفت به بعيدا وها هي ذي أصبحت الآن لي. ولكن احتقرها. وأكرهها. فإن الجمال الذي كانت تمتاز به كان فقط منذ سنوات.. حين كان الصراع بيني وبين أخي. كنت أريد امتلاكها لأنني لم أكن أريد لكبريائي أن تنهار. ولكني هزمت وانتصر أخي. وأنهار كبريائي. وأصبحت فاطمة مجرد امرأة عادية. بل أقل من عادية الآن. ولكني لا أنسى مطلقا أنها كانت امرأة ممتعة. وأنني وجدت معها المتعة.. أكثر مما وجدتها مع غيرها من النساء. ولكن القرية. القرية يا صديقي غيرتني و " فتاة الجبل السمراء " حطمت كل مقاييس المتعة التي كنت أمتلكها.. ففقدت بذلك أشياء كثيرة.. لا أظنني أستطيع تعويضها.

عدت إلى العمل.. وحاولت أن أدفن فيه كل طاقتي. لأنني أصبحت فجأة أشعر بمسئوليتي أمام العائلة.. لذلك قررت أن أنقص من مصروفي بقدر الإمكان لا سينمات ولا حانة ولا نساء. العمل. والعمل وحده.. ففيه أجد السلوى. وأدفن طاقاتي.

ولكن أتظن " الصنعاني " الذي استقبلني استقبالا عنيفا يتركني خاصة أنه بدون عمل. أنه يعزمني. كل يوم. بل أنه يعتمد أن يدفع كل شيء. ولكني أقفل الباب في وجهه فلا أترك له مجالا. سألني عن محمد مقبل وماذا يعمل في القرية وسألني عن أحوال القرية.. وحكيت له كل شيء وأنا متأثر. لكنه ابتسم. وهز رأسه.. وسكت. كأن الأمر لا يعنيه وحاولت أن أثيره.. بسردي الأعمال التي يقوم بها " محمد مقبل " فيهز كتفيه ويسكت. وفشلت ولم أجد إلا أن أصب عليه شتائمي.

إن سكان مقهى " الحاج علي " أصبحوا كلهم تقريبا بدون عمل. فقد فصلوا وتوقفت الأعمال في كثير من الشركات. وأسمع بعض الحكايات التي قام بها العمال.. ولكنك تعرف أن هؤلاء العمال ليس لديهم أي تنظيم حقيقي. يستطيع أن يقودهم.. ويحقق لهم أي انتصار. فذهب الكثيرون.. ضحايا.. للإضرابات.

كان عملي بالأمس شاقا. وحين عدت إلي المقهى لا ستريح وجدت "الصنعاني" متكئا فوق سريره.. يلوك الورقات الأخيرة من " القات " الذي أمامه. وينفخ من المداعة الصغيرة.. كان الظلام يغمر الغرفة كلها.. حتى أنني لم أستطع أن أرى السرر الخمسة الموجودة في الغرفة. ولكن لهب نار المداعة كان يلمع ثم يخمد ويدا لي الصنعاني في تلك اللحظة شخصا محاطا بالغموض. والأسرار. وفعلا فإن الصنعاني في كل حياته وفي كل تصرفاته شيء مغلق.. لا أحد يعلم ما في داخله. فهو رغم جلوسه في هذا المقهى مدة تقرب من سنوات إلا أن نزلاء المقهى لا يعرفون عنه شيئا. حتى أن البعض يشكون أنه من صنعاء.

ولم التفت له بل مضيت إلى سريري وارتميت عليه وأغمضت عيني. وبدأت الصور الكثيرة تتلاعب أمامي فلم أميز منها شيئا. وكان العرق يتصبب مني بغزارة. الغرفة خانقة. ويزيد من ذلك دخان المداعة الذي ينفخه الصنعاني. وتقلبت فوق سريري.. وشعرت بالضيق فانتفضت من نومي. وجعلت أنظر للغرفة من جديد. كانت السرر الثلاثة فارغة.. سرير أخي. وسرير محمد مقبل. وبقي سريري وسرير الصنعاني يعانيان يسعل قطع استمرارها ونظرت إليه. كانت عيناه الضيقتان تلمعان وسط الظلام.. وسقط شعاع ضعيف من النور أتى من الغرفة المجاورة على وجهه فرأيت لأول مرة التجاعيد مرسومة بوضوح على جبهته.. والشعر الأبيض بدأ يغزو فوديه. وشعر لحيته لم يعرف الحلاقة منذ أسابيع فبدأ كأشواك حادة.. أما أنفه فما زال يرسم في وجه الصنعاني معنى الغموض والحقد في الوقت نفسه. وبدت صور مخيفة تدور في داخلي.. من هو هذا الرجل؟؟ ما هي حقيقته؟ لماذا يحقد على الآخرين؟؟ بل لماذا يحقد حتى على نفسه؟؟ ما هو ماضيه؟.. وكانت الإجابات غامضة كالأسئلة نفسها.. بعينيه الضيقيتين وفتح فاه بكسل فتصورته كفأر مطعم. مخيف. وسمعت المداعة " تقرقر" والدخان يخرج من فمه وأنفه في تدفق. فيغطي كل شيء في وجهه.. وعدت إلى التمدد فوق سريري وحاولت أن أغطي وجهي.. وأنام.. ولكني لم أستطع.. فسمعت صوته يأتيني بهدوء قائلا:

فيما تفكر؟

- ....
- هل تحس بالتعب؟
- نعم.
- لعله الضيق؟
- كلا..

- إذن فيم تفكر؟

رفعت رأسي قليلا ونظرت إليه..

- أفكر فيك.

هز رأسه وقطف رأس عود قات أخضر..

- هل تريدني أن أساعدك؟؟

- نعم. وأردفت كم عمرك؟

حك رأسه كأنه يفكر.. وأجاب.

- لعله أربعين..أو أقل قليلا.. أو أكثر.

- من أين أتيت؟؟

- لا أدري.

- أنني أسألك من أين أتيت؟؟

- وأنا قد أجبتك لا أدري..

- إذن أنت لا تريد مساعدتي..

- أنا لا أساعدك في تفاهات.

وأغمضت عيني ونمت..

كان الوقت ليلا حين تركت سريري.. وكان الصنعاني قد ترك المكان.. وأحسست أن التعب قد زال. فأخذت حماما باردا وخرجت إلى الشارع. كان الجو ما زال حارا.. ورأيت الناس يمضون بسرعة. وكانت السيارات تنطلق بسرعة أكثر. وأمام دار السينما القريبة رأيت الناس يتزاحمون للدخول.. وأصوات الباعة تعلو على أصوات المتزاحمين. وفي الناحية الأخرى من الشارع كانت أصوات ترتفع منادية على " الباصات " " شيخ شيخ " أركب يا حاج " معلا معلا ".. " تواهي". معلا " تواهي ".. فتختلط الأصوات بعضها ببعض.. فيخرج شيء ممزوج.. شيء غريب تفوح منه رائحة العرق.. والتعب.. يهدأ قليلا ثم يرسل صياحه من جديد..

ويمضي بي الشارع حتى الميدان.. وفي " مقهى زكو " جلست لأتناول كوبا من الشاي.

كان الميدان أيضا مزدحما.. تفوح رائحة الأطعمة من أحد المطاعم القريبة من المقهى.. وصوت بائع الحلوى يرتفع وينخفض مرة أخرى مناديا على حلاوته. ومن بعيد يرتفع أصوات المنادين لسيارة الأجرة .. تاكسي. تاكسي.. هيا أركب.. نفر واحد.. هيا المعلا.. التواهي بشلن.. بنصف شلن المعلا.. الشيخ. الشيخ.. وتختلط الأصوات التي تأتي من الخارج بالأصوات الكثيرة التي تحدث حولي.. فأغيب في دوامة.. فلا أشعر بشيء .. سوى.. الدوار.. ودقات عنيفة في الرأس. فأترك المقهى قبل أن يأتي ما طلبته. أين أذهب؟ الفراغ كله.. يحوطني.. فلا أجد غير " شارع السوق " الطويل " غدا الأحد.. واليوم أستطيع أن أسهر حتى الصباح". فألتفت مسرورا حين توصلت إلى هذه النتيجة. ولكني أجد نفسي فجأة وحيدا.. في الشارع والسيارات والناس.. والأصوات.. كلها سريعة.. حتى أنا.. كنت أجري كالآخرين.. ووجدت نفسي فجأة أمام " حافة اليهود " ودفعتني قدماي إلى الداخل.. وهناك وجدت الصنعاني فأبتسم وهو يراني وأشار إلي أن أجلس معه وحين جلست اتسعت ابتسامته وقال:

- وأخيراً.. تغلبت على نفسك.
- كلا.. فالقلق هو الذي قادني إلى هنا.. لم أكن أدري أين أسير.. فوجدت نفسي هنا.
- أن ذلك خير لك..

وهز رأسه في انتصار.

- نعم خير لك أن تعود إلى ما كنت عليه. لقد كنت قد فقدت الأمل في أن نعيد ماضينا ولكني الآن عرفت.. أنك لم تتغير.. وأن ما حدث لك في القرية ليس سوى مجرد انفعال.. مات حين واجهت الواقع.
- لا تحاول يا عزيزي أن تدفعني فإنني حقا أشعر أن هناك تغيرا.. فساعدني في أن أتغير.. لا على أن استمر في الماضي التافه.. وضربت

المائدة أمامي بقوة جعلت أقداح الخمر تهتز بقوة.. ونظر الصنعاني حوله.. ثم قال:

- لا تجعل الناس يظنون أنك سكران.
- وماذا أعمل إذن هنا.. إذا لم أسكر. أنني أريد أن أنسى. أفهمت. أنسى نفسي. وعالمي. وأنساك أيضا. من أنت.. من أين أتيت.. ما أسمك.. ومن أنا. ومن أين أتيت وما أسمي؟ كل هذا أريد أن أنساه.
- أشرب إذن لعل الخمرة تنسيك.. ولكن تذكر إنها لن تنسيك إلا مؤقتا.

وشربنا.. أحسست أن طعمها كان كريهاً.. وكنت كلما شربت كأساً. أشعر بالغثيان.. واختلطت الأصوات التي تنبعث من داخل الحانة مع أصوات أبواق السيارات المنطلقة.. في الخارج. وكان الجو خانقاً.. والدخان ينبعث من لفافات السجائر فيزداد جو الحانة اختناقاً. ويتردد صوت صغير حبيب يزداد وضوحاً كل لحظة.. ومع كل كأس.. هو صوت محمد مقبل يقول: " إننا كلما مارسنا الحياة اليمنية أدركنا عمق المأساة. ولكن كلما تهربنا زدنا من المأساة وعمقنا جذورها. ووهبنا لها حياة أخرى. لكي نقضي على المأساة .. يجب أن نعرف أنفسنا".

وحاولت أن أعرف هل أجد حقيقتي في هذه الحانة ووسط هؤلاء الناس. والدخان.. والكؤوس.. وسمعت صوت الصنعاني وقد بدأ يسكر: لماذا تحاول أن تعود كئيباً.. فتفقد لذة الحياة.. تمتع يا بني.. واضحك. وإلا فإن باب الحانة مفتوح فأخرج إن أردت.. وأجبته وأنا أحاول أن أتمالك نفسي..

- لماذا لا تفكر.. إن استمرار حياتنا بدون هدف.. لا جدوى منه.
- من قال أنه ليس لحياتك هدف.. أنك تعمل لتأكل وترسل نقودا لأهلك.. ثم تتمتع إن شئت.

- هل هذا هو " هدف " مشرف أن أعمل لأكل. وأعمل لأطعم الآخرين. إن المشكلة ليست بسيطة ولكنها تبدو لك أنت كذلك.. لأنك لا تعرف المشاكل ولا تعرف في حياتك سوى الأكل والنوم والسكر.

وقهقه كعادته.. وطلب مني سيجارة.. ثم مضى يدخن سيجارته دون أن ينظر إلي..

- أنا لا أعرف الحياة. إنك تظلمني يا بني.. إن حياتي ليس فيها أي تشوق.. لأنها مثل حياة كل يمني ولكني أكرهها ونظر إلي هذه المرة بحقد.. وتفتحت عيناه الصغيرتان. نعم يا بني أن الإنسان حين يكره شيئا ما كراهية مطلقة.. يكره نفسه أيضا. حاولت أن أنتقم لنفسي. من الذين صنعوا مأساتنا كلنا.. ولكني لم استطع إلا أن انتقم من نفسي لأني فكرت في أن أعمل وحدي.. وانتقم وحدي.. ليس هنا قوة " .. وضرب المائدة بيديه " سوى قوة الجوع وأنا وأنت والآخرين ومن المؤسف أن أدرك ذلك مؤخراً.. و.. وقاطعته قبل أن يتم.. ولكن ممن تنتقم . وسعل بقوة.. ثم التهم الكأس الذي أمامه:

- أنها قصة طويلة يا بني.. حتى أننا من كثرة الملل نسيت معظمها.. ونسيت من هذا الذي كان ينبغي لي أن انتقم منه..

وسكت وحاولت أن أجره إلى الحديث بدون فائدة فاستمر يفرغ الكؤوس في بطنه.. ولم أود سوى أن أسحبه من الحانة ونخرج..

لفحتنا أنسام الصيف الباردة.. فسرت في جسدينا انتفاضة منعشة.. كان الليل هادئاوأسراب السيارات بدأت تقل.. كذلك خلت الشوارع من الناس. وكان القمر يرسل في تلك الليلة أشعة باهتة. حزينة. وسمعنا من بعيد أصوات الموج وهي تصطدم بصخور الشاطئ وسحرني الهدوء والنسيم الذي جعلني انتعش وأطرد أثر الكؤوس القليلة التي شربتها.. كما أنها أطلقت لسان " الصنعاني " حالما أطللنا على الشاطئ.

بدأت قصتي يا بني منذ عشرة أعوام. كنت في مدينة " صنعاء " مع زوجة أحبها .. وطفلة رسمت لها مستقبلها بخطوط ذهبية لأنها الوحيدة التي رزقت بها.. لحدوث حادث لزوجتي منعها عن أن تحمل مرة أخرى. وكانت أحلامي كلها.. تدفئني وتدفعني للعمل من أجل تحقيقها. كنت أحلم بأن أصبح إنساناً يستطيع أن يعيش في هدوء، في منزل فخم ذي حديقة، وأن يصبح في مدينتنا مدرسة للبنات فأدخل ابنتي فيها. وأعلمها ثم أرسلها إلى الخارج لكي تستطيع أن تتخرج دكتورة.. أو أي شيء يجعلها تمارس حياتها حرة وتعول نفسها. وكنت أتصور حياة مدينتنا وقد أخذت بالتطور وأصبحت " عاصمة اليمن السعيدة" حقا.. وأن تستعيد تاريخها القديم. وأتصور دكاننا ذلك الصغير الذي كنت أملكه في أحد أحياء صنعاء القديمة قد اتسع وأصبح أكبر دكان في المدينة ويصبح ذلك الحي القديم حياً جديداً..

إلا أن الصور التي رسمتها لم أعد أذكر منها شيئا.. إلا أني كنت أعمل بشرف.. لأني أردت أن أقيم أحلامي تلك على أساس واحد هو الشرف. وكنت لا أهتم بشيء.. إلا أن تتقدم مدينتنا لكي تتقدم تجارتي الصغيرة فتكبر. أي لم أكن أهتم بالسياسة. أو غيرها. لأن الشيء الذي آمنت به هو أن كل إنسان ما دام يعمل بشرف.. فستصبح مدينته وقريته جنة.

ومرت الأحداث الكبيرة التي هزت العالم.. ولكنها لم تهز مدينتنا كثيراً. ولم أشعر أنا بوجودها. ومارست حياتي بنفس الطريقة التي مارستها من قبل.. بدون تغيير. من منزلي المتواضع الصغير.. إلى دكاني الصغير أيضاً. ولكن بين الاثنين كانت تقع سعادتي.. حبي لعملي وحبي لزوجتي.. ثم حبي للعالم كله من خلال ذلك.

ومضت سنتان ثم بدأت اهتز. إلا أن اهتزازي كان ضعيفاً، ففي ذات يوم سمعت أن " الإمام " قد قتل ولم أبك.. ولم أضحك. لأن

ذهابه. أو وجوده لم يكن يهمني كثيراً. وتوالت بعدها الأحداث.. وكل ما كنت أريده هو أن تعود الحياة.. وتتطور حتى أحقق أحلامي. وكنت في لحظات أراجع نفسي وأتساءل " هل حقا أني في الطريق الصحيح المؤدي إلى سعادتي التي أحلم بها ". وأجد أن كل الطرق المؤدية إليها معلقة. وأنني واقف.. لا أسير. وسأستمر واقفاً.. إن لم أغير نظرتي.. وخطتي. وكنت كلما حاولت ذلك.. أتراجع لأنني لا أستطيع أن أغير حياتي. فاستسلم للواقع.. مع تمسكي بأحلامي وشعرت بأن هناك نوراً صغيراً قد يضيء حياتي لو استمرا وذلك النور هو الأحداث التي وقعت بعد مقتل الأمام.. لأنها كانت ستدفعني دفعا إلى تغيير موقفي، وبالتالي إلى وصولي لأحلامي.

وسعل " الصنعاني " في تلك اللحظة. ونظر حوله.. كأنه قد خرج عن عالمنا هذا الذي حوله ليقودني إلى عالمه القديم. كان القمر في السماء يبدد السحب.. ليرسل إلينا أشعته اللامعة، وكانت الأشعة تنعكس على صفحات المياه التي أمامنا، فتضيء كل ما حولنا. وكانت هناك سيارات قليلة واقفة كل واحدة بعيدة عن الأخرى. وكنا نسمع نغمات موسيقى أو ضحكات امرأة نشوى.. أو همسات حبيبين. وكان البحر أحياناً يلتهم كل تلك الأصوات داخل أمواجه التي يرسلها بقوة أحياناً ويضعف أحياناً أخرى. وفي كلا الحالتين كانت " زبدة الماء " تمتد على ساحة كبيرة فوق الرمال الصفراء النائمة.

واستمر الصنعاني.. بعد أن تزود بنشاط جديد مما يحيطه.. " وتطورت الأحداث إلى حرب أهلية. وشعرت لأول مرة بالخوف على أحلامي الصغيرة وقلت لنفسي لعل كل شيء ينتهي دون أن يمسك. وكنت أرتجف كلما أحسست أن الخطر قريب من ابنتي وزوجتي ".

وهنا كان صوت الصنعاني رقيقا. فيه حب. وفيه خوف..

" وذات يوم رأيت المعركة على أبواب صنعاء.. إذن فالوداع لأحلامك.. هكذا قلت لنفسي.. وحين عدت إلى المنزل رأيت زوجتي.. وفي عينيها نوع من التساؤل والخوف.. وكذلك كانت ابنتي الصغيرة متشبثة بملابس أمها تطلب الحماية.. كلما سمعت أصوات الرصاص تتصاعد في أرجاء المدينة. وشددت على يد زوجتي.. وهمست لها في حب. " إنهم لن يمسونا لأننا لم نعمل لهم أي شيء "..

- لكني خائفة..
- ليس هناك مبرر.. قلت لك أنهم لن يمسونا.. أنهم أسرة واحدة يتقاتلون على كرسي فيها.. فما دخلنا نحن.
- ولكنهم قتلوا " الإمام ".
- لسنا نحن الذين قتلناه..

وحاولت بشتى الوسائل أن أهدئ من روعها.. وأفلحت بعد إصرار بأنهم لن يمسونا. وصدقت أنا نفسي هذا الوهم. وقلت لنفسي.. نعم لن يضرونا.. لأننا لم نفعل لهم شيئا. وجعلت أردد ذلك حتى اقتنعت. واقتربت المعركة. يوما بعد يوم.. وأنا ما زلت أحلم وأكرر لنفسي.. أنهم. لن يمسونا. فلينتصر من يريد منهم ولكن ذلك كله لن يقنعني.. خاصة حين رأيت أهالي " صنعاء " يدافعون عن أنفسهم.. وشعرت أن في صنعاء روحاً جديدة خلقت من خلال المقاومة.. وإلى ذلك اليوم لم أكن أعرف من هو الذي على حق.. الذي قتل. أم الذين قتلوه. ولكني أيضاً لم أستطع أن أربط بين هؤلاء وبين سكان " صنعاء ".. واشتعلت المدينة ذات يوم وابتدأت تلتهم منازلها النيران وذهبت أجري لأرى ما حل بدكاني. وهناك كانت البقايا تتحدث عن الوحشية.. ورأيت الجيش الغازي.. مجرد أناس لا يعرفون سوى النهب كان شعارهم قائدهم " صنعاء مدينة مفتوحة "..

وبدأ الألم يزداد في صوت الصنعاني.. ورأيت الدموع في عينيه.. كان صوته واضحاً قوياً.. وكان يتحدث وهو يمد يديه بقوة ويضرب بها الهواء..

وكان السكون مخيماً على الشاطئ .. ومن بعيد كانت أنوار سيارة تتدفق نحو البحر.. فبدأ البحر تحت الضوء شعلة حمراء.. باهتة. وتخيلت عندئذ مدينة صنعاء.. وهي تعاني الألم. وتابع حديثه.

" واندفعت لأنقذ ما أستطيع من بقايا أحلامي. ونسيت كل شيء حولي. الرصاص. والهمج والنار. وكنت أجري هنا وهناك ألعن كل ما قابلته. وكل من قابلته راعني بالنهب. كانت صنعاء حقا مدينة مفتوحة للغجر.. للهمج وشعرت بالتعب. وشعرت أن لي بيتا. وعائلة. وطفلة جميلة انهار مستقبلها بانهيار ما كنت أملكه من مال. وأحسست ببرودة تسري في داخلي. حين تصورت أنه قد يحدث لمنزلي ما حدث لدكاني.. وكنت عندئذ بعيدا عن المنزل. فأطلقت ساقي للريح. دون أن أعبأ بمن أقابلهم..

كانت صنعاء جميلة يا بني.. والجبال تحيط بها من كل جانب والأشجار الخضراء ترف في شوارعها ومنازلها. والشمس ترسل أشعتها من خلف السحب المجتمعة فوق سماء المدينة فتخترق الأشعة تلك السحب.. وتلقي أضواء هادئة على الأشجار.. والطرقات التي كانت موحلة.. حمراء من الطين والدم. لو لم تكن صنعاء مدينة ممطرة.. لانمحت من تلك الأيام من الوجود. ولاحترق كل سكانها. ووصلت يا بني إلى المنزل.. وقد هدّني التعب.. وهناك تجمدت قدمي. كان المنزل مهدماً. محطماً. كان هناك عدواناً.. قد حدث. ودخلت المنزل. بأن كل شيء في الداخل. مبعثراً. ممزقاً.. السرير والملابس وبحثت عن زوجتي وطفلتي..

وغطى الصنعاني وجهه.. وتساقطت الدموع من عينيه. وقام من مجلسه بجانبي فوق الصخرة. وسار إلى الشاطئ الرملي الممتد إلى

مالا نهاية.. وجعل ينظر إلى الأفق.. وكانت نسمات البحر الباردة تهب علينا..

أصبت بصدمة عنيفة وأنا أرى زوجتي وطفلتي.. وقد مزق جسميهما الرصاص والدماء تتدفق حارة.. ثائرة. ورأيت في نظرتهما.. الخوف. الغضب. كانت الطفلة متمسكة بأمها.. لا تريد فكاكا والأم متشبثة بها أيضا. وكانت ملابس الأم ممزقة.. كأن عدواناً أبشع قد وقع عليها. آه يا إلهي. هل تصل وحشية الإنسان إلى هذه الدرجة. إنني لا أستطيع مجرد أن أستعيد تلك الصورة. لأني كنت في حالة غيبوبة كاملة.. لا أميز ما هو حادث أمامي. كنت في حلم كبير.. فلم أستطع أن أمزق الواقع. لأنه كان بشعا. رهيبا. نعم رهيبا يا بني أن تنظر إلى أحب مخلوقات لديك.. مزقا. دموية.. يشع من عينيها الرعب القاتل.. وأنت لا تستطيع إزاءها ألا أن تعطي عينيك وتهرب.

وهز رأسه بحزن. وانفعال.

وخرجت أبحث عن انتقام. لقد تحطم القيد الذي كان يقيدني. وأصبحت طليقا. ولكن بعد أن فقدت كل شيء.. ولا أتصور من أين أتتني تلك القوة الرهيبة وأنا أصارع أول إنسان قابلته لأنتزع منه أداة الموت. بندقيته.. وبدأت أطلق النار على كل من أراه دون تمييز. كنت أريد أن أقتل وأقتل.. لم أكن أنظر إلى صنعاء وهي تتألم. لأنني كنت أتألم أشد منها.. ولم أنظر إلى الجمال.. والروعة.. ولم تعد أحلامي ملكاً لي. لأنها كلها ماتت. بمجرد أن أدركت الخرافة الكبيرة التي كنت أعيش فيها..

وعاد إلى الصخرة مرة أخرى. ثم سحبني. ومضينا. نخط بأقدامنا على رمال الشاطئ.. دون هدف. والبحر يزمجر غاضبا فترتفع المياه إلى تحت أقدامنا.. بينما يتصارع الموج والصخر.. كل يريد أن يقتل الآخر.. واحتجبت أشعة القمر.. وأصبح الشاطئ مظلما

مخيفاً.. وسكتت الأصوات حولنا.. ولم يبق إلا صراخ الصراع.. بين الأمواج والصخور.

وتركت صنعاء.. بعد أن سقطت بين يد " الإمام الجديد " بعد أن تحطم كل شيء فيها.. حتى الإنسان. نعم حتى الإنسان ذلك الجبار الذي صنع المعجزات وما زال يصنعها تحطم تلك الأيام في مدينتنا .. وأصبح مجرد حيوان. ينهش كل ما يراه أمامه. دون تمييز.. دون خوف. لأن كل المعاني والقيم كانت قد تحطمت.

خرجت من صنعاء يا بني. وقد رسمت خطة. أن أغادر هذه الأرض " وأشار بيده يمينا " وتلك هي الغلطة الأولى التي ارتكبتها.. مغادرتي لتلك الأرض " وأشار إلى الشمال " لأنني حسبت أنني أستطيع أن أنتقم حين أصل هنا..

ومضت بي الحياة.. كنت أعمل من قبل لكي انتقم. أما الآن.. فقد أنستني الحياة كل شيء. وأصبح لزاما على أن أنسى مأساتي.. لأنها بسيطة بالنسبة للآخرين. ولكن يا بني يجب أن نعترف. أن كل إنسان لا يستطيع أن ينتقم لوحده. ولكننا كلنا مجتمعين مع مآسينا.. نستطيع أن ننتقم"لم أكتب لك منذ مدة طويلة. لأن حياتي ما زالت فارغة.. إلا إذا قلنا أن الصداقة التي ولدت من جديد بيني وبين الصنعاني أصبحت تملأ بعض هذا الفراغ. لقد أدركت فجأة أن الصنعاني إنسان.. وإنسان عميق أيضا. إنه يتحدث إلي دون تردد.. لقد أصبح كتاباً مفتوحاً.. وكتاباً ضخماً. أصبحنا نقضي فترات كثيرة معا.. خاصة بعد أن عاد إلى العمل.. وأصبح يشغل وقته.

وجدت يا صديقي. كتبك التي تركتها. إنني أشكرك على ذلك. لأن هذه الكتب فتحت أمامي عالما كنت أجهله. عالما أصبحت أجد فيه الكثير من الإجابات التي أريدها.. وأصبحت أقضي معظم أوقاتي معها.. ولكن بالرغم من ذلك أشعر بفراغ.. لا أدري كيف أملأه. إنني أريد عملا لأرتزق منه..

كلا فلدي هذا العمل. بل أصبحت أكرهه. ولكني أريد عملاً آخر يُطمئِنُ نفسي وروحي وكياني كله.. عملا أشعر فيه بأنني إنسان كبير.. يفكر.. إنسان يتضامن مع الجميع. الحب.. الحب هو ما أريده.. حب الإنسان لأخيه الإنسان.. والعمل. العمل من أجل بناء ما تعفن من أنفسنا. ومن أرضنا. قد تقول أن العمل هنا متوفر. كلا يا صديقي.. ليس هنا من عمل.. طبيعي أن أؤمن أن بلادنا واحدة. لا يفرقها استعمار.. أو استبداد. وأن العمل من أجل القضاء على واحد منهما.. هو بالتالي العمل من أجل القضاء على الآخر. ولكن لا أجد هنا عملا وطنيا صحيحا. كل عمل هنا.. كما يقول الصنعاني.. مجرد لعب أطفال.. لا يجدون عملا جديا.

هنا الناس المستعدون للعمل.. ولكن ليس هنا القيادة التي تقرر. أنني أحيانا أكفر بالعمل. وأحيانا تسيطر عليّ فرديتي ولكني تذكرت أحداث القرية.. وقصص الملايين من أبناء وطننا المشردين تحت كل سماء.. أجد أن من الخيانة ألا أعمل. يقول " الصنعاني " دائما.. إننا نهرب.. تلك هي الحقيقة. لأننا نجد فراغا قاتلا في داخلنا.. أن الزعماء.. أو الذين يقولون أنهم زعماءهم أيضا.. مجرد ناس شعروا بالفراغ في داخلهم.. فأرادوا.. بأن يظهروا. ونحن لا نمانع من ظهورهم. ولكن لا على أساس العقد التي تعيش في داخلهم.. ولا على مركب النقص الذي يشعرون به. إننا يا بني نريد عملاً حقيقياً.. جماعياً.. لأن تلك هي الطريقة الوحيدة التي نستطيع أن نأخذ بها حقنا.."

ولكن يا صديقي أين زعماؤنا..؟؟ أين من يقود هذه الجماهير.. إلى طريق الحرية. إن الأسئلة ترتسم على طريقنا فلا نجد إجابة.. وأنتم.. يا من تركتم بلادكم. وجماهيركم ما هي الأعمال التي علمتموها. غير الهروب.. نعم الهروب من واقعكم.

لقد رأيت بالأمس يا صديقي نزيلاً جديداً لمقهانا وغرفتنا. كنت قد عدت من العمل. ورأيت سريرك وقد احتله رجل لم أراه من قبل.. طويلاً.. أسمر اللون لفحته الشمس. أو اللهب. ومد يداً طويلة وهو يصافحني. ويقدم نفسه أن اسمه علي.. " علي الزغير " كان بحاراً فوق إحدى بواخر شركة إنجليزية.. غاب عن بلاده مدة عشر سنوات.. أي منذ كان في العشرين وعمل في " موقد " الباخرة.. التي أعطته.. بشرته السمراء الجميلة.

وأخبرني أنه قد زار خلال رحلته معظم بلاد العالم.. ولكن الذي عرفته منه. أنه لا يعرف من مشاكلنا الوطنية شيئاً.. بل ابتسم حين قال له الصنعاني.

- هلا كنتم مجموعة فوق الباخرة؟

- كلا.. فأنا لا أحب اليمنيين..

وسألته.. لماذا؟؟

وأجابني بقوله:

- أن اليمني.. لا تستطيع أن تعيش معه. لأنه سيجعل حياتك كلها جحيماً.. وهو سيخلق لك المشاكل من لا شيء. ونظر الصنعاني نحوي ثم هز رأسه وقال..

- هؤلاء هم من يؤخرون قضيتنا الوطنية.. أنهم لا يعرفون عن بلادهم شيئاً.. يهربون.. ثم يأتون ليقولوا.. إنهم بكل بساطة.. لا يحبون اليمنيين.

وثار الصنعاني-

أنتم أنتم.. وسكت.. لماذا عدت إذن؟ وسمع صاحب " المقهى الحاج علي " فأقبل نحو الصنعاني قائلاً-

- وأنت ما هي الأعمال التي قمت بها لوطنك..

فأجبته- إنه على الأقل يشعر بأن عليه أن يعمل

- ليس بالشعور وحده نستطيع أن نخلص بلادنا.. فأنا منذ عشرين عاماً.. امتلك هذه المقهى.. ومرت على الوجوه الكثيرة..

كلها كانت تتحدث أحيانا.. وخاصة عندما يأكلون " القات " يتحدثون يا بني عن " الوطنية " وعن بلادهم.. ولكني لم أر واحداً منهم يحاول أن يعمل فعلاً عملاً إيجابياً. لتحطيم الجمود الذي يسيطر على بلاده.. نعم " يا نعمان ".. ليس.. شعورنا بأن بلادنا مظلومة يكفي.... أجابه الصنعاني

- إن الإنسان.. وخاصة من ذهبوا إلى الخارج يجيدون هناك فرصاً كثيرة لكي يعملوا ولكن أنظر إلى هذا " وأشار إلى البحار " أنه عاد دون أن يفقه شيئا.. أن ذلك يظهر من أحاديثه.. ومن تقاسيم وجهه.

وابتسم البّحار وقال.

- لا تظلمني يا صديقي.. فأنا لا أعرف القراءة والكتابة.. حتى أتابع الحركة.

أصبح " البحار " رفيقا لنا.. وأصبحنا تقضي أمسياتنا نتحدث عن ذكرياتنا.. ونقرأ فصولاً من كتبك. ونناقش قضايا وطننا السياسية. كما أننا نتحدث عن أنفسنا.. قص علينا البحار قصة حياته.. إنها عادية في نظرنا لأنها كحياتي وحياتك. وحياة كل يمني. ولكنها المأساة.. في نظر الآخرين.

" تركت قريتي حين كنت في العاشرة.. إلى عدن. وعشت فيها أعمل في دكان يملكه أحد أصدقاء والدي. وهو من قريتنا. كنت أعمل فيه منذ الخامسة صباحاً حتى الثانية عشر مساء. إنني ما زلت ألاحظ أن هذا ما زال موجودا لكثيرين من أطفال بلادنا الآن. وكنت لا أجد الراحة سوى في أوقات أكل القات. كانت الحياة في عدن قبل عشرين عاما مملة. لذلك قررت أن أترك عملي بالدكان.. وعدت إلى القرية. ولكن حياة القرية لم تناسبني. لأنني كنت قد تأثرت كثيرا بالمدينة. فالإنسان عندما يجد الحضارة.. لا يحب مطلقاً أن يعود إلى البدائية. فهربت من القرية.. وكان هدفي أن أتعلم هذه المرة.. لا أن أعمل. فاتخذت الطريق إلى

الشمال.. " إلى زبيد ". ثلاثة شهور مشياً على الأقدام أحياناً. أو التعلق على سيارة عابرة.. عبر الجبال.. جبال الشمال. آه ما أروعها.. حيث ينام الثلج على القمم. تترقرق الجدران ملتوية كالثعبان ثم الغابات الخضراء. والأراضي المنبسطة اللانهائية كلها يا أصدقاء سمراء. غنية. حبيبة.. ثم الصحراء تترامى في النهاية في أحضان البحر ولكن يد الإنسان الخلاقة.. شقت في تلك الصحراء. واحات خضراء. كنت أجد فيها المأوى والمأكل. لأن الأرض كريمة في بلادنا الشمالية. وأهلها أكرم.. إنني أحاول أن أستعيد صورا مرت عليها سنوات.. فأجد لوحات منقوشة لا تنمحي. كرم اليمني لأخيه رغم المأساة التي يعيشها. هنا أجد فرقا بين الرجل والمرأة. لأن كليهما يعمل. فالأرض يا أصدقاء تحتاج إلى أيد متعاونة متحابة. تلك هي أيدي الرجل والمرأة وسألته موضحا:

الشمال. وأرض الشمال. سماء الشمال. كلها حبيبة إلى القلب.."

ويتنهد " البحار " وأرى دموعا تكاد تخرج من عينيه. هي دموع الذكرى والحب الذي كان يحمله هذا الإنسان للشمال..".

" لكن.. نعم.. لكن يا أصدقاء هناك ترقد المأساة بثوبها الأسود الكالح. الإنسان موجود هناك.. ولكنه أي إنسان ؟ إنه ليس بإنسان القرن العشرين.. بل إنسان قرون مضت.. وطمرها النسيان. لكنها في بلادنا. لا تعرف النسيان. بل هي تحتوي هذا النسيان.. فتعيش لأنها تحالفت مع تماثيل صخرية آمنت بها.

كانت " زبيد " منارة للعلم منذ عرف اليمنيون العلم.. وظلت قروناً شعلتها. لكن حين أشرفت عليها.. كانت نائمة في وسط سهل ممتد.. مآذنها القديمة وبيوتها ذات البناء التاريخي.. ثم عشش من اللبن وعشش أخرى من مخلفات الماشية. وسعف النخيل. " وهناك " خارج أسوار المدينة.. تلك الأسوار التي صدت عن زبيد غارات المتوحشين.. وحفظت لها شعلة العلم. وهي الأسوار التي

صدت عن المدينة.. تدفق شعاع العلم الحديث. خارج تلك الأسوار القديمة. الصلدة التي ما زالت تقاوم الزمن تقع " المقبرة ". ميدان واسع لا نهاية له. كأن أموات العالم كله متجمعون هناك.. ومن فوق ربوة عالية خارج " زبيد " ترى المكانين. زبيد داخل سورها.. والمقابر بشواهدها.. وقببها البيضاء. مدينتان.. للأحياء.. وللأموات. وأي إنسان لا يعرف زبيد.. لا يستطيع أن يميز بين المدينتين لأنهما متشابهتان.

داخل الأسوار.. ينام الناس.. ويأكلون. ويذهبون إلى مسجدها الكبير.. ليؤدونها بدون حماس.. ثم يعودون ليناموا. ولا تستطيع أن تحدد أين ينام الناس ففي كل مكان تراهم متمددين.. داخل الأسواق. ذات الشوارع الحجرية.. والدكاكين المبنية من حجارة متراكبة فوق بعضها بدون تماسك ومن سعف النخيل.. أو في المقاهي. حيث السرر الخشبية المربوطة بجبال بدلاً من الكراسي.. وفي المساجد وداخل البيوت.. أو على أسطحها.. وفي داراتها في كل مكان ترى الناس عرايا إلا من مئزر أبيض إلى الركب.. وقلنسوة مصنوعة من " الألياف ".

والمدينة يا أصدقاء.. تخترق من أشعة الشمس وتحترق من الناس الذين لا يعملون.. وتحترق من الدعوات التي تتصاعد كل يوم إلى السماء.. حارة أحياناً وباردة أخرى. وخارج أسوار المدينة.. ترى الناس أيضا وسط شواهد المقابر.. منهم من يبكي. ومنهم من يذهب يبحث عما يريد أن يستأجر ليقرأ " القرآن " على قبر. وفي الليل أو في النهار ينام الناس.. ويأكلون ويصلون فوق المقابر.. بل إن المقابر تشهد في فترات من السنة أعياداً.. يشترك فيها الجميع.. ويجدون فيها المأكل والمشرب. ثم في النهاية يصلون على روح من كان السبب في أحياء ذلك الحفل.

في كلا الجزأين من المدينة.. خارج الأسوار وداخلها.. تشهد حياة.. غريبة. ولولا وجود عدد من السيارات التي تمر بزبيد في طريقها

من الحديدة إلى تعز وبالعكس لقلنا أنها مدينة تاريخية.. لا وجود لها.

وحين ينزل الإنسان من فوق ذلك التل الذي شاهد فيه المدينة لأول مرة.. بجزئيها.. يختلف المنظر. لأنه يرى كل شيء عندئذ عن قرب.

ودخلت المدينة واتجهت يا أصدقاء إلى المسجد حيث قيل أنه يوجد مكان لنا.. نحن الذين نطلب العلم.. وحيث نجد مكاناً نأوي إليه. وأكلاً. وشرباً. وخطوت خطواتي الأولى نحو عالم النور.. العلم.

كان الوقت عصراً حين دخلت المدينة والشمس ترسل لهيبها الحار وشوارع المدينة تقريبا خالية.. بينما كانت المقاهي مكتظة بالناس يأكلون القات ويتحدثون عن كل شيء.. فيوصل إلى بيت كبير يشبه قلعة حربية تاريخية.. كل نوافذه مطلية باللون الأبيض.. وعلى بابه كان يقف " عكفيان " يحرسانه.. وأمام الدار كانت سيارة " جيب " صغيرة تنام بهدوء تحت ظل حظيرة كانت للحمير.. والبغال.

كانت أبواب الدكاكين مقفلة. وتحت ظلال بنيانها كان أناس مهلهلو الملابس قذروا الخلقة تفوح من أجسامهم رائحة نتنة، ينامون. وقد ارتسمت على شفاههم بسمات سعيدة.. لعلهم يحلمون بحياة أفضل.. وهناك ظاهرة.. توجد بكل مدينة من مدن ساحلنا الذهبي الباكي " ساحل تهامة " فهناك يا أصدقاء تشارك المرأة الرجل كل شيء. حتى تشرده.

وفي صحن المسجد الكبير.. حيث سمعت قصص آلاف ممن كانوا ينامون. ويتعلمون.. في هذا الصحن. حكايات.. بسيطة كبلادنا.. عنيفة كبلادنا أيضاً. ناس بسطاء.. تكبدوا كل شيء من أجل العلم.. ثم قادهم علمهم ذلك إلى غياهب السجون. هناك في حجة.. وفي صعدة وفي غيرها من السراديب السوداء المظلمة تحت أرض بلادنا. أنها مسكينة يا أصدقاء هذه الأرض. فهي تتحمل الآم

الناس فوقها.. وتحمل الآمهم تحتها.. أنهم أحياء وأموات.. في كل جزء.

وغابت شمس ذلك اليوم. كانت دامية. وهي تخلف الأفق الرملي. يقولون هناك.. إنها تغوص في المياه لكي تغسل جراحها. كانت دماء الشمس تغمر الصحراء والمدينة.. والمقابر.. وكانت تتخلل مآذن المسجد.. وبيت " الحاكم " الذي يبدو كقلعة قديمة. وكانت دماء أخرى.. لكنها سوداء.. تغرق قلب المدينة. ماتت الشمس.. وماتت معها حركات الناس في المدينة.. ولكنك تسمع همسات صغيرة.. تتحول إلى أنين. كلها تأتي من خارج الأسوار.. لعلها الأموات تتحدث.. أو تبكي.

وهز " البّحار " رأسه مرة أخرى.. وكانت عيناه تحملقان في أخشاب الباب.. والسقف.. وتعود تحملق فينا. كأنها تجد فيها مزيداً من الذكريات. وتمضي العينان تدوران.. ويدور معها عقل.. وذكريات البحار.

" وولد النهار من جديد. كان جديداً بالنسبة لي. ولكنه كان قديماً.. وموغلاً في القدم لسكان المدينتين. لا يهتمون لو طلعت الشمس. أو لم تطلع.. لأن حياتهم.. أصبحت يا أصدقاء فارغة. بلا هدف.. أكل ونوم ثم صلاة. وامتلأ المسجد بالناس. كانوا كلهم مثلي طلبة وقلت لأحدهم...:-

- إن الذين يتلقون العلم هنا كثيرون.. أليس كذلك؟؟

ونظر الذي سألته.. ثم هز رأسه.. قائلا: إنك غريب..

وهززت رأسي مجيباً.. فابتسم نحوي.. ووضع يده فوق كتفي.. وهو يقول..

- ستدرك ذلك كله تقريبا.. لا تتعجل.

ومضى وتركني في حيرة. ما لهؤلاء الناس ألا يريدون كلاماً. أم أنهم فقدوا القدرة عليه.. وجرفني تيار الناس.. وتساءلت.. " لو كان الناس الذين يتعلمون بهذا العدد لما كانت بلادنا هكذا. على

الأقل هناك أناس محطمون.. أو يثورون على واقعهم" . ثم أعود وأتساءل: إذن ماذا يعمل هؤلاء كلهم.؟ وتقودني قدمي إلى مكان تفوح منه روائح.. الأكل. ثم أجد نفسي وقد تلقيت في ردائي قطعة كبيرة من اللحم.

- لما أكلت كل الذي أعطوك.
- نعم.. يا رفيق..
- ماذا كنت تقول إذن..

وأشار إلى قطعة اللحم الباقية معي. وفتات الكدر..

- لقد أكلت معظم ما أخذت..
- نعم وماذا في ذلك..

هز كتفه قائلا.. لاشيء..

- إذن..

وقام الشاب من جانبي. ومضى قائلا:

- وداعا يا رفيق.. لعلنا نلتقي..

يا لأخلاق هؤلاء الناس.. أنهم غامضون. ومضيت ألتهم ما بقى. ومضى اليوم الثاني من وجودي في المدينة. وذهبت إلى شيخ رأيته في صحن المسجد.. صباح اليوم الثالث. وأقريته السلام.. وقبلت يديه. كانت لحيته بيضاء المصبوغة " بالحناء "تمسح الأرض والتجاعيد تغطي وجهه كله.. وملابسه البيضاء.. صبغها بلون أصفر.. فأصبحت باهتة.. ويداه ورجلاه وشعر رأسه الأشيب كلها صبغت باللون الأحمر.. بالحناء. وجلست بجانبه. كان يردد أغنية لم أفهمها. وكانت أصابع يده تسقط حبات المسبحة. وفتح عينه الضيقة. ونظر إلي وأنا أقبل يده.. ثم أتاني صوته كأنه خارج من أعماق كهف عميق.. ماذا تريد يا بني..؟؟

- أنني جديد هنا..
- إذن..
- لا أعرف ماذا أعمل..

- ماذا أتيت تعمل هنا..
- ونظرت إليه في استغراب.. ولكني أجبته..
- أنني أتيت لأتعلم..

ففتح الرجل. الشيخ.. عينيه الضيقتين.

- تتعلم. تتعلم.. وماذا تتعلم.. وجعل يهز رأسه.. لقد ذهب العلم والعلماء.. يا بني. ولم يبق هنا شيئا. ونظر إلي.. من الذي خدعك وقال لك أن هنا علم. من أين أتيت يا بني..؟
- من لواء تعز..؟
- آه لواء تعز.. كيف الناس هناك.. أنني لم أرها منذ فترة طويلة.. من أي مكان أنت من هذا اللواء..
- الصلو..

وجعل الرجل العجوز يعيد على مسامعي. قصة حياته حين كان شابا..:

كان لنا يا بني حياة.. كبيرة. كنا نشعر بأننا نعيشها. أما اليوم.. فأنتم الشباب.. لا تعرفون لحياتكم معنى. لقد فقدتم أشياء كثيرة. لأنكم فقدتم حريتكم. يا بني لكي تتعلم لا بد أن تصبح حرا. أنك لست حرا. هناك جدار أسود كبير.. أهدم هذا الجدار.. ثم جئني. وأنا أعلمك.. معنى الحياة "..

وجعلت أصغي إليه.. بالرغم من أطالته في الحديث إلا أنني وجدت فيه أشياء كنت أجهلها من قبل. وجعل يحدثني عن زبيد.. قائلا: " أنها مدينة بسيطة. كانت قديما يا بني عامرة بأشياء كثيرة. كانت المساجد.. لا كما تراها اليوم. " قذرة " لا يعتني بها أحد.. كانت قديما تتلألأ بالنور. وكان طلاب العلم يفدون إليها من كل أنحاء اليمن. ويجدون هنا الخير. كانت الأوقاف التي للمساجد.. تردد أموالا طائلة. تكفي لكي يعيش الطالب هنا ويتعلم ما يريد. أما اليوم.. فأين الأرض يا بني.. أين الأوقاف. لقد أخذتها الحكومة.. بدعوى أنها ستتكفل بكل شيء. فذهبت الأرض.

وذهب العلم فلا يستطيع الطالب اليوم إلا أن ينفق على نفسه.. ولكنه لا يوجد طلاب.. اليوم "..... وسكت.. وسألته مستوضحا.

- لقد رأيت كثيرين اليوم يأخذون نصيبهم من الأكل في صحن المسجد.. فمن هم إذن إذا لم يكونوا طلابا.

اتسعت عينا الرجل الشيخ.. وهو يجيب..

- أنهم أهالي المدينة يا ابني. وهذا الذي وزع اليوم.. هو صدقة من حاكم المدينة.. لأن " إحدى " زوجاته قد ماتت بالأمس. فلا تظن أنه للطلبة وأن أولئك طلابا.

هزني حديث الشيخ.. أين أمضي إذن إذا لم أجد مالا وملبسا. تعليما. وقام الشيخ يصلي بينما جلست أفكر. ماذا أعمل.. هل أعود إلى القرية أم استمر في رحلتي إلى ما لا نهاية. وبدأت صور كثيرة تجول في ذهني.. المدينة والسور.. والشمس وهي تغيب من فوق المقابر.. ذلك الوادي السعيد " وادي الزبيد " الذي يبدو كثعبان يتلوى وسط. الصحراء.. وأنا.. والشيخ والطالب الذي رأيته من ساعات.

وأخرجني من ذهولي ذلك صوت الشيخ.. وهو يدعوني.. ولكني وتمسكت به قائلا:

- إلى أين أذهب إذن يا سيدي..

كان في صوتي نغمة.. جديدة لم أعهدها من قبل.. نغمة الخوف من المصير المجهول.

وقادني الشيخ معه إلى الخارج.. قائلا.. تعال معي لعلي استطيع أن أرد بإيوائك بعض ما فعله الناس لي حين كنت في " لواء تعز ".

وعشت يا أصدقائي مع الرجل العجوز في بيته. كان يعلمني قراءة القرآن وكان يغيب كثيرا عن المنزل لأنه يذهب إلى منزل الحاكم.. وغيره من رجال الحكومة حيث يسليهم بأحاديثه.. وحكاياته.. عن الاقدمين. كان ورعا حين يتحدث.. عن الماضي.. عن الشعراء.. وأشعارهم.. وعن المحبين.. و..

وحاولت أن أتعلم الكتابة. ولكني لم أستطع لأنني كنت أعمل في الأعمال المنزلية أكثر من عملي في حقل العلوم.. ولكني استطعت أن أحفظ أجزاء من القرآن.

وذات يوم.. صحبني الشيخ معه إلى منزل " العامل " كان منزله.. بجوار منزل " الحاكم " .. كبيرا قديما.. كقلعة وعلى الباب عدد من الجنود " العكفة " ونوافذ المنزل مطلية كلها باللون الأبيض.

كان المنزل من الداخل جميلا.. خاصة " المبرز " حيث الستائر الحريرية.. والمفارش الفارسية معلقة على الجدران. وفرشت أرض " المبرز " بقطائف جميلة الصنع. كان الشيخ يدعي " العمى " .. ويقول أنه لا يرى. ولكن حياتي معه أثبتت العكس.. وقال مفسرا ذلك..

" عندما تعيش يا بني مع ناس أعمى الله بصائرهم.. يعيشون في الفسق والفجور ويدعون أنهم أتقياء.. لا بد وأن تعمي بصرك.. حتى لا تكشف حقيقتهم. لتستطيع أن تعيش".

وكنت في ذلك الوقت يا أصدقاء أملك صوتا جميلا.. وحين كنت أتلو القرآن.. كان الشيخ يعجب بذلك..

كان المبرز كبيرا.. ضمت أرجاؤه الكثير من الناس. وبدأت أتلو القرآن.. كان الشيخ يعجب بذلك..

كان المبرز كبيرا.. ضمت أرجاؤه الكثير من الناس. وبدأت أتلو القرآن. كان الجميع ينظرون إلي في إعجاب. وخفت في أول الأمر. ولكن. في النهاية نزعت الخوف عني. وعدت إلى المنزل والشيخ يثني علي كثيرا.. لأنني كنت السبب في إعجاب الحاضرين.. وفي حصوله على مبلغ كبير من المال.

ومضى يومان على ذلك.. أقبل الشيخ بعدها وهو يبتسم قائلا: ستذهب اليوم إلى بيت العامل.. ووافقت.. ولكنه أردف قائلا.. ستكون هناك وحدك.. وبان التساؤل في وجهي. واستمر قائلا أنك لن تذهب " للعامل ". كانت شابة في الخامسة والعشرين من

عمرها سمراء كلون تهامه.. تملك عينين. فيها سحر خارق، وحواجب سوداء كثيفة. قصيرة القامة.. ممتلئة الجسم. كأجمل ما تكون المرأة. وكان " المبرز " الذي استقبلتني فيه مخالفا للمبرز الذي كان فيه زوجها العجوز.. ذو الستين خريفا. وكان هناك عدد من النساء معظمهن في جمال زوجة " العامل ".. أجملهن فتاة استهوتني من أول نظرة. هي حسب ما عرفته في النهاية ابنة " الحاكم ". وارتجفت. وأنا أرى هذه العيون كلها متجهة تنظر إلي. كنت شابا في السادسة عشر تقريبا. ولكن الحياة جعلتني أملك جسما قويا.. وشمس تهامة أحالت بشرتي إلى لون البنّ. وبدأت أتلو سورة " يوسف ". لم أكن أحب أن أقلدها.. إلا أن أصرار النساء جعلني أرضخ. لا تستطيعون تصور مقدار ما يشعر به الإنسان وهو يرى نساء جميلات ينظرن إليه بإعجاب. وقرأت. وانتهيت ثم أكلت.. كثيرا. ثم أعدت القراءة ثانية. كانت روائح العطور تختلط بالعرق الذي يتصبب مني. وببطء بالعرق الذي تصنعه " حواء " . وشعرت أن المبرز يفرغ ببطء. لم يبق في النهاية. سوى زوجة " العامل" وأنا..

وهنا توقف البحار. ورأيت عينيه تلتهمان الفراغ.. كأنه يرسم فيه صورة رائعة لزوجة " العامل"..

" نعم يا أصدقاء.. كنا وحيدين. وانغلق الباب. وسمعت صوتها الملائكي.. تطلب مني أن أتلو لها مقطعا من سورة يوسف. مقطع زوجة العزيز.. وهي تراود يوسف عن نفسها وقرأت المقطع ثم أعدته ثانية وثالثة و" زوجة العزيز " تقترب مني.. كانت ثائرة.. تنطلق الوحشية من بين عينيها.. وتساقطت جداول من شعرها الأسود.. ورأيت شفتيها تتحجران وتركزت عيناها علي.. وبدأت ارتجف.. واختلطت رائحة العرق الذي تصيب مني برائحتها الجميلة.. رائحة النعمة.. والحياة السهلة"...

وحين عدت إلى المنزل كان في حبيبي ريالات فضية جديدة لم أعدها. وفي داخلي حيوان هادئ.. أرتوي لأول مرة في حياته أما الجانب الطيب من نفسي فكان يتعجب.. ألا يتوحد الغني والفقير إلا في هذه الناحية فقط.. أليس هناك فقط تلاقيا آخر؟ فلا يجد الجواب.. وكانت الرائحة تفوح من ملابسي حين كنت أعد الريالات للشيخ.. وكنت أراه يشم الرائحة بنهم شديد ثم قال:..

- لقد تطيبت فيما أرى. ثم وضع يده على كتفي. واستمر .. أرجو أن يديم الله لك هذا الطيب.. فهو الطريق الوحيد هناك لكي تعيش وتتعلم.. ومضى.

وترددت بعد ذلك على كلا المنزلين.. منزل " العامل". ومنزل " الحاكم ". وفي كليهما. كان لي سرير. دافئ. وامرأة.. تمنحني ما أشاء. ولكني فضلت أن أترك القذارة التي أعيش فيها.. أردت من قبل أن أهرب من عبودية العمل في دكان.. لأقع الآن في عبودية .. المرأة.

وفي ليلة كان القمر يرسل فيها أشعته الحزينة.. على المدينة.. وكان الوادي يتلوى بألم.. وكانت أصوات كثيرة. تنبعث من داخل المقابر. خيل إلي أنها.. تقول " لن نموت .. نحن ما زلنا أحياء.. ننظر إلى قاذوراتكم.." انطلقت أقطع الطريق إلى الهضبة.. ومن هناك ألقيت آخر نظرة على " زبيد " كانت المآذن ترتفع إلى السماء.. وبجانبها .ترتفع قلعتان.. تغطيان السور.. أما من الجهة الأخرى فمجرد عشش.. لا غير.

ونامت المدينة.. ولكن المقابر لم تنم. لعلها تجد الحياة في الليل.. حيث لا يكون في " تهامة" أنجاس ولا قيود. لعل الموتى يجدون الحرية.. والتنفس.. في الليل فقط.

ومضيت يا أصدقاء. أقطع الطريق نحو الش

مال. وفي ذات ليلة مسودة. أضاء لي الطريق وهج أحمر. يتصاعد إلى عنان السماء... أهذه هي الحديدة، تستقبلني بالأنوار. وخطوات خطوات إلى أبواب المدينة.

كانت تنام في سهل ساحلي.. ضيق.. يحيط بها البحر. والصحراء تلتهم الجزء الخلفي منها. وكانت تنقسم إلى قسمين.. قسم مبني بالحجارة. واللبن حيث الأسواق وبيت " الحاكم " ودار الضيافة. والميناء القديم المهدم ومبنى كبير للسيارات. وعدة مخازن كبيرة لتجارة الحديدة.. أما القسم الآخر.. فهو مبنى كله من الحشيش وسعف النخيل.. كان لسكني " الأخدام " والطبقة الفقيرة.. وما أكثرها هناك. وكان هذا القسم الأخير هو الذي استقبلني بلهيبه الأحمر.. المتصاعد إلى السماء. كان يحترق.

وجلست يا أصدقاء على باب المدينة بعيدا عن كل شيء. عن الضوضاء. والحريق. والصراخ. كان كل شيء يحترق. وكان الجميع ينظرون هل في استطاعتهم أن يعملوا شيئا لوقف الحريق.. ويهز معظمهم رؤوسهم قائلين.. كلا.. لا أمل. ولكن أتحترق المدينة كلها.؟ فتعود الرؤوس تهتز مرة أخرى.. من قال ذلك إن الذي يحترق دائما هو ملك الفقراء؟ أما ملك الأغنياء فلا يحترق. وأهز رأسي.. أنها دائما نفس القصة. الأغنياء. والفقراء.. ويرتفع اللهب.. ويلتهم عششا أخرى.. ويتصارخ الأطفال والنساء. أن كل ما كانوا يملكون يحترق القسم الآخر من المدينة. كأن الله قد حصن ذلك القسم بقوة غيبيه. لكن العشش تحترق .. وتحترق.

هل أعود إذن من حيث أتيت.. أم أتابع المسير. أنا لا أريد مرة أخرى أن أستعيد هذه القصة الملكية السخيفة.. أغنياء.. فقراء. وأجر قدمي حتى الميناء وهناك في البحر تقف عدة سفن.. لماذا لا تأتي إلى هنا.. فينظر إلي أحد العمال.. الهزيلين. المقطعي الملابس..

الحافين. وأين نقف إن هي أتت هنا. وأشار إلى الرمال المتكدسة على الميناء. إذن لا بد أن أعود. لأنه.. ليس لدي مكان في هذا العالم.

وغادرت المدينة.. والنار لا تزال تلتهم العشش. والفقراء مرميين في العراء.. لا مكان لهم ولا مأوى ولا علاج. لا شيء مطلقا.. سوى الألم. وأرى أمامي قافلة طويلة تمضي إلى ما لا نهاية في وسط الصحراء فالحق بها.. فإذا بأحدهم يقبل نحوي..

- إلى أين يا صديقي..
- معكم أينما ذهبتم..

فيبتسم الرجال وينظر إلى بشرتي السمراء.. كان سمر مثلي.. وكانت كل القافلة.. كذلك سمراء..

- أننا "أخدام " يا صديقي..
- ولو.. لقد أصبحنا كلنا "أخدام" لتفاهة تعشش فوق صدر بلادنا.

وتمضي القافلة وأنا معها فيرتفع من الوسط صوت امرأة حزينة.. لكنه صوت قوي. يردد أغنية فيها الأمل. وفيها الألم. فيها كل مأساتنا. ويسكت الصوت ليرتفع صوت الذي كان بجانبي.. بنفس القوة.. وبنفس النغمة الحزينة.. التي تحمل الأمل.. والألم. وينتهي كل شيء.. بأن أجد نفسي فوق باخرة تشق عباب البحر. تمضي نحو المجهول.

ويصمت رفيقنا البحار لنغوص في دوامة كبيرة من التفكير يقطعها الصنعاني قائلا:

- هكذا نحن. وهل هكذا سنستمر..

ولكن البحار يجيب:

- كنا كذلك.. ولكننا لن نستمر..

ونعود جميعا إلى الصمت.. نفكر في المأساة . مأساة كل يمني.. بلا مأوى . بلا سكن. حتى.. بلا أمل . ورأيت في عين"البحار" ألم دفين. كان يقول:

"لقد رضيت أن أتنازل عن قبيلتي وأسير مع " الأخدام ".. ولكني لن أتنازل عن "إنسانيتي".

لم أحدثك عن القرية منذ زمن بعيد. منذ تركتها .. أن الأحوال لا تزال كما هي. ذهب موسم الأمطار.. وأتي الشتاء. ومعه المجاعة. هناك عشرات.. بل مئات من الأسرة تشردت هذا العام.

كان الوقت ليلا. والقمر يرسل أشعته الأخيرة. قبيل أن يغيب. وسط السحب.. وهواء البحر الرقيق يداعب وجوهنا.. بينما يصفر الصنعاني. لحن أغنية صنعانية قديمة ثم ينطلق بكلماتها. وبجانبه كان " البحار " يرسل نظراته الحائرة القلقة دائما إلى المجهول. ثم يغمض عينيه ليسترسل في أحلامه. بينما كنت انظر إلى الجميع.. أفض رسالة حملها "الجمال" لي منذ ساعات. ونسيت تلاوتها.. وبانت الحروف صغيرة.. والخط غير واضح.. وبدأت الكلمات تتراقص أمام عيني. ثم تتراقص حتى أصل إلى التوقيع.. "محمد مقبل" . ثم أعود إلى البداية من جديد. واهتزت الورقة. وتراخت يداي وقدماي. وشعرت بالحرارة الخانقة.. تسري في جسمي. وبدأ العرق يتصبب من جسمي. وسكنت صفارة الصنعاني. بينما بدأت عين البحار ترمقني بقلق وأضح.. كانت الورقة تهتز بعنف وجعلت أحدق في الغرفة ثم أعود لأحدق في الكتابة من جديد.

وشعرت بيد الصنعاني تهزني بقوة ونظرت إليه.. كنت قد نسيت وجوده. بل لقد نسيت وجودي. دقائق بسيطة لا تتعدى الخمس. شعرت فيها أنني بعيد عن هذا العالم.. وسمعت صوته. صوت الصنعاني. كأنه فحيح أفعى. كان يهزني. وكان يتكلم.. ولكني لم أسمع ما قاله..

وهزني بعنف.. أكثر من قبل فخفض رأسي.. ثم مسحت حبات العرق المتصببة.. ونظرت إلى الجميع.. وسمعت صوت الصنعاني واضحا..

- مالك..؟

- وأشرت له بالخطاب.. وخرجت الكلمات من فمي ميتة..

- لقد ماتت..

- من؟

ماتت.. لا أدري كيف.. كل ما هناك أنها ماتت..

- وهزني من جديد..

ولكن من هي التي ماتت..

ونظرت إليه في استغراب..أهو لا يعرف إلى الآن من الذي مات؟؟ ثم نظرت إلى "البحار" كأنني أريده أن يفهم الصنعاني.. ولكني رأيت عيون البحار تتابعني في فضول وتساؤل. من مات.. ؟؟

وأشرت لهم بالخطاب..

- ألا تعرفون من مات.. وارتفع صوتي فجأة.. اذن ماذا تعلمون هنا..؟ وانزع الصنعاني الخطاب من يدي.. وبدأ يقرأ بينما غبت أنا في تفكير عميق.. وسطور الخطاب القليلة تظهر أمامي في وضوح..

"الولد نعمان.. حفظه الله..

انتقلت إلى رحمة الله.. هذا اليوم زوجتك.. هند .. وهي تضع مولودها. الأول. وكانت الوالادة صعبة مما أدى إلى وفاتها..ووفاة الولد.. أرجو أن تتحمل الصدمة.. فإن لله وإنا إليه راجعون..

والدك محمد مقبل"..

وتساءلت.. هذه الكلمات البسيطة.. بل التافهة.. تحمل كل هذا النبأ.. ماتت.. ولكن كيف ماتت؟.. ولماذا؟ أنها لم تخبرني بذلك عندما تركتها تبتسم في الوادي.. ولم تخبرني حين وضعت يدها على بطنها.. تقول..

- أن في داخلي شيئا يتحرك يا نعمان..

كانت مسرورة أنها ستلد.. وكانت تقول لي دائما أنها تتمنى أن تلد "ولدأ" يكون مثلي.. قويا.. وسيما. ثم يموت كل ذلك التوقد.. والقوة الخارقة. أنني أعرفها تعمل في اليوم أكثر من عشرين ساعة أحيانا.. فلا تتألم ولا تشكو. كانت تعمل في البيت. وفي الحقل. وفي كل مكان. أنني لا زلت أذكر.. أننا ذهبنا يوما لنأتي بحشيش للماشية من مكان بعيد عن القرية فحملت أكثر من عشر حزم بينما حملت أنا " حزمتين" اثنتين وكنت أزحف تحت حملي.. بينما مضت هي بحملها الثقيل إلى أن وصلت الدار. ثم عادت إلى منتصف الطريق لتحمل معي. كل ذلك النشاط يموت. أنني لا أصدق مطلقا.. ولكن ها هي ذي السطور الخمسة تظهر أمامي.. مرة أخرى.. هل جن محمد مقبل ليخبرني بذلك..؟ لا بدوانه جن.. ولكن لا.. لقد رأيت الجمال وهو يمد لي الخطاب كان يبدو حزينا.. وكان مترددا في إعطائي الخطاب.. ولكني لم ألا حظ ذلك. لقد كنت اليوم مسرورا.. حتى أنني نسيت أن أسأله.. ككل مرة.. عن صحة العائلة. وهو بدوره لم يخبرني اليوم عن شيء.. وأن مد الخطاب.ثم رأيت سحابة حزن مر على وجهه المتجعد. وتناولت الخطاب ووضعته في جيبي. ومضيت للعمل. ونسيته حتى الآن. يا الهي.. أكثر من عشر ساعات وهي ميتة في جيبي.. أه لقد ثبتت الحقيقة أنني لا أحبها.. أثناء.حياتها.. أو بعد موتها..لقد ماتت ولكنها كانت تقوم حتى أثناء موتها بعملية خلق.ز كعملياتها الخلاقة طول حياتها.. ولكن هذي العملية أدت إلى هزيمتها. لأول مرة. هل أضع لها تمثالا في قلبي.. حتى أتذكرها إلى الأبد.. وصعقتني هذه الكلمة الأخيرة. أذكرها.. أتراني سأتذكرها حقا. أنا الذي لم اتكلم عنها مدة الأشهر الخمسة التي قضيتها في "عدن" كأنها لم تكن موجودة في الحياة. نعم لقد كنت مقصراً في حقها. وهي حية. ولكن.. ما العمل الآن؟ وكيف أستطيع تذكرها..؟؟

ونظرت حولي. كانت الوجوه التي تحيطني قد تحولت إلى ألوان شاحبة حزينة. لماذا يحزن هؤلاء.. هل مات لا حدهم إنسان كان يحبه.. كان يحبها نعم. لقد كنت أحب "هند" منذ زن بعيد.. ولكن هذا الحب مات.. بعد فترة قصيرة. لست أدري لماذا .. أم لأن نساء المدينة قد أثرن في إلى درجة نسيت فيه كيف تكون نساء القرية. ولكن . هل كنت أحب " هند " ؟؟ ذلك سؤال لا بد أن أجيب عليه.

ورأيت أن الوجوه الصفر التي أمامي ما زالت تحدق في. ماذا يريد. هؤلاء مني؟؟ لماذا لا يدعوني أفكر أتذكر ما هو هذا الشيء.. ؟ يا الهي. ما الذي حدث. العيون تلتهمني. لا بد أن أهرب. إلى أين ..؟ لا بد أن أبكي.. أبكي. نعم.. أنني لم أبك حين علمت بالخبر. حقيقة.. لقد أصبت بالدهشة. لأنني لم أكن أنتظر من "هند" بالذات أن تموت. لكني لم أبك. لماذا.. لا بد أن أبكي. نعم لابد. أيتها الدموع لماذا لا تنزلين.. انني أرجوك.. ولكنها تأبي .. هل جفوني مصنوعة من الزجاج.. تتأثر.. ورأيت قطرات من الدموع. تتساقط من عين الصنعاني . ترى ما الذي جعله يبكي أن الذي مات لم تكن زوجته. بل زوجتي أنا .. ولم يكن طفله. بل طفلي. بل طفلي أنا. فلماذا يبكي أذن؟؟ لا بد أن هناك أمرا. نعم. لعله تذكر. زوجته .. أن ذلك جائز وهذا "البحار" أليس لديه أحد يتذكره فيبكي.. لعلي أستطيع أن أجد من دموعهما.. مساعدا لدموعي أن تنزل. ولكن البحار لا يبكي. صلب عينيه في الفضاء. وأدار في فمه كلمات لا تسمع. ما هي يا ترى .. هل يقول مثل محمد مقبل " أنا لله وأنا إليه راجعون " . من هو الله هذا الذي أوجدنا في هذه الحياة. ليأتي في النهاية يقول إنّا إليه راجعون. هل نحن مقيدون به بحيث أننا لابد وأن نمضي إليه. إذا كان الأمر كذلك لماذا لا يدعنا نتمتع بشبابنا. ثم، حين نشبع من كل شيء لا مانع لدينا.. أما أن يأتي إلينا ونحن لما نزل في زهرة العمر

ليقول لنا أننا إليه "راجعون ". من هو الله هذا الذي أوجدنا في هذه الحياة. ليأتي في النهاية يقول أنا إليه راجعون. هل نحن مقيدون به. بحيث أننا لا بد وأن نمضي إليه. إذا كان الأمر كذلك لماذا لا يدعنا نتمتع بشبابنا. ثم ، حين نشبع من كل شيء لا مانع لدينا.. أما ن يأتي إلينا ونحن لما نزل في زهرة العمر ليقول لنا أننا إليه "راجعون " لا بد وأنه "ظلم". لماذا أخذت يا رب "هند" ما الذي عملته فيك.. أنها ما زالت شابة.. كانت تحب أن تتمتع بشبابها أكثر مما تمتعت.. شابة؟.. من قال أنها شابة..؟ ألم أقل من قبل أنها بدأت تشيخ . نعم أنني أذكر ذلك جيدا.. كانت تعمل. وكانت تجهد نفسها. فبدأت وكأنها كبيرة في السن. لم تكن تهتم بنفسها. ولم تكن تعطي جسدها حقه من الراحة. كانت تعمل ليل نهار.. كأن العمل شيء مقدس لا بد من أدائه. لا بد أنها أذن لهذا ماتت..

شعرت بيد تهز يدي التي كانت ممدودة. من الذي مدها. هكذا .. أنا .. أنني لم أفعل ذلك .. لا بد أنهم هم الذين مدوها. هكذا . لكي يصافحوها.. هل يتصافح الناس. ضد الموت؟؟ لماذا يشدون علي يدي؟ أنهم يشجعوني.. إن الذي يحتاج إلى التشجيع هي هند.. لكي تستطيع تقبل حياتها الجديدة. لعلها هناك تجد سعادة. أكثر مما وجدته هنا. أنها على الأقل قد تخلصت من المجاعة.. ومن العذاب. ولكن "محمد مقبل" لم يقل كيف ماتت هل "تألمت".. لا بد أنها تألمت كثيرا.. وصرخت وتقلبت على جوانبها.. لا بد وأنها ماتت وهي تشكو من الجوع.. أنها تحمل كل شيء من أجل سعادة الآخرين.. كم كانت صموتة.. لا تتحدث كثيرا. ولكنها تبتسم .. ولا تتألم ولا تشكو.. كانت في المنزل. وكأنها ليست موجودة.. دون صوت .. ودون ضجة.. حتى عندما نخلو.. كانت هادئة دائما.

هل أنت سعيدة.. فتهز رأسها.. كلا

هل تشكين من شيء.. فتهز رأسها.. كلا
هل تريدين شيئا فتهز رأسها.. كلا
كانت تعمل في صمت.. وتنام في صمت.. وتبتسم في صمت.. كانت مثل أرضنا شابة وخطها الشيب سريعا.. ولكنها تعمل في هدوء وصمت لا تتألم ولا تشكو. ولكنها تبتسم وتعمل. وتنتج. بلا توقف. وبلا منّه.. لقد سقطت الأرض صريعة الطبيعة.. فهل أدركت هند أن دورها هي أيضا. مع الأرض.. لا بد أنها ظنت ذلك.. فذهبت. يا للمأساة ستعود الأرض غدا.. ستنتج من جديد.. ولكن هل ستعود هند.. لا بد أن تعود.. نعم .. أتسمعيني يا هند لا بد أن تعودي. وأضرب الهوى بقبضة يدي.. ثم أنكب على الفراش لا غسله بالدموع. ويخلو المكان.. وأشعر أن جميع الأخطاء التي ارتكبها قد انزاحت. أنني أسقطت دمعة على .. "هند" . لم تكن شفقة أو رحمة ولكن دمعة حب. فلأول مرة أدرك مدى حاجتي لوجودها.. لقد كانت كل شيء في حياتي. دون أن أحس بها.

ماتت " هند " وخيم على المنزل في " القرية " نفس الهدوء ونفس السكون.. لقد كانت " الدينامو " الذي يسير كل شيء فيه.. أن المنزل يشكو الألم. وكل ركن فيه يردد .. لمسات يدها.. الحانية .. لقد كانت أما.. حتى للأحجار.
ولكني مازلت أعيش في " عدن " التقط. أخبار القرية.. من كل إنسان لقد أدركت لأول مرة مدى ارتباطي بالقرية.. حيث تدفن في ترابها.. جميع أحلامها. ولكن أيضا من خلال ترابها ستولد كل أحلامنا من جديد. هناك القلب الحي.. المتفتح أما هنا. يا صديقي فلا شيء سوى جسد ميت بلا قلب.. مجرد أله كبيرة تلتهم الناس والجبال والمعادن. كل شيء فيها سواء.. بلا تميز ..

لأنها كما قلت بلا قلب مطلقا.. وأظن أن جميع من فيها أيضا قد فقدوا قلوبهم.
مدينتنا كبيرة جداً.. حتى أنني لا أعرف حقيقة خفاياها. وفي الليل تلمع المدينة تحت أضواء لا نهائية ويلتهم البحر في أعماقه ضجيجها، ومآسيها. كما يبتلع الناس الذي فقدوا الأمل في حياة سعيدة.
وهناك جوانب الجبال حيث تنام أكواخ عارية.. سوى من السعف والأخشاب يتمدد العالم لا نهائي. يحمل في طياته حقيقة القلب الإنساني الممزق. هناك أقضي هذه الأيام أوقاتي.. بين أحضان امرأة. وتحت تأثير زجاجات الخمر المتتالية. هل معنى. ذلك أنني فقدت الأمل ؟؟ أظن . لأن الأمل أما أن أكون قد فقدته منذ أن ولدت. وأما أنه يعيش.. وسيظل يعيش إلى الأبد.
مضت أيام وأنا أفكر.. ثم وأنا لا أفكر. إن أشياء بسيطة تصنع منّا مآسي.. وأشياء أكثر بساطة.. تجعلنا سعداء. إذن فقد ماتت " هند ".
هذا هو استنتاجي الأخير.. بعد كل ليلة شاقة.. مرعبة . ثم أجد نفسي بين أحضان امرأة.!
من هي؟
لا أعرفها. مجرد امرأة وجدتها في الطريق.. فأخذتها لكي أصب عليها لعناتي..
وتمضي بنا الأيام.. لنجد في النهاية مهزلة كبرى. تحاك حولنا. إنني لا أعرف كيف أعيش؟ فأنا لم أتعلم ذلك إلى الآن. لذلك أجد أن كل صدمة قد تؤخرني إلى الوراء.. وقد تقدمني خطوات.. ولكن الذي أعرفه الآن تماما شيء واحد.. كان يردده الصنعاني من قبل.. أن نسكر ونسكر.. ثم ننسى أننا أحياء، وحين أبدأ في تنفيذ هذا الشعار.. أجد كلمات أخرى أبسط وأكثر وضوحا.. أن نسكر شيء جميل. ولكن أن ننسى تلك هي المشكلة.

إن الخمرة قد تفقدنا الوعي.. ولكنها لا تنسينا. بل تجعل الأشياء التي نريد نسيانها كشريط سينمائي. يتكرر أمامنا بوضوح أكثر مما قد. تفقدنا الوعي.

تلك هي كلمات محمد مقبل. وأنا محتار رغم أن الصنعاني قد ترك " شعاره " وأصبح أكثر تقدما مني . لعله وجد أن محاولته لا تجدي.

أحيانا.. حين أنظر إلى المدينة من تلك الأكواخ الرابضة تحت أقدام الجبل، أجدها كعملاق فتح ذراعيه القويتين. ليخطف كل شيء في أعماقه. ثم يبتلعها أو يقذف بها إلى الخارج الهائج. وأحيانا أراها جميلة. رقيقة. كفتاة عذراء. يصطبغ وجهها بحمرة الخجل. حين تنظر إلى حبيبها. ولا أدري أي الصورتين تطابق واقع المدينة الحي. المتحرك. المليء بالضجيج عجلات قاطرة تبتلع الشريط في جوفها. ثم تقذف به خلفها. ودون توقف. ترى ما الذي حل بالشريط.. أنها الحياة. بكل ما فيها من روعة.. ومأساة. ولكننا نحن اليمنيين لا نشعر. إلا بمأساتها. هنا نجتر ليالينا السوداء.. تحت أضواء خافتة.. في الجبل. أو السيسبان في أحضان عاهرة. أو في مضغ أعشب خضراء من القات. أو احتساء خمره لا تنهي.. كلما شربنا ازددنا ظلما.

القمر يرسل أشعته.. فيبدو حزينا. وحيدا. بلا رفيق. ومن حولي تنبعث ضجة خافته. إنها " زينب ".. عاهرتي الجديدة.. التي تحاول أن تنسيني. حياتي.. ولكنها لا تستطيع أن تنسى حياتها هي. أنها جميلة نوعا ما .. في الخامسة عشر من عمرها لكنها الخريف. ذات عيون ذابلة.. وشفاه صفراء ميتة.. وأنف. عرف رائحة الطين مرارا. وأخيرا جسد.. تتمدد فوقه.. كل طبقات بلادنا. وها أنذا.. آخذ دوري.. فوقه.

وفي هذه الأيام العشر التي رأيتها فيها.. استطعت أن أخرج منها شيئا جديدا. لعله الوفاء.. قالت لي في أول لقاء..

" أني أريد عشرة شلنات من أجل ليلة واحدة. ودسست تلك العشرة في يدها.. ومضينا إلى بيتها.. وما زالت تملك العشرة اليتيمة التي دفعتها لها. لعلها تنتظر مني المزيد.. ولكنها لا تطلبه. كل ما تريده هو أن تأتي وتتمدد بجانبي.. ثم تقول .. أعطني قليل من دفئك".

وابتسم.. لأنني أنا الذي كنت أطلب دفئها. ثم تستمر قائلة.. أنك تموت نفسك يا صديقي. فالخمر تعبها بلا طعم والجسد تمضغه بدون شهية. حتى النوم لا تعرفه جيدا.. دعني أضع قليلا من الهدوء. فأجيبها.. أنني يا صديقتي أريد أن أعيش. أن أسكر. وضاجع.. وأنام. وأعمل كل ذلك. لكي أعيش.. لكي أعرف معنى الحياة.. معنى وجودي.. ولكنها تطلب مني.. (أن أحب.. لكي أعرف الحياة).

وأسألها .. هل أحببت؟؟

فتتنهد. ثم تلتصق بي. أنه هو الذي دفعني إلى هنا.. وتضرب صدري بيدها.. ثم تغوص فيه ها هي ذي تقترب وتتمدد بجانبي.. وتضيف.. دعني أنسيك ألامك. أنه نداء مغر.. ولكنني أمقته. لا أدري لماذا.. هل لأنني أدوس بقدمي هذه فتاه في عمر الربيع. ولكني لا اصدق.. لأن المدينة بصمتها وضجيجها تدوس كل ليلة. ألاف الفتيات.. كما أنها تسحقنا نحن الذي نتصبب عرقا طول النهار.

زينب ملأت حياتي. واستطاعت بكل بساطة أن تشعرني بأن هناك في الحياة.. أشياء جميلة. ولكن الذي يصنع لي الألم.. هو أنني أكاد أنسى هند.. وأن فتاة صغيرة عرف كل أنواع الرجال جسدها.. هو الذي أنساني زوجتي. لماذا أبكي؟ كلنا نموت. وهنا أنستني مأساة الإنسان. وهناك تحت هذه العشه التي أنام فيها مع " زينب " تمتد إلى ما لا نهاية إلى أطراف البحر طيور لا تنتهي. وفي كل يوم أشهد أنسانا جديدا يدفن. وأتخيل كل إنسان في كفنه الأبيض.. وجسده الهامد.. "هند" .. وهي تضم إليه الإنسان الذي ولدته

وماتت معه.. أبنها. وأبني. عندئذ أشعر بالمأساة ليست مأساتي أنا وحدي ولكنها مأساة كل إنسان فأتألم وأبكي. على كل إنسان يدفن هناك تحت نظري. وأنا .. أنا الإنسان لا أستطيع الا أن أشاهد وأبكي. أليس في استطاعتي أن أقف أمام الموت. صائحا - : قف مكانك لا تحاول ن تأخذ البشرية.

وأن أبى.. مسكت بحريته التي يحملها.. وأنتزعها ثم أغرسها في أعماقه وأخلص منه البشرية.

آه. كم أكره الموت. أنه يبدو لي كريها.. هناك تمتد أمامي المقابر. فأخألها. مدينة كبيرة عامرة. يعيشها موتاها. وليست تلك القبور سوى مكان يأوون إليه حين يشعرون بالتعب. أنها حياة. ويزيدها صخبا ضجة الأموات. والزبد الأبيض الذي يمتد إلى أطرافها. حياة أشاهدها كما شاهدها من قبل "البحار". هناك في الشمال على أبواب (زبيد). أنها في كل مكان وفي كل عصر . حكاية تكررت منذ لازال . واستمرت فيه الإنسان أن ينتصر على الموت . ولكن صورة أخرى تظهر من خلال هذه الضباب الذي أعيشة . انه شعبنا . أتراه سينتصر هو الأخر على الموت . على النسيان أتراه سيبني من جديد مآثره وسدوده .. أتراه سيتحدى القدر .؟؟ سيقف أمامه هازئاً ؟.. أنني أؤمن بذلك أحياناً . وهاهي ذي (زينب)استطاعت أن تنتصر على مأساتها .. ولو أنها عاشت في مأساة أخرى .. إنها تبتسم دائما كأنها فتاة عذراء .. فتبدو لي كالشمس وهي تشرق من وراء البحر . فأضمها بين ذراعي وأطبع على شفتيها قبلة .. ثم تتمتم قائلة :

- أتحبني ..
- كلا فأنا لا أحب أحد ..

فيبدو على وجهها الصغير المصفر تجاعيد شابة. ثم تهز رأسها وتنظر معي إلى الأفق ثم تقول: مهما كان سيأتي يوم تحبني فيه.. وأجيبها وأنا أحدق في اللانهاية..

- لماذا تظنين ذلك؟؟
- لأنه لا بد وأن بحب الناس.. أنك لا تستطيع أن تعيش بدون الحب.
- وتعيشين أنت به.
تهز رأسها..
- نعم إني على الأقل أحبك..
- شكراً ياعزيزتي. كل ما أريده هو أن أنسى.. لا أن أحب..
- النسيان عملية صعبة.. ولكن الحب شيء بسيط. أسمع مني إذا أردت أن تعيش.. فحب الناس. أنسى أخطاءهم.. ومعاملتهم..وهبهم حبك. عندئذ فقط تستطيع أن تنسى وأن تعيش.
وأسكتها بقبلاتي.. ولكني أرى أمامي شبحين يقطعان الطريق الحجري الذي عشقناه في تمهل. ثم يقتربان منا فإذا بهما " الصنعاني " و " البحار " . تهب زينب من أحضاني وتذهب إلى داخل العشه بينما أجلس أنا على السرير. في تلك الردهة الصغيرة التي يحيطها سور الأخشاب والزنك وحجار الجبل.. أرى زينب من خلف الستار تنظر إلى القادمين كأنها فتاة خجولة تخاف أن يكتشفها الناس. ما أروعها حين تكون بريئة وتفتح الباب. ويدلف " الصنعاني " بقامته القصيرة وجسمه الممتلئ.. وعلى جسده نفس الملابس القديمة. ويدلف بعده " البحار " بقامته الطويلة وجسمه النحيف.. وعلى رأسه مشده جديدة. وفي يده خيزرانة رائعة.. ويبتسمان. مد الصنعاني يده وشد على يدي بقوة وشوق..
لقد افتقدناك كثيرا..؟
بينما ينظر إلي البحار باسما..
- أظن أنك قد نسيت أننا أصدقاؤك.. وأصافح البحار بحرارة.. فهذا الإنسان الذي لم أعرفه ألا من شهر أصبحت أشعر أنه قريب

مني. وقريب جدا. كان يتألم من أجلي كثيرا.. كأننا رفاق منذ الصبا. وسمعت صوته. وقد أصبح حالما هادئا.

- لقد غبت كثيرا ولم تخبرنا بذلك. وشعرت بالسعادة تغمرني وأنا أراهم بجانبي. وأحسست كأني مريض.. يزورني كل أهلي. وأنطلق الصنعاني يتحدث..

- أذن هكذا ببساطة تتركنا وتذهب..

- هاه أوه أنك لعين. أن الناس عندما يحزنون لا يأتون إلى هنا لكي يحبوا أنهم على الأقل يذهبون إلى المقابر. وقاطعته مشيرا إلى مدينة الأموات. التي تمتد إلى ما لا نهاية. وهز رأسه..

- أنه توقع فريد.. أليس كذلك..؟

قالها " البحار الذي كان ينظر إلى المقابر نظر إلى المقابر نظر عميقة..

- أنها تذكرني بزبيد.. قالها بصوت مخنوق.

- نعم أن كل شيء فيها لم يتغير. أن الإنسان ليتألم.. وهو ير ضعفه أمامه. وصرخ الصنعاني..

- دعنا من الحزن الآن.. أننا أتينا. لكي نشارك صديقنا حبه.. أليس كذلك .. ثم همس في أذني.. أعرف أن ذوقك مرهف.. من هذه الناحية.

أجبته " يا صديقي صدقني أنني لم أنظر إليها. عندما أتيت. لا ني لم أكن أريد الزواج."

ومالت الشمس إلى المغيب خلف مياه البحر. فعكست أنوارها الحمراء على رمال المقبرة البيضاء وعلى الألواح الحجرية المنصوبة على كل قبر.. وعلى تلك القيمة الكبيرة التي تتوسط المقبرة . أنها رائعة. هناك تغيب الشمس.. وهنا يدفن الإنسان. وهناك في قلب المدينة يتألم الكثيرون.. بينما آخرون يمسحون العرق من فوق أجسادهم .. وهم منهكون. في داخل كل منهم حلم

كبير في حياة سعيدة. وفي أحضان أناس يحبونهم. أنه لا يعرف أن المصير هنا على بعد خطوات. ما العن أن نعيش لنموت.

وخيم الصمت علينا. نحن ننظر إلى " البحار " وهو يودع الشمس.. وينظر إلى المدينة والمقبرة. كان كل شيء قد أصطبغ باللون الأحمر. حتى وجه الصنعاني والبحار. وسمعنا أصوات الأمواج.. وهي ترتطم على رمال وصخور الشاطئ. بينما الزيد الأبيض يتحول إلى رمال.. تحت أقدام لمقابر.. إلى لون أحمر.. أحمر كالدم.

أنها دماء لأموات.. تنبعث من أجساها. أنهم ما زلوا أحياء.. يتألمون... ويلعنون كل شيء.. ثم يبصقون دماءهم حتى البحر.. أنه يعرف سرهم. ولكنه لا يتكلم. أنما يمتص دماءهم في جوفه.. ثم يعود إلى الشاطئ من جديد.

كان البحر يتكلم ونحن نستمع إليه .. وشعرت بشيء يشدني.. ورأيت في الأفق.. صورة صغيرة. بدأت تكبر. كلما اقتربت منا.. كان وجها أحمر في ملابس حمراء.. وبين يديه شيئا أحمر أيضا.. ورأيت قطرات تساقط من بين اليدين.. وكذلك. قطرات أخرى تنزل بغزارة من الرجلين.. ثم مرت الصورة. من فوقي مباشرة. وشعرت بقطرات تتساقط فوقي.. أنها هي؟ وصرخت بعنف.. هند .. هند..

والتفت الجميع إلي.. ثم قال الصنعاني. بصوت أخرجني من ذهولي..

- أنها السماء. تمطر.

ودخلنا ألعشه. وهناك كانت " زينب " تصنع شيئيا ما. على النار. والتفتت عند دخولنا.. وأشرت إليها أن تقترب. ونظرت إلى الأصدقاء وقلت لهم في صوت خافت. هزيل.. وأنا أشير إليها.

- هند.. أنها هند ثم التفت إلي الصنعاني قائلا: أليست هند جميلة..

وخيم سكون عميق. وقادتني " زينب " إلى السرير. كان العرق يتصبب مني بغزارة.. وشعرت بالارتجاف. ثم رأيت عددا من " الكنابل ""١" وهي ترمي فوقي. وسمعت صوت الصنعاني يقول.. أرأيت ؟؟ أكان ضروريا أن تتحدث..؟ وأجابه البحار. لا تلمني؟؟ إنها الذكرى طغت علي..

بينما قالت لهم زينب بهدوء.. أنه ليس ذنبكم.. أنه ذنبي أنا.. أردت أن أنسيه شيئا عزيزا عليه. دون أن أفكر. أن هناك أشياء لا تنسى. كنت أظن.. أن الناس مثلي .. ينسون كل شيء بمجرد أن يشعر، أن حياتهم ستكون سعيدة.. حين يحبون.

ونظرت إلى الأصدقاء الذين كانوا ينظرون إلي بهدوء. وفي داخل كل منهم صور عديدة تتصارع ثم رأيت كلا منهم ينسحب في هدوء.. بينما أشتد ارتجافي، وبدأت أردد.. كلمات متقطعة... هند.. هند.. الدم مطر.. لا أريد أن أرى شيئا.. أبعديه عني.. أرجوك الدم يغرقني.. الأمطار أنها تهدم كل شيء.

وتساقطت قطرتان على خدي.. ثم شعرت بالجسد الصغير. النحيل. يمدد فوقي. لم يكن شيئا آخر.. يدفئني سوى جسدها. قطرات تتساقط من عينيها وقبلات حالة طبعتها على كل مكان في جسدها كانت تتعذب من أجلي.

عدت إلى المقهى فجأة. تركت كل شيء. زينب. عشها. وجسدها.. وعدت إلى الأصدقاء. إلى الغرفة. ذات السرر الخمسة. والضوء البسيط. والكتب التي احتفظت بها في صندوق خشبي. صغير. تحت سريري.

واستقبلتني الوجوه.. الكادحة. التي خططتها التجاعيد.. وهي لا زالت شابة. ولكن الابتسام الذي كان يرتسم على تلك الوجوه يوحي بالثقة.. والإيمان. ورأيت يد ذات أصابع سمراء.. نحيلة تمتد إلي وتشدني. وجدت نفسي أغيب في صدر عريض

يملاه الشعر الأسود الكثيف كان " الحاج علي " بسنواته الستين يعانقني. في حب عميق كان كل ما في المقهى ينظر إلي وكأنني إنسان جديد . خلق أو خرج من القبر. لماذا يشاركوني في هذا الألم. لكني لم أتمزق.. كان ألما بسيطا ثم أغرقته في بحر آخر.

سمعت صوت الصنعاني وهو يقهقه من داخل المقهى. لم أكن قد رأيته بعد وأشار إليه صاحب المقهى قائلا.

- لقد بدأ يشرب من جديد. وبكثرة هذه المرة.

- ولكني سألته بدهشة.. لماذا ؟؟

- الا تعلم.. لقد أقفلت الشركة أبوابها .. وأعلنت الإفلاس. وطردت كل العمال حتى.. حتى أنا .. أليس كذلك؟؟

وشعرت بسكين حادة تخترقني.. لماذا طردت؟؟ أنا لم أفعل شيئاً.. لقد أخذت من الشركة أجازة بعد وفاة " هند " وها انذا مستعد للعودة للعمل. ورأيت الصنعاني يقف أمامي. كانت عيناه غائرتين وجسده يهتز بعنف. ورأيته يبتسم. أنه لم يكن كذلك منذ أسبوعين. حين أتى لزيارتي في الجبل. أيتغير الإنسان بهذه السرعة. وارتمى يعانقني وسمعته يمتم..

- لقد عدنا إلى الضياع من جديد. حتى أنت..

وأشار بأصبعه. حتى أنت هذه المرة..

- أن أمانا العالم كله.. فلماذا نحزن... وهز رأسه..

نعم. ولكن هذا العالم هنا.. آه ما أتعسنا.

وذهب كل إلى سريره. كانت كل الوجه تنم عن شيء وأحد : الفراغ. وأشرت إليهم..

- حتى هؤلاء طردوا ؟؟

- نعم. الجميع.. ما عدا. البحار. فإنه ما زال مستمرا في عمله أنه ليس في شركتنا.

وجلست على سريري أنظر حولي في استغراب. كان كل شيء قد تحول في هذه المرة.الناس كل يجلس على سريره بنظر إلى الآخر

بفراغ.. ومنهم من قد نام وآخرون يقفون على باب المقهى ينظرون إلى الشارع. آخرون تمردوا على كل شيء.. حتى على أنفسهم. ولم أعد أرى تلك الملابس المزركشة. التي كان يلبسها شباب " المقهى " بعد العودة من العمل.. كان كل منهم يلبس ملابس عادية.. ولا يهتم بشيء.

وأدرت النظر علي الجميع.. حتى الصنعاني رأيته قد تمدد على السرير وراح في نومه وسمعت شقيقه.. وهو يتقلب فوق السرير.

ومد الحاج علي خطاب إلي وهو يقول..

- لقد وصل هذا منذ أيام. كنت أريد أن أرسله لك. ولكني لم أعرف أين كنت.. لذلك احتفظت به معي.

- شكرا. أرجو أن تكون أخباراً طيبة..

وفتحت الخطاب. مررت بعيني سريعا.. على كل شيء لأرى في النهاية توقيع " محمد مقبل ". وعدت لا قرأ ما فيه بإمعان.. وابتسمت وجعلت أهز راسي.. كان يشجعني ويطلب أن أتحمل.. وأن أعمل بإخلاص. ثم يطلب مني أن أرسل لهم نقودا. لكي يدفعوا " للشيخ " ضرائب الأرض. والزرع. وإلا تعرض والدي للسجن.

إذن. هناك مصائب في كل مكان. لقد أرسلت لهم حين ماتت هند معظم ما كان معي من نقود. وألان ها أنذا.. لا أملك " سنتا " واحدا. وقد طردت من عملي. هكذا بدون سبب. إذن ما العمل؟ جعلت أفكر.

رأيت الصنعاني يتثاءب.. ثم يعود إلى النوم شعاع صغير من الضوء يخترق الردهة. ويصل إلى الغرفة. وسمعت خطوات تقبل.. ثم رأيت قامة مديدة تقف على الباب. كان " البحار " قد عاد من عمله. وتصافحنا.. وشعر أن هناك شيئا.. وأريته الخطاب. وهز رأسه. وقال بعد أن أنهى القراءة.

- ما العمل الآن.

- لا أدري. سأذهب إلى الشركة. لعلني على الأقل أجد مستحقاتي. عن عملي فيها..
- وإذا لم تجد..؟
- يجب علي أن أحاول..
- لقد حاول الكثيرون... كان الجواب: الشركة أفلست. ليس هناك فائدة يا نعمان. يجب أن تبحث عن عمل.. ولو نني أشك في حصولك عليه.

نعم ليس هناك فائدة. وها أنذا بعد هذه الأيام والشهور. أعيش بلا عمل.. سوى الذكرى ذكرى أيام القرية. وزوجتي.. ثم عملي.
والآن ما العمل..؟ لا أكاد أصدق. أنني أعيش بلا عمل. والتفت حولي لأرى كل واحد من هؤلاء.. الذين كانوا بالأمس يشكون من إرهاق العمل. وعدم وجود راحة كافية.. أجدهم الان يشكون من الفراغ.. من الراحة هل هذه طبيعة بني الإنسان. يكرهون شيئا. وإذا فقدوه أحبوه. وتمنوا أن يعود.. أظن ذلك.
هل أعود إلى القرية. هذا هو السؤال الذي يواجهني الآن. والتفت إلى " البحار" أحاول أن أعرف رأيه. ولكني أجد همسات تتابع من بين عينيه. فأسكت علني أسمع هذه الهمسات من فمه.. ولكنه صامت لا يتحدث. والصنعاني.. أننا لا نراه هذه الأيام. لعله في الحانة.. يعب لينسى. والآخرون.. كل هؤلاء الذين كانوا بالأمس يفيضون شباباً وفتوة.. كسالى.. يتفوهون تفاهات .. وينامون..أو يتهامسون.

- يا ترى هل يرضى صاحب المتجر أن يسلفنا نقودا..؟

ويجيبه همس أخر..

- لا. لا تكن مغفلاً.. ألا يكفيك ما أستلفته من قبل..

وصوت ثالث..

- من أين نأكل إذن..

ورابع.. وخامس.. إنهم لا يعرفون كيف يفكرون..

وأرى البحار يعاني من الكلمات. ما العمل ..؟ كيف أجبره على الحديث.. ولكن شيئا ما يحدث فجأة .. يقلب أمامي كل شيء. أسمع صوتا.. قويا. معبرا. فيه ألم. وفيه.. مرارة. و..

- فين نعمان؟ . يا نعمان . يا نعمان..

والتفت إلى الصوت الدافئ الحزين .. الذي أعرفه جيدا.. صوت " محمد مقبل ". وارتمى في أحضانه.. كطفل تهاوى فجأة بين أحضان أمه.. بعد بكاء عنيف. وأحسست بالراحة. تشملني. الراحة أو قل الحماية.. لقد عدت طفلا.

ويريت " محمد مقبل " علي.. إنه لا بد أن يعرف المأساة. وأجلس بجانبه.. وأمامنا البحار يحملق في الرجل العجوز الذي حطمته السنين ورأيت في محمد مقبل شيئا جديدا. كان قدتغير.. أصبح أكثر نحافة. وظهرت التجاعيد على وجهه بشكل قوي.. وكانت دوائر سوداء كبيرة تحيط بعينيه كسور ضخم. ورأيت في ابتسامته شيئا . كاليأس .. أو.. آه لا أدري ما هو.. شيء كبير جثم على صدري فجأة.. فأحسست بالضياع هل هناك مأساة أخرى..؟؟ وظهر السؤال واضحا فوق عيني..

- نعم يا بني .. إنني أعرف ما الذي حدث لكم.. وهز محمد مقبل رأسه.. واستمر.. ولكنها مشيئة القدر. وجعل يهز رأسه.

هل آمن محمد مقبل بسرعة بالقدر..؟ هل أصبح فيه كل مأساتنا..؟؟

ولكني لم أدع أفكاري تقودني بعيداً. بل جعلت أحاول أن أؤجل سماع ما جاء به محمد مقبل.. إلى ما بعد. أريد ن أستعد لاستقبال كل ما يريد قوله.

ولكنه لم يراع ذلك. كأن شيئا ثقيلا يجثم على صدره. فوق كاهله.. شيئا لا يتحمله. فهو يتعجل للخلاص منه .هل أهرب.. ؟ أم أتشجع لأسمع ما يقوله .. ولكن لماذا اتى من البلد ..؟ وفي هذه الظروف بالذات. وكيف حال القرية. هل حدث هناك شيء.. لا

أضن. لقد سمعت أن الأزهار قد بدأت تتفتح هناك.. ولكن على القبور فقط. لعل وردتي الحمراء التي وضعتها على قبر " فتاة الجبل " قد أينعت. هل يا ترى .. أحد وضع على قبر زوجتي وردة. ولكن لماذا يضعها.. وما علاقته بها.. ؟ يا إلهي. اترى .. أترى ذلك حقيقياً. كلا.. إنها ملاك. نعم. ولكن كذلك كانت "فتاة الجبل ". جميلة. نقية. ملاك. ولقد وضعت أنا على قبرها وردة. أنها حمراء. كلون الدم.. أو كلون الغروب فوق جبال بلادنا .. حين تتحول كل القمم أمامي. إلى حراب ملوثه بالدم. يا لها من مجرمة هذه القمم. تلتهم في أحضانها ألافاً من التعساء. يعيشون بلا حياة. بلا غد .. حتى بلا أمل. أنهم يزرعون الأرض.. ولكن ليطعموا الآخرين. أن الأرض ليست بالنسبة لهم سوى قبر يدفن فيه كل طاقاتهم.. ثم كل جثثهم. لا فرق بينهم وبين .. وبين من ... ولكن ما الذي حدا بمحمد مقبل إلى العودة.. أتراه اشتاق لحياة المدنية من جديد؟

ونظرت إليه .. كانت في عينيه قطرات من دموع تتساقط.

لماذا يبكي.. ؟ والتفت لأرى البحار. كان هو الآخر في دوامة.. من التأثير.. هل قال شيئا؟

- ولكن لم تبكي؟؟ ما الذي حدث..

ورفع رأسه: لا شيء.. لا شيء..

كيف لا شيء . وهذه الدموع؟

ولكنه لم يقل شيئا.. هذا الرجل. يتصرف بغرابة.. يبكي وهو لم يصل إلى هنا إلا منذ لحظات.

وكان جو المقهى مختنقاً. والحرارة تلهب أجسامنا. ورأيت نفسي سابحاً في بحيرة من العرق. ورغم ذلك فقد كنت أشعر بالبرد. ورأيت فوق جسمي كتلاً مرتصة من الملابس.. ما الذي حدث.؟ من ألبسني هذه الملابس كلها.. ولم أشعر رغم ذلك بالبرد. وسمعت صوتاً يأتي من بعيد..

- إنه يهذي منذ أسبوع..

والتفت لأرى من يتكلم.؟ ومن هو ذلك الذي يهذي. ورأيت الصنعاني يترنح في سكره.. لعله هو الذي يهذي. مسكين هذا الصنعاني.. أنه سرعان ما يفقد كل شيء. حين يحس أنه وجد كل شيء.

ورأيت أشباحاً كثيرة حول محمد مقبل.. وحاولت أن أبعد هؤلاء الناس عنه..إنه يكاد يختنق. ألا ترون. أفسحوا له الطريق. ومددت يدي لأدفع هؤلاء بعيدا.. ولكن ماذا هناك.؟

.إنني لا أستطيع التحرك. أنا مقيد.. هنا. فوق سريري..إن رأسي يشعر بالدوخة. ثقيل لا أستطيع الحركة. هل انفجرت قنبلة فيه. أن العالم يدور.. الغرفة تتلخبط.. الناس يضيعون من أمامي. محمد مقبل. أين أنت . أين أنت؟

ولكن كل شيء ينمحي. ويضيع في دوامة. ويقهقه صوت سكير. وأشعر بالصوت يمزق أذني: لا تقهقه.. أيها السكير. أنتم لماذا تقفون هكذا؟

ابتعدوا. عليكم اللعنة. يا ألهي.. ما الذي حدث.. زينب.. أنقذيني..أين أنت. مدي لي يدك. أنك رائعة. ملاك.. وينتهي كل شيء. ويغيب العالم من أمامي.. ولا أرى سوى الضباب.. أشعر بالراحة.. لقد تخلصت من هؤلاء السخفاء.. أنني هنا وحيد.. أشعر بالراحة.. الضباب يغلف كل شيء. وأرى على بعد.. بحيرة جميلة تحيطها أشجار جميلة.. تحمل كلها أجمل ما يشتهيه الإنسان.. وفوق الماء. أرى ثلاث فاتنات.. كل واحدة أجمل من الأخرى.. وأسرع بالمسير لأرى هذه الجنة التي خلتها.. من دون باب.. ومن دون حارس. يا لهؤلاء الكذبة.. أنهم يكذبون على الناس.. يا للعجب يقولون أن للجنة أبواب.. وعليها أيضا حراس.. من أين يعرفون الجنة ليصفوها.. أما أنا.. فها هي ذي أمامي .. بلا رقيب فلامرح .. كيفما شئت وتسرع الفتيات الثلاث إليّ حين أصل

إلى البحيرة.. كل واحدة منهن تريد أن أكون لها . ولكن يا إلهي.. هل أنا أحلم. أم أن هناك خرافة تعيش داخلي.. أنا لست في الجنة.. ماأزال على الأرض. أن هؤلاء.. يا إلهي.. ولكن كيف وصلن إلى هنا. يا للخبيثات يعرفن أين سأكون! واقتربت أحداهن.. أنها " فتاة الجبل السمراء " بابتسامتها الجذابة. وأنوثتها.. وصرخات الشيطان تنطلق من ثنايا صدرها. أنها جميلة. بل أجمل مما كانت عليه هناك في الجبل.. ألا تريدني.. أنظر.. ألست جميلة؟ أنا لك يا نعمان.. خذني. إنني أحبك .. ألا ترى كل هذا الجمال. لقد مت من أجلك فقط. وها أنا أعود إليك. لقد طلبت من الرب أن يجعلني هنا من أجلك..

ولكن الأخرى تقاطعها..

- أنت تكذبين على الرب.. أنا التي طلبت منه ذلك.. أحبه أنا .. وهو لي أنا وحدي..

جريئة لا تهاب.. لعل صناعتها في الحياة علمتها ذلك إنها زينب.. ولكن متى أتت إلى هنا...؟ وتبتسم وتقترب مني .. وتحيط ذراعيهابعنقي .. وتبتسم..

- لقد سبقتك بلحظات.. حين علمت أنك تموت.

أموت. ولكني لم أمت. لقد كنت فقط أشعر بالاختناق في غرفة المقهى فهربت منها..

- بل لقد مت يا حبيبي.. وها أنا لك الآن..

- أنها تكذب.. بل أنا لك .. لقد أحببني. فوق الجبل كنت أراك. وأنت تختلس النظرات وتحاول أن تبتسم ثم لقاؤنا وأحاديثنا.. وتلك الوردة الحمراء التي زرعتها فوق قبري. ألا تذكر.. فقد أينعت. إنها لك يا حبيبي.. ومدت لي وردة حمراء يقطر الدم من بين فروعها..

- إنها وردة. انتزعتها من هنا... وأشارت إلى مكان في صدرها تتساقط منه الدماء.. لقد زرعت الوردة. هنا يا حبيبي. فوق هذا

الصدر الذي يحمل قلبي. الذي هو ملك لك وحدك. أرأيت أنه يدعوك أن تملأه من جديد.

ويتصاعد من خلف الفاتنتين صوت بكاء. وأزيح كل من " زينب " و " فتاة الجبل " وهناك خلفهن. وفوق صخرة على شاطئ البحيرة. كانت " هند تجلس نفس جلستها أمامي في الغرفة أو فوق سطح المنزل. نفس إيماءتها. وحيائها. أنها لم تتغير. بل لقد ازدادت شحوباً. واقتربت منها .. ولكنها لم تلتفت . بل استمرت في البكاء. ومددت يدي أحاول أن أوقف تلك الدموع ولكنها تستمر. ومن بين دموعها. كانت تتحدث.

- أيها الخائن. كنت أظن أنني الوحيدة في قلبك. كنت أحبك.. وأخلص لك .. وبعد أن مت طلبت من الرب أن يعيدني إليك. ولكنك خائن لا تستحق أن أكون لك. أبعد عني.. لأنني لا أريد أن الوث هذا المكان بخيانتك.

- ولكن. يا حبيبتي. هند .. اسمعيني فقط..

ولكنها تبتعد وأحاول اللحاق بها. ولكن أربعة من الأيدي تمتد إلي ..

- إلى أين. اتركنني..

- أيها الخائن. لقد كنت تقول. أنني الوحيدة التي تحبها..

- يا لك من كذاب. لقد كنت تتمنى أن أكون معك حتى الموت..

وأرى هند تبتعد. إنها تعرف الآن خيانتي.. ولكنها لا تحاول أن تنقذني منها..

وتمتد الأيدي الأربع. بعيداً عن هند وبعيداً عن خطاياي. بعيداً إلى هناك. إلى قاع البحيرة.. وترتفع روحي. من جديد. من قاع البحيرة. سوى هند. فوق الصخرة تبكي. وبعيداً.. وبعيداً جداً.. ربما على باب الجنة. وقفت الفاتنتان لعلهما تبحثان عن من يدخل الجنة.. وترتفع روحي إلى السماء الأخرى.. ألا يقولون أن

هناك سبع سماوات.. إذن فلا بد أن هناك سبع جنات. وإن الإنسان يموت سبع موتات.. يا لهذه السبعات المتعبة. حتى الموت يا إلهي.. وأغيب في الفضاء من جديد.

كانت السيارة تقطع الطريق إلى الراهدة وقد تمدد عليها الصنعاني وكنت أنظر إلى جبال الشمال وفي قلبي أغنية عذبة.. لا يهم سأعود مرة أخرى إلى عدن ويبتسم الصنعاني...

- ماء يا نعمان.. سأعود إلى صنعاء..؟

نعم يا عزيزي سنعود إلى صنعاء...

- ماذا سيقولون علينا. مزفرين؟

- دعهم يا عزيزي يقولون ما يشاؤون. لقد قمنا بقليل من واجبنا..

وأطلت الراهدة.. ووقف على أبواب الجمرك بعض الجنود وقال أحدهم . ماء أنتم مزفرين ؟ وأجبته دون أن أحاول النظر إليه.. نحن عمال . كنا ضد الاستعمار.. وقهقه البغي.. عا تعملوا إضراب ضد موالانا. (عاوديكم حجة)

أما الصنعاني فكان ينظر إلى السماء وهو ممتد على السيارة يصفر بأغنية صنعانية حزينة.. وقال بعد قليل: شا نكتب جواب " للبحار مه " ؟؟

- ولمحمد مقبل أيضا..

- سنخليهم يرجعوا صنعاء..

- يس هناك فرق..

ونظر إليّ وفي عينيه حزن..

نعمان. هل ستعود إلى عدن..؟

- لم أجبه ولكني رحت أصفر الأغنية الصنعانيةالحزينة...

ريحانـــة

مجموعة قصصية

ريحانة

هؤلاء الأغبياء يتعمدون إزعاجي في مثل هذا الوقت المبكر. قلت لهم أكثر من مرة بأنني لا اريد كدمتهم ولا فنجان الشاهي المليء بالقاذورات. لكن مستحيل أن تُفهمَ عسكرياً بما تريد وأنت سجين. اللعنة، إن الشمس لم تُشرق بعد. وهم يفتحون زنزانتي ليقدموا لي هذا المزيج الكريه من الأشياء.

فتحهم للباب مزعج، ووضعهم للأشياء أكثر إزعاجاً، وإذا تجاهلت وجودهم يصرون على أن ينزعوا الغطاء لإيقاظي. يا رب أهو سجن أم تغذيب غبي مركز؟. أن أبقى طوال النهار أحدق في سقف الزنزانة أو أعد الذباب أو أقتل المزيد من (الكتن).

تمر الأربع والعشرين ساعة وكأنها دهر كامل، والنوم لا يحلو إلا مع ساعات الصباح، عندما يصر (الرَّسم) على إدخال ما يسمى بالشاهي والكدم.

لا صباح الخير ولا سلام عليكم، بل هيا.. (جم). الشاهي قد هو بارد. إدرسهم أجد هذا الأسلوب من التعذيب، القيد في قدمي مع الصباح وكأنه قطعة ثلج.. والنوم في هذه الساعات حلم رائع بعيد عن القلعة وزنزاناتها.. عليَّ أن أتعود النوم مبكراً والصحو مبكراً، ولكن لماذا هذا؟. أنا لا أعمل شيئاً طوال اليوم لا لعب هناك ولا قراءة، لا شيء.. في السقف ثمانية أعمدة خشبية مغطاة بالجص ومن الخشبة الثالثة تساقط الجص من الوسط فتكونت منطقة فراغ، تحولت إلى مأوى رائع (للكتن). الخشبة السادسة معوجة كتمثال سريالي لامرأة عارية معوجة الساقين. أما الخشبة الثامنة فهي ملاصقة للجدار تبدو كصورة حلوة لساحرة نائمة وقد أعطت ظهرها لفنان مجنون. في زنزانة صغيرة.. إثني عشر قدماً في ثمانية أقدام. التراب تجمع كبحيرات صغيرة في أنحاء الغرفة.. وكل يوم

ترسل صنعاء إلى الزنزانة المزيد من هذه الحبات الناعمة من ترابها. لو كان يوجد ماء معي في الغرفة لحولتها إلى حديقة زهور!!، زهور؟!. هنا في القلعة زهور يارب ما أبعد الصورة.. على جدران الزنزانة أسماء لمساجين سبقوني إليها، صالح علي، الشيخ الذاري، مطهر.. أسماء غريبة وعجيبة تحت كل أسم عبارة لا تتغير (أنا مظلوم) (يا رب خارجني وأظلم من ظلمني).. لم أكتب اسمي هناك، تذكرت بيتاً من الشعر، وكتبته تحت الأسماء، بعد أن حورت في البيت..

(دخلنا إلى السجن صفر الوجوه

كما تدخل الطير أقفاصها)

كلمات كثيرة حاكتها فوق الجدران. يمر الوقت. ولكن الوقت هنا لا يمر.. الساعات طويلة جداً. يزيد من طولها إصرار (الرّسم) على الإزعاج.. نافذة كبيرة تطل على صنعاء ولكنها سمرت بألواح خشبية.. ألواح غريبة لم تتجمع إلا هنا!!

أعلى لوح عليه الأيدي المتصافحة وكتبت (...) بالإنجليزية. قنابل دفاعية صنعت في إيطاليا حسب طلب قوات الولايات المتحدة، وصورة العلم تحت اليدين. تحته لوح آخر أغبر اللون كتبت عليه بالروسية (...) مقاس ٩×٩ رشاشات خفيفة. افتح من هنا، ورسم كأس ومظلة. علي أن أوجد منفذاً بين اللوحين، الروسي، والأمريكي، لأستطيع أن انظر إلى صنعاء. لكني احتاج إلى آلة! بحثت هنا وهناك. الزنزانة فارغة سوى من مسمار مغروس في الجدار استطعت استخراجه بعد جهد جهيد.. الباب موصد طوال الوقت، لا يفتح إلا عندما يريد (الرّسم) الإزعاج.

إنهم لا يفتحون عندما تدق الباب، ولكنهم يخبطونه بعنف إذا رأوك من خلال الباب نائماً. يفتحونه باستمرار في ساعة الصباح الباكر بالذات.

بدأت رحلة التفريق بين اللوحين. عمل شاق كان علي أن أراقب الباب خوفاً من هجوم مفاجئ واكتشاف الاله الحادة في يدي.. بدأ شعاع صغير يبدو بين اللوحين ثم بدا منظر المستشفى الروسي أمامي. يا إلهي، كم تبدو صنعاء جميلة من هنا. المسمار يعمل جهده، والفتحة بين اللوحين تكبر، وصنعاء تبدو من خلالها — أكبر فأكبر- . المستشفى، ثم المدرسة، وخلفها العرضي ومقبرة خزيمة.. وجزء من السور الجنوبي وحنفية المياه التي تتجمع عندها النساء منذ الفجر.. عرفت الآن سر الأصوات العالية هناك، إنهن يقتتلن من أجل حنفية ماء كل صباح مع البرد والظلال كل النسوة هناك بجانب حنفيات قليلة في اتجاه الجنوب. والنساء يحملن الماء إلى البعيد. المستشفى صامتة حقاً.. أشجارها الخضراء تميل إلى الاصفرار وعلى بابها وقفت مجموعة من السيارات. أما المدرسة فلا توجد حركة فيها، إنه فصل الإجازات.. منازل صنعاء تبدو من هنا وكأنها تعانق السماء. كم هي مزعجة في المساء، عندما يبدأون (التذكير) من بعيد منتصف الليل وحتى صلاة الفجر. ألا يتعب أولئك؟. ربما كانوا الوحيدين المخلصين لعملهم، أو ربما كان ذلك تسجيلاً، لأن كلامهم لا يتغير مع كل مساء.

في الجوار.. على مدى أمتار من سور القلعة يبدو سقف بيت كبير.. السقف كبير وواسع.. لفت نظري إليه كثرة الأصص المتراصة. فوق جدرانه العالية، أصص مختلفة الأحجام والأشكال.. لكنها جميعاً تحتوي الريحان.. أخضر اللون متفتح.. أحس أحياناً وكأنني أتشمم عبيره المفرح.. وريقات الريحان يانعة وزاهية، ربما كان ذلك لأن بقية البيوت حول ذلك المنزل لا يضم سقفها هذه الكثرة من الأصص.

مر اليوم الأول وأنا أحملق بفرح صبياني إلى العالم الذي اكتشفته من خلال الفتحة السحرية. جبل عيبان يشمخ هناك

أمامي متحدياً الزمن والغبار والناس. طائرات صغيرة تهبط وترتفع من المطار الجنوبي. أحملق فيها وهي تذهب بعيداً خلف عيبان.

مر اليوم ولم ألمح أي شخص على سقف ذلك المنزل. من يأتي ليسقي تلك الرياحين هناك؟!. لابد أن أعرف. قبل الليل. تلألأت المدينة بالأنوار. شارع الزبيري تخترقه السيارات أضواؤها تثير الفرحة في أعماقي. الناس هناك يسيرون ويضحكون ويبكون وأنا هنا وحيد، لا يعلم أحد شيئاً عني، لا أحد. أنظر إلى الناس.. أشباح تبدو من خلال النوافذ المضيئة في المنازل. تتكون النوافذ مع سطوع النور، وتنسدل الستائر.. الناس يعيشون بهدوء، ربما يبكون أو يمارسون الحب، أو يحلمون.

تعبت عيناي. أعود إلى الزنزانة من جديد أقتل (كتناً) هنا وهناك، أسمع رنات قيود سجناء آخرين لا أراهم. ضحكات (الرَّسم) ترن في (الطارود). شعرت بتعب.. أرهقني كثرة النظر إلى الخارج. المساء حزين هنا. الأنوار تتلاعب في الخارج.. في التاسعة ماتت الشوارع. عيبان يبدو مسوداً بغضب، لكن الأنوار لا تزال تخفق فوق صنعاء.. في العاشرة كان الحي المجاور للقلعة قد نام، لكن بعض الأنوار في وسط المدينة لا تزال تقاوم. صلاة.. صلاة.. فتح أحد (الرَّسم) الباب بعنف.. الليل لا يزال يخيم على المدينة.. والنور القابع وسط السقف يرسل شعاعه القوي.

إذا لم أغسل وجهي الآن فلن أجد ماء بعد ذلك.. هم أنفسهم لا يصلون. لكنها طريقة ذكية للإزعاج.

عدت من الحمام. الماء بارد كالثلج. لكني وجدت فرصة لأغسل وجهي وشعري، وقدماي عدت إلى الفراش أبحث عن الدفء، ولكن كل شيء كان بارداً كالموت.

الفجر يرسل تباشيره من خلف جبل (نقم)، هادئاً ولطيفاً.. السماء صافية تماماً والشعاع القادم من بعيد يطارد الظلام بخفة. الظلام

يهرب من على عيبان. السماء تبدو واضحة، بيضاء مع لون خفيف أزرق. لكن اللون القادم من وراء نقم بدأ يتحول إلى لون برتقالي فاتح. ينتقل الآن من هناك إلى عيبان. الظلام يبتعد عن عيبان بعيداً نحو الرحبة.. السماء تزرق قليلاً، وثمة لون برتقالي فاتح يتراقص فوق الجبل، الهضاب النائمة في أحضان عيبان واضحة تماماً الآن.. بيوت بيضاء ورمادية. تبدو قرية (حدة) أكثر جمالاً الآن حتى لون الأشجار، إنها تبدو الآن خضراء بوضوح.

الضوء يتراقص الآن فوق نقم، قوياً وفتياً، أشعته تنعكس بسرعة على قمم عيبان وفوق منازل القرى هناك، لكن الظل لا يزال يخيم على المدينة وتحت أقدام (عيبان) لا تزال سحابة صغيرة من الندى ترتبط بالأرض بقوة. وكذلك فوق بعض الحقول جوار المطار. أما (الرحبة) فلا زال الظلام يقاوم فيها بيأس. المدينة تكبر وتكبر تحت أضواء الصباح. سيارات قليلة تمرق هنا وهناك.. لكن الناس لا يزالون في البيوت.

أغلق آخر مايكرفون في مسجد بعيد الآن انتهت صلاة الفجر والأدعية الكثيرة بعد ذلك.

أصوات أطفال ترتفع من مكان ما.. أنها جنازة صباحية، صلي عليها في أحد المساجد، النغم الحزين لأصوات الأطفال الباردة تحملها النسمات الصباحية. شعرت بكآبة وحملقت في السماء. الألوان اختلطت ببعضها البعض. وبدا الضوء هادئاً وجميلاً وقوياً.. قمم عيبان تعكس أضواء الأشعة.. أما بيوت القرى هناك فتعكس الألوان الزجاجية. ترسل إشارات ضوئية لطيفة. أصوات الأطفال تردد باستمرار (حيٍّ دائم) (لا إله إلا الله.. فرد صمد. وثمة أصوات كسلى لرجال يحملون الجنازة وهم لا يرغبون في الاستمرار. لماذا يدفن الناس هنا مع الفجر؟!.

لم أجد جواباً، لكن أطراف المدينة بدأت تغتسل بضوء الصباح.. تحول الندى إلى ألوان ضوئية متعددة.

صوت طائرة تستعد للانطلاق.. سيارات، ونساء هنا وهناك، يحملن الماء من الحنفيات المتعددة أمام المستشفى إلى منازلهن. نساء سود يرتجفن من البرد. لكن الماء ضروري.. (حيٌّ.. دائم..فرد.. صمد.. لا إله إلا الله) غابت الجنازة في مكان ما في المدينة.

أوراق الريحان تتلألأ من الأشعة الصباحية، تبتسم لي هناك فوق سقف دار قريب أنها تتفتح مع شعورها بالحرارة. استقبال رائع للضوء.. وهناك على مقربة من أصص الريحان، كانت تقف.. سروالها يغطي الجزء الأسفل، وفوقه ثوب قصير أسود.. على رأسها غطاء صغير يضم شعرها الذي تمرد على الغطاء وأصبح يرقص مع النسمات الندية برشاقة كأنها تدربت على (ريجيم) معين. تسير بخفة من أصص إلى آخر، وتفرغ فيها من وعاء معها قطرات من الماء. إذن تأتي هي أيضاً مع الفجر. لم أرها طوال النهار وها هي تأتي الآن. دقائق فقط.. لكنها كانت بالنسبة لي دهراً.. التفت نحو أصص الريحان. بدت لي عيناها سوداوان.. هكذا خلتهما من بعيد.. واسعتان.. لولا (الخُنَّة) لرأيت وجهها حتى مع الفجر.. ألا تبعد ذلك الشيء الكريه الذي يغطي أجمل ما فيها.. نصف وجهها.. أنامل يديها رقيقة. أراها تتجول من مكان إلى أخر تسقي ريحانها.. سميتها في الحال، (ريحانة).. أنهت عملها. وقفت تنظر إلى الرياحين بفرح.. ربما كانت هناك ابتسامة ما تحت (الخنة). سارت فوق السقف.. رقص قلبي مع خطواتها الناعمة.. عند الفجر كانت قريبة جداً مني.. حتى أنني كدت ألامسها.. ولكنها غابت في باب السقف.. هوت إلى أعماق المنزل.

أشعة الشمس تغمر المدينة.. الحركة تكبر، وضوضاء سيارات تدخل القصر لحمل سلاح أو إدخال سلاح. أصوات جنود وضباط وقبائل.. الكل هنا يأتي للبحث عن سلاح.. لكنها لم تكن فوق السقف طوال ذلك اليوم.

كان آذان الفجر يشق السماء، وكنت قابعاً هناك بجوار النافذة أحملق في الظلام.. لا تزال النجوم تلمع فوق عيبان ونقم. عندما فتح أحد (الرِّسم) الباب، نظر إليَّ باستغراب، فقلت له: (صلاة ماه.. يا خبير.. صلاة).

قمت سريعاً، والرجل لا يزال يحملق. لم يكن هناك وقت لإزعاجي. عدت سريعاً أيضاً لكي استمتع بالفجر. بالشعاع والألوان الزاهية التي يصنعها قدوم يوم جديد. ها أنذا الآن أحدق في سقف ذلك الدار.. أنتظر اللحظات التي تشرق فيها شمسي التي اكتشفتها بالأمس.. (ريحانة).

بدت كفجر جديد.. بثوب ملون فوق سروال أخضر شعرها الأسود الطويل لا يزال متمرداً على المصر. يداها هذه المرة كانتا عاريتان حتى المرفق.. سواعدها بيضاء كزبدة الفجر.. عيناها شعاع الفجر كله.. كان ضوء الصباح يملأ المدينة وكانت هي مصدر ذلك الضوء الهادئ.. تنقلت من أصٍ إلى أخرٍ بخفة ملاك.. نظرت مرتين إلى ما وراء سقفها.. أشارت بأناملها تحية لإنسان لم أره.. ربما لامرأة أخرى مثلها فوق سقف أخر هناك، عادت إلى أصص الريحان وأنا أكاد أطير من فوق حائط السقف إليها.. قطفت غصن ريحان من إحدى الأصصواستنشقته بفرح الصباح. كادت أخشاب النافذة أن ترمي وجهي وأنا أحدق.. كنت أتنفس مع ندى الصباح ونسماته رائحة الريحان القادمة من عند جارتي التي لا تعرفني.. علاقة قديمة استمرت تربطني بها. مع الصباح بل وقبل الفجر كنت أنتظر الفجر وانتظرها. كلاهما أصبح بالنسبة لي غذاء كل يوم.. ولم يعد (الرسم) يطرقون الباب أو ينادون للصلاة.. فقد كنت أصحو بدون أي طلب منهم. بل بدأت أزعجهم أنا طالباً الوضوء قبل الوقت المحدد حتى أتفرغ للقاء حبيبتي ريحانة. كل يوم كانت تبدو بثوب جديد. مرة سقط غطاء الرأس فتطاير شعرها فوق وجهها فرحاً بحريته. لم تعده إلى أسره. ظل

يتراقص حول وجهها وهي فرحة.. كل صباح تقطف قبضةً من الريحان.. تقبلها وترسل يديها نحو السماء في صلاة غامضة.

كان الوقت في الصباح يمر كالشعاع، سريعاً، ومع ذلك كنت أنتظر كل اليوم تلك اللحظات. أبقى طول النهار، وأنا أعيد رسم كل حركة تصدر منها.. انحناؤها فوق الأصص.. قطفها أغصان الريحان، تقبيلها رفع يديها نحو السماء.. حتى خصلات شعرها الأسود الطويل كنت أظل أرسمها وأتخيل تموجاتها هنا وهناك مع نسمات الفجر.. أصبحت أعرف عدد ألوان ملابسها فهذا الذي لبسته اليوم كانت قد لبسته قبل ذلك بأيام.

بدأت أسجل في ذاكرتي ذلك الثوب الذي كان عليها صباح الجمعة، أراه عليها أيضاً يوم الثلاثاء.. وسروالها الأحمر لا تلبسه إلا مع الثوب ذي الألوان الوردية.

أصبحت أجد أن التفكير فيها يشغل فكري يوماً بعد يوم. أصبحت قريبة مني لدرجة أنني أعرف ماذا ستعمل صباح كل يوم.. تمنيت لو كنت ريحانة في يدها أو أصصاً فوق حائط سقف دارها.. من هي ذلك الملاك الذي يفجر في أعماقي كل هذه المشاعر؟! لم تعد المدينة بأضوائها الليلية أو أشعتها المضخمة كل صباح بالندى وبأشعة الفجر تهمني، بقدر ما تهمني هي..

فرحة الطفولة التي تتبدى على ملامحها وحركاتها دليل شيء ما.. أتحب تلك الريحانة إنساناً ما؟ أكيد.. كان هذا يؤلمني. فمن يكون ذلك السعيد الذي ستكون من حظه.. عمرها بين السادسة عشر والسابعة عشر.. لا أكثر.. ربما أقل.. بيضاء. عرفت ذلك من أصابعها وملامح وجهها الذي تسجنه (الخنة)..

مضت الأيام والعلاقة الحميمة لا تنفصم بيننا ورغم أنهم سمحوا لنا أن نبقى فوق سقف السجن لمدة نصف ساعة كل يومين بعد أن أصابنا الهزال وبعد أشهر طويلة، إلا أن الشمس والهواء هناك لم يكونا شيئاً بالنسبة لي. صحيح أنني رأيت عدداً آخر من النساء

فوق أسقف منازل كثيرة ولكن لم تكن هناك واحدة مثل (ريحانة) لم أعد أراها عند طلوعي (للتشمس).. حاولت أكثر من مرة أن أسأل أحد (الرسم) عنها، لكني خفت أن يعرف سري. وأن أحرم من ريحانة أو ينقلني إلى زنزانة أخرى قد لا أراها من هناك.

هكذا بقيت وفياً لوعدي مع ريحانة، رغم أن أكثر من امرأة رأيتها حتى بدون تلك (الخنة) اللعينة. وكانت هي دقيقة أيضاً في مواعيدها..

حتى كان ذلك الصباح.. الذي لم تظهر فيه بموعدها. مر اليوم وأنا أحملق ولكنها لم تأت.. ماذا حدث لها؟ أهي مريضة...؟ أم ذهبت إلى مكان آخر؟ لكنها لم تقل ذلك صباح الأمس؟ لم أجد الجواب، ولم تنتظر هي..

مر اليوم ثقيلاً. بطيئاً.. فقدت كل رغبة في الأكل أو الحديث مع (الرَّسم). وفقدت الرغبة حتى في الذهاب إلى الحمام.

لم أنم ليلتها.. ربما تظهر قبيل شروق الشمس. رحت أحملق وسط الظلام.. أصص الريحان لا تزال واقفة خضراء تمتص من الندى، تنتظر الفجر وريحانه.. أقبل الفجر بألوانه المتعددة، لكنها لم تكن هناك. أنها مريضة بالتأكيد، لماذا لا يستدعون لها دكتورا ليعالجها.. لابد أن تعود فالريحان ينتظر من يسقيه.

أصبت بمرض غريب، فقدت الرغبة في كل شيء. الأكل، النوم، الحديث، أصبح همي هو أن أحملق وأحملق فقط.. لكنها لم تظهر في اليوم الثالث أيضا.

مضى أسبوع.. أصص الريحان لا تزال هناك، لكنها لم تعد خضراء كما كانت.. بعضها أصبح (يقاوم)، ولكن البعض بدأ يموت..

مضى أسبوع آخر. ماتت بعض الرياحين في الأصص وبقى البعض الآخر شاحباً مصفراً. ماتت كل الرياحين في الأسبوع الثالث وبقت الأصص وحيدة.. وريحانة لم تظهر.. كنت مستمراً في احترام مواعيد الفجر ولكنها أخلفت كل المواعيد ولم تعد.

أصبحت الرياح تهب على صنعاء.. وعواصف الرمال تغطي المدينة.. وكانت الرياح تأخذ من أصص الريحان بقايا التراب.

يا رب.. لماذا ذهبت.. ماذا حدث لها. هل ماتت..؟ لا يمكن أن يموت من كان مثلها ربما تزوجت.. فكرت كثيراً ولكني استبعدت ذلك لأن الزواج مثل الجنازة هنا في صنعاء ينشدون له طوال الليل بأغاني دينية حزينة.. ولم أكن قد سمعت أي نشيد يطلع من ذلك المنزل.. لابد أنها سافرت.. إذن لماذا لم تترك من يعتني بريحانها...

لقد ذهبت فجأة.. هذا هو السبب الوحيد.

مع فجر اليوم التالي سمعت بكاء الأطفال وهم يرددون: (حي.. دائم.. أحد.. صمد.. لا يدوم إلا الله.. لا إله إلا الله).

إنسان آخر غادر الحياة دون أن يأخذ شيئاً. رأيت الجنازة تمر في الشارع المقابل لجدار المستشفى.. إذن هو من هذا الحي المجاور.. الجنازة صغيرة.. والأطفال يبكون بأصواتهم (حي.. دائم.. أحد.. صمد).

بعد أيام وأنا في سقف سجن القلعة قلت لأحد (الرسم):- كانت هناك رياحين ولكنها ماتت.. ألا ترى أنهم مهملون. قال لي بعد أن نظر إلي:- أين ماتت هذه الرياحين؟ في ذلك المنزل!! وضحك.

قلت:- لماذا ضحكت...؟

قال:- يقولون، أنهم وجدوا زنوة قبل أسبوع..

قلت: ماذا ؟!

قال: طفل ميت.. رجموه جوار جدار القلعة. وجده أحد العسكر في الصباح..

قلت: وماذا إذن؟

كانت دقات قلبي تتسارع.

قال: لا شيء، قبل كم يوم دفنوا امرأة ماتت في ذلك البيت..

ضحك مرة أخرى، وقال:

- الدنيا كلها فاسدة.. (قحبة) لقطت كلب من الشارع..

قلت وأنا أكاد أصرخ:

- وما علاقة هذا بذاك؟

قال – ما فهمت.. البنت التي كانت في ذلك المنزل هي أم (الزنوة).. قتلوه.. وبعد ذلك قتلوها ودفنوها.

قلت: هكذا!!

قال: هكذا..

لم يكن قد مضى على وجودي في السقف سوى دقائق. طلبت النزول إلى زنزانتي.. وبقيت هناك أبكي (ريحانة) كأنني طفل فقد كل شيء فجأة.. وبدون سبب.

تعز - ٢٦- ١٩٦٢

نشــوة

كل ما أعرفه أننا بدأنا الشرب عندما كانت الساعة تقترب من الخامسة. كنا قد انتهينا من آخر امتحاناتنا.. وفجأة شعرنا بالفراغ يزحف كالليل على حياتنا.. وكان لابد لنا من لقاء.. وجلسة.. وشراب.

كان الجو المسيطر على المائدة رائعاً.. كلهم شعراء ما عداي.. وكنت فرحاً لهذا.. فجميل أن يجلس الإنسان إلى شعراء يتحدثون عن الشعر بروعة.. خاصة إذا كان معظمهم يملكون موهبة فذة.. وربما عبقرية.. أمامنا على المائدة.. ثلاث زجاجات.. وخبز. وأشياء.. وكانت على شفاهنا ابتسامات كبيرة.. كلها أمل.. وحب.. وتحد لكل ما قد يخلقه المستقبل من سخافات. لا أتذكر الآن متى انتهينا من الشراب.. كل ما أتذكره أنني رأيت على المائدة بدلاً من ثلاث زجاجات.. خمس. كلها فارغة.. وعلى السرير تمدد أحدهم، بينما لمعت عيون الثلاثة الآخرين.

- أنني أريد أن أشرب.
- من سيذهب إلى المخزن ليأتي بالمزيد؟
- لابد من شراب إضافي.. لابد..

كنت أشعر بأن النهاية تقترب، فقلت:

- يا زملاء.. يكفي ما شربنا اليوم.. ولندع النقود لأيام أخرى.
- آه أي مجنون أنت.
- لقد بدأت أنت.
- لقد بدأت أحلم بملحمة شعرية.. عن أبو لوف.
- نعم الحياة تافهة ولا تستحق أن نعيشها.
- يجب أن نشرب.. يجب.

تركت الغرفة.. رحت أتمشى في الممر بين الغرف راغباً في أن تلفحني نسمات هواء رطبة.. وعندما عدت إلى الغرفة.. كان كل ما فيها غارقاً في فوضى كاملة.. وقد غادرها الجميع ما عدا رجل على السرير يحلم بألاف الحكايات الصغيرة.

لبست المعطف.. وعلى الدرج التقيت (ع) كان في قمة النشوة وهو يعانقني. رحنا نقهقهه.. وفجأة.. أنفجر في آذاننا صوتارتطام شيء ما.. وانكساره.. لم ألتفت، رحت أقهقه وأنا أرى الحارسة مقبلة نحونا وهي تقول:

- لقد كسرتم النافذة.. ستدفعون ثمن الزجاج..

صاح (ع) وهو مستمر في القهقهة.

- لقد أنكسر بنفسه..

أكملت قائلاً:

- لقد مل من الوقوف وقرر الانتحار

قالت الحارسة وهي تبتسم..

- أيها السكارى..

- نحن لسنا سكارى.. نحن في حالة انتشاء.. أما السكران فهو الزجاج الذي مات قبل دقائق..

علق (ع)

- نعم رحمة الله عليه.. لقد مل سخافة الحياة.. أنه سعيد الآن.

أمام باب المنزل كان (س) واقفاً يتحدث مع فتاتين.

- إلى أين؟

- سنذهب إلى السينما.. هل ستأتون معنا؟ ومضينا..

كان أمام باب السينما مئات من الناس يقتربون نحوك قائلين:

- ألديك تذاكر زائدة..

لست أدري كيف حصلنا على التذاكر.. لقد وجدت نفسي جالساً مع (س).. رضا في نقد فضيح للفلم الذي خيب آمالنا.. كل ما كان هناك مجرد سخافات.. أكرهتنا.. شعرت بالدوار والغثيان..

وبأن الفلم وأحداثه التي تمر أمامي أشياء مضحكة.. وضحكت.. كان الظلام يخيم على كل شيء.. لم أر شيئاً.. كنت ممدداً في غرفة رطبة.. باردة.. وأمامي شبح فتاة لم تكن جميلة وهي تقول أشياء.. كرهت منظرها.. تمنيت لو انها كانت جميلة لعانقتها.. لكني قذفت بكل ما في داخلي حقداً على صوتها الذي لم أفهم منه شيئا. كنت أسير في سيارة بجانب رجلين.. كل ما أتذكره أنهم يلبسون ملابس واحدة.. وفي عيونهم نظرات كريهة.. وأنهم كانوا جامدين لا يتحركون مطلقا.. ثم مرة أخرى وجدت نفسي في غرفة جدرانها بيضاء.. كل ما فيها أبيض حتى الفتاة الحسناء، كانت (لها) عيون بيضاء وشعر أشقر تنعكس عليه الأضواء وجدران الغرفة. أتخيل أنه أبيض لكنه كان جميلاً على وجهها ذي التقاطيع الموحية بالألوهية.. كانت فينوس صغيرة.. بذراعين ونهدين منتصبين بتحد.. وشموخ.. كانت الابتسامة في عينها.. حاولت أن أحضنها لكن شيئاً منعني.. أرسلت غمزة لها.. لم تغضب. أبتسمت مرة أخرى.. ثم نمت.. كانت معي هناك.. أحسست بها.. بأنفاسها الحارة فوق وجهي.. وبعطرها الذي كنت أتجول فيه بحرية..

فجأة رأيت نفس الوجوه الكئيبة التي (توحي) بأنها لم تعرف مطلقاً طعماً للنشوة حتى ولو كانت خلسة- ، تحملني من جديد.. لم أجد إلا أن أقول لهم:

- شكراً أيها الرفاق.. سأذهب وحيداً إلى المنزل..

دخلت الغرفة.. كيف؟!، لا أعرف..

نمت ورائحة أبطيها في أنفي.. وأنا أحتوي صدرها بذراعي في نشوة.. فليأخذكم الشيطان أين هي الآن؟.. لكني نمت معها.. أنفاسها الحارة يالله كانت تكويني!!

تركت الغرفة.. ذهبت إلى الطابق الرابع.. في المطبخ لقيتها.. كانت قد أصبحت ضيقة.. وما زال ذلك الجمال الذي جذبني

إليها مرات يشع.. غير أن وجهها الأسمر كان مصفراً.. قلت لها دون أن أصافحها:

- أهنئك يا عزيزتي بطفلتك..

أجابتني وعلى شفتيها بسمة حياء:

- شكراً.. شكراً..

قلت لها وأنا أتنهد:

- ألا ترين أنه عندما يصبح الإنسان أباً.. أو أماً يتقيد كثيراً.. لقد تغيرت يا عزيزتي لقد تغيرت كثيراً..

- أنني متعبة بعد الولادة..

- أرى ذلك..

- لكنك لم تتغير.. مع كونك أباً صغيراً..

- تلك هي مأساتي.. أنني عندما أشعر بأنني أب أتذكر أنني أنا نفسي في حاجة إلى رعاية.. أنني طفل صغير.. أحتاج إلى الكثير من الحب.. والعطف..

ابتسمت.. كانت جميلة في بسمتها.. وكانت عيونها هادئة.. كبحيرة عميقة..

- ماذا تعمل الآن.؟

- كما ترين.. سكرت..

- أنك تقتل نفسك.

- نعم.. لأنني لم أجد من يهتم بي. لم تقل شيئاً.. لكنها تعرف تماماً الآلام التي أحدثتها نظراتها ذات يوم في المطعم الصغير.. أمام تمثال بوشكين. لقد طعنتني ومضت. واستمرت. كنت كلما قابلتها أو رأيتها أخشاها.. أخاف من عيونها: يا عزيزتي.. أنا أعرف وأنت تعرفين لقد أصبحنا كباراً.. آباء.. نعم.. أليس ذلك سخيفاً..؟

- إلى اللقاء.. يا عيوني.. سأذهب لأبحث عن شراب. وقبل أن أمضي.. كانت قد وقفت جانباً وهي تقول:

- لماذا تغازل فتياتنا أيها السكران..
- أو يا حبيبتي.
- لقد بدأت تهذي.. الأفضل لك أن تستريح.
- كلا.. أريد أن أشرب.. يا وردتي الصغيرة.. هلا جعلت لنفسك تمثالاً.. قدمي لي قارورة نبيذ..

ابتسمت تلك الثرثارة حفيدة أحد الذين أحرقوا بغداد ذات يوم مضى.. ما أسخف هذا العالم.. ها هي ذي حفيدة أحدهم.. وأنا أيضاً حفيد لأحدهم.. وربما كانا سويا في نفس المعركة.. وربما قتل أحدهم الآخر في ذلك اليوم.. أليسوا سخفاء؟؟ لماذا لا يجلسون حول مائدة.. وبدلاً من أن يشرب كل منهم من دم صاحبه.. يضربون كأسين بالنبيذ الأحمر.. في صحة الحياة.. لكن.. أعتقد أنهم كانوا يشعرون بالملل.. إلى درجة أنهم كرهوا الحياة.. كلنا سخفاء وحق الآلهة، وإلا لماذا وجدنا فوق هذه الأرض..

- أدخل أيها السكران.. ستجد هناك بعض الأرز.. وقارورة نبيذ..
- آه كم أنت رائعة يا تربتي الطيبة..

ذهبت إلى غرفة البقية.. كان كل منهم على سريره يحلم بالملائكة.. وفي الردهة وجدتها..

- أدخلي يا عزيزتي سأتحدث إليك..

دخلت.. لكني شعرت بأنني متعب..

قبلتها.. لكني لم أشعر بأية رغبة..

قالت إنها ستسافر غداً.. قبلتها. مودعاً وقلت:

- كم هو محزن أن أفقدك لأيام.. مضت.. وأنا أرى في الجدار صورة فتاة بيضاء.. تسكرني رائحة أبطيها.. وأنفاسها الأنثوية الحارة..

٢٤- ١- ١٩٦٢

جويتــــا

المصر الضيق تغطيه أشباح أشجار.. نزع الشتاء عنها ملابسها.. وبرد خفيف يثير في نفسي الأشجان إلى سماء عدن الرصاصية ونسيم البحر على ساحل المعلا.. ولفحات من هواء كريتر.. آه لماذا لا يوزع الاله بالعدلِ كل شيء في هذا العالم.. سخيف أن نفكر هكذا.. سخيف جدا.. فالإله قد مات منذ سنوات.. ونسينا حتى مكان قبره.. تذكرت فجأة مكان الأيقونة على سرير فتاة سمراء من أرمينيا لم تقل لي أنها مؤمنة.. نظرت إلي ولم تجب.. مرة أخرى.. آوه الحمد لله لقد شبعت. كان الأكل في المطعم هذا المساء جيداً.. وقارورة بيرة عذبة.. كانت مثلجة..

- مساء الخير أيتها الحسناء.
- صه.. ماذا تريد..؟
- عجيب.. أتسخرين من إنسان يحمل لك أجمل الشعور.
- هل أنت سكران... ؟
- نعم.. لأن عيونك زرقاء..
- سخيف..
- لو لم أكن سخيفاً لما تكلمت معك.
- أنك تجيد اللغة.. والحديث.
- معك.. أنني أشعر بأن لساني يتحرك بدون إرادة مني..
- غريب.. هل أتيتم هنا(للتمشية؟؟).
- لماذا؟؟ أتعتقدين أن حديثي معك حديث فارغ.
- طبعاً.. مادام سينتهي إلى لا شيء.
- لم أطلب منك ميعادا..
- ولن تجده.. لأن لدي صديق..
- ....
-

- ....
- ....
- ....
- ....
- إيه أيها الفتى
- نعم
- من أين أنت؟

أيه يا صديقي الذي يترنح بروعة.. أتدري أن البحر في بلادنا أرجواني..

- من بعيد..
- ليأخذك الشيطان.. من أي بلد؟
- من البحر الأحمر..

مضى وهو يتمم

- لديهم المياه تتحول إلى دم

دم.. والبرد الذي يزيل عن الثلج لونه الأبيض.. كبياض الزبد في ساحل تهامة وكالسحب فوق قمة – كوكبان.

- مساء الخير..
- أوه جريتا أنا مسرور لرؤيتك..
- كنت أفكر وأنا أنظر إليك.. لكني عرفتك.
- أنك طيبة.
- لماذا لم تزرنا؟
- أوه ألا تدرين.. أن لدي عيداً في هذا الأسبوع..
- أي عيد..
- آه أنه عيد ديني..
- لكني كنت أظن أنك لا تؤمن..
- نعم أنت على حق.. لكن عندما تصل المسألة إلى الأعياد.. فأنني من أشد المتحمسين للإجازة.. أن ابتسامتك أيتها الأسيوية تجذبني.. إن فيها الكثير من الحزن. أنني أتخيل إن حزني قطرة في

بحر أحزانك.. لماذا تنظرين دائماً إلى إلسماء.. كل شيء هناك أسود أسود يا جريتا كطعم الندم في فمي..

- هل تكتب لك خطيبتك..

أتريدين أن تثيري في قلبي آلاماً حادة يا ساحرة..

- أعذرني.. لقد رأيتك تتحدث مع فتاة.

- نعم.. لقد كنت أسألها أهي مؤمنة؟

عيناك تزرعان في قلبي أزهاراً دموية.. يا جريتا.. خذي عن وجهي عينيك.. أرجوك.. أنني لا أستطيع تحمل كل هذه الآلام.

- أيهمك أن تعرف الآخرين؟

- أحياناً .. يا جريتا..

- أنك تنطق اسمي بروعة.

- لأن اسمك يحمل بالنسبة لي معنى كبيراً. إنك تنظرين إلى الأرض أتذكر تماماً.. عندما كنت أحب هذه الأرض إلى درجة أنني كنت أشعر بحلاوة ترابها.. لكن يا جريتا كنت طفلاً وقتها.. طفلاً..

- في ماذا تفكر؟

- جريتا.. أنني افكر كيف أقول لك إنني منذ أيام اشتريت تذكرتي مسرح لي ولك.

- أوه أيها الطفل الشقي.

- سأراك غداً..

- هل ستحضر إلي..؟

- لا.. لا أريد.. أنني أخاف من عيون الناس..

- إذن دعنا نتقابل في مكان آخر..

- ذلك هو ما أفكر فيه.. إنه رائع أن تهرب من عيون الناس.

- يا صغيرتي في كل مكان توجد عيون الناس.

- أعرف ذلك يا جريتا.. ولكن.. أحياناً يجب أن نتفاءل.. خاصة عندما تكون عيون الآخرين غريبة.

- كلا يا عزيزتي.. العيون الغريبة أكثر فتكاً..
- انني سكران، أعتقد أنك على حق.. لكن لماذا يخفي القمر وجهه، وهل يستحي من عيوننا..؟
- آه لعنة الإله.. لقد اقتربنا من المنزل..
- إذن دعنا نتصافح.. سنلتقي غداً أتمنى لك أحلاماً..
- ولك أيضاً..

عيناها تخترقان الليل إلى قلبي.. أنني أتعذب هل أحب هذه الفتاة؟ لقد خفق قلبي لها بشدة.. وبعنف أحببت عذابها.. أنا أعرف أنها ليست جميلة لكن عذابها رائع.. وعندما تتكلم.. أعرف تماماً من هي.. ومنذ متى تتعذب.. ولماذا؟..

سأعود إلى المترو.. سأذهب إلى السينما، ربما عثرت على فيلم لطيف.. وربما على فتاة...
- مساء الخير أيتها الحسناء.
- أوه أرجوك.. لقد خدعني منظرك من الخلف..
- معذرة كنت أظن أنك صديقة.
- لا يهم.. كثيرون يعتقدون ذلك مثلك.

أي طعنة أرسلتها يا صغيرتي.. أعرف، جبان.. أسمع مفضوحة تأوهاتك ربما... تزاحم على بابك، حتى السكارى يا صغيرتي.. هناك من يقول أنها الحرب.. وأنا.. ماذا؟ .. مجرد سكير من بعيد.. لكني أتعذب..

آه أيتها الدموع العذبة.. ألا ترسلين سيولك الليلة.. أنت هناك إنسان صُنعت له الآلهة. لم أقصد ذلك لكني جبان.. ومجرم..
- إلى أين يا صديقي..
- آه .. ميلا.. هلا أنقذتني من هذا الجحيم؟.. لقد صنعت شراً.. أنني أتمزق..
- أنك سكران.. لقد سكرت كثيراً هيا بنا نعود إلى المنزل.. هيا..

في الممر.. حيث أذرع الأشجار الشيطانية تتعانق.. وفوق كرسي غطاه الثلج، بالأمس.. رحت أقبل.. ميلا.

- يا صديقتي.. شفتاك لذيذتان وأنت تتأوهين بين ذراعي سكران..

- لا أريد.. أن ذلك لسيء.. هلا توقفت.. يجب أن لا تعود لهذا العمل (   ) أتذكرٍ مساء يوم شعرت فيها بنفسي حقيراً.. لأنني كنت وحيدا.. وحيدا..

- أنت لا تحبني.. لا أريد أن أخدع نفسي.. أرجوك.. دعني..

مضت كخيال طيف.. و.. في شفتي آثار شفاه..

أوه لقد بزغت الشمس.. وفي رأسي آثار صداع..

- أيه يا صديقي.. من الذي عض شفتيك..؟

- ماذا..؟

- لقد كنت البارحة في سهرة. أنني لا أتذكر.. ما الذي حدث بالأمسٍ. لعنة الله على الفودكا..

يناير ١٩٦٢م

ميلا

كانت الشمس قد غربت. مر أمامي (باريس).. حياني:

- مساء الخير.
- أجبته وأنا أنظر إلى الشارع، عسى صديقتي قد حضرت
- مساء الخير:
- إن لدي بعض الأصدقاء.. هلا حضرت؟

هززت رأسي موافقاً.. ومضى.

الحارسة تجلس في مكانها وهي تحملق في الباب وتصيح بين الحين والآخر.

- أقفلوا الباب.. ليأخذكم الشيطان، يكاد البرد يقتلني.

من إحدى الغرف تعالى صوت ضحكات مرحة..

مر أحدهم وهو يدخن وأشار إلى جيبه وهو يغمز:

- هل تأتي؟
- كلا لا أريد أن أشرب.

ضحك..

- هل أصبحت قديساً.

كانت سحب الدخان تتصاعد من فمه.

- ماذا تنتظر يا صغيري؟

اقتربت من الحارسة.

- لعل صديقتي تأتي إلي..
- الساعة تعدت التاسعة.. أعتقد أنها لن تأتي.

كنت أعرف هذا. وكان علي أن أنتظر. قد تأتي فجأة.. كانت دائماً تتأخر.

- أيه.. لم تأت فتاتك بعد؟

لم أجبه فمضى وهو يصفر لحن أغنية ما:

- في عيد ميلادك لا أستطيع أن أهديك هدايا ثمينة.. لكني أستطيع أن أحدثك عن الحب.

تعالى صوته في الطابق الثالث بالأغنية..

مرت عشر دقائق.. فربع ساعة

- ما ألعن البرد.. هلا.. هلا أقفلت الباب يا صغيري.
- أشكرك.. لست كالآخرين.
- هل تريد مجلة تقرأ فيها؟
- شكراً.. أنت تعرفين أنني لا أجيد القراءة..
- أوه.. ستتعلم.. ستتعلم.

في إحدى الغرف تعالت قهقهات..

- كلهم يسكرون. ما ألعن أيام السبت هذه.. فليأخذهم الشيطان إلى الجحيم.

رحت بملل أتفحص الخطابات التي وضعت في إحدى الأدراج.. كلها خطابات روسية.. كنت أشعر بالملل لقد خدعتني.

- لكن هذا خطاب..

أخذته إلى الحارسة- هلا سمحت بأن تقرأي.. لمن هذا الخطاب.

لبست نظارتها.. أنه لك يا صغيري.. أنه لك..

فتحت الخطاب.. ورحت أحملق في السطور الخمسة..

عزيزي..

لن أستطيع أن أحضر في ميعادنا.. لقد ذهبت إلى ضواحي موسكو لزيارة جدتي..

سأنتظر عند المترو في مكان لقائنا الدائم مساء الخميس في نفس الوقت.. قبلاتي

اسفييت (دينا).

رحت أجرجر قدماي إلى الغرفة.. لقد حضرت كل شيء. كان على المائدة الواقفة في منتصف الغرفة قارورة كونياك.. فواكه.. حلويات.. سجائر وكأسين. وبالقرب من النافذة كان الراديو

الذي استعرته من صديقي واسطوانات كثيرة.. أحسست بالبرد.. تركت الغرفة ورحت أدخن في الردهة.. وكان (باريس) أمامي..

- لم تحضر تستطيع أن تأتي معي.. كانت الغرفة مليئة بالدخان.. ونور خافت على المائدة.. وشخصين يرقصان على صوت موسيقى من المسجل القريب من الباب.. رأيت عيون أربعة تنظر إلي..

قال باريس:- تعرفوا.. هذا أحسن أصدقائي.. إنه من اليمن، محمد..

- ليلى..
- ميلا
- إنني مسرور بالتعرف عليك.. نفث الدخان.
- لماذا تقف هكذا أرجوك يوجد مكان فارغ..
- ألا تريد أن تتعرف علي..؟

قالت ذلك وقد تركت الرقص ووقفت أمامي مادة يدها.

- محمد
- جالا
- كل أسمائكم تنتهي.. بـ (لا) وهذا بالعربية معناه HET

ضحكت جالا.. وابتسمت ميسلا.. وليلى جلست على السرير.. فيما كنت وأنا أشعل سيجارة أخرى.. وأنظر إلى الراقصين.. قالت ميلا: ألا ترقص؟!

- أحب أن أنظر إلى الناس وهي ترقص.
- هذا معناه أنك لا تجيد الرقص.
- قد يكون ذلك.
- إنك تخجل.. قال باريس وهو يراقص ليلى.
- لماذا تزعجين الشاب؟
- إنها لا تزعجني.. إنني معجب بشعرها الطويل..
- أيعجبك حقا؟؟

- ولم لا يعجبني..

ابتسمت بهدوء ونظرت إلى المائدة.. بحثاً عن سيجارة..

قالت جالا وهي تميل بصدرها الفتي وتنظر إلي:

- إنك لم ترها بعد كيف ترقص.. ألا تعرف أنها راقصة بالية ممتازة.

- حقاً؟..

- قالت ميلا وقد أحمر خداها:

- إنها تكذب

- إنها تخجل أن يعرف الناس كونها راقصة.. وضحكت وهي تتمايل بروعة على أنغام الموسيقى..

- إنها تكتب الشعر أيضاً..

أما باريس فقال:

- الذي أعرفه عنها.. أنها ترسم..

- ها أنا أعرف أنها راقصة باليه.. وشاعرة لعلني بعد لحظات أعلم أنها موسيقية.. ومؤلفة مسرحيات.. وممثلة.. ومخرجة سينمائية.

قهقهه الجميع. قالت ميلا وأنا أحاول أن أشعل لها سيجارتها: لا تصدقهم أنهم يسخرون.

- بالعكس.. لكني مهتم أأنت تكتبين الشعر حقاً؟

- أحياناً.. عندما أكون حزينة.

- نزعت نظارتها وراحت تمسحها بهدوء وهي ترسل يدها لتبعد خصلات الشعر عن وجهها.

- وترسمين أيضاً..؟

- أنني أدرس الرسم.. وابتسمت..

- لكني لست براقصة باليه.

- ولا ممثلة.. ولا موسيقية..

رحنا نضحك بهدوء

تساءل باريس:

- لعلكم وجدتم أشياء مشتركة.. كلاكما مهتمان بالأدب.. فليأخذكم الشيطان قالت جالا وهي تنظر إلينا وتبتسم:
- أنني أكره منظر المحبين وهم يتبادلون كلمات الغرام..

قلت لهم وأنا أغمز:

- ألا تهتمون بشؤون الحب إن ذلك أفضل.
- وهل أعجبتك ميلا؟
- أعتقد أنكم ستتقابلون مساء غد الساعة السابعة.. عند المترو..
- أوه.. كم هذا رائع. الحب من أول نظرة.. ورحنا نضحك
- هل تهتم بالأدب؟

أجبتها وأنا ألتهمها بعيوني..

- نعم
- قال لي باريس أنك ستلتحق بمعهد للأدب..
- ذلك هو حلمي.
- إذا كنت تحب الأدب.. فأنك ستحقق حلمك.. من تعرف من الكلاسيكينالرووس.
- أوه.. قرأت لمعظمهم.. بالعربية جوركي.. تشيخوف.. ورحت أعدد لها أسماء الكتاب..
- ومن يعجبك منهم..؟
- أثنان —تيشيخوف.. وديستوفسكي
- ولماذا تحب الأخير؟
- لقد تألم كثيرا. وكتب وهم يتألم.
- أتحب الألم؟ هززت رأسي وقلت:
- وأنت؟

كانت الغرفة مليئة بالدخان.. والموسيقى تصدح.. وأربعة أجسام متلاصقة أمامنا.. وقد أقفلت الفتيات عيونهن ورحن يحملقن بعوالم سحرية مليئة بالموسيقى.. وشفاه الرجال تختلس القبلات.

وقد وضعت ميلا يديها على المائدة واحتضنت رأسها الصغير وراحت تحملق في..

- أنك تدخن كثيراً..
- لقد خدعتني صديقتي..
- هل تشعر بالألم لذلك؟

وابتسمت قليلا..

- هل تحبها؟
- لم أعرفها.. حتى أحبها
- يقولون أنكم أنتم الشرقيون تحبون من أول نظرة..
- نحن مثلكم نحب.. ونعنف.. لكن ليس من أول نظرة..

وضحكت..

- لقد قرأت ذلك في ألف ليلة وليلة..

أتعرف يا محمد أني أحب الشرق..

- أنت! إنك تحبين الشرق الذي قرأت عنه في ألف ليلة وليلة..

لكن شرقنا الآن يختلف.. الأحلام.. ذلك هو الشيء الوحيد الذي تبقى لنا في الشرق من ليالينا الألف.

- لا يهمني ذلك.. أريد أن أزور الشرق أريد أن أرسم..
- وأن تكتبي أشعارا.

كنا ندخن ونتحدث..

- أتعرف.. كم كان رائعاً لو كان لدينا خمر- ؟
- أعرف ذلك.. ولكن نحن لسنا وحدنا..
- نظرت إلى الراقصين وتنهدت
- ليأخذكم الشيطان.. لقد نسيت..
- هل تحبين أن نرقص.. سأحاول أن أكون راقصاً ممتازاً.
- كلا أريد أن أسمع موسيقى شرقية.. وأن أدخن.. وأشرب..

نظرت إليَّ بحب، وأكملت قائلة: وأن أتحدث إليك..

قلت لها، وأنا أقف:

- استطيع أن أحقق أمنيتك..
- هل أنت ساحر..
- لا .. أنا شرقي..

وقبل أن نغادر الغرفة ابتسمت جالا وهي ترسل قبلة بيدها.. حظاً سعيداً يا أطفالي

أجبتها: شكراً. يا أماه..

ديسمبر ١٩٦١م

عيون ميلا

آه كم أشعر بالتعب. إن موسكو تنام بسرعة. وأنا أشعر بالوحدة. كان اليوم متعباً. معلمة اللغة الروسية أرهقتني بكثرة أسئلتها.. تمنيت مرات كثيرة وهي تشرح قاعدة نحوية لو كنت في المنزل أمام قارورة خمر.

لعنة الإله على هذه الطوابير. أنني لم أتعش منذ ساعات لكن الطابور لا يزال كثعبان يتلوى أمام –الكاسا- بإرهاق. وأنا أشعر بالضجر.

وقفت في الطابور.

- محمد .. هل تريد شيئاً؟

قبل أن أجيب كانت عيون ميلا تحملق فيَّ وهي تبتسم. كانت قريبة من(الكاسا) أمام عشرات من الناس.

- ماذا تريد؟ ها..؟

طلبت شيئاً.. وقلت:

- سأقف في الطابور الآخر حيث آخذ الطعام. شعرت بعيونها تهزني.. كانت بلا نظارة. صغيرة كطفلة تركت مدرستها الابتدائية لتحلم بزوج.. نحيلة.. كسندريلا.. وشعرها الأشقر الذي أرسلته في ضفيرة على صدرها كنهر ذهبي فوق صدر سهل أخضر يحرسه تلان.

- لماذا أنت بدون نظارة؟
- ألا أعجبك هكذا؟
- أنني أعجب بالمرأة عندما تلبس نظارة.
- لماذا؟
- يخيل إلي أنها تعرف الكثير.

ابتسمت عيناها.. وهي تصعد بين الأصابع النحيلة المغطاة بأنواع من الزيت.

- ماذا درست اليوم؟
- من أين عرفت.
- أصابعك الفنانة تدل على ذلك.

كنت قد وصلت إلى الفتاة التي تقدم لنا الطعام.

- أين نجلس؟
- ابحثي عن أي مكان يعجبك.. سأذهب لأحضر بيرة.

أحضرت قارورتين من البيرة وجلست.

- ألا تستطيع أن تعيش بدون خمرة؟
- ألم تقرأيهمنجواي؟؟

رحنا نأكل وأنا أنظر إليها.. وهي تحاول بخجل أن تخفي أصابعها.. هزت الريح باب المعطم وتساقطت على الأرض شظايا من الزجاج.. عيون ميلا ترسم في لونها الأزرق مياه بحيرة.. تعكس سماء..

- أنني لا أحب عندما يتناثر الزجاج..
- أنا أحب ذلك.. الا تشعرين أن هناك كآبة، صمت.. لابد.. لابد من شيء يمزق صمتنا.. وليس هناك أجمل من ريح ترسل في الهدوء شظايا زجاج.
- إنك متشائم.
- بالعكس أنا متفائل..

رحنا نسير في الشارع.. أقفلت زر معطفي الأعلى وأنا أشعر بالبرد.. بينما كانت الريح تلعب بخصلة طائشة من شعرها..

- اتحبين أن نذهب إلى السينما.
- أخاف أن تبرد.. ألا تريد أن ترى ما رسمت اليوم..

في المنزل المقابل لمنزلنا.. وحيث ضجيج الطلبة يتشابه وضجيج منزلنا. كانت الأصوات الناعمة أشد إثارة للضجة.. دخلنا.. أربعة

سرر تملأ فراغ الغرفة.. ودولاب كبير.. ولوحات زيتية معلقة في كل مكان.. و(البومات) .. و(ريبورتاج).. وصور على السرر وفوق الدولاب وعلى المائدة.. تحت السرر كانت هناك كميات كثيرة من الأوراق..

- هذا هو محمد الذي أخبرتك عنه

مددت يدي لأصافحها.. وقالت:

- جريتا

- محمد..

- أرجوك أن تنزع معطفك..

- شكراً فأنا لا أفكر بالجلوس كثيراً..

خلعت معطفي وتركته على السرير.. ورحت أمعن النظر في كل ما حولي.

قالت جويتا:

- أرجو المعذرة إن غرفتنا تملأها الفوضى دائماً.

- إنها طبيعة الفنان، وأردفت قائلاً:

- الاحظ انكم تأخذون بنصيحة بيكاسو.. قلت ذلك وأشرت إلى الألوان الكثيرة..

- ماذا تعني؟ قالت ميلا ذلك وهي تحمل أدوات الشاي لتضعها على المائدة..

- الا تعرفين قصة بيكاسو.. لقد ذهب إليه أحد أصدقائه.. وفي المرسم.. رأى الصديق أن لدى بيكاسو كمية كبيرة من الألوان وعندما سأله عن سبب ذلك اجاب بيكاسو قائلاً:

- أنني أتذكر عندما كنت لا أجد ثمناً لشراء أنبوبه ألوان- لن أنسى ذلك مطلقاً- ولكي لا تعود تلك الظروف فأنني أحتفظ دائماً بهذه الكمية..

هزت جريتا رأسها ولم تجب.. بينما ذهبت ميلا إلى المطبخ..

- أنت تعرفين أن بيكاسو مليونير.

- نعم أعرف هل يعجبك رسمه..؟

- أنه يعجبني.. ولكن في كثير من الأحيان لا أفهمه. ابتسمت.. كان شعرها القصير الأسود كفتيات باريس الوجوديات — يتساقط فوق عينيها العسليتين.. كانت في بنطال ضيق يبرز روعة تكوين جسدها الممتلئ.. كانت متوسطة الطول.. ممتلئة قليلاً.. في عيونها سرحان.. وأنفها يرمز إلى كبرياء أما يدها.. فيد فنان كان ينحت في صخرة منذ عدة سنوات.

- قالت لي ميلا إنك كنت في أوربا الغربية.. هل كنت في باريس؟

- كلا للأسف.. أحلم أن أكون فيها..

- كلنا نحلم..

راحت تقلب مجموعة من الصور.. كانت تبدو قلقة.. متضايقة من شيء ما.. وعيناها لا تستقران في مكان.. كانت حزينة..

- هل أنت أسيوية؟

- أنا من أرمينيا؟

كانت على النافذة فوق سريرها.. أيقونة صغيرة عليها صورة العذراء وابنها.. كانت قديمة.. تذكرت عندما رأيتها في الكنيسة الكبيرة التي زرتها في روما.. تعجبني أمثال تلك الصور. فيها من البراءة أكثر من الألوهية.

- تعجبني أيقونتك.. هل أنت مؤمنه.

- أحقا.. انها تعجبني أيضا..

عادت تنظر إلى الصور..

نظرت إليها.. ورحت أدخن سيجارة.. ويدي تقلب مئات الصور.

فتحت ميلا الباب وقالت:

- أرى الصمت يخيم عليكما.

أوه أعذرني.. لقد كنت مشغولة بأشياء.

أجابتها ميلا. أنت يا جريتا دائما مشغولة..

قلت: أحب الإنسان الذي يملأ فراغ حياته.

رأيت ابتسامة شاحبة في وجه جريتا.. قالت:

- فراغ حياتنا.. إننا مع الأسف لا نستطيع أن نملأه، نحاول فقط. ولكن للأسف دونما جدوى.. رحنا نشرب الشاي.. وندخن وأنا أقلب مجموعة من الصور التي قدمتها لي ميلا وقد وقفت بجانبي تشرح لي تاريخ كل صورة.. وصاحبها وراسمها..وعندما انتهينا سألتها..

- لكني حضرت إلى هنا لأرى ما رسمته أنت.. نظرت إلى جريتا.. ثم.. ثم ألي وقالت:

- أخاف أن لا تعجبك.

- وإذا أعجبتني؟..

- دعنا نشرب الشاي.. قدمت لي فنجاناً آخر.. كانت جريتا تنظر إلي في بعض الأحيان.. لكنها كانت صامته.. في وجهها تعبير قاس عن الوحدة.. لكنها عندما تبتسم.. كانت المرارة تبدو في ابتسامتها. أما إذا ضحكت.. فالألم يمزقني وأنا أرى صوتها الضاحك يكاد أن يبكي.. كنت أتعمد أن أجعل عيني تلتقي بعينيها وكانت تخفضهما دائماً.. أخيراً قالت:

- لدي رجاء أخاف أن ترفضه

- لم أرفض رجاء فتاة مطلقاً..

- أريد أن أرسمك..

نظرت إليها بقلق..

- ألا توافق؟..

قالت ميلا بفرح طفولي..

- يالها من فكرة رائعة. إنني أحبك يا جريتا لأنك تملكين دائماً مثل هذه الأفكار.

- أوه، يكفي..

- ما رأيك.. هل سترفض

قلت:

- إنني موافق.. ولكن.. أقول الحق أنني لا أعتقد أنني أملك وجهاً صالحاً للرسم.

نظرت إليها جريتا وقالت:

- لقد دققت النظر فيك.. إنك تملك أنفاً جميلاً..
- إن عيونه أجمل
- أوه يا للشيطان ستتغزلن بي.. ضحكنا..
- متى ستأتي؟

قلت:

- يا أصدقائي.. عندما يأتي الشخص إليكم كصديق يشعر بأنه سيجد اعتناء ما.. أما إذا كان كموديل.. فأعوذ بالله..

أجابت جريتا وهي تقف أمامي وقد وضعت يدها في جيب بنطالها وعلى شفتيها ابتسامة:-

- سنكون أصدقاء..

أضافت ميلا:

- أصدقاء طيبين.
- أذن أتمنى لكم ليلة سعيدة.. وأحلاما هادئة.
- متى سنراك؟
- قريباً..

في الشارع كان البرد.. وكانت الأشجار تهتز تحت الريح.. وأنا أغوص في المياه التي تجمعت في الشارع.. وفي الحديقة الصغيرة كان هناك عدة أشخاص وهمسات.. رأيت حبيبان راحا في عناق طويل.. مررت بالممر الذي يؤدي من الحديقة إلى المنزل.. على كل مصطبة كان عاشقان.. يتهامسان.. يتعانقان.. ويقبلان بعضهما بعضاً.. شعرت بالبرد.. وبأني حقير لأني أتدخل في سعادة الآخرين.. وأقطع قبلاتهم الدافئة.. أحسست بالغيرة.. لماذا لا أقبل فتاة.. الآن.. في هذه الحديقة.. يالها من فكرة سخيفة.. كان سريري بارداً.. شعرت بالوحدة.. لكني نمت وأنا أعرف تماماً أنني نسيت أن أقوم بكتابة إنشاء عن الخريف في اليمن.

ديسمبر ١٩٦١م

في قاعة تشايكوفسكي

إيه يا حزن.. كتبت بالأمس أبياتا حقداً على العالم.
عدت إلى المذكرات.. خطيت فيها كلمات.. لكن عندما حاولت أن أنام.. كانت أدراج قلبي مفتوحة.. إيه يا نابليون العظيم قليلون هم أمثالك.. خاصة عندما ينامون. أمام المترو ومئات الحسان ينتظرن.. تلك تبتسم.. وأخرى يهزني بعنف منظر رد فيها.. الشتاء على الأبواب آه ما أقسى شتاء بدون دفء.. أرسل لساني تتحسس بألم آثار جرح.. وفي قلبي يتمزق وتر.. ويسيل دم وقفت.. جميل أن يظن المرء أنه ينتظر.. ترى هل هي شقراء.. سمراء.. جميلة ورشيقة.. آه اللعنة على عيون الناس.. فتاة تبتسم برقة.. لعلها تقول.. أيها الشاب اللطيف.. لن تأتي صديقتك.. هلا تقدمت. لعنت الآلهة مجتمعة.. أن عيونها تفر. فلأتقدم.. علي أن أقول كلمات.. عيون الآخرين.. عيون الآخرين تقتلني. أحببت بعنف. لكني حلمت بأنها تخونني.. فتعذبت وهاهي أسابيع مرت.. عاد الفراغ يمزق الأحشاء وأنا.. وأنت.. وهم.. شيء سخيف أن يعتقد الناس أنني أنتظر.. نظرت إلى الساعة.. لا أدري هل أستطيع أن أقول أنها تأخرت.. إنها السابعة ودقائق.. سأنتظر.. لعلها هي التي تسير وهي ترقص بعنف.. أو تلك التي تحمل كتاباً.. كلا.. نعم.. كلا.. أوه لا أستطيع أن أغادر هذا المكان! فم المترو يلتهم ويقذف في اللحظة مئات الناس.. وكل العيون ترتكز علي.. أنها تسخر مني.. خاصة عيون تلك الحسناء الفارعة.. الذي يعتز جسدها بإغراء شيطاني.. الجميع يسخرون.. أنهم يقولون.. مسكين هذا الغريب لم تأت صديقته.. مرت دقائق أخرى.. ماذا؟ يتفتق عقل الإنسان في لحظات بأفكار شيطانية.. تحسست جيوبي.. إيه أيتها الحسناء.. ألا تريدين مساعدتي لشراء

قارورة نبيذ أحمر.. أحمر كدم الشمس القتيلة فوق آكام جبالنا السكرى بطعم الدم الدافئ.. في ليالي الشتاء..

- مساء الخير محمد

هززت رأسي له.. إنه أنيق إلى حد أنه قتل الأناقة.. كنت أكره تلك الرائحة العطرية التي تنداح منه.. حتى شعره المدلوك بالآلف من أنواع الكريم والعطر.. والشامبو.. ورباط العنق الذي يكاد يطير فرحاً.. فوق قميص أبيض ينافس الثلج الذي يتساقط. فرك يديه بحركة سخيفة.. وراح يحملق في المترو. إنه لا يحس بالمأساة التي تحدث كل لحظة.. لا يعرف أن هناك تحت الأرض عملاقاً مخيفاً يلتهم البشر ويلفظهم وهم يبتسمون.. كتلك العصفورة الصغيرة التي تلوح بمرح لشاب أجمل منها.. وربما بضجر وكآبة كهذه العجوز التي تحمل مظلة.. ومعطف مسطر كم تبدو شابه بالمقارنة بي.

- إيه.. لم تأت صديقتك بعد؟؟

- ألا ترى أيها الثقيل أنني أكره حركتك . أتعتقد أنك ظريف.

- الشوق.. بل الآهات في أعماق المسكوفيات.. إيه يا أبني.. لقد شبعنا.. ونحن نشعر بالتأوهات تموت داخلنا..

- يا سلام.. كانت هي.. آه لقد انتظرتك طويلاً يا صغيرتي.. وهذا الحيوان الواقف بجانبي يحملق فيك.. كم أنت جميلة اليوم.. صغيرة كطاؤوس هرب من الجنة.

- لماذا أنت واقف هنا..؟ ألم تأت بعد؟

آه حتى أنت يا بروتس؟ .. ألا تدرين أنها قد أتت. وأنها تقف بجانبي.

- لماذا تحملق في بدهشة؟

- لأنك متعبة.. أرى العرق يبلل نهديك.. وتملأ نهديك رائحة ندية شذية تثير في أعماقي آلاف النداءات.. وتثير عيونك في

نفسي طمأنينة. كانت تبتسم كعادتها.. وتسير بجانبي وهي لا تنقطع عن الحديث..

- إسمع.. لدي فكرة.. نظرت إليَّ وقالت:
- أوه لقد نسيت أنك كنت تنتظر شخصاً ما.. هل هو جميل؟
- جداً..
- وهل يعجبك؟
- جداً..
- أذن سأبحث عن شخص آخر أعطيه تذكرة إلى قاعة "تشايكو فسكي للموسيقى هذا المساء..
- وهل ستذهبين أنت؟..

لن يحرمني من متعة. أريد أن أسبح في عوالم موسيقية لا أفهمها.. أليس ذلك بعظيم.. كصديقي الذي قرأ لسارتر. العدم. وأتى إليَّ وفي عينيه آثار تفكير عميق وليالي سهر متواصلة ليقول: محمد أتدري.. لقد قرأت لسارتر . العدم . خمس مرات.. مرر يديه على جبهته كأنه يتذكر شيئاً، وأضاف: إنه كتاب عظيم.. عظيم جداً يجب أن تقرأه.. تصور لكونه عظيم لم أفهمه.. لكن "شايكو فسكي" غير . سارتر . الكلمة.. غير اللحن.. اللحن تسبح معه في عوالم.. عوالم في الأحلام الخضراء في سماء سوداء وبجانب جواري بيض وسمر.. وليالي حمراء.. ليالي جهنم.

- هل سمعت شيئاً عن بتهوفن
- أوه.. نسيت أية مقطوعة سمعت
- وهل أعجبتك..
- يقولون السمفونية الخامسة عظيمة.. ولكوني لم أسمعها.. وحتى لو سمعتها فلن أفهمها.. ولكن لا لأنهم يقولون أنها عظيمة فأنني أضم صوتي إليهم أيضاً. ضحكت.. هل تتصورون ضحكة حورية في الجنة . ليأخذكم الشيطان.. كانت جميلة.. وهي تلبس منظارها الصغير.. عندما أسافر إلى بلادي سأحضر لك إطارا من

الذهب.. ألا تريدين.. يالك من عصفورة. أو من العاج.. أنني أحب العاج كثيراً.. لكن ويا للأسف لم أره. أما الذهب أوه.. عندما كنت صغيراً كنت أسمع من يقول أن تراب بلادي ذهب.. فلا فخر أن قدمي قد داستا. ربما احتقاراً على ذلك الذهب.

- وباخ.. هل تتذوقه..؟
- طبعاً.. طبعاً.. باخ هذا.. ماذا؟..
- أتدري أن الموسيقى التي تهمس إليك بأحاسيسك هي التي تؤثر فيَّ، أنني أعجبت برخمانينوف لأنه..
- آه يا صديقي.. أنني لا أريد أن أحرم فتاة أخرى منك..
- وأنا لا أريد أن أحرم نفسي من صحبة أناس.. للأسف لو عرفوا أنني سأحضر حفلاتهم.. لما كتبوا الموسيقى إطلاقاً.. هل أحدثك عن ثقافتي في الموسيقى أنني بحر أعرف قصصاً كثيرة عن الموسيقى.. ماذا يهمك عمَّا كتبوه؟
- المهم.. كيف كتبت الحياة حياتهم.. نعم يا ميلا.. ضفيرتك كمروحة.. وأنت هناك ممتلئة..
- إذن إلى اللقاء بعد ساعة..
- سأكون في نفس المكان
- ابتسمت.. ومضت..

عرجت على مقهى.. طلبت بيرة.. رحت أعبها.. يا لتلك العيون الحقودة.. يا سلام..

أي سلام.. مسكين هذا المسيح.. عندما قال وعلى الأرض السلام.. وفي الناس المسرة.. إيه يا عزيزي المسيح.. أي سلام ومسرة.. كنت طيباً وأنت تحمل صليبك.. كم أنت تعس.. إن سيزيف أحسن منك حظاً.. سأشرب أيضاً زجاجة رابعة.. أتدرون أن البيرة من الطف المشروبات.. كم هي مره.. لكن السنا نعيش الحياة الأكثر مرارة.. في صحتك أيتها الحياة كم تعجبني هذه الأغنية اللطيفة..

- أحبك أيتها الحياة
- أحبك كثيراً.. وكثيراً
- أحبك حتى وأنا أعود من العمل بخطى متسعة.
- إيه يا زمن.. أحبك أيتها الحياة وأنا أعب الزجاجة الخامسة.
- هل قررت أن تستمتع في الموسيقى هنا..؟
- هلا جلست ميلا.. وشربت..؟
- لم يعد لدينا وقت.
- فلتسقط الخمرة وتعيش الموسيقى..
- إلى درجة تكفي أن أكون موسيقياً بعد سماعي لبتهوفهن..آه..

عيونها تخترق زجاج نافذة المترو إلى قلبي وقد أعطينا ظهرينا للناس.. ولفضولهم وأنا أنظر أليها.. أليها.. إلى ميلا.. ورحت أحضر قميصاً للسهرة أبيض وكعباً عالياً.. وشعراً مركوزاً بفخر وكبرياء.. و.. وشيئاً لست أدري ما هو؟ لكنه موجود.. نعم.. موجود آه لقد عدت اسكر.. اسكر..

- زملاء أعتقد أن هذا مكاننا..
- كلا إنه مكاننا..
- لكن لدي تذاكر تقول أن هذا مكاننا
- ولدينا أيضاً تذاكر تقول أن هذا المكان مكاننا.

ما داخل الآخرين في شئوننا.. الجميع ينظرون إلينا وفي عيونهم فضول قذر.. كم وددت لو فقأت كل عيونهم.. أو لو صرخت فيهم حتى يصمتوا.. أو حتى لو بصقت في وجوههم..

- أتسمح لنا بتذكرتك.

قدمت للزميل الجالس التذاكر.. وأنا أقف بفخر منتظراً اللحظة التي تتخلى فيها عن المكان لي.. ميلا وقد أحمر خداها من الخجل تقف. عاشت الخمرة وليسقط الخجل..

- أرجو المعذرة..

آه لقد بدأ يعتذر.. لكن لن أقبل عذره.. أنه يحتل مكاناً غير مكانه..

- إن هناك سوء فهم.. إن تذكرتك يا زميل هي في البلكون.. ونحن الآن في الصالة..

آه أية طعنة توجه لك أمام عيون فضولية.. وأمام رجل يتظارف على المسرح يريد أن يقدم البرنامج.. أصفعه بكسل..

- أليست مقطوعة رائعة..
- نعم آية في البناء.. قاعة متكاملة.. لو كان في بلادنا قاعة كهذه أنظر ألا تحس بالروعة.. وأنت ترى هذه المقاعد وهؤلاء الذين يتصنعون السمع والفهم.. أقسم بالذي.. أنهم.. مثلي..
- هذه المقطوعة لا تعجبني..
- لماذا
- لا أدري
- نعم.. كلنا لا ندري
- اسمعي.. إنني أكاد أن أبكي.. إن الوتر يبكي.. يبكي..
- آه.. أنت عاطفي.. كم مرة تخيلتك وأنت كما يكو فسكي تحمل فأسك وتحطم رأس أعدائك.
- إيه يا ميلا.. ألا تدرين إنني أخاف من لون الدم.. لازالت هنا يا عزيزي.. رأس ديك قطع نصفه ونصفه معلق في الهواء وأنا أريد أن أذبحه.. هربت.. كنت جباناً.. لكني بكيت.
- ما الذي أعجبك في الحفلة؟
- القاعة..
- أنا أسألك عن الموسيقى..
- ها.. كل شئ..
- قل لي كيف وجدت باخ ؟؟

والله المصريون يقولون. "بايخ" فليس هناك أي فرق.

- لا بأس..
- اللعبة الثنائية على الكمان ما رأيك فيها؟
- مجرد روعة.. عظيم.. مدهش..

- للأسف لم يعجبني ذلك.. لعبوا هكذا بطريقة تدعو إلى الرثاء..كان كل منهم في وادي. الإحساس لم يوجد مرة فيك.

- في الحقيقة.. لقد كنت مغمض العينين كمعظم المستمعين.. ورحت في نومه لطيفة.

- آه.. شيطان..

- وحلمت حلماً..

- أي حلم؟

- إنه حلم تافه.

- أوه.. عن بحيرة.. وزورق وسمفونية لا أدري من أين.

- وماذا بعد؟

- لقد كدت أغرق.. وأنا أحاول أن أقبلك.

- الجو حار

- نعم أنني لا أشعر بأنني وحيد.

قالت وفي صوتها شئ ما..

- كيف؟

- انظري. القمر في مولده.. إنه هلال.. إن شخصاً ما ينظر إليه معي في هذه اللحظة..

آه لو تعلمين فقط من هو هذا الشخص.

البرد.. الوحدة.. والحلم..

ديسمبر ١٩٦١م

عيونهـــا

كنـا أربعـة.. وكـان الترولوبـوس مزدحمـاً.. وكنـا واقفـين. عنـدما رحنـا نطلـق الكثير مـن النكـات.. ونـضحك كأطفـال أطلقـوا مـن حـصة مدرسـة يكرهونهـا. كـان (فكـرت) ذو الأنـف الكبير يقهقـه.. رحت أنظر إليها.. وهناك كلمات تتردد بسرعة.

- يخشى.. يخشى حملقت في (حَسَبْ) وقلت:

- إنهـــا رائعـــة.. مجـــرد رائعـــة غـــاب (حـــسب) في دوامـــة مـــن الإلهـام..كـان الجـو في الخـارج بـارداً.. لـذا تجمعـت فـوق نوافـذ الترولوبـوس قطـرات مـن النـدى. كانـت عيونهـا تختـرق النافـذة.. وقلبي..

- إنها ليست روسية.

- إنها أسيوية. آه كان شعرها الأسود القصير يتراقص بمرح وهي تهز رأسـها.. وعيناهـا تمـزق صـمتي.. كنـت أحملـق ببلاهـة.. تلاقـت عيوننـا.. لمحـت شـبه ابتـسامه.. يـا إلهـي. والتفـت إلى الـوراء.. لمـن تبتـسم هـذه الحـسناء؟ كـان الزحـام شـديداً.. وكانـت عينـاي وحـدهما تحملقـان فيهـا.. (فكـرت) يبتـسم ويعلـق بلغتـه.. يبتـسم ويبتسم (أيفاس).. و(حسب) في سحب الإلهام يمـرح.. راحـت أصـابع يـديها الـرقيقتين ترسـم علـى النافـذة.. عيـنين.. كـبيرتين.. ابتسمت.. كتبت تحت العينين بسرعة..

- احب عينيك.. أحبها.. التفت (فكرت) إلي وقال:

- ماذا كتبت..؟

- لا شئ.. لا شئ.. غمز للفتاة.. وقال:

- هل أنت أسيوية؟

هـزت رأسـها.. وراحـت خـصلات شـعرها تلعـب فـوق جبهتهـا بعـد أن توقف رأسها عن الاهتزاز..

- من أين أنت إذن..؟

موسكوفية. أبتسم فكرت وهو يقول:

- أنا أعرف هذا من أن تخبريني.. ولكن أريد أن أعرف المزيد؟

ابتسمت عيناها.. وقالت

- خمن.. التفت إلي فكرت وأنا أكاد أذوب طرباً لصوتها الساحر.. وقلت:

- أنها فاتنة.. وهذا يكفي.. قال لها فكرت وهو ينظر إلي:

- ألا ترين إنك أذبت هذا الفتى العربي بجمالك؟ آه يا فكرت.. قل لها أن عينها صماء أقمار.. وسحب.. قل لها يا فكرت أنني أغرق في بحار شعرها القصير المتماوج كموجات البحر.. قل لها يا فكرت.. يا شاعري العزيز.. ويا صديقي..

- ألا تريدين أيتها الحسناء أن تخبرينا؟ تنحت عجوز كانت جالسة بالقرب منها.. وداس أحدهما بحقد على قدمي.. ومضى دون أن يقدم اعتذاراً.. ومرت امرأة تزن ألف كيلو بجانبي.. أحسست اني أكاد أن أفقد تنفسي.. لم تقدم اعتذاراً.. بل نظرت إلي وقالت:

- أيها الشاب لا تزعج الركاب.. قدمت لها اعتذاري بكل اللغات التي إجيدها.. كانت عيناها تبتسمان وفكرت أن أنحني أمامها مصراً على التعارف.. الزحام.. وصوت المرأة العجوز وعيونها وهي تحملق فينا..

- أنني يهودية..

- (يهودية)؟؟ ابتسم فكرت.. صاح (حَسَبْ) فجأة وهو يفتح عينيه الضعيفتين إلى أقصاهما بدهشة ثم أشار إلى الفتاة بأصابع يديه الفنانة التي تصلح لأن تكون يد لاعب على البيانو.. قال:

- يهودية.. أنت.. إنك عدوتنا. ضحكت عيناها.. تهتهت شعرها الأسود القصير.. وقالت:

- لماذا؟

- ضربت (حَسَبْ) على كتفه وقلت:
- أيها المجنون أهذا وقت الحديث عن الأعداء.. أو تظن أن هذا الجمال الإلهي عدو لنا..؟
- لكنها يهودية..
- قالت الفتاة بصوتها الراقص..:
- نعم.. لكني لست إسرائيلية..
- آه.. هز حسب رأسه وعاد إلى سمائه.. بينما قال فكرت:
- لقد ظننت ذلك..
- أنتم من معهد جوركي للآداب..؟
- نعم.. راح فكرت يقدمنا لها..
- هذا شاعر.. وهذا شاعر ثم أشار إلي وقال: وهذا ناثر.. ثم. سكت. وقلت أنا: وهو شاعر.. وهكذا ترين أنني وحيد بين شعراء ثلاثة.. حملقت في ثواني.. كنت أرتجف.. جف ريقي وأنا أنظر إلى السحر اللامتناهي في سماء عينيها.. لكنها قطعت الصمت وقالت:
- إن الناثرين أكثر تفنناً في الخداع من الشعراء.. إن لديهم كمية كبيرة بل قدرة على خلق الأحداث والأكاذيب، حتى عندما يكتبون قصة.... لمحت ابتسامة على وجه العجوز التي قالت:
- بالعكس يا ابنتي.. الناثرون أكثر الناس هدوءاً وتفكيراً وهم صادقون.. أما الشعراء فهم مجانين.. لمحتها تقف.. قالت وهي تشير إلى الطريق:
- أنها محطتي.. أتمنى لكم حياة سعيدة.. ونجاحاً في الدراسة.
- ايه.. يا حسنائي إلى أين؟ قسماً بكل الآلهة القديمة والحديثة لن أتركك تمرين.. قذفت بالشنطة إلى (حسب) الذي تلقفها دون أن يشعر بأن شيئاً ما قد حدث.. بينما قال فكرت وهو يراني أتخطى الناس قافزاً بعد حسنائي اليهودية..

- إيه لقد حدثت عملية سطو... لم أسمع بقية الجملة إذ كنت في الشارع.. مضت أمامي.. وكنت مشغولاً بإشعال سيجارة.. وقفت بعد خطوات وأشرت إلى السيارة وقالت:
- لماذا تركت أصدقاءك؟ لم ألتفت إليها بل انطلقت قائلاً:
- إنني عندما لمحت عيونك شعرت باشتعال في قلبي.. وعندما سمعت صوتك.. أدركت لماذا هي قبيحة أصوات الفتيات اللاتي أعرفهن.. أما شعرك.. فهو حلم لي أن أرى الدنيا كلها تجمعت فيك وآوت إلي.. لكنها لم تدعني أتم
- إنني صادقة فيما قلت قبل دقائق فأنتم دائماً حتى في الحياة تكتبون قصة. توقفت عن الكلام وقالت:
- وأنا لا أريد أن أكون بطلة قصة جديدة..
- لماذا؟
- أولاً أنك تعتقد أنني عدوه... هكذا (لم أدعها تستمر قلت لها بسرعة):
- اسمعي يا حسنائي.. إن أروع حب هو ذلك الذي يحدث بين الأعداء إنه رائع.. ألم تقرأي تلك الروايات التي تصور هذا الحب. كانت أسنانها البيضاء كالثلج المتساقط في الماء تلمع بروعة.. وهي تقهقه..
- ثم ماذا؟
- آه أيتها الخبيثة.. قولي لي متى سأراك..؟
- هكذا بسرعة..
- ولم لا.. نحن في عصر الفضاء.. والخطط.. يجب أن تنفذ.. كل شئ بسرعة.. وبدقة..
- لكني لا أرى رأيك هذا..
- أنت إذن لا تؤمنين بالاشتراكية..
- آه.. إسمع يا صغيري إن لديك أنت أيضاً عيوناً جميلة.. سوداء.. ساحرة وشعرك هذا المفلفل أجمل بكثير من هذا الشعر

الذي أملكه... بالمناسبة ما الذي كتبته تحت ذلك الرسم في السيارة..؟

- أوه.. لماذا رسمت تلك العينين؟
- إنها عيناك
- بل إنها عيناك وقد كتبت أنني أحبها..
- آه يا صغرى.. آه يا عيوني السوداء
- إذن متى سأراك..؟؟
- متى تحب.. لا تنسى أن لدي صديقاً..
- لا يهمني ذلك هل تستطيعين هذا المساء.. في الساعة السابعة.. هنا..
- سنلتقي يا عدوي ذي العينين السوداوين
- آه يا يهوديتي السمراء.. يا عيني العسليتين.. سنلتقي..
- إلى اللقاء
- إلى الملتقى.. مضيت إلى المنزل مشياً على الأقدام.. كنت أرى عيونها تخترقان جدران وحدتي لكني كنت أشعر في أعماقي بأن المقامرة ستنتهي إلى.. فشل.. يا إلهي.. لماذا أخاف.. لماذا أخاف من الحسان.. من الجمال.. عيونها.. عيونها العسلية تقتلني وتمنيت لو إني امتلكها..

يناير ١٩٦٢م

الضجـر

مـن حـولي كـانـت تنبعـث صـرخـات متتـاليـة، سـريعـة، تطلـب الطعـام والشـاي، لكـن الدوامـة الـتي كـنـت فيهـا محـت كـل شـئ مـن حـولي حتـى الطريـق والعقبـة، الـتي كـانـت السـبب في تـأخيري إلى هـذه السـاعـة عـن العـودة إلى المنـزل، هـذه العقبـة الـتي تلتـوي كـأفعـوان ضخم. وهنا قريباً من باب المطعم حيث ينتهـي انحنـاء هـذه العقبـة المخيفـة.. هنـا دفـن أكثـر مـن إنسـان بعـد أن مـرت فـوق جسـمه عجـلات سـيارات محمومـة، منـدفعـة مـن رأس العقبـة إنـه الأفعـوان يلتهم ويحطم تحت انحناءاته أكثر من إنسان.

تفكيري ينـدفع بسرعة تحت كل الموضوعات، هذه العربات الصـغيرة منهـا والكبيرة وهـذه البنـايـات الكبيرة الـتي تبنـى لتبقـى ليحطمهـا الزمن والتراب والإهمال.. وربما الضجر الذي يعيش في نفس كل من يفتح مكاناً جديداً.. دكاناً كان أو مقهى. الضجر.. من ذلك الأمـل الـذي عـاش في لحظـات فتح المكـان وانتهـى بعـد أن فتـح المكـان أبوابـه ليلـتهم الهـواء.. والـتراب.. ونظـرات كـل الـذين يثقلـهم الضجر.. والملل. ويتراكم التراب على الأرفف الـتي امتلأت بـأنواع كـثيرة وبديعـة لكـن لم تجـد اليـد الـتي تأخـذ.. ويـدخل رجـل مـن هـؤلاء الذيـن ينظرون إلى الأشياء لمجرد قتـل الوقت.. وقتـل الضجر الذي يعود مساء كل يوم بعد انتهاء وريقات القـات الأخيرة.. ومـع الليـل والبرد الـذي يوجـد في أرض بلادنـا. أرى الرجـل نفسـه يخـرج بعد لحظات بعد أن همس في أذن صاحب المطعم بشيء.. لعلـه يريـد غداءً رخيصاً بقدر(البقشات) التي يمسك بها بيديه حتى لا تضيع ولـو وضعهـا بـين طيـات ثيابـه الكليلـة الممزقـة. وأرى الكـثيرين مـن هـؤلاء الـذين يمضغون يـومهم حتـى ينتهـون تمامـاً كـأوراق القـات الـتي تقطـف ليبقـى العـود نحيفـاً الفـارق أن وريقـات القـات تـدفع مقابلـها نقـوداً أمـا هـؤلاء فبلا ثمـن. الـدقائق تمـر والـشمس تـرسـل

أشعتها أقوى من قبل والشارع يمتلئ بالغبار كلما مرت سيارة منزلقة بأقصى سرعتها بعد أن تكون قد انزلقت من رأس العقبة التي فرغت من الناس في هذه الساعة من الظهر.

وأما جبل "صبر" فها هو أمامي يرتفع. يرتفع أكثر ليناطح السحاب التي استسلمت لقمة الجبل فأكسبته بياضاً حتى يخيل إلى الغريب أن الثلج هو الذي يغطي قمة صبر العظيم يحتضن صبر الجبل بحنان عاطفي قلعة القاهرة التي تبدو كابن صغير مدلل، يلعب في أحضان أبيه، وبين انعطافات جبل صبر وعلى بعض قممه تنام في استرخاء بيوت بيضاء كسلة تحت ضربات الشمس المتتابعة بجانب مدرجات الزراعة حيث ينمو القات ليقطف كل يوم لتنحدر المدينة الممتدة تحت أقدام صبر تصنع هذه الوريقات الكثير من الآلام والآمال وتفرغ جيوب أمثالي.

أعود لأقطف بعض الوريقات من جديد أمضغها بكسل أنفث المزيد من السجائر المزيد من أفكار الظهيرة التي تحركها حرارة الشمس الآن تمر أمام المطعم قافلة جمال طويلة تطوح بأرجلها بتراخ وبطء يقودها أصحابها بتراخ أكثر ومع اهتزاز الجمال تهتز الأخشاب الطويلة العارية الممتدة فوق ظهورها القادمة من الجبال، تمضي القافلة تشق المدينة عرضاً، إن أشد ما يزعجها دائماً مروق السيارات بجانبها حتى يختل توازن القافلة.

من قلب المدينة تخرج قافلة أخرى.. قافلة من الحمير التي أفرغت منذ لحظات ما تحمل من الفحم وها هي تأخذ في طريق العودة بشراً أكثر تعاسة.. وبين القافلتين تمر السيارات المسرعة. يمتلئ المطعم.. يزدحم.. يتحد.. يفرغ بعد ذلك يتجه الناس نحو منازلهم وأبقى أنا ألتهم وريقات القات غصناً بعد أخر.. أسرح بنظري إلى الجبل أمالاً في رؤية الماوراء ولكن سرعان ما أعود مصطدماً بارتفاع الجبل الذي يمتد إلى مسافات بعيدة.

آه يا صبر كم تضم في حناياك من تناقضات.. الآن يتخطر أمامي طابور ناعم من بنات صبر في طريق العودة إلى الجبل يحمل من المدينة تموينا للجبل بعد أن حملن منه تموينلنا نحن من القات.. يمضي الطابور بملابسه السوداء التي شدت من الخلف.. يظهر جزء من تقاطيع جسم المرأة.

وأمضي أمزق ثنايا صبر البعيد، إلى جبال قريتي النائمة خلف جبال أكبر وأعلن من صبر إلى الدار والأطفال والثياب السوداء التي ورثناها من مئات السنين الحزينة من الألم الذي خيم علينا والذي لم نستطع حتى الان أن نحوله إلى أمل وأرى جبال قريتي والوادي الصغير الذي يمزقها نصفين والمدرجات الخضراء في شهور الصيف والتي تصنع منها الأمطار بحيرات صغيرة.. الماء الذي يندفع من الجبال ليمضي إلى الوادي حيث يلعب الأطفال بأقدامهم الحافية التي مزقتها الأشواك. وتعود مع شهور الشتاء إلى الجدب والفراغ تحت ضربات الشمس المتكاسلة تصاحب قطيع الماشية المنطلق إلى المدرجات والجبال العارية.

هربوا جاء الليل

لم تكن خطواته غريبة على القرية، كان يعرف طريقة، وماذا يريد؟..

في هذا الموسم من كل عام كانت خطواته تقوده إلى هذه القرية، حيث أصبح يعرف كل منازلها وأهلها، حتى الغائبين منهم، أسمائهم؟

كان كل عام يصل إليها يصطحب معه مجموعة جديدة من البشر، غريبة عن القرية وعن المنطقة... كانوا بملابسهم البيضاء المتسخة، والمكونة من مئزر وجاكيت تحته (فانيلة) متسخه، وعمامة من نفس النوع ورديف.

صاح طفل لحظة أن لمحهم من بعيد قائلاً: العدّينة وصلوا.. العدينة وصلوا... كان هو أمامهم يسير بثقة تامة وابتسامة

واسعة، وصوت خطواته على الأرض المتربة يتردد في مسامع زملائه الذين كانوا جميعهم حفاة. وصل ركبهم إلى المسجد، وبدأ هو يشرح لزملائه.

كانت الأرض حولهم تسبح في اخضرار رائع وقد بدت الثمار ناضجة تتطلع إلى السماء في زهو وفخر. غابت عيونهم فيما حولهم من الأرض النائمة بوداعة على مدرجات الجبال.

في هذا الفصل فقط تبدو الأرض رائعة.. ابتسم، إنه يعلم أن أياماً فقط ستمر وسيعود ذلك المنظر الكئيب إلى مدرجات القرية وجبالها وحتى إلى بيوتها. تذكر المرة الأولى التي نزل فيها القرية.. كان ذلك منذ أمد طويل لا يتذكره، كان عندئذ شاباً يافعاً خجولاً.. حتى كلماته كانت تخرج بصوت هادئ خفيض، وكان دائماً ما ينظر إلى والده الذي قاده إلى هنا.. أما الآن فإن القرية قد أصبحت معروفة لديه ربما أكثر من قريته البعيدة، التي هرب منها بحثاً عن لقمة شريفة للعيش.

دوى صوت المؤذن معلناً صلاة الظهر.. كانت الشمس تنام في قلب السماء وترسل اشعتها التي تلتهمها الأرض وتعانقها عناقيد الثمار الناضجة.

تمت الصلاة سريعة عجلى، والتقى أهل القرية بالعدينة، وكان هو لا يزال محتفظاً بابتسامته. قال بصوت هادئ:

- يظهر أن الموسم رائع هذا العام ؟

رد عليه الفقيه :

- ككل عام يا قاسم.. وكيف هو عندكم ؟
- ككل عام بل أنهم يقولون أن الموسم هذا العام أفضل.. سأله المؤذن قائلاً:
- ألم تكن في العدين؟
- منذ عامين لم أرى العدين، لقد هربت بعد أن أراد الشيخ أن يرسلني للجندية مع أنه تسلم مني مائة ريال. ثم ابتسم مضيفاً:

- إذا ذهبت للجندية فمن سيرعى أولادي وزوجتي، لذلك فقد انتقلت نهائياً من العدين واتخذت (خدير) مقراً. ففيها على الأقل أجد عملاً حين لا أكون عندكم هنا. اتسعت الحلقة حول بركة المسجد حيث أنضم بقية المصلين إليهم. سأله محمد أحمد:

- وكيف حال والدك ؟

قال قاسم بصوت حزين:

- لقد مات في سجن (الشيخ)، لأنه رفض أن يعمل مجاناً في أرضه، تلك الأرض التي نهبها الشيخ منا قبل خمس عشرة سنة، ورغم أننا طوال السنوات كنا في شريعة، لكن الإمام حكم بالأرض لصالح الشيخ.

كان أحد عمال مصافي النفط في عدن يجلس قريباً منهم.. كان يقضي عطلته في القرية، قال عندما وصل الحديث إلى هنا:

- ولماذا لم تعد إليك الثورة حقوقك... ؟!.نظر قاسم إليه بابتسامة، وهز رأسه.. إنه يعرف أن معظم شباب القرية قد غادروها منذ أعوام إلى عدن منهم من ركب البحر ومضى أبعد، وكثيرا ما كان يلتقي ببعضهم في القرية عندما يصل إليها ليؤجر ذراعه لمن يدفع الأجر أكثر.

بعد صمت قصير قال قاسم :

- ليس لدينا المال الكافي لنبدأ في شريعة جديد.. رحم الله الوالد لقد تعذب من أجلها كثيراً وخسر في الشريعة ما كان يملك وما كنا نربحه من عملنا هنا عندكم.

لكن العامل الشاب أردف قائلاً :

- إن الثورة أتت لتحقق العدالة وتعيد الحقوق إلى أصحابها...... قطع الفقيه الحديث فجأة قائلاً : - بطلوا السياسة يا قاسم نحن فلاحون، وسنبدأ العمل من الغد فأنا أريد عاملين منكم.

صاح المؤذن قائلاً:

- وأنا أيضاً سأبدأ العمل غداً واحتاج إلى بعضكم .. تعالت الصيحات كل يطلب جماعة للعمل معه فقال قاسم:

- الأفضل أن نتفق.. من معه أرض أكثر يأخذ منا أكثر ومن لديه عمل أقل يكفيه عامل منا وخلال فترة قصيرة نستطيع أن ننتهي من جميع الأرض.

ظلت الأصوات ترتفع، ومعها الأيدي. مضى ركب (العدينة) إلى الديوان حيث تعود قاسم وصحبه قضاء الليل. ماتت القرية بعد أن خلت الطرقات، وكان الدخان يرتفع من على سطح كل منزل.. كل من في القرية بدأ في الإعداد لقضاء فترة بعد الغداء، مع القات والماء البارد والوسائد و(والمداع) والتبغ، وأكثر من هذا إعداد النار للمدائع. تجمع (العدينة) في الديوان وأخرجوا من أكياسهم أرغفة يابسة ورزماً من الكراث كان أحدهم وهو قاسم نفسه قد طلب قليلاً من الماء من صاحب المنزل المجاور للديوان، وكان حظه حسناً إذ منحوه (كتلي) من القشر... القهوة.

لم يكن ما ابتلعه المساكين كافياً للقضاء على ذلك الإرهاق العنيف الذي عانوا منه وهم يقطعون الجبال والوديان للصول إلى هذه القرية النائية التي تقع على حصن (أكمة) غبراء. أمامهم، على بعد النظر، وحيثما ألقوا أنظارهم، كانت عيونهم تصطدم بالجبال الشاهقة التي تحتضن بيوتاً غبراء أو بيضاء، إما على كتف منحدر أو تحت أكمة.. كانت بيوتاً متناثرة تنام بهدوء قرون ميته، وتتناثر المدرجات الصغيرة في أحضان الجبال وفي منعطفاتها ولياتها...

كان الموسم قد بدأ ينبئ بانتهاء أيامه ... ارتمت المجموعة على أرضيه الديوان كجثث متعفنة لكن شيئاً ما كان قد أثار (قاسم) فزال منه كل ذلك الإرهاق العنيف. شيء جعله يحلم بما كان قد نسيه.

كان في قريته عندما رأى الجميع يهتفون ويغنون لم يدر ما حدث، لكن شيئاً في أعماقه أوحى إليه بأنه قد تحرر من حلم الأرض،

الأرض التي اغتصبها الشيخ منه ومن أبيه، وبأنها ستعود إليه.\ دفي كل بيت من بيوت قريته رأى الفرحة، إلا في منزل واحد، يقع على الأكمة المنيعة، رأى تجمعات قلقة كان شيخه يفكر بالهرب، أخذ بنادقه وأسلحته، وجمع حوله الرجال خوفاً منهم.. لم يفكر المساكين بذلك كانت الفرحة أعظم شيء هزهم في حياتهم التعيسة. هزَّ قاسم رأسه.. لم يكن هناك أحد ليرشدهم إلى ما يجب أن يعملوه انطلقوا يتجمعون حول جهاز الراديو الوحيد الذي يملكه أحدهم يتابعون الأنباء، ولم يناموا ليلتها، في أعماقهم تفجرت براكين هامدة، وأمامهم رسمت صور رائعة كانوا لا يحسون بها، بل أنهم لم يتخيلوا حتى وجودها من قبل. لكن الانتصار وصل إليهم عبر الأثير بينما كان الشيخ يعد عدته قالوا أنه بكى من الخوف... وقالوا أنه جمع كل ما يملك وأرسله سرا تحت أجنحة الغسق إلى عدن بسيارة خاصة مع من يثق بهم. قالوا: إن الرصاص وزع على أصحابه.. بل وزعت حتى الريالات الفضية، وقالوا إنه كان مصفر الوجه، هزيل الجسد، مرتعشاً من الخوف. ومرت أيام وأيام...

أبت جفونه أن تنطبق، لقد هرب من قريته التي أعتقد أنها عادت إليه، كان الانتصار بعيداً عنه، يقولون أن الشمال بجباله الجرداء ومشائخه حاربوا انتصاره، وهرب بعض الناس من قراهم ولم يعودوا، والذين عادوا تحدثوا عن أنباء مخيفة.

لم يعد شيخه حاكماً عليهم فقط، لقد أصبح حاكماً على مساحة أكبر من ذي قبل.

تردد صدى كلمات العامل القادم من عدن في أذنيه:

- "إن الثورة أتت لتحقق العدالة وتعيد الحقوق لأصحابها"...

نعم ذلك ما شعر به ذات ليلة.. حاول أن ينام غير أن جسده المنهك تمرد على تعبه وراح عقله يفكر ويفكر. الأرض تنتظر عرقهم، والجبال ستعود غداً جرداء كما كانت بعد أن يتساقط الاخضرار

على الأرض بفضل سواعدهم. وستمتلئ البراميل والمدافن بخير (الأرض).

وقف في المساء على سطح بركة المسجد وحملق في البعيد، فيما كان هناك صوت أغنية يتردد في الفضاء.

(بالله عليك يا طير يا رمادي

أفرد جناح وردني بلادي)

تراءت له قريته، أرضه، قبر والده الذي مات دون أن يحقق حلمه باستعادة أرضه التي أغتصبها الشيخ.

وتستمر الأغنية، والأمل يملأ نفسه. الأيدي تعمل بعنف وتتساقط ثمار الموسم، ثم تجمع على شكل أهرمات صغيرة، بينما الجميع يرددون :

(هربوا جا الليل

والله ما روح

إلا قاهو ليل

قاصربوا الدخن

والذرة قائم

الخير والله

الخير دائم

فيما كان العرق البارد يتصبب لتمتصه الأرض، كانت السواعد السمراء مستمرة في العمل. تنفس قاسم بقوة وابتسم، لقد رأى العامل القادم من عدن يسير في الطريق ببطء وعندما نظراتهما، قال العامل:

- الله يساعدكم، فرد قاسم بهدوء مبتسماً للجميع ثم عاد إلى الأرض ونسى تماماً أن هناك أرضاً كانت ملكه ولم تعد له. في أعماقه نما إيمان بأنه يحصد هذه الأرض لنفسه، وأن (الخير) له وللجميع....

الصيف.. الجراد والمطر..

(١)

كانت شمس تموز ترسل أشعتها الذهبية على أرض القرية في ذلك الصباح وقوافل الرجال والنساء كانت تخترق الطريق متجه نحو الجبل ثم تنحدر إلى نهاية الوادي، وكانت الريح تهز بمرح المدرجات الزراعية التي بدأت تنمو فيها أعشاب خضراء.

كان الجميع يبتسم، فالصيف يبدو طيباً هذا العام والأمطار بدأت مبكرة.. وها هي ذي الطلائع الأولى من غلة السنة تبدو في نظرهم رائعة.. كان (عمر سعيد) يتعكز بعصاه التي تغطي راسها قطعة من الفضة، وعلى رأسه مشدة – رشوان- جديدة، وفوطته الحريرية تتلاعب بها رياح تموز، وعلى قدميه البيضاوين صندل مزركش كان يتطلع إلى الجميع وهو يحيهم برفع عصاه، كأنه يريد أن يرى الجميع رأسها الفضية.. لقد وصل إلى القرية قبل يومين في الحقيقة لقد زاره الكثير من الرجال في منزله.. لكنه يريد كالعادة في كل عودة له إلى القرية أن يظهر منظره الجميل للنساء حتى يتحدثن عنه ككل مرة يسافر فيها إلى القرية، فهو يسعد، ويزهو عندما يتحدث الأخرين عن حياته خاصة إذا كن نساء جميلات.

توقف عند طرف (النجوده) حيث تفترق طريق القرية والجبل وراح ينظر إلى الحاج عبد السلام الذي كان يقود أمامه ثورين وعلى رأسه مشدة بيضاء علاها العرق والتراب، وخلفه كانت تسير ابنته.. حياه عمر سعيد وهو يقول:

- صباح الخير ياعم عبد السلام – كيف أحوالك ؟
- الله يخليك يا أبني. ما شاء الله كل سنة وأنت تسمن. قهقه عمر سعيد بطفولة قائلا:

- البركة فيكم ومن دعائكم .. أيش أخبار عبد القوي.. نظر بنصف أغماضه إلى الخلف حيث كانت تسير زوجة عبد القوي وراء الثيران. أضاف عمر سعيد قائلاً:

- سعدت أنه بايوصل القرية بعد أيام .. صحيح هذا يا عم الحاج؟

أجابه الحاج عبد السلام وهو يهز رأسه:- العلم عند الله هو ما يكتب لنا كثير.. أبوه يكتب من عدن، الولد ما يكتب إلا لأبوه .. وأبوه يقول لنا دائماً أنه يسلم علينا، والله ما نعرف أيش أخباره نشتي حتى نطمّن عليه.

كانت ابتسامة عمر سعيد ترتسم على محياه بخبث وهو يجيب:

- والله ما كنت أتصور من عبد القوي أنه ينسى أهله هكذا. حتى لعياله ما يكتب ما عليش. الله يسعدك. هؤلاء الذين يتعلمون في الخارج، يتعلموا كلمتين وقدهم كفار يسبو الله وينسوا أهلهم.. أعوذ بالله، قلنا أنهم با يتعلموا، رجعوا لنا كفار يتدخلوا في اشياء ما تعنيهم..

طبطب عمر سعيد بهدوء على كتفي الحاج عبد السلام القوية وهو يردد: — الله موجود بايشوفوا إنهم غلطانيين.. ما يهمك أنت تتعب نفسك كثير من شأنهم. نشتيهم يطلعوا رجال، مش كذه؟. يخدموا أهلهم الذين تعبوا كثير. وتابع كلامه قائلاً: تعال.. تعال قيل عندنا ياحاج، لنا مده ما شفناك. وتمتم الحاج شاكراً: الله يخليك يا ابني .. أن شاء الله أجي.

- أنا رائح عند الشيخ عبد الحق ومن هناك بالاقي القات، بأخذ لك معي قات واليوم تجي عندي نقيل سوى؟ ناهي ؟! الله يساعدك.

- الله يخليك ربنا معاك.. مضى عمر سعيد في طريقه وهو يصفر بلحن أغنية مصرية فيما كان الحاج عبد السلام قد لحق بأبنته. قال لها والفرح باد على وجهه:

- شوي على رجال، لا راحوا مدارس ولا سابوا أهلهم. طلعوا رجال من دون علم، الراجل راجل يا بنتي مش زي حقك هذا اللي ما حد يعرف عنه حاجة..

اجابته ابنته بهدوء وفي عينيها نوع من الغضب:

- لما ابن عمي يخلص با تشوف أنه أحسن رجال. قاطعها والدها بنوع من الحدة:

- متى ملي با يخلص، قدله خمس سنوات وعاده ما خلص. ملي كم هو العلم هذا اللي بيتعلمه. نشتي شغل يا بنتي، نشتي فلوس. يروح يشقي على بطنه. كم با أجلس أنا أشقي. ردت أبنته بغضب:

- ذلحين ما لك أنت. أبوه هو اللي يصرف عليه، وأبوه يعرف مصلحته.

- أبوه أيش.. هو كمان مجنون، شوف هذا (عمر سعيد) كان هو وعبد القوي أصحاب في المعلامة، ذلحين قده راجل، تاجر كبير معه مستودع وقد بنى له بيت كبير والبيس يلعب بها لعب وحقك عبد القوي أيش سوى؟ ابتسمت فجأة وقالت:

- ذلحين أيش عزمك على الغداء؟!، وإلا با يشتري لك قات.؟؟

- أسكتي، قليلة حيا.. أنا أقول هذا لمصحتك وأنت تضحكين علي.

كانت الرياح تهب بهدء، فتتمايل العيدان الخضراء ثم تمضي الريح لتطوف على القرية ومنازلها المتناثرة بطريقة هندسية بديعة، لم يتدخل في صنعها أي مهندس بارع. الأكمتان الواقفتان في الناحية الغربية من القرية بذلك الفراغ الذي في وسطها تبدوان كفم حيوان خرافي عاش منذ آلاف القرون، والوادي عند قدمي الجبل وعشرات المدرجات وعلى السهل في الناحية الشرقية قد تناثرت المنازل والنجودة تخترق القرية من هناك مضى عمر سعيد وعندما وصل إلى المسجد كان عاقل القرية يصلي صلاة

الضحى. حياه عمر سعيد رافعاً عصاه.. وقال وهو يريد أن يمضي في طريقه:

- يا شيخ عبد المؤمن، أنت عاقل القرية؟.

أجاب الآخر بهزة من رأسه بنعم .. واستمر عمر سعيد بالحديث:

- طيب أيش تقول لما يوصل القرية واحد من الكفار؟ – أعوذ بالله أيش من كفار؟!

- ما سمعت عبد القوي بن الحاج سعيد با يوصل إلى القرية من الخارج.

- طيب وايش في !

– ما سمعت، حصلت جواب من واحد يدرس معه يقول أن عبد القوي وجماعة من أصحابه قد هم كفار – وينادوا بدين جديد يقولوا أنهم شيوعيين لا يحللوا ولا يحرموا.

- أعوذ بالله، اللهم أوقف شرهم لكن ايش أسوي أنا ؟

- قال عمر سعيد وهو يفكر – ولا حاجة، بانفكر أيش بانسوي، نحن ناس مسلمين، مانشتي أحد هنا يخرجنا من ديننا..

- أبوه، قالوا راح يتعلم العلم هناك وذلحين قدهم كفار اللهم أقنا شرهم اللهم أرحمنا. على كل حال يا شيخ عبد المؤمن.. اليوم با يكون المقيل عندي. ناهي!!

- مضى يضرب الأرض بعصاه وهو يصفر بنفس لحن الأغنية المصرية، وعند المعلامة حيث يبدأ الطريق المؤدي إلى منزل شيخ القبيلة كان الفقيه أحمد يقف مرتدياً قميص أبيض وبيده عصا مليئة الجوانب بالأشواك يجلد أحد التلاميذ الذي كانت دموع غزيره تنساب فوق وجهه، وكلما صرخ كلما زادت لسعات العصى وأشواكها.

- السلام عليكم يا فقي، مالك، أيش سوى؟؟

- ما حفظ سورة ياسين، قد له خمس أيام. التفت (عمر سعيد) إلى الطفل الذي كان يحاول بكل قواه أن يكبت بكاه وقال: -

أسمع باتحفظ السورة إلى بكرة وأنا با اتشفع لك عند الفقيه؟، موافق. هز الطفل رأسه وهو لا يكاد يرفع يديه عن عينيه اللتين كانتا ترسلان المزيد من الدموع: - خلاص يا فقيه، أنا أضمن أنه با يحفظ إلى بكرة، والتفت إلى الطفل صائحاً: — هيا، بسرعة أجري، احفظ السورة. كان الفقيه يبتسم وهو يهز العصا ويسير بخطى بطيئة مقترباً من عمر سعيد الذي أحنى رأسه إلى الأرض كأنه يفكر في مسألة عويصة وفجأة سأله الفقيه:

- مالك بأيش تفكر ؟

- والله أقول مسكين هذا الولد أيش ذنبه، بكره بعده با يحفظ السورة، لكن الملاعين اللي قدهم كبار وحفظوا السورة وذلحين قد نسوها، أيش يستحقوا ؟. والله وبالله أن الجلد عليهم قليل.

- من هم ؟ أيش من ملاعين؟ نظر عمر سعيد إلى الفقيه باستغراب:

- أيش ما سمعت؟ والله قصة طويلة نشتي نفكر فيها سوى.

- أيش ملى قول لي!

— يا شيخ عبد القوي ابن الحاج سعيد قالوا أنه قد أصبح نصراني، كافر ما يؤمن بالله، وأنه هو واصحابه يلعنوا القرآن.. والله أنا مش متأكد من هذا الشيء لكن أنت تعرف أبن الشيخ عبد الحق يدرس معاهم هناك كتب لأبوه وكتب لي، يقول: نصحتهم كثيراً، لكن ما نفع النصح معاهم، وذلحين يقولوا أن عبد القوي با يوصل إلى القرية، وطبعا أنت تعرف ما نشتي واحد كافر بيننا.

كان الفقيه وهو يهز رأسه وشفتاه تتحركان بصمت ثم قال :

- أنا والله ما كنت أفكر بهذا، عبد القوي كان ولد طيب عندي، حفظ القرآن بسرعة.

- يا شيخ أيش با تسوي، هناك أولاد الحرام كثير، وهو عاده. قل زادوا عليه.

- أيوه أيوه أعوذ بالله.

كيف يقدر الإنسان يكفر بالله.

- والله أنا كمان فكرت كثير لكن أيش باتسوي، المهم اليوم با نقيل سوى، بانتكلم.. لكننا ما نقدر نسوي حاجة أنت تعرف أن أبوه راجل صالح، وعاده هذي السنة كان بالحج للمرة السادسة، وجده الله يرحمه حج عشرين مرة، ثم. أنا تكلمت مع الشيخ عبد الحق، انت تعرف أنه راجل صالح.. وله سلطة وهو الشيخ حق القبيلة، هه.. باتجي اليوم؟

- إنشاء الله.. إنشاء الله، أعوذ بالله.. من كان يفكر بهذا الشيء.. أنا لله وإنا إليه راجعون.

- أيوه يا فقيه مش الله سبحانه وتعالى قال : - "يخرج الخبيث من الطيب ويخرج الطيب من الخبيث". ابتسم عمر سعيد وهو يبتعد وقال ملوحا بيديه:

- اليوم الشيخ عبد الحق ضيف عندي لازم تجي ما تنسى؟!

- إن شاء الله.. أن شاء الله.

مضى الفقيه نحو طلبته وصاح بهم وهو يراهم قد توقفوا عن القراءة.

- يا أولاد الزنوات.. أقرأوا لكم جني يشقفكم.. ثم تابع يحادث نفسه وقد ارتفعت من تحت سقف المعلامة عشرات الأصوات المتنافرة تقرأ سور مختلفة من القرآن..

- مين كان يتصورا أعوذ بالله قد قلت للحاج سعيد أحسن ودي أبنك يشتغل، قال لا. با يعلمه وآهي آخرة هذا العلم.. كان أحسن ولد. لو علمه القرآن وقليل حساب وخلاه يشتغل.. أهي الناس تكسب مئات وهي ما تعرف تقرأ وتكتب.. هز رأسه بأسف.. وأستمر قائلا :

- الله يعوضك يا حاج سعيد قلبك طيب، ضيعت فلوسك على كلام فارغ. الله يهدي ابنه.

(٢)

في المساء عندما عاد الحاج عبد السلام من صلاة العشاء دخل المبرز وأخذ الدواة والقلم وورقة بيضاء وراح يخط عليها بحروف غير واضحة رسالة إلى أخيه الحاج سعيد وعندما قدمت له أبنته العشاء نظر إليها وفي عينيه نوع من الحيرة، وكانت أبنته تعرفه فهو يريد أن يقول لها شيء، لكنه تردد فبادرته بالسؤال:

- تكتب لعمي جواب ؟

- أيوه، شبعت من كلام الناس كلهم يتكلموا عن زوجك يقولوا أنه قده راجل كافر، ما يؤمن بالله لا يحلل ولا يحرم، حتى الشيخ عبد الحق يقول أن ابنه كتب له جواب يقول أن عبد القوي لا يصلي، ولا يصوم ولا يذكر حتى اسم الله. الناس كلهم اليوم ضده، الفقيه، عاقل القرية، حتى عمر سعيد يقول كتب لهم جواب ينصحهم.

- وأنت أيش عرفك، من شأن هو زوجك. عمر سعيد ما يكذب، والشيخ عبد الحق.. أيش با تقولي؟

- يشتوا أولادهم أحسن من عبد القوي.. من شأن هذا هم يسبوا عبده وإلا ليش عمي ما يعرف؟!.. مش ابنه يكتب له دائماً.

- عمك راجل مسكين قلبه طيب، ما يعرف أيش يسوي أبنه. دخلت في تلك الحظة زوجة الحاج عبد السلام وسمعت زوجها يقول:

- با أكتب لأبوه، الناس ما يشتوا هذا الولد يفسد عيال القرية.

- أيش من ولد ؟ قالتها زوجة عبد القوي. أجابتها أبنتها:

- قده كافر نعم هاذول الناس يكذبوا علوه من شأن هو يتيم وإلا أيش؟. من شأن ما معه أم في القرية.. قالت خديجة، ذلك وسكتت وهي تمسح الدموع من عينيها:-

- أيوه، شوي بنتك يا مرة قد هي تبكي.

قالت له زوجته وفي عينها احتجاج:

- أيش تشتي منها كلما سمعت ناس يتكلمون بالبطال على زوجها تجيء أنت هنا وتقول لها نفس الكلام، يا راجل عيب علوك، تصدق كلام الناس وما تستحي على نفسك.

ملي قدك كبير. فصاح فوقها الحاج.

- أيوه أنتن الحريم هكذا، ذلحين تساعديها بدل ما تزعلي فوقها.

- أنت الذي جبت المصائب معك مش هي. أيش تشتي منها؟!

- أنا ما أشتي لها إلا الخير، وإنه يروح ويدور له على شغل زي الناس، ويكسي عياله. قالت أبنته من خلال دموعها:

- ذلحين أيش؟ أحمد ربي، ما دورت على لقمة من الناس — وآني أحسن البنات.. خلوا الرجال يخلص ما دام هو يشتي يتعلم ليش نؤذيه نحن.. أجابها والدها وقد خفض رأسه:

- أنا ملي موافق، بس ليش يكفر؟ هو التعليم أنه الواحد ما يصلي ولا يصوم.. الله يرحمه جدك شوي في كم من كتب خلف، كان عالم كبير، لكن ما قطع فريضه حتى ولو كان مريض. أما زوجك حصل له على كلمتين قام ضد الحكومة، وضد الله. من فين عاد بايرزقه وإلا عا يبارك له..

- أنت تسمع الناس يبقبقوا تجي هنا تبقبق، طيب مش يقولوا با يروح.. بانشوف.

- أيوه با نشوف لما يروح. قالتها أمها وهي تمسك بيد أبنتها. ثم أضافت: - هيا يا بنتي نروح نتعشي. لكن الحاج عبد السلام قال:

- أنا ما علي .. با كتب لابوه بكل شيء وبا أشوف أيش با يقول.

الغرفة كانت فارغة.. راح القلم يخط خطوط تحكي كل ما سمعه في ذلك النهار.. وفي السماء- من خلال نافذة المبرز- كان قمر صغير يطل من فوهة الاكمتين ونجوم كثيرة تعانق بعضها البعض في شوق.. وكلب أجرب ينبح. سعال وصوت أغنية يسمع من راديو عمر سعيد الذي يلمع من شباك مفرشه نور قوي..

- عادهم با يسمروا.. شوف يا ابني الناس معاهم فلوس وانت هناك تدور على.. هه.. خبر. نعم با ينفعوا أهلهم.. والله أنه لما يخلص ما بيسلم علينا، با يروح ولا كأن الواحد عمه، وإنه تعب من شأنه.. كم دعا الوالد من شأنه .. مسكين هذا الشيبة لو كان حي اليوم أيش كان با يقول الحمد لله أنه ما شاف واحد في آخر الزمن من أولاد أولاده يكفر. كان با يتجنن، أيش نسوي .. كافر من صلب أكبر عالم.. مسكين عشرين مرة يروح الخج منها خمس مرات بس على رجله.. وفي آخر الزمن.. اللهم أنقذنا.. من عذاب النار.

نظر إلى النور الذي يلمع من المنزل البعيد، وسمع صوت الأغنية:

- الناس تلعب بالفلوس. راديو، وفانوس زي الشمس، وقات ذلحين يكون معاهم كثير.. تقول با يفتحوا لي لو سرحت؟!.. يمكن! وسعل بشدة وتنحنح.. الدنيا قدها ليل.. ما في داعي الواحد يأذي الناس. صوت الأغنية يرتفع والهواء يحمل الموسيقى إلى أذنيه..الله يلعنهم ها ذول كما ليش ما يسمعون القرآن.. والأحاديث.. كل ساعة أغاني.. أغاني هه.. الله فتح عليهم.. فلوس.. فلوس زي الماء، والله انهم لا يهتموا بها.. أيوه دخلت وتخرج زي الماء.. وصاحبنا هناك.. يطلب العلم، قده رجال معه زوجه.. وابن، وعاده طالب علم. أيش ينفع ملي من با يقول له، من با يفهمه؟. أيوه.. هيه سكهنا منه، أبوه كمان زيه طوى الرسالة وراح يكتب عليها بهدوء وتوأدة العنوان. "عدن، الأخ المبجل الحاج سعيد بن الحاج.. حفظه الله سبحانه وتعالى أمين.. أمانة .. أمانة يسلم إلى يد صاحبه الأخ المبجل الحاج......." قذف بالرسالة إلى صفيف النافذة وحمل فراشة وهو يصيح: — الكتن كثير في المفرش.. با أنام في السقف. ومن المطبخ حيث كانت النساء لا زلن يتعشين كان صوت الجدة يرتفع إلى السماء بدعاء حار:

- الله يوصله إلى مناه.. الله يحفظه.. الحاج الله يرحمه كان يزعل علوه كثير.. لكن كان يحبه. مره قال لي: شوفي يا عجوز عبد القوي هذا عاصي. لكنه با يطلع رجال.. الله يأخذ بيده بحق النبي والسيد إبن علوان، والسيد علي، وكل الأولياء.. كانت عيون صغيرة تتابع شفتي الجدة ونعاس ثقيل يزحف إليهما .. تمتد أرجل صغيرة، وصوت حنون يهتف: - جده قولي لنا -حزاية- .. ويستمر صوت الجدة في الدعاء وتأخذه (خوله) يد أبنتها وتقول لها:- بس يا بنتي بطلي البكاء.. قومي شوفي ابنك وخذي أخوانك يناموا..

من علي السطح كان صوت الحاج يجلجل: يا الله يا فتاح.. إجعله موسماً مباركاً. يسعل ثم يبصق على الأرض.. ويعود من جديد إلى السعال.

الأطفال لا زالوا يتمسكون بثوب الجدة التي حملت كوز الماء، وذهبت لتتوضأ:- جدة. جدة قولي لنا -حزاية-.

(٣)

كان الحاج عبد السلام يسعل بشدة وهو ينظر إلى النور المنبعث من منزل عمر سعيد. جلست زوجته بجانبه بعد أن أنتهى الحاج من عشائه. قال:

- الناس يعرفوا كيف يعيشوا .. الله ما رزقنا أولاد وإلا كنا نعيش مثل كل الناس مبسوطين. أدعي بس أن الله يهدي هذا الولد ونشوف منه خير..

زوجته كانت مشغولة بحياكة شيء ما بيدها فلم تجب عليه .. صاح الحاج بشدة، وراح يسعل وهو يحملق في الظلام المحيط. بعد قليل كرر الصياح:- قومي يا مرة عمري لي (المداعة). وبدون أن تلتفت إليه أجابت.. ما فيش تتن قال لها:- الله يخرب هذا البيت، مش عادني يوم الخميس جبت معي من السوق. وبنفس اللهجة أجابته:

- مش قد خلصته.. كل يوم نركب لك المداعة تشتي تكون مثلهم، إحمد الله أنك مستور سعل الحاج بشدة وبصق في النافذة ولم يجيب. كان قد وضع كلتا يديه على المدكأ.. وهو يردد أحدى سور القرآن بصوت هامس وبعد برهة قال لزوجته:

- شوفي يا مره هناك حمار في النجودة وإلا بقرة.. الله يلعن الشيطان ما عد أشوف زي الناس. كتبنا لسعيد قلنا يرسل لي نظارة، مارد علي. والتفتت أمراته ناحية الطريقة وقالت: معدني مروح، الله يعلم من هو ؟!

- كم حمار؟! – واحد –وأيش روح به؟. هاذول الناس يجلسوا في عدن يومين ويجمعوا من ريال.. ريالين، يقوموا يروحوا، ولما تشوفيهم بالفوط المزركشة تقولي إلا أغنياء وهم ما معاهم حتى حق القات .. ليش ما يجلسوا يشقوا ولما يروحوا، يروحوا زي خلق الله. وقاطعته زوجته:

- وأنت مالك من خلق الله، قاشفناك لما تروح إلى عدن وترجع.
- أنا يامره رعوي مش حق حماله. الله يرحم الشيبة فرض علي من صغري.. وإلا لو خلاني اشتغل.. لم تدعه يكمل كلامه قالت مقاطعة:
- أيوه. قا نحنا عارفين.. ما معاك إلا هذا تقوله كل يوم في تلك اللحظة توقفت عن الكلام وراحت تصغي إلى النداء الآتي من الخارج. دخلت ابنتها وقالت: في واحد يدق الباب..

نظر الحاج سعيد.. وقام بعد أن أخذ الفانوس المعلق ومضى مع سعاله وهو يبصق على الأرض ويقول: — خير إنشاء الله خير. وقفت زوجته وأبنتها تنظران إلى بعضهما البعض ثم سرن إلى منتصف الدرجة وحاولن أن يستمعن إلى ذلك الصوت القوي وهو يقول عند الباب: —با تنام اليوم عندنا، ويكره الصباح يفتحها الله لكن صوتاً أخر قاطعه: — لا بكره الصبح لازم أكون في المفاليس. وأجاب الصوت القوي.- يا شيخ الدنيا ليل، ويرد.. با نشرب قهوة ونتعشى.. يالله دخل الحمار.. ثم تلى ذلك صمت سمعت المرأتان صوت ارتطام على الأرض.. نفس الصوت القوي عاد يقول:- ها. كيف حالك يا عم، مالك هكذا قد شيبت بسرعة. أجاب الحاج عبد السلام: — أيش نسوي يا ابني الشغل قصف ظهري وأنا وحدي كما تعرف وكلام الناس كثير:- أيوه يا عم لا يجب على الإنسان أن يتحمل الكثير.. يا الله قفل الباب:- ها.. ربطت الحمار.. الآن سيقدمون له بعض الحشائش. سيب هذا يا عم أنا با أحمله.. أعوذ بالله سعل الحاج، وهتفت الأم بأبنتها:— يا الله يا بنت سوى عشاء وقهوه لزوجك. دخل الجميع المفرش. بعد أن علق الحاج الفانوس في منتصف الغرفة، جلس عبد القوي على الحصيرة المفروشة في الزاوية وقال للرجل الذي معه: تعال أجلس.. با نستريح قليل. طلوع الجبل صعب. صاح الحاج عبد السلام:— هاتوا القهوة بسرعة. أجابه صوت زوجته؛ — - ناهي ذلحين.

التفت عبد القوي إلى عمه مبتسماً وقال له: مالك تسعل، أيش مريض؟

- يا إبنيوأيش عد باقي مننا، قد عجوزنا الواحد منا ما يعرف الراحة أبداً الأرض شبعتنا حياة. قال عبد القوي:- أيه الأرض. يا عم ليس في الدنيا ما هو أروع من الأرض تساءل الحاج: أيش قلت؟ رد عبد القوي: ولا حاجة. كان الحاج عبد السلام يتحدث وهو يحملق بأستغراب في وجه عبد القوي الباسم، المنطلق بالرغم من أن الغبار كان على ملابسه وشعره، وشاربه الصغير، وكذلك فوق لحيته التي بدت منقوشة كغابة شوك. عند ما سأله عبد القوي: لم يحملق هكذا في وجهه؟ .. أجاب الحاج : أشوف الناس تكذب وإلا لا: تكذب .. لماذا !؟ - لا بس قد كبرت كثير.. قدك رجال كبير معك شنب ودقن .. أيوه يا ابني قدك رجال. بس:بس أيش يا عم ؟ - بس عادك طالب علم. - وماذا في ذلك.. أنت تعرف أن النبي عليه السلام قال تعلموا العلم من المهد إلى الحد. حدق الحاج في وجه عبد القوي، وعلامات من الدهشة مرسومة في وجهه.. - النبي.. ها .ها .. اللهم صلي عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.. أيوه صحيح.. يا أبني بس.. أنت تعرف الواحد قد هو مسئول معه عيال و. ولم يكمل كلامه إذ قاطعته زوجته التي كانت قد دخلت المفرش وبيدها القهوة قالت: ما تخلي الرجال يستريح وإلا با تبدأ تأذيه من ذلحين؟. قام عبد القوي إلى عمته وطبع على جبينها قبلة صغيرة وقال:- كيف حالك يا عمه؟. والله إنني اشتقت لرؤيتك.. سقطت دمعه صغيرة من عينيها وأجابت: الله يحفظك يا أبني .. الله يمتعك شبابك - والله يا عمه أنني كل يوم أذكرك. - وأنا كمان يا أبني.. أدعو لك بعد كل صلاة. شربوا القهوة ودار بعدها حديث طويل عن الصحة ووصف عبد القوي لعمه وعمته التي جلست قباله تلتهمه بعيونها الصغيرة متاعب السفر من عدن إلى القرية قال:- تصوري يا

عمتي من أوربا إلى عدن وصلت باثنى عشر ساعة. ومن عدن إلى القرية بيوم ونصف.. ويا ليت هذا فقط.. لقد مت أكثر من مرة فوق السيارة.. وفوق الحمار. سأله الحاج عبد السلام الذي ظل مدة طويلة صامتاً. – كم دفعت حق الطائرة إلى عدن.؟ – والله كثير أكثر من ألف شلن وهتف الحاج من أعماقه: – أيش ألف شلن.. يا شيخ با أجي برجلي ولا با أدفع كل هذه الفلوس. أبتسم عبد القوي وقال: – لم أدفع أي مليم من جيبي يا عم، لقد دفعت الحكومة.- أيش مجانين هاذول.. الف شيلن الله يرحمه جدك لما أجت المواتر لأول مرة وكانوا يأخذوا على النفر عشرين روبيه إلى عدن، كان يمشي إلى عدن بالرجل ولا يدفع عانه، وذلحين .. أنتم الشباب.. الف شلن!! هذا جنان. نظرت زوجته إليه كأنها تعنفه قامت لإحضار العشاء. بعد العشاء قال عبد القوي:

- والله أنني تعبان، سأذهب للنوم.. أيش الولد راقد؟ – أيوه. أجابه عمه، ثم سأله وعينيه في الأرض:- قد صليت العشاء؟ كان عبد القوي قد وقف وقال بدون أن يلتفت إلى عمه: وهل نسيت أن الله سبحانه وتعالى قال: "ولا على المسافر حرج".. المسافر.. مسافر. قال له الحاج: بس المرحوم جدك كان ما يقطع فريضة حتى ولو كان على سفر. التفت عبد القوي إلى عمه وقال: المرحوم جدي كان ولي من الأولياء وأنا إنسان عادي. ثم التفت إلى الرجل الذي حضر معه وقال له:– الآن سآتي لك بفرش.. نام هنا مع عمي إلى صباح الغد.. وبعد الفطار توكل على الله. وهذه أجرت الحمار.. وبكره تجيب الصناديق التي تركتها في الدكان الذي في الوادي.. والآن، اتمنى لكما ليلة سعيدة. بعد أن خرج عبد القوي، التفت الحاج وهو يسعل وسأل صاحب الحمار:

- أيش من صناديق معه؟ – والله صناديق ثقيلة يقول فيها كتب.- ها.. أيوه. نسيت أنه طالب علم. وأضاف بسخرية وهو يبصق على الأرض. – أيوه .. أيوه (معلمي)..!!.

(٤)

عندما دلف عبد القوي إلى غرفته كانت (دبه) صغيرة تضئ زاوية واحدة من الغرفة وكان هناك سرير ينام عليه طفله – سبأ – الذي ولد وهو في الخارج. إنحنى عبد القوي وطبع على خده قبلة حارة. جلس بجانبه وراح ينظر إليه وثمة دموع حائرة تطوف في عينه. ثم أنحنئ ثانية وطبع قبلة أطول. كان – سبأ- يشبه والده تماماً نفس العيون الكبيرة. وكان قسم من العينين ظاهر وهو نائم.. نفس الشفاه الدقيقة.. كان عبد القوي ينظر إلى إبنه وكأنه يريد أن يحتويه، كم هو كبير – سبأ – لم يكن يتخيل أنه سيجده هكذا، كان يظن أنه صغير مثل صورة التي أرسلوها إليه، لكنه ضعيف.. لماذا أنت هكذا ضعيف؟ ألا تجد من يشبعك؟ آه يا طفلي المسكين.. ترى هل ستعرف من أنا عندما تستيقظ صباح غد.. ابتسم عبد القوي لهذا الخاطر.. كان الجميع يبتسمون عندما يخبرهم عبد القوي بأنه أب.. تذكر ذلك اليوم، عندما استلم خطاب ابلغ فيه أنه رزق بطفل. كان ذلك قبل أيام من استلامه راتبه الشهري. راح يجري يومها من الفرح إلى المقهى، حيث يجتمع زملاءه. كانوا حينئذ مجتمعين، يفكرون أين سيقضون يومهم ذاك.. عندما أقبل عبد القوي نحوهم وعلى شفتيه إبتسامته العذبة، صاح أحدهم:

- أيها زملاء.. عبد القوي يحمل خبراً هاماً.. وفعلا اذ لم يكد يستقر على المقعد حتى صاح في وجهه الجميع:– سنشرب اليوم نخب – سبأ- نظر الجميع إليه وقهقه خالد.. وقال له: هل جننت ؟. قلنا أنك تحمل خبرا سياسياً هاماً، فإذا بك تخرف. فجأة صاح عبد القوي وهو يضحك: يا مغفلين.. اليوم وصلني أخطر نبأ سياسي لقد ولد – سبأ- أحد الذين سيحملون المعاول لهدم الأنظمة الرجعية في العالم.. أتدورن لقد أصبحتم من اللحظة

أعماماً.. سنشرب نخب الزميل – سبأ–. قام الجميع يعانقون عبد القوي ثم هتفوا بصوت واحد: – يا أبو سبأ - يا أبو سبأ. لقد كانت مفاجأة سارة عندما وصلت صديقته في المساء حاملة هدية صغيرة لم يكد يفتحها حتى بدت لعبة صغيرة ومصاصة.. قهقه زملاءه.. ابتسمت صديقته وقالت:– أهنئك من أعماقي يا عبده.. وفي أنتظارابنك الثاني.. صاح خالد:- وهل ستكونين أماً له. سقطت دمعات صغيرة. انحنى عبد القوي فوق جبين إبنه وراح يطبع عليه قبلات كثيرة قائلاً: هذا من خالد وهذا من عبد الفتاح وهذه من كوليت وهذه من ... - سمع صوتاً رقيقاً يأتيه من الخلف: –يا تقيم الولد.. عاده نام قبل قليل.. كانت زوجته تقف خلفه وهي تنظر إلى الأرض. شعر عبد القوي لحظتها برعشة تخترق كل أنحاء جسمه.. وقف أمامها كطفل مذنب وراح ينظر هو الأخر إلى الأرض مرت بخاطره كل صديقاته اللائى هناك.. كوليت.. ميري.. ريتا. كلهن. نظر إلى زوجته. إنها تختلف عنهن. تختلف في ثوبها الأسود الحزين، وشعرها المغطى بالمصر.. وتلك الخصلات السوداء التي أخرجت عمداً من تحت – المصر، وعينيها السوداوان الواسعتان كسماء القرية عندما تكون بلا نجوم، ووجهها الأسمر ذي الطابع الحزين .. الحزين جداً.. أمسك بيدها فجأة. أحس بالدفء، كانت يداها خشنتان.. تعجب وهو يقارن يده الناعمه بيدها. ابتسم. كم تختلف عن الأيدي الاخرى.. أيدي نساء أوربا.. نظرت زوجته إليه وقالت:- مالك أوجعت يدي.. عندها شعر بأنه كان يضغط بشدة على يديها. ضحك، ثم قالت:- ها. كيف حالك..؟أسمعي بأقول لك أيش جبت لك من هناك.. تشتي تشوف.. قالت دون أن تنظر إلى وجهه:- أنت تعبان بكره النهار على الله.. لو كانت كوليت لما تركته ينام.. بل أنها عندما ستقابله ستكون أول كلمة لها: ماذا أحضرت لي معك؟. إنه لا ينسى صوتها وهي تصرخ به قرب

الطائرة .. لاتنسى ما وعدتني به..أخذت بيد حانية إبنها الصغير من فوق السرير وحينما همت بأن تخرج. سألها: فين باتأخذي الولد.؟:- با ينام عند جدته: - يا شيخه حرام عليك.. خليه هنا.

- لا.. بايأذيك في الليل.. هو يقوم عند الفجر يبكي يشتي ماء ويا يقيمك من النوم.. باينام هناك عند جدته وأخواله. خرجت .. كان صوت ثوبها وهي تخطو على الدرجة يتناهى اليه مع صوت صفعات قدميها الحافيتين. كان كل ذلك غريباً وهو يخترق الظلام ليتبين كل ما حوله.. غرفة مستطيلة، أشياء كثيرة لا يستطيع حصرها اقفاص.. وجواني فارغة.. واخرى نصف ممتلئة.. أشياء كثيرة.. وعلى السقف علقت أشياء تبين له منها أثواب زوجته.. كلها سوداء.. وقمصان - سبأ- ، وغير بعيد عنه كانت عدة صناديق هناك، بعضها تحت السرير. وتذكرها، إنها صناديقه التي تركها مليئة بالكتب وبأوراق أخرى كثيرة..نسي معظمها وبدافع من الفضول راح يفتش أقرب صندوق منه. كان الغبار يملأ الكتب والدفاتر والأوراق فجعله ذلك يغير رأيه.. تذكر كم هي جميلة غرفته.. هناك. سريره الواسع والنور الكهربائي المعلق في منتصف الغرفة، والأنوار الخمسة التي تشع منها أشعة الضياء ومكتبة صغيرة في الجدار وصندوق ملابس كبير. كل ذلك تذكره الآن وتذكر الجدة ماريا التي تنظف غرفته كل صباح، والعمة (سارة) التي تقدم له وجبات طعامه كل يوم ثلاث مرات، وثلاث قوارير من النبيذ الإيطالي- مالك واقف؟!. التفت بغتة وقال شيئاً لم تفهمه زوجته التي وقفت مبهورة تنظر إليه.. كان في عينيها خوف وهي تنظر إلى وجه عبد القوي الذي بدأ في تلك اللحظة مخيفاً. عيناه زائغتان .. الذقن التي لم تحلق تثير الفزع، والكلمات التي نطقها.. - ها.. ها.. بس تعبان قليل.- أنت مريض؟ - لا بس تعبان.. الله يلعن السفر هذا. السفر جهنم ولو

طاب.. ليش الغرفة مظلمة؟. – الفانوس في (المفرش) عند أبي- بس فانوس واحد في كل البيت؟. –والتريك- حق أبوك في المخزن – ولماذا لا تستخدموه؟. – ما معنا جاز كثير والتريك يأكل جاز كثير.. هاه بكره با أشتري.. كانت قد بدلت الفرش الذي على السرير وأحضرت بدلاً عنه فرشاً جديداً، وبطانية عبد القوي منذ كان طفلاً. ألا تزال هذه تعيش حتى الآن؟! أبتسمت وقالت:

- بعدما تسافر أخبيها وما أعطيها أحد إلى أن ترجع. طبع على وجهها قبلة سريعة. إحمرت وجنتيها والتفتت بسرعة نحو الباب لتتأكد من أن لا أحد لمح القبلة. أغلق عبد القوي الباب... وراحت زوجته تحدثه عن أشياء كثيرة.. عن كل الأحداث الرئيسية التي وقعت خلال مدة غيابه.. عن وفاة جده.. وزواج أخيه في عدن وحضوره مع زوجته العدنية إلى القرية. وكيف نظر الناس إليها وكيف قالوا عنه أنه كافر لان زوجته كانت تسير بثوب قصير كبنات المدينة.. ثم تنهدت وهي تقول:

- ذلحين يقولوا علوك أنت أنك كافر.. لا تصلي ولا تصوم.. كان النوم يداعب عيون عبد القوي وهو يستمع إلى حديث زوجته.. لكنه أنتفض فجأة وقال: أيش.. أيش من هم. ليش؟. متى؟. كان الأمر مختلطاً عليه. راحت تحدثه بهدؤ عن كل شيء.. إذاً لقد فعلها الملعون إبن الشيخ عبد الحق إنه النقاش الحاد الذي وقع في ذلك اليوم عند الشاطئ في جنوب فرنساء.. لقد وصل علي عبد الحق ومحمد سلطان وآخرين من أيطاليا لقضاء العطلة في (الريفيرا). كانت ليالي ساخنة بينهم.. لكنه لم يكن يدري أن الخصامات السياسية ستؤدي بهم إلى أن يكتبوا إلى القرية. سمع زوجته تقول:

- نعم صيحح إنكم تأكلوا الخنزير.. وتشربوا الخمر. وتروحوا.. عند.. من. هن ؟ نعم أنت وأصحابك الكفار؟ – وانت تصدقي هذا

الكلام؟- قد قلت لهم كذا، قالوا: لا .. كلهم يتكلموا حتى على عبد الحق ومحمد سلطان لما سافروا العام الماضي كانوا يتكلموا هكذا .. – أيش قالوا ؟- كانوا يقولوا .. إنك نعم تسكر وكلام من هذا- نعم.. نعم.. لقد وقع الأمر.. كل القرية أذاً تتحدث؟!.. راح يفكر بسرعة.. زوجته كانت تتحدث وهو لا يسمع إلا مقتطفات عابرة من حديثها. – حتى – سبأ- بكى.. العيال يسمونه ابن الكافر، وهو يرجمهم بالحجار. ما العمل؟ لا بد أن يواجه الأمر بهدوء وبكثير من الحكمة والتعقل، إن أي كلمة يمكن أن تكون الآن ضده.. أبتسم وهو يقول لزوجته:

- قيميني وقت الفجر.. ما تنسيش قيمني الفجر... وراح يفكر في أشياء كثيرة.

(٥)

عندما سعل الحاج عبد السلام وقت الفجر طالباً الماء من زوجته ليتوضأ.. أتاه صوتها مزمجراً: – عادك نائم.. يا شيخ شوف عبد القوي قد له ساعة في المسجد..- أيش؟! في المسجد؟! فين راح؟!. ونزل الدرج بسرعة وهو يقول:

- باأتوضي في المسجد عندما فتح الباب كان يتمتم بصوت عال –يالله.. يا كريم يا قاضي الحاجات.. كان صوت عبد القوي يجلجل في سماء القرية بأذان الفجر.. كان صوته القوي موسيقيا وهو يمطمط بعض كلمات الأذان .. الله أكبر .. الله أكبر ..وو.. و. كانت ريح باردة تهب فتداعب فوطة عبد القوي الذي وقف في مكان المؤذن.. وقد رفع أحدى يديه إلى أذنه وهو يردد الأذان.. عندما وصل عمه إلى المسجد كان عبد القوي يصلي السنة. وما كاد الحاج يتم وضوءه حتى كان عبد القوي قد نادى لصلاة الفجر بصوت عال.. لم يجد الحاج عبد السلام من بد ألا أن يقف وراءه..

عندما أنتهى عبد القوي. كان خلفه كل من الحاج سيف مؤذن القرية، والشيخ عبد المؤمن، والفقيه، ومحمد عبد الله الزغير، ومطهر. اختتم الدعاء. بقوله:- اللهم أجعل موسمنا هذا موسماً مباركاً وأرفع عن كاهل الرعية الظلم والتعسف والضرائب الجائرة وكل الاشياء السيئة.. آمين يارب العالمين. لم يلق عبد القوي التحية على أحد، بل أنسحب إلى مكان فاضي وراح في صلاة أخرى طويلة. عندما أنتهى كان الجميع واقفين في صحن المسجد. سلم عليهم فرداً فرداً ثم التفت إلى عمه وقال:- هيا.. ياعم نروح.. وهنا سأله الفقيه:- متى وصلت يا عبد القوي؟. ملي تغيبت علينا كثير، ولا سلام ولا خطاب أجابه عبد القوي قائلاً:

- والله يا عم أحمد أنا أذكركم في كل خطاب أكتبه للوالد.. بس تعرف الوالد مشغول ينسى يبلغكم سلامي- أيوه. والله لما كنت في عدن قبل ستة شهور. قال والدك إنك تذكرنا كثيراً في جواباتك.. كان الحاج سيف يقول ذلك وهو يسقط حبات مسبحته متمتماً. التفت عبد القوي إلى محمد الزغير وقال له:

- مالك .. كيف الدنيا ؟. ثم راح يحتضنه بشدة. وقال موجهاً كلامه إلى مطهر:- إيه يا مطهر سمنت كثيراً. تذكر لما كنا في المعلامة عند الفقيه.- كان بليد الله يلعنه- قال ذلك الفقيه وتابع- ذلحين أهو ما حصل شغل ولا حاجة جالس في القرية.. أجابه عبد القوي.. بكر.. بعده بايشتغليافقيه.. أنت تعرف أن بلادنا متأخرة.. لكن بكره لما كل شيء يتصلح وهنا قاطعه محمد الزغير- أيوه يا عبد القوي.. لنا أربعين سنة ننتظر تصلح الأحوال وما في فائدة.- لو جلست في شغلك ما كان أحد طردك من عدن، بس قمت في ملا يعنيك.. كان الحاج عبد السلام يتكلم وهو يسعل.. وهنا أضاف الشيخ عبد المؤمن.- أيوه.. دخلوه الحبس.. وسفروا به وهو شاقي ذلحين قد كان معكم مكان

طيب في عدن تبيع الكتب والدفاتر. كان محمد الزغير ينظر إليهم متضايقاً.

- أيش الخبر؟- سأله عبد القوي.. أنت من المسفرين.. شاركت في الأحزاب وهنا هز محمد الزغير رأسه.. وأبتسم عبد القوي وأضاف.. ما قتلت انجليزي؟- مع الأسف.. لا .. – آه.. أسف- لكن معليش- با يجي الوقت الذي نأكل فيه هؤلاء المستعمرين أكل.. ونطهر بلادنا منهم ياللهياعم- طيب يا جماعة وصلت أمس الليل وذلحين قليل تعبان.. با أروح استريح.. مع السلامة..- مع السلامة.. بانشوفك الظهر.

- ما شاء الله عبد القوي.. روح يا أبني استريح الله يحفظ لك شبابك.

- خرج عبد القوي وكان يسير بين محمد الزغير ومطهر بينما عمه يسير خلفهم ويسعل- ها.. قد لك كثير في القرية.. أجاب محمد الزغير.. – والله رحت إلى تعز. قلت با أحصل شغل هناك لكن بدون فائدة، قالوا الحديدة با تصلح رحت هناك.. لكن مرضت ورجعت القرية قد لي سنة تقريباً عندما وصلوا إلى منزل محمد الزغير قال عبد القوي.- طيب مع السلامة – إذا كنت بعد الظهر فارغ تعال با نقيل سوا.. موافق – طبعاً.. والتفت إلى مطهر.. قائلاً: وأنت أيضاً. وهز مطهر رأسه ومضوا..

كان الحاج يسعل بشدة وهو يقذف إلى الأرض ببصاقه. يا شيخ.. تعال بعدين معي حبوب في الشنطة با ينفعك وأجابه الحاج عبد السلام من خلال سعاله – أيوه ما معك إلا حبوب وكتب والناس تجي من برع ومعاها حاجات ثانية. – ناهي.. ناهي يا عم معانا ثلاثة أشهر كاملة ستمل من هذا الحديث.. المهم الصحة قبل كل شيء.. الصحة.. فاهم.. ومضوا إلى المنزل دخل عبد القوي غرفته.. ونام نوماً عميقاً.

وفي الصباح عرف عمر سعيد أن عبد القوي قد عاد إلى القرية.. وأنه بكل بساطة قام بأذان الصبح وكان أماماً في تلك الصلاة.. أبتسم عمر سعيد بخبث وهو يسمع ذلك.. أنه يعرف من الرسائل التي تصله أن عبدالقوي لا يؤمن.. أذاً فإن عبد القوي في رأيه يقوم بعملية خداع للناس.. كانت الحادية عشرة عندما كان عمر سعيد يسير في النجودة أي أكمة القرية لاستقبال بائعي القات.. وعند ما مر أمام -المعلامة- راى الفقيه جالساً فوق سور صغير يستمع إلى أحد طلبته يقرأ عليه شيئاً من القرآن.

- السلام عليكم.. أيش الأخبار يا فقيه؟
- والله الولد الذي ضمنته قد حفظ كل الجزء.
- ماشاء الله - قد قلت لك.. ثم تابع قائلاً وهو ينظر إلى الأكمة..سمعت أن عبد القوي قد روح .. القات عاده ما أجا.. اليوم تأخر كثير.
- أيوه.. كان معانا في صلاة الصبح - صلاة الظهر عاده بعيده.. ذلحين القات با يجي.. ثم هتف بالطالب الذي كان أمامه- خابطاً أياه بعصاه.
- يا الله روح أحفظ زي الناس.. وقام الفقيه ومضي يسير مع عمر سعيد ناحية الجبل وقد ساد بينهم صمت وكل منهم يفكر في اشياء خاصة.. ترى هل أقتنع الفقيه هكذا بسرعة بأن عبد القوي مؤمن.. ترى ماذا قال له هذا الشاب الذي لم يره منذ أربع سنوات هل تغير كثيراً، أنه يعرف عندما كان في مدرسة بازرعة شابا متحمساً يقرأ كثير ويناقش كل ما يخطر بباله. بل أنه قد وقف ضد أمام مسجد- العوذلي- حول الزكاة مما جعل والده يومها يفتخر به.. ترى ألا يزال بنفس حماسه، أم أن أوروبا. قد خففت من طيشه وتهوره. كان عندها في عدن يناقش بسرعة وتحمس حتى أن الكلمات تضيع في فمه.. وارتسمت في وجه عمر سعيد إبتسامة باهتة وهو يخبط بعصاه الحجارة الصغيرة في

الطريق.. نعم لقد كان يحسده وهو يراه يتحدث. كان يستشهد بالأمثال والشعر بل وأحاديث نبوية.. كان يعرف أشياء كثيرة يجهلها هو، وكان يتمنى لو كان أبن عمه محمد سلطان مثله متحمس للقرأ والنقاش.. ويتذكر والد عبد القوي الذي يقرأ في صحف عدن ما كان يكتبه عبد القوي وعلى وجهه آثار رضى بأن أبنه يكتب في الصحف وأن الكثيرين يعرفون أسمه.

لقد كافح كثيراً حتى يسافر محمد سلطان إلى أوروبا لئلا يكون عبد القوي الشاب المثقف الوحيد في القرية. وكم كان فخوراً عندما عاد إبن عمه في العام الماضي إلى القرية وراح يتحدث إلى الناس بعد صلاة الجمعة في المسجد ينصحهم ويوجههم إلى الطرق السوية. فجأة التفت إلى الفقيه وقال:

- مالك ساكت يا فقيه.
- والله خائف المطر يتأخر هذه السنة ونتعب زي العام الماضي.

هه.. هه.. كان عمر سعيد يهز رأسه وهو صامت بينما كان الفقيه يفكر في أشياء أخرى.. فهو يعرف تماماً أن المطر الذي تساقط قبل شهر قد أنقطع فجأة بعد أن بدأوا ببذر الأرض التي أرتوت بالمطره الأولى.. وهاهي ذي الطلائع الخضراء لهذا الموسم تبشرنا بالخير.. وبالبركة.. وقد فرحوا جميعاً.. كانوا يتحدثون كثيراً عن هذا في المسجد عندما يجتمعون بعد صلاة العصر وحتى صلاة العشاء.. كل منهم يحلم بخير كثير أفضل من الأعوام الماضية.. خاصة وأن الأخضرار كان يكسوا كل مكان حتى الزوايا التي كانت مهملة من قبل.. والجبل.. والأكمتين حيث بدأ بعض رجال القرية يحفوا بفوؤسهم ويبذروا الحبوب التي أصبحت طفلة صغيرة تتمايل بروعة وغنج.. ولكن هذه الطفلة تحتاج إلى أرتواء لبن يحفظ لها الماء.. إلى المطر.. أن الفقيه يعرف تماما أن هذا الصيف حار ولو أستمر على هذا المنوال مدة شهر أخر لماتت النباتات الخضراء.. ولمات أهل القرية في عام أخر من القحط.. لقد

صلى كثيراً ودعى بعد كل صلاة لتهب السماء ماءها العذب لبنتها الأرض.. لكن السماء تبدوا صافية.. في وسطها شمس قوية في النهار وفي المساء قمر حزين يكبي بجانب النجوم الكثيرة التي تلمع وتهوى إلى الأرض، عندما تيأس من حياتها هناك في السماء وكلما رأوا سحابه تقترب من جبلهم يحملقون بصمت والسنتهم تدعوا أن تقف تلك السحابة وتبكي قليلاً، تعطف على أرضهم العطشى.. لكن السحابه تمر بهدؤ تحيي القرية وتذهب بعيداً. ((تمت))

لا جديد

(إلى م. أ. غ
صاحب الطريق الطويل)

الإرهاق يمتص كل عظامها. في كل أجزاء جسدها صرير، الراحة عندها كلمة لا تعرفها. أمتص العمل كل شبابها. وامتص طفلها الذي تركه (مدهش) في أحشائها نظارة ثديها، أصبحت خرقة قديمة ممزقة.

الطفل يزحف بعظامه فوق اتربة الغرفة، والنور لا يدخل إلا مسلماً عابراً، فالدار من ذلك الطراز القديم في الأبنية اليمنية.. نوافذ لا يطل فيها وجه إنسان، ولكنها مكان صالح لاستخدام البندقية. الهدوء مات منذ أن بني الدار، وعمر الدار كعمر الزمن مجهول. قالوا أنه قد تهدم منه طابق.لكنها تكتفي بما تبقى. فالبقرة مع غنيمات في الصبل، وصوتها هو الموسيقى الوحيدة التي تسمعها كل يوم. وتكتفي من الغرفة بزاوية واحدة، فرشة فوقها حصيرة باليه وفراشٍ قد تمزق وخرج منه القطن أخذ لون الغبار.

الوقت عصراً، عادت قبل قليل من الحول، والأمطار بخلت قليلاً هذا العام. العيدان التي كانت قد بدأت تخضر أخذ الجفاف أخضرارها. لكنها تداوم كل يوم على الجوع.. هو حياتها. مرت جارتها من أمام الدار. سمعت صوتها. تركت الطفل يمضغ التراب، وراحت تحدث صاحبتها. كانت في ثوب شبه جديد، ومقرمتها التي تلبسها في الأعياد. عرفت أن الجارة في طريقها للزيارة.

- إلى أين يا بنت عمي ؟

قالت الجارة وكأنها تخفي فرحة:

- يقولون (الجمال) قد وصل من عدن. ذوى قلبها. لعل رسالة تطل مع القادم. وتابعت الجارة:
- تشتيني أسأله لا في جواب؟

مضى وقت طويل لم تسمع عنه، الصمت يغلف وجوده هناك. وأي رد لا يشفي القلب الموجع. وهل ترى عودة الجمال من عدن يشفي غليلها، بكلمة أو نبأ.

لم تستطيع إلا أن تهز رأسها موافقة. لم تنتظر الجارة، حفيف ثوبها يشي برغبتها في الإسراع إلى دار القادم. قالت لنفسها لها الحق أن تسر، فزوجها يعيش في عدن، ولم يكن كزوجها هي يمخر عباب البحار ويرتاد البلدان.

لم تستطع أن تحرك نفسها. رأت بقرتها بجانب الدار، ولم يعد الراعي بأغنامها التي تدفع له ما يساوي ربع سعرها.. والهدايا والثياب.

تعلقت أبصارها بمنزل (الجمال) كأنها تريد أن تعرف المجهول. في قلبها شبه يقين بأنها في هذه المرة ستعرف الأنباء.

مضت إلى غرفتها. الطفل لا يزال يلعق في التراب، وفمه وخده تلوناً بلون ما يلعقه. فتحت صندوقها القديم، نفضت منه أكوام الغبار. تريد أن تخرج منه ثوبها الذي تلبسه للعيد، ومقرمة طوتها باهتمام. تذكرت أن هذه الأشياء لم تلبسها من قديم. من العيد الذي مضى. وكان زوجها قد سافر إلى العمل في رمضان قبل العام الماضي. وكان في أحشائها طفلها الذي يزحف جنبها، ليلقي نظرة على ما تخفيه في صندوقها المصنوع من خشب. طفلها ولد بعد أن سافر زوجها بأشهر ثلاثة. كتبت له بأنه جميل وأنه يشبهه. وأرسل إليه بعد أن مضى على ولادته أشهر كثيرة ملابس. قالوا لها أنها من بلاد أسمها (الجعفان) وكان زوجها كلما يمر في موانئ قريبة، يرسل النقود والملابس. وانقطعت أخباره. قال العائدون بأنه

في بلد بعيدة اسمها (مريكان) وأنه يعمل في جبال الفحم. وأنه عندما يعود سيحمل النقود والملابس.

كانت تريده هو. كتبت له وكتبت. وعلمت أن الجواب يضيع في الطريق، وعلمت أنه كانت هناك حرب، وأن هناك بواخر يعمل فيها من أبناء اليمن تغرق باستمرار.

الليل دائماً يطول عندها. هواجسها كثيرة مقلقة، لعله غرق، لعله مريض، لعله تزوج، لعله.. لعله.. لعله.

أقفلت الصندوق.. لم تعد جارتها .. والطفل فاتح فمه، عيونه غائرة، ووجهه مصفر، وكلمات عذبة تخرج من فمه.

- أمه – أمه.. أمه.

رغم أن عمره قد قارب العامين لكنه لسوء ما يأكله ويشربه لا يستطيع أن يسير على قدميه. الكلمات عنده شبه مبهمة. لكنه كزوجها صموت.

سمعت صوتاً يهتف باسمها. مضت مسرعة. قابلت جارتها. كانت تحمل أشياءً. وفي صوتها فرح. كان قلبها يدق باستمرار، وحلقها قد جف، وكان عقلها يصدر الأشياء بسرعة الشريط.

- الجمال معه لك جواب..

لم تسمع البقية، راحت بسرعة تلبس ثوبها ومقرمتها. ورأتها خطفت طفلها، وتركت البقرة بجانب الدار.

قلبها يدق باستمرار. هل أسرعت؟!. وكيف وصلت، وهل رأتها النساء؟!. خفق قلبها. كان حياؤها يمنعها من الكلام.

نظر الجمال صوبها، ولاح في وجهه المجعد العجوز ظل بسمة. وأخرج الجواب من كيسه الذي تعرفه من لونه الذي صنعه العرق.

- زوجك بخير.. ويسلم على أبنه كثير.. أرسل لكم مصاريف، وحق المرعاية وحق بيت المال. وهو يشقي في بلاد (المريكان).

كان يعد أمامها ريالات "الماريا تريزا" سمع الجمال صوتها الخجول:

- وما يقولش أيحين يعود ؟

هز العجوز رأسه المنحوت من السنين:

- لا ما يقولش..

في قلبها تمزق شريان. وفوق وجهها نمت سنين لم تعشها. كان طفلها ينظر بإستغراب، وأذنه تسمع كل طرقات قلبها الولهان، ويده تحس بالحرارة التي يقذفها الجسد المنهار. رأت أمامها كومة من النقود:

- هاذي مأة ريال.

أه. وماذا تصنع النقود. المائة، ثروة كبيرة، لكنها مصروف أشهر عديدة، وربما للقحط إن أتى مثلما أتي قبل عام والتهم النقود والحبوب والنفوس.

وبيت مال مولانا الأمام له نصيب من هذه المائة، وربما كان نصيب بيت المال أكثر من نصيبها، والشيخ والعاقل لهم نصيب أيضاً.

ذهب الجمال إلى الغرفة بعيدة، لعله يأتي معه (بصدارة) جديدة. تلفتت. رأت عيون لا تعرف عددها تحملق وتحملق. الوجوه مغبرة ومفجعة لنسوة حزانى، ينتظرن مثلها كلمة أو نبأ أو صدارة.

- مواشتنفعالبيس هذي؟ كم قال له ما يرسل لكش. والدولة تشتي كل شيء والمطر ما هلوش.

هزت العجوز المتكلمة رأسها تعجباً.

- قاهو أشكل من غيره. الله يحفظه ويرزقه، عاده ما بوش شيء يرسل ولو مرة في العام. لكن الثانيين المضيعين حتى ولا جواب. الله يعلم فين مدفونين. ولا تسمع الحديث حولها، في رأسها مشاكل كثيرة، لكنها ستشتري غداً لحماً ودجاجاً، وسيشرب الصغير معها المرق.

أكثر من ثلاثة شهور لم تر لون المرق ولم تذق قطعة من لحم. أقبل الجمال يحمل في يديه بقية أشياء.

- هـذي صـدارة مـن مـدهش، سـكر، ورز، ومقرمـة، وثـوب، وملابـس للأبن، مع صابون. يا لحظها السعيد.. هدية من أثمن الهدايا. لم تعرف الصابون من سنة، والرز لم تذقه، فالحرب قد أخفت الأشياء. الطفل لم يصدق أن أمه ستحمل كل هذه الأشياء إلى الدار.. فرحتها لم تكتمل، فعودته هو مطلبها، لكنها ظلت طوال الليل تدعو له بالعافية، وأن يعود بالسلامة.

راحت تقبل الخطاب، وتخبر الصغير حنينها بأنه سيقرأه عندما يذهب إلى الفقيه. مرت السنين وتبعتها سنين. الخطاب قد تمزق من كثرة التقبيل والبكاء.

إنه يمني

الساعة السادسة صباحاً.. بعد قليل سأسمع دقات على باب الدكان، أنه بائع الخبز.. كل يوم ومنذ أكثر من خمس سنوات وأنا أصحو في مثل هذا الوقت. أن الشمس في أديس أبابا تشرق مبكرة وعلينا أن نسرع بفتح باب الدكان. أكل عيش. من الساعة السادسة، حتى قرب منتصف الليل، هكذا يومياً لا نعرف معنى للراحة.

كل المجموعة ما زالت تغط في نوم عميق.. أنهم يقذفون كل مساء بأنفسهم على فرشهم ولا يشعرون بعدها بأي شيء، حتى قرصات القمل والبراغيث التي تريت من دمائهم.. وأنا معهم طبعاً.. لقد أصبحنا لا نشعر بها وهي تمتصنا.. إنها عادة.

سأفتح الراديو. على صوته سيبدأون تحريك رؤوسهم قليلاً. ما ألذ نوم الصباح. خاصة عندما نعرف إن يوم عمل شاق في إنتظارنا، ولكن لا فائدة يجب علينا الاستمرار..

دقات متتابعة على الباب.. أنه بائع الخبز.

- أحمد .. احمد
- هم..هم.. أن طعم النوم حلو، ولكن لا رحمة.
- أحمد قم.. قم .. أفتح الباب.

يقوم أحمد.. أنه يتمايل يميناً ويساراً، إن النوم لا يزال يسيطر عليه..يفتح الباب.. يقبل بأي عدد من الخبز الذي يقدمه له البائع، وأنا أبتسم. يغلق الباب ليعود من جديد إلى نومه. وكأن لم يحدث شيء.

بالرغم من أن الراديو قد بدأ في بث أغانيه إلا أن أحداً منهم لم يغير من وضعه السابق. هناك أرى أحدهم يغطي رأسه باللحاف حتى لا تصل الضوضاء إلى أذنيه. عاد الصمت من جديد مطبقاً على المكان.. كل صباح يبدأ شريط من الذكريات يمر أمامي وأنا أنظر

إلى سطح الدكان الذي أعرف كل شيء فيه. صورة الأمبراطور المعلقة في أعلى الجدار، الأشياء القديمة المتراكمة فوق سطح خشبة أعلى الباب وقد امتلأت كل الأرفف بأشياء أخرى أكثر قدماً.. أعرف أن هناك بضائع لا تزال هنا منذ فتح الدكان.. رأسمال ضائع.. كم مرة حاولت أن أقول لوالدي، لماذا لا تبيع هذه الأشياء حتى ولو بخسارة فنقود باليد أفضل من أشياء جامدة لا تتحرك، ولكن أبي يردد دائماً – "بايجي اليوم الذي تباع فيه".

ولكن لم يأت اليوم الموعود.. فقد مرت السنين تلو السنين. وكل شيء باق في مكانه... متى رأيت هذا المكان لاول مرة ؟

كان ذلك منذ زمن طويل، وكنت وقتها لا أزال طفلاً في العاشرة أو الثانية عشرة. لا أتذكر ذلك، فعمري مثل حياتي له كل يوم تاريخ جديد، فمرة أكون في العشرين ومرة أخرى في الثامنة عشرة.. ما دمت أعرف أن الشيخوخة قد بدأت تدب في أوصالي، فأنا منتهي بلا ريب.. ظهري يؤلمني، يقولون أن مرد ذلك إلى كثر العمل الذي أقوم به، والوقوف ساعات طويلة أمام مشتر كل همه أن يعذبك. ومحاورات مشتر آخر أكثر صفاقة . يقال عندنا: (المدكن قحبة المشتري) ولكنها العادة. أكثر الليالي تمر ولا أعرف فيها طعماً للنوم. والدي يقول أن القات هو السبب، لكنه مع ذلك يعطيني نصف قاته يومياً. زملائي الذين يعملون معي في الدكان يردون سبب ذلك إلى كثرة التفكير، وفي ماذا أفكر؟ أن كل يوم يمر تعود إلى ذاكرتي نفس الأشياء القديمة. نفس الأشخاص بل ونفس العبارات التي سمعتها وأعجبت بها أو أغضبتني حتى كلمات والدي لا تتغير، هي... هي.. منذ عشر سنوات. تماماً كتكشيرة وجهه وعبوسه بعد القات، ومثل صياحه لسبب أو بغير سبب. لقد رأى بالأمس (عبده) الذي كان مصفر الوجه ويشعر بالتعب بعد رحلة قام بها إلى خارج أديس أبابا لزيارة أمه. فقد قال له والدي وهو ينظر إليه بغضب:

- لعنة الله على أمك.. زنوة.. شوفوا كيف جالس مصفّر.. فَرَغ.. هذه العاقبة، لقد بكّرت.. عادُه بايمرض.

قلت له بهدوء:

- إنه حزين، لقد ماتت شقيقته بالأمس وقد ذهب إلى هناك وعاد هذا الصباح.. إنه متعب ولم ينم.

- أخته !! أيهما ؟

- الصغرى.

رد بعدم اكتراث.

- ليش ما يموتوا كلهم. نعم هذه العينة باتحزن!.. كذبْ. لا راح يعزي ولا حاجة.. كان عند واحدة... الله يعلم أيش من صنف.

كنا نعرف جميعاً أن لا فائدة في إقناع الوالد بأن كلامه لا يقوم على أسس صحيحة فهو دائماً يبني قضاياه على أوهام. ثم يحول تلك القضايا إلى حقائق لا جدال فيها. صمتنا جميعاً.

ماذا جرى؟.. ها أنذا أعود من جديد إلى تذكر كل شيء حتى السفاسف الصغيرة. عليَّ أن أتحرك من مرقدي. ما أبرد الليل هنا. خاصة إذا كنت تنام على أرضٍ من حجر، إن عظامنا تعودت على ذلك، ولهذا فهي مكسرة أبداً. أحمد يسعل، مسكين أنه مصاب بالبرد منذ أسبوع خلى. وما فائدة الشكوى.. إذا قلنا للوالد بأنه مريض، لرد: لماذا لا يأخذ شربة. كل الأمراض علاجها الوحيد لديه هو الشربة، أو يقول :

- مريض.. ها. شوفوا العاقبة، أنتم باتروحوا في داهية الواحد منكم يشوف بنت مدهنة.. مصلحة .. تطير نفسه عليها.. ويخرج من عندها بمرض خبيث. أعوذ بالله.

طبعاً لا فائدة في إقناعه بأن المرض لا يأتي من امرأة ولكن من البرد مثلاً.

الساعة السادسة والعشرين دقيقة.. سأستمع إلى (صوت العرب)، إلى حديث عن اليمن. كم أنا مشتاق إليها.. لقد رأيتها آخر مرة

منذ سنتين. وكنت وقتها لا أزال عريساً، لم أذق حتى حلاوة شهر العسل.. تركتها خلفي هناك. كم كانت طفلة صغيرة وحبيبة. أنني أرى في أحلامي وجهها الطفولي ليلة الزفاف وهي تنظر إلى الأرض بحياء، وعينيها كانتا عميقتين إلى درجة لا تصدق.. أردت أن أقبلها.. أن الفرق شاسع بين عالمين.. أحسست بالخجل، لقد تصورت أنها ستعطيني نفسها بمجرد أن الامسها.. كنت أظن أنها كالنسوة هنا، اللاتي يقدمن كل شيء عند الحاجة ومن أول لمسة.. لمسة نقود طبعاً. عشت أياماً سعيدة، ثم عدت إلى هنا ومن يومها وأنا أحلم بالعودة، إليها فقط..ترى هل لا تزال صغيرة. متكورة النهود صلبة..متفتحة على الدنيا بمرح لا يحد؟، أم أنها قد أصبحت عوداً يابساً كأمي او كزوجة أخي.. أن الذبول ينشر ظلاله بسرعة على ربى جبالنا الجرداء وينهش بأظافره المتوحشة جمال نسائنا وشبابهن.

أنني اشعر بهذه الكائنات القذرة في مثل هذا الوقت فقط وأنا أراها تتطاير حولي أو تقرص أحدهم بشراهة.. أيتها الحشرات اللعينة الا تكفي وليمة ليلة كاملة من الدم تمتصينه.. وأطاردها ولكنها أذكى مني، أنها تطير وتختفي في ثنايا الفراش، أو في طيات ملابسنا. الراديو يذيع حديثاً عن قضية اليمن. ما أحلاها، وما أبأسنا هناك.. وهنا. الضوء ينتشر في الدكان.. علينا أن نقوم الآن ونبدأ يوماً جديداً.. قديماً.. يوماً أعرف كل ما سيحدث فيه.. آه.. ما ألعن هذا الألم في ظهري. لكنه ألم مزمن أشعر به في كل وقت. كل شيء قذر حولنا.. هذا الملعون أحمد، لم يكنس المكان في مساء البارحة، لقد انشغلنا بلعب الورق.. بل لم يأخذ حتى الماء القذر الذي كنا قد غسلنا به أيدينا في عشاء الأمس، حتى أكواب الشاي القذرة منتشرة في كل مكان والأوراق تملأ أرض الدكان تماماً كالغبار العالق فوق الأرفف والبضائع القديمة، ولكن لماذا نشكو؟ فاليوم مثل كل يوم.

- أحمد.. قم.. يلعن..

أضربه بلطف.

- أه..خلينا ننام..

يقولها بصوت محتج.. يردد ذلك وهو يعرف أن لا فائدة. يقوم ويجلس يحك جسمه ورأسه وكل شيء فيه. وهو يقول محتجاً:

- ليش ما تقيم الأولاد الثانين؟

إنه يعرف أن دورهم سيأتي. أبدأ بضرب الآخرين، وأرش الماء على وجوههم.. أتصنع الغضب.. وأصيح.

- قوموا يا جماعة.. أيش الوساخة هذه، الدنيا ظهر، والناس قد فتحت أبواب محلاتها. ونحن في عالم الغيب.

يتحرك الدكان.. ستة اشخاص مكومون بصورة بشعة بجانب بعضهم البعض.

- هيا.. هيا نطلب الله على بطوننا.

كل شيء معاد.. مردد.. مكرر.. لا جديد، حتى كلمات الصباح. لا نعرف أننا قد قلنا يوماً ما مثلاً – صباح الخير، أو صباح سعيد لبعضنا البعض.. أن ذلك غير وارد في قاموس لغتنا الصباحية. حتى الكلمات الجميلة مثل التي تقولها لنا الإذاعة صباح ومساء كل يوم، مفقودة في عالمنا. عندما يحضر الوالد من البيت قريب الظهر يدخل الدكان وقد رسم على وجهه تكشيرة مخيفة، لا يقول صباح الخير ولا غيره. وطبعاً لا يمكننا أن نبدأه في الحديث، نظل صامتين أو ننشغل عنه بالبيع، إذا ما وجد هناك من يرغب في الشراء.. ودائماً يغادرنا دونما كلمة.

نهرول دفعة واحدة إلى الداخل.. أننا نتسابق لغسل وجوهنا، لأن أول من يغسل وجهه يحظى بالمنشفة الوحيدة التي تكون قد تبللت عندما تصل إلى آخر وأحد فينا. منشفة واحدة لستة أشخاص مليئين بالقذارة والكسل، حتى منظف الملابس يحتج دائماً وهو يرى المنشفة في لون السواد، ولكنا لا نلقي على احتجاجه أي تعليق

بل نلقي في وجهه بملابسنا الداخلية الأكثر قذارة والملطخة بما نفرغه عليها أثناء النوم. من مدخل الحمام، تخرج روائح عفنة من جراء امتلائه بمخلفات بطوننا في الصباح.. تستمر حتى اللحظة التي نخلد فيها إلى ما يسمى عندنا بالنوم لتبدأ مع الفجر في عملها مثلنا.

يرتفع الصياح:

- أدخل الفرش يا أحمد.
- لم أغسل وجهي بعد.
- يا جماعة عاونوه.
- أيش هذه الحياة.
- يلعن أبو.. تعبنا.
- هيا يا ناس خلونا نفتح الباب...

ترتطم أجسادنا ببعضها البعض ونحن مسرعون لنصنع لا شيء.. فقط نسرع.. ويبقى كل شيء كما كان.

- أنا جيعان.. روح يا أحمد جيب الفطار.
- خلونا نخلص كنس الدكان...

يأخذ سعيد المكنسة ويساعده عبده في رش الماء على الأرض بينما يسرع أحمد في غسل الصحن الذي بقي قذراً من بقايا إفطار اليوم السابق. وبعد أن أمرر المشط على راسي بسرعة وآثار الماء لا تزال عالقة على وجهي، أذهب باحثاً عن المنشفة، لكن أحدهم ما زال يستعملها. أفتح باب الدكان لأستقبل أشعة النهار الجديد .. حتى الشمس لا قيمة لها عندنا بل أننا نتمنى أن تغرب بسرعة ويحل الظلام .. هذه الأشعة عديمة الفائدة والنهار الطويل.. طويل جداً .. ألقي نظرة سريعة على دكان معين .. لقد فتح الملعون الباب قبلنا .. أننا في تسابق دائم معه. فنحن الوحيدون في "المركاتة" الذي نبيع بضاعة في صنف واحد، وبيننا تنافس مستمر .. (أبو عين) لا يهمنا شيء سوى أن نربح حتى ولو كان ذلك

يعني موت أو افلاس شخص آخر .. أن كل الدكاكين التي تقع في الناحية الأخرى من الشارع مفتوحة ما عدا دكان الحاج عبدالله الذي يفتح متأخراً في الساعة التاسعة لا شيء يهمه فهو غني ولا يهمه التسابق، فهو يبيع بالجملة للجميع.. حتى دكان اليهودي في ركن الشارع المقابل مفتوح.. لقد بدأ اليهود في فتح دكاكينهم منذ سنة. أخذ كل واحد منهم دكان في ركن كل عمارة. كأنهم حماة الشارع كله. إن عددهم قليل، ولكنهم أصبحوا في مركز مهم في هذه المدة القصيرة .. (ابو عين) أنه يمني.. أننا لا نتعاون فيما بيننا، ولا يهمنا مصير بعضنا البعض..

يصيح أحمد والماء ما زال عالقاً في وجهه:

- هات حق الفول . . .

يجيبه أبن الشيخ من الداخل:

- ياكلب .. قلت لك هات لنا اليوم هريسة.
- لا .. نشتري فول..

ويبدأ نقاش ممل وحاد بينهم.. أحسمه بالنهاية.

- هات لنا فول.

كل شيء مكرر حتى نقاشنا وآراءنا، واختلافنا حول عن ماذا نفطر هذا الصباح.. تأي "الشغالة" من البيت حاملة الشاي. . . تبادرني بالقول:

- هات حق الفطور...

أصيح في وجهها ككل يوم :

- يا شيخه ما دخلنا حاجة وقد كم هات .. هات ..

لم يحدث إطلاقاً أن رفضت اعطائها نقوداً.

أفتتح اليوم بفنجان من الشاي، والراديو هناك يزكم رؤوسنا بأغانيه واحاديثه ، أنظر الى الشارع . الساعة الآن السابعة والنصف .. وأولاد المدارس يمرون أمام الدكان أفواجاً .. وأنا أحملق فيهم. أعرف أنها ستمر الآن، وسأحييها بهزة من رأسي، وربما بابتسامة

أيضاً. أنها تمر أحياناً. تلتفت ثم تروح مقهقهة في دلع البنات. ويلتفتن صديقاتها نحوي ثم يضحكن. لكن اليوم سأدعوها إلى الدخول. سأحادثها. لا أدري ما الذي سأقوله لها. دعها تدخل أولا وبعدها يفتح الله. بدأ الصباح بعمل سخيف .. هذا يريد بخمسة سنتات، وذاك بنصف دولار.. وهكذا.. في كثير من الأحيان لا يهمني الدخل فأنا أعرف أننا لو بعنا حتى بمليون دولار فلن نجد كلمة شكر على مجهوداتنا، وأن كان الدخل قليلاً فلا شيء ... سوى نظرة حادة من الوالد ثم صمت مطبق وقت العشاء، ومغادرة الدكان إلى المنزل مبكراً.

هاهو ذا أحمد يدخل.. الفطار جاهز.. رغيف من الخبز وقليل من الفول زائد فنجان شاي تم تجهيزه في البيت خصيصاً لأصحاب الدكان، ومن ثم عمل متواصل، ووجوه كثيرة، ما أقبح معظمها وأصفق أصحابها .. يشتري منك الواحد منهم بدولار ويريد أن تهديه شيئاً يساوي ضعف الربح، ويا ويلك أن لم ترد عليه بأدب، فانك عندها ستفقد زبوناً.. وما أغلاه.

وجوه أطفال ورجال يدخلون ويخرجون. البعض منهم يدخل الدكان حيث يلقي نظرة طويلة كأنه يختبرك ثم يسألك بعدها سؤالاً سخيفاً ويمضي.. وعلينا الصبر، وتحمل اهانات لا تحصى، لسان كل واحد منهم .. وإن وجدك صامتاً لا ترد على اسئلته التي لا تحمل معنى .. يمضي قائلاً: (جمالا) كنت بالأمس تلبس الفوطة المزقة وتذهب وراء الجمال وها أنت اليوم ترفع أنفك إلى السماء أيها القذر الآكل من رزقنا .. السارق نقودنا، وما إلى ذلك من الكلمات التي أصبحت آذاننا تلتقطها بسخرية، وربما بشماتة .. لا أدري ممن؟ أمن أنفسنا أم منهم ؟. لا بأس، يجب أن نختطف اللقمة من أي فم كان، حتى من فمك أنت نفسك، فقد يدخل أحدهم ويراك جالساً وراء " ميز الدكان تلتهم بسرعة -بدون أي لذة أو شهية- قطعة خبز مدمسة بحبات

الفول فلا يعتذر لك، بل يمضي طالباً منك شيء ما، قد لا يشتريه. عندئذ إما أن تزدرد اللقمة بسرعة أو أن تخنقك قبل أن تبلعها، أو تنتزعها من فمك ستة أيد قوية تبحث عن اللقمة من أي فم .

السيارات تندفع في الشارع بكثرة . والناس يصطدمون بها كأنها حصى لا شر منها . في الرصيف المقابل اصطفت عدة سيارات أمام باب كل دكان .. أنهم مثلنا وربما أغنى قليلاً أو أفقر، ولكنهم على الأقل يملكون سيارات وتلفونات في دكاكينهم ..أما نحن فلا شيء من هذه القبيل عدا آذاننا الفارغة وأقدامنا . قيل للوالد مرة: لماذا لا تدخل تليفونا وتريح نفسك من عناء الذهاب الى أصحاب الحاجات أو الباعة الكبار.

فابتسم بسخرية، وقال:

- التليفون يجلب الفساد. فاذا كان هناك تليفونا فأن الاولاد سيتصلون بالنساء في البارات ومن ثم الفساد .

وقيل له أيضاً:

- أنك تدفع يومياً أكثر من ثلاثة دولارات للمواصلات ، فلماذا لا تشتري سيارة، وتريح نفسك من تعب المواصلات؟

هز رأسه، وقال بغضب:

- سيارة !! ما شاء الله . وهل تظن أن الأولاد سيحافظون عليها، أنهم سيجعلون منها ماخور لجلب النساء، والتسكع بها خارج المدينة دون علمي.

لا يستطيع أحد أن يحاوره بالطبع، فهو على حق دائماً. ونحن والآخرون مخطئون. هكذا حرمنا من متع كثيرة، بل إننا نعيش في تحسر دائم، حيث نرى أصدقاءنا الباعة وأبناء أصحاب الدكاكين نهار الأحد وهم يمرون بسيارتهم أمامنا، داهبون الى خارج المدينة لقضاء يوم راحة رائع بعيدا عن الضجيج والوجوه القبيحة. إما نحن فلا راحة لنا يوم الأحد.

لم تمر اليوم .. لعلها مريضة .. أو أنها غيرت طريق سيرها. حينما تمر من أمامي، تملأها السخرية من هذا السجين ذي الوجه النحيف والعيون الكبيرة الغائرة، والوجنة المنتفخة بعد الظهر بأوراق القات التي يمضغها.

لم تمر .. ولماذا تمر؟ وهي ترى شاباً يبتسم لها بحياء ويجيبها، فيما هي متعودة أن تتحدث مع كل من تريد من أصدقاء المدرسة، وناس الشارع . هي التي تدرس وتقرأ كأي فتاة أوروبية. ولا تشعر بالحياء حتى لو تحدثت مع رجل. أما أنا .. فيا للخجل الذي سيصيبني أن تحدثت معها .. أن العرق البارد لن يتوقف أبدا عن السقوط من جبهتي. رغم أنني احاور المشترين عادة بلباقة راصاً مئات الكلمات ... أعرف أن الكلمات أمامها لن تخرج من حلقي سأتلكك وسأحتاج الى قارورة من الماء البارد لترطيب حلقي . حقاً أنني لم أمر بعد بالتجربة، أنما أشعر بنتائجها منذ الآن . هناك إحساس داخلي بأن مهزلة ما سوف تتم، وستكون مادة واسعة للسخرية أمام زميلاتها، فحمدت الله بأنها لم تمر .. وأني لم أتحدث معها. ضحكت من نفسي .. لو حدث أنها مرت .. يا ترى هل سأجد عند ذلك الشجاعة الكافية لدعوتها إلى الدخول ومحاورتها.

الوقت يمر.. مئات الوجوه قد مرت واخرى في طريقها إلى المرور.. وأنا وسعيد جالسان بجانب بعض دون أن ننبس ببنت شفة . وإن قلنا شيئاً ما ، فلن يكون سوى – أعطني سيجارة .. ثم نروح ننفخ بدخانها وايدينا على قلوبنا مخافة أن يهبط علينا الوالد فجأة .. تلك عادته معنا .. سيجدنا متلبسان بالجريمة .. جريمة طبعاً التدخين، فرغم خوفنا إلا أننا ندخن كثيرا .. الجميع يعرف هذا .. هنا في الدكان وفي البيت .. كلهم إلا أبي . أما لو عرف ، فان السماء ستنطبق على الأرض، وسوف تلسع ظهورنا نحن الشباب ذووا العشرين ربيعاً أسوط غضبة وحرارة لطماته.

كان الباقون منهمكين في أداء عملهم بداخل الدكان .. عند ما يشعر احدهم بالملل يطلق لحنجرته العنان ويغني أغنية حزينة . حدث مرة أن هبط علينا الوالد فجأة .. وكان الغناء مستمراً في الداخل .. حينئذ لم يكتف فمه باطلاق اللعنات والسباب، بل شاركته يده في العمل.

قاطعني سعيد فجأة..

- اتعرف .. غداً الأحد .

كان في صوته رنة من السرور .. ولكن نظراتي حولت أمله إلى حزن: — أحد .. ثم ماذا ؟ انه أحد سيمر كما مرت من قبله آحاد كثيرة . أقبلت الشغالة .. أنها تريد مصروف البيت القريب من الدكان، الممتلئ بالصراخ والضحك والبكاء .. أكثر من سبعة أطفال .. كلهم أخوة لي.. وكلهم لم يتجاوزوا العاشرة بعد . عندما يتجمعوا مع أبي حول المائدة، ينظر إليهم باستغراب، ويقول:- يخيل لي أني حضرت الى الحبشة بالأمس ..ولكني عندما أراكم اتساءل من أين اقبلهم؟ ... لقد مللنا من ذلك الكلام المردد دائماً...

غداً الأحد.. هذه حقيقة مرة . كم تعذبنا .. إننا سنغلق الدكان . لكنا سنظل مقيدين ، والذي يثيرني هو .. أن سعيد واحمد وعبده كلهم عندهم امكانيات أكثر مني ومن أبن عمي. لا يمكننا مطلقاً مفارقة الوالد .. علينا أن نذهب صباحاً معه في دورة صغيرة برفقة جيش من الأطفال.. والى أين ؟ إلى حديقة المسجد، حيث نستمع للمرة الألف الى أحاديث وأحاديث عن الدين والاخلاق وغيرها حتى نمل من ذلك. ونعود الى الغداء .. أما بعد الظهر حيث ينطلق الجميع الى السينما والتنزه في سياراتهم ، نكون نحن في (المبرز) نمضغ القات ونستمع الى أحاديث الكبار المعادة والمملة نسمع الكبار يذمون بعضهم البعض ويقلون من شأن بعضهم يطعنون في بعضهم البعض. قائلين — فلان يشرب .. وذلك يذهب

الى النساء وغيرها .. في البداية كنا نتذمر بصمت أو نمضى في مضغ أكبر كمية من القات، أما الآن فإننا نسخر منهم ونبتسم فقط .. يا ويلنا إذا ما فتحنا أفواهنا فذلك يعني قلة أدب وعدم تربية . هذا إذا نجونا من اللطمات في المساء.

كان سعيد ينظر إليَّ. يريد أن يقول شيئاً، ولكنه كان يغض نظره عند دخول مشتر جديد. في النهاية، قال:

- اسمع .. إنني لا استطيع الصبر اسبوعاً آخر .. انني لم أقرب امرأة منذ شهر أو أكثر ..ما رأيك ؟..

ابتسمت قائلاً:

- سندبر أمراً ما الليلة..

وكان سر ما يعشعش في صدورنا..

اقترب الظهر واقبل الوالد كالعادة، دونما كلمة .. أخذ مفتاح الخزينة وأخرج النقود ومضى دونما كلمة ... ثم عاد من جديد قائلاً:

- تغدوا .. أنا معزوم.

لم يكد يمضي حتى كان عيداً حقيقياً يحتوينا جميعاً.. أذن سوف نكون احراراً اليوم لمدة ساعة على الأقل في البيت. عندما أقبل وقت الغداء ، أقفلت الدكان قبل الموعد بربع ساعة .. غمزت لسعيد ومضيت مسرعاً.

حينما وصلت إلى المكان الذي سبق وأن حددته.. التفت يميناً ويساراً خوفاً من أن يراني أحد ، ثم انطلقت داخلا بسرعة.. اقفلت الباب خلفي.. وأطلقت صرخة ..

- وس... مالك؟

- أجلس ...

- ليس لدي وقت .. اسمعي، سأحضر الليلة... هذا المساء.. أعطني بسرعة أي شيء أشربه.

ابتسمت واقبلت نحوي منطلقة...:

- أوه .. يا لك من رجل لا اخلاقي .. إلا تقبلني .. ثم صمتت قليلا ، واقتربت مني أكثر.

- حقيقة أنني لم استعد بعد لمساء الأحد ولكني استحق على الأقل قبلة .. خاصة وأنني لم أراك أكثر من شهر..

قبلتها بشراهة .. لكنها سرعان ما تركتني ومضت تعد لي كأساً..

وصلت إلى المنزل .. كان الفرح ظاهرا في وجوه الأطفال الذين اقبلوا نحوي يضحكون ويلعبون بمرح.

كانت نشوة رائعة تحتويني.. رحت أقبلهم.. أعطيت كل واحد منهم قطعة نقد ليشتروا بها حلوى.

اقبلت علوية نحوي قائلة:

- أخي.. اليوم ختمت جزء تبارك والاولاد يشتوا "زينة " .

قلت لها :

- أخبري أباك بذلك وهو سيعطيك مرادك.

- لكن أبويا ما جاش.

- با يجي الدكان بعدين.

عندما عدنا إلى العمل كانت هي هناك تنتظر أباها. لم يكد يقبل حتى اندفعت نحوه بفرح..

- أبا .. أبا

لا أدري ما الذي جعله غاضباً هكذا ، فلم يكد يراها حتى صاح في وجهها ..

- أيش تسوي هنا .. يلعن ... و ...

اندفع نحوها .. واهداها عدة صفعات. عادت إلى البيت تحتفل باكية بختمها جزء تبارك، وعاد الوالد ادراجه الى مكان مضغ القات ..

بعد برهة من الوقت حضر مدرس علوية وهي برفقته، قال فقال لي:

- الأولاد عندما يختمون جزءاً من القرآن فانهم يحتفلون بذلك ، بإحضار بعض الحلوي والبسكويت لتوزيعها على التلاميذ .

واختك لم تحضر شيئاً.. وهذا عيب، لأن جميع الطلبة منتظرين منها أن تعمل مثلهم.

لم أكن استطيع التصرف دون أذن الوالد ، وقد رأيت ما صنع بها، ولم أجد مخرجاً من نظرات الاستاذ وعيون علوية الدامعة. اخرجت خمسة دولارات واعطيتها لسعيد لكي يشتري لها كل ما تريد .

قريب المغرب أقبل أحدهم وقال للوالد مهنئاً:

- ما شاء الله .. شوف يا شيخ أن الله لا ينسى عبيده .. فقد رزقك بأولاد وبنات . اليوم قال لي أبني: إن أحسن "زينة" قدمت في المدرسة كانت زينة ابنتك. . .

نظر إليه الوالد بدهشة .. واجاب :

- أيش أولاد يا شيخ الله يشلهم ، كلهم ما في فائدة منهم ، ما يفكروا إلا بأنفسهم .. لما كنا صغار تحملنا كل هموم أهلنا وعملنا من أجل اطعامهم ... أما هم فلا لهم هم إلا ملء بطونهم وبس.

مضى الرجل بعد حالة .. أقبل الوالد نحوي .. قال لي:

- من أين جابت علوية الفلوس؟

شعرت بان عاصفة ما سوف تهب بقوة.. أجبته:

- لقد حضر الاستاذ الى هنا واخبرني بذلك ولم أجد بدا من أن اشتري لها بعض الحلويات حتى تفرح وتجتهد.

- ما شاء الله .. ما شاء الله .. تفرح .. من فين الفلوس .. من حق أمك .. كم اعطيتها؟

- خمسة دولارات ؟

- ها .. أيش ... يا ...

كانت يده هي التي تتحدث ، هربت من صفعاته مهرولاً الى الداخل .. كان صوته يلعلع كالرصاص .. زنوات .. أولاد كلب .. أولاد حرام ...

عندما غادر الدكان كان قد أصدر أمراً بحرماننا من مصروف يوم الأحد.. إذ كان يعطي كل واحد منا دولارا واحداً كمصروف .. قال قبل مغادرته الدكان :

- من أجل أن تتعلموا يا أولاد الزناء..

وكانت اثنا عشرة عينا تحملق في بحزن .. لأنني المتسبب في حرمانهم من مصروف الأحد . خيم علينا صمت رهيب. ولكن .. أينتهي كل شيء هكذا ببساطة ، طبعاً .. لا . كان ذلك يحدث من قبل، عند ما كنا مغفلين .. أما الآن فلا .. قلت لهم:

لا تقلقوا يا ملاعين .. سيكون كل شيء رائعاً .

اخرجت من مكان ما في الدكان مبلغا من المال واعطيت كل واحد منهم دولاراً مصروف يوم الأحد.

في المساء كان أحمد الصغير وحده النائم في الدكان أما الباقون فقد تشتتوا في أماكن متفرقة يفرغون بمرح متاعب اسبوع شاق من كؤوس ونساء....

كانت الساعة العاشرة عندما غادرت الدكان، وفي ركن غير بعيد كانت سيارة (فيات) حمراء تنتظر .. كنت اعرف أن صديقي الاستاذ أحمد يقف هنا كل مساء سبت لنبدأ ما نسميه . "ساترداي بارتي".

- مساء الخير ..

نظر إلى بغضب، قائلاً:

- مرة أخرى لن انتظرك . لماذا تأخرتك ؟ أتظن ان الوقت رخيص هكذا ؟

ابتسمت ورحت أشرح له ما حدث، قال معلقاً، والسيارة تنطلق بنا في شوارع اديس ابابا:

- متى سوف تثور على كل هذا ؟ – أنك لا تمتلك حتى حريتك البسطية ...

تنهدت واشعلت سيجارة.. قال:

- ما أجمل أن يكون الإنسان مستقلاً يملك كل وقته وكل لياليه..

قلت له:

- أنك لا تفكر إلا في نفسك.. حرية .. ما الذي تعنيه هذه الكلمة .. أنك تملك وقتك .. هذا حق، ولكن ما الذي صنعته حتى الآن .. لا شيء .. أنك تذهب إلى عملك صباحاً .. هل تملك الحرية في أن تتأخر لحظة واحدة بعد فتح أبواب المدرسة ؟ كلا .. أنت ايضاً مقيد .. تدخل في ساعة محددة وتخرج في وقت محدد أيضاً...

قاطعني بقوله :

- نعم أنني أعمل ثمان ساعات في اليوم وبعد ذلك، فان ست عشرة ساعة ملك يدي، أعمل فيها ما أشاء .. أذهب الى بار .. أجلس مع أية فتاة أريد .. املك الحق في أن أصنع حياتي...

- أية حياة تتحدث عنها .. بار.. نساء.. وخمرة .. ثم ماذا ؟ ألم أقل لك أنك تفكر في نفسك. لا زوجة .. لا ابن .. لا مسؤوليات نحو عائلة ... لا يهم يا صديقي حياتي سأعيشها ، وسيأتي الوقت الذي أجد فيه الحرية ، وستكون حرية من نوع آخر غير حريتك الفارغة ...

قهقه قائلاً:

- فارغة .. يا لك من ناقل أمين لما تقوله الصحف والمجلات .. أنك تغرق نفسك يومياً في كتب واخبار .. أراهن أن ذلك نتيجة تأثرك بالشيخ والدك .. مع اختلاف في أنه يقرأ كتبه الدينية وأساطيره عن العالم الآخر وكل الخرافات .. أما أنت فتطورت الى مجلات تافهة واخبار لا قيمة لها.

- أرجوك يا أحمد لا تدعنا نعود إلى النقاش حول المعتقدات ..

- ها .. ها .. أنك تخاف أن تتأثر . أن تعرف ا حقيقة .. اليس كذلك ؟

- لا يهمني ما تعتقده ، كل ما أريد هو أن تحتفظ لنفسك بأفكارك حول الدين والإيمان.
- آه .. لو استمعوا إليك وأنت تنطق كلمة دين بكل هذا الخضوع .. سيظنون إنك وليا .. ولست في الواقع سوى شيطان ..
- لا يهمك ما أكون .. دعني من فضلك من فلسفتك هذه ..
- اتخاف حقا ان تسمع بأن لا وجود لشيء اسمه .... وان كل شيء من ابداع خيالات رجال من امثالنا...
- أحمد أرجوك ...
- يا لك من إنسان مؤمن .. لماذا اذاً ترتكب كل الحماقات هذه وأنت تعرف أن دينك يمنعها.
- لا يخصك هذا .

كانت السيارة قد وقفت أمام المكان الذي كنا نقصده .. قال الاستاذ أحمد وهو يقفل باب السيارة ضاحكا:
- يالك من شخص يتقمص وجوه متنوعة حسب الظروف .

لم أعلق على حديثه

في الداخل كن في انتظارنا .. قالت زهرة وهي تبتسم .. لقد تأخرتم هذه الليلة ، وقد كنا سنستقبل أول شخصين يطلبون قضاء السهرة معنا ..

نظر صديقي إلي قائلاً:
- أنظر أنهن يملكن الحرية في تركنا والبحث عن أشخاص آخرين . أما أنت فقد كنت بتأخرك ستحرمنا من متعة هذه الليلة.

كن يواصلن أعداد المائدة لتبدأ الحفلة، وكانت موسيقى جاز تصدح في أرجاء الغرفة، بعبث ..بينما كانت "دبراويش" تعد لنا أقداحاً من الويسكي .. صحت بصاحبي قائلاً:
- إنهن لا يملكن أي شيء أسمه الحرية .. إنهن يبحثن عن أي شخص كان، باستطاعته دفع ثمن قضاء ليلة حمراء معهن. ولو وجدن من يدفع أكثر منا لما التفتن إلينا.

قام صاحبي وهو يصفر لحناً، توجه نحو زهرة في خطوات راقصة ممثلا دور الشخص المنسجم في الرقص، فيما كنت أشعر بنوع من الضجر .. تناولت كأسامن الويسكي..

قالت دبراويش:

- مالك لا تطلبني للرقص ؟ أم أنك تغير عندما ترى زهرة مع صديقك ؟

تنهدت بخزن .. إنها لا تعلم ماالذي يدور في عالمي .. تماماً كما لا أعلم بعالمها هي. رحت أتناول كؤوس الويسكي ، وصاحبي يرقص . كم يحب الرقص هذا الانسان بينما أمقته أنا .. قديكون ذلك لعدم اجادتي الرقص . مرات كثيرة عند ما أرى راقصاً ماهراً اتمنى أن أكون هو، وعندما أشعر بعجزي أعود إلى نفسي قائلاً: ان الرقص ليس سوى حركات حيوانية متوحشة. زهرة تجيد الرقص .. أراها تتمايل كغصن رطب عندما تهب عليه نسمات ناعمة .. جسدها هذا الرائع يصنع في تمايله سيمفونية جميلة، رائعة الألحان.. لكم تمنيت أن أمتلكها . ولكن دونما فائدة . أنها تأبى قائلة : - كيف أهب نفسي لصديق صديقي. حاولت اغراءها ..سرقتها .. ولكن لا أمل. أن هذا النوع من النساء غريب ..أنها مستعدة أن تهب نفسها لأول شخص غريب.. لكن ما دمت صديق أحمد فهي محرمة علي.. يا له من منطق، كانت دبراويش تنظر إليَّ .. لقد ذقت كل تفاصيل جسدها حتى شبعت منها . لم يعد فيها ذلك السحر القديم الذي ارتويت منه .شهور ستة تكفي ليمل الفرد من أي شيء كان .. تماما كما أمل حياتي الرتيبة في الدكان كل مساء اتمدد على الأرض بجانب عدة اشخاص.. كما مللت ملابسي القديمة القذرة التي البسها اثناء العمل. ترى لو رأتني زهرة أو ديزارويش هناك في الدكان هل سيعرفنني ؟ .. كيف سيكون شعورهن عندئذ ؟ اعتقد أنه لا يهمهن منظري الخارجي ، طالما وعلاقاتنا تقوم على أساس ما تخرجه جيوبنا من أوراق. ما أقذر هذه العلاقات. شربت كاسا أخرى.

- أنك تشرب كثيراً هذا المساء.

نظرت إلى عينيها. إلى وجهها الأسود كقطعة الأبنوس، إلى جسدها الذي سكبت فيه كل شقائي. وتعبي وحقدي.

- ما الذي حدث لك هذا المساء أن تصرفاتك غريبة .. قل لي أرجوك.

شؤوني.. هل تهمها يا ترى ؟ ولو قصصت عليها . . هل ستفهم ما أعنيه؟ وأن فهمت هل ستتأثر حقاً ؟ يا لي من مغفل . من تكون حتى تتأثر.. أن العاطفة قد أزيلت فكم من رجل قد مرغ حياتها .. هل في استطاعتها أن تعرف كل شيء وتتأثر له ببساطة ؟ لا أدري. بمجرد خروجي أعرف أنها ستذهب إلى صديقتها لتقص عليها كل مساوئي .. وقد تخرج من فمها الفاظاً قبيحة.

- لا شيء أنني اشعر بالتعب.

- أوه .. أننا كلنا نشعر بالتعب.. فمن ذا الذي يستطيع أن يرتاح في عالمنا هذا .. دعنا نرقص لعلك تنسى كل شيء .. إنظر الى أحمد أنه مرح .. متفتح.. إنني أحسد زهرة.

- وأنا أيضا أحسده ..

أفرغت الكاس في جوفي..

- هلمي بنا إلى الداخل.

نظرت إلى باستغراب.

- لكن الساعة لم تقترب بعد من منتصف الليل.

- وماذا يهم .. دعينا نذهب إلى السرير ..

هل تستطيع أن ترفض .. أنني هنا الآمر والناهي ما دمت أدفع الثمن وقبل أن أغيب، كانت زهرة تقول لصاحبي:

- أن صاحبك شخص حار. لا يكاد يرى أمرأة حتى يفكر لحظتها بالسرير ..

ابتسم أحمد وهو يرقص، وقال لها :

- إنه يمني!!

إضراب

كان مساء..

كانت الرياح تهب على (المعلا) فترتخي الاعصاب بعد يوم طويل حار.. أمتدت على طول الأرصفة السرر الخشبية وتوفقت بعد الساعة الحادية عشرة كل حركة مرور فيما عدا سيارة سريعة تحمل داخلها عشاقا قضوا ساعات مرحة في مكان بأعلى الشاطئ. حاول "سعيد" أن ينام.. لكن هواء البحر ونوم بعد الظهر. كان من المستحيل أن يغمض له جفن. بدأت خواطر وذكريات عديدة تتقافز إلى فكره وتقلب (سعيد) مرت ومرات لكن الذكريات لا تريد فكاكاً، والندم تقتله أصوات أمواج البحر القريب ونسمات الهواء التي تلفح وجه (سعيد) بحنان تطرد كل محاولاته.. نظر سعيد نحو السماء حيث تلمع النجوم وجبل شمسان يناطح السماء أمامه صلباً.. جباراً.. هادئاً تحت النجوم.. مع قمة شمسان كانت هناك ثلاث نجيمات.. أطال سعيد النظر اليهن وانغام الموج تداعب اذنيه وذكرى "الاضراب" الذي استمر ثلاثة أشهر وسيستمر كما قال له "ردمان" صباح اليوم حتى تتحقق مطالبهم، ثلاثة أشهر طوال مرت وسعيد مضرب مع زملائه العمال واخرسنت كان سعيد يملكه انتهى هذا اليوم.. ومن الغد.. من الغد هذا مالم يكن سعيد يريد أن يفكر به لذلك كان يحاول بكل جهده أن ينام.. لكن.. لكن سعيد يستعيد كل ما مر به داخل شركة لوك توماس منذ سنتين بعد أن هجر الدكاكين حيث كان يعمل فيها منذ طفولته.. بعد أن تزوج في قريته بأبنة عمه.. تلك التي كان يحبها منذ طفولته وهو يرعى الماشية فوق الجبال وفي الوادي الذي كان يحيط بقريته. بعد أن تزوج اراد أن يرعى عائلته فعمل كمستخدم في دكان ليتكفل حياته هو لهذا دخل كعامل في هذه الشركة تقلب سعيد على سريره إنه لا يريد الذكريات يكفيه الواقع الذي يعيشه.. لكن "ردمان" زميله في العمل هذا الذي عرفه

منذ عام فقط. ردمان الهادئ الصامت أبداً والذي كان السبب في أن يدخل النقابة وأن يؤمن بأن للعمال حقوق كالآخرين.. بل وأكثر لأنه كما قال ردمان عليه أن يعمل ليسعد الاخرين..

دخل (سعيد) الشركة لا يعرف شيئاً.. لكنه سرعان ما نعلم ككل العمال الآتين من الشمال.. فلاحين أكثر منهم عمالاً وكانت حياة سعيد في عدن كمستخدم في الدكاكين مساعدة له في إتقان عمله في الشركة كعامل بسرعة.

لم بهتم سوى بعمله وكان تفكيره في زوجته فقط ولم يكن يناقش أي مشكلة سياسية حتى لا يطرد من عمله. يذكر سعيد جيدا حين تكونت النقابة إنه لم يكن يريد أن ينظم اليها كانت النقابة لا تمثل أكثر من جماعة يأخذون منه أشتراكاً شهرياً دون أن أي مقابل، لكن كل ذلك أنتهى منذ عرف "ردمان"..

كان ردمان طويل، اسمر اللون، شاحب الوجه، ذو نظرة عميقة هادئة. أحياناً كان وجهه ينبسط ويضحك فيبدو كطفل صغير برئ.. وهو لا يتحدث كثيراً وحين يتجدث لا ينطق إلا قليلاً وهو ينهي كل نقاش بكلماته القليلة.. لا يعرف احدا من أين أتى (ردمان) لأنه كان أكثر معرفة من كل العمال وهو حين دخل العمل كان ملماً بكل شئ.. كما أن (ردمان) كان يعرف أكثر من كل العمال.. سمع سعيد مرات كثيرة همسات أن ردمان كان معتقلاً وأنه نفي بلد خارجي كان يعمل فيه. لماذا أعتقل؟.. ذلك مالم يعرفه العمال تبسم سعيد وهو يأخذ نفساً طويلة من سجارته.. كان قد قرر عدم النوم. إن ردمان يبعث في عروقه الحرارة.. كم تحدث سعيد معه..

وعرف عنه أكثر مما عرف عن الاخرين.. كان سعيد منزوياً في عمله لا يخالط العمال إلا نادرا ولا يتحدث كثيراً وهو لم ينضم إلى النقابة. كان يشعر أنها لم تقدم له شيئاً وهو يعرف عنها أكثر. إن اضرابا دام ثلاثة أشهر كشف لكل العمال حقيقة الذين

يرأسون النقابة كمأجورين لأصحاب الشركة ومفرقين لصفوف العمال. إن سعيد يعرف تماماً أنه لولا قوة العمال وصمودهم لباعت النقابة حقوقهم ببساطة أن سعيد يتذكر الآن بوضوح كلمات (ردمان) الذي أنجذب إليه لاتفاق في طبيعة كل منهم، فكلاهما صامت لا يتحدث كثيراً وكلاهما ينظر إلى الأشياء والأشخاص بعمق إلا أن (ردمان) كان أكثر ثقافة ومن هذا الباب دخلت صداقتهما. ردمان يؤمن دائماً بأن العمال سينتصرون حتى وإن كانت قيادة النقابة إنتهازية.. "أننا نستطيع ان نجبرهم لخدمتنا.. وهم لا يستطيعون خداعنا إلا حين نترك لهم الحبل على الغارب" هذا ما كان يقوله ردمان وقد لامه كثيراً لعدم دخوله النقابة وحين قال سعيد (أن النقابة لا تقدم لنا شيئاً).. (أجابه ردمان بصمت "قد لا تقدم اليوم شيئاً ولكنها ستقدم الكثير في المستقبل" - كيف والقيادة متواطئة مع الشركة- .

ليس كل القيادة يا سعيد وحتى إن كان فلن تبقى هذه القيادة إلى الأبد.

وعرف سعيد (أن العمال غدا سيقودون أنفسهم بأنفسهم).

أن الشاطئ الصغير الذي يقع قرب الشركة شهد الكثير في مراحل صداقتهما.. والشيئ الذي لم يكونا متفقين عليه هو أن ردمان كان يشرب الخمر وسعيد يكرهها. إلا أن الخمرة كانت تطلق لسان ردمان أكثر من أي وقت.

تهب ريح باردة محملة برطوبة البحر وملوحته. ينظر سعيد إلى العقبة الصغيرة التي تقود إلى مقر الشركة هناك في وسط تلك العقبة أشار له ردمان مرة إلى المناطق التي يعمل فيها العمال قائلاً أنظر إلى هذه المناطق هنا كلهم يتحدثون عن الكفاح والحرية بل والاشتراكية ومن يقرأ ما يكتبون أو يسمع ما يقولون يظن أنهم أبطال.. كلهم يا سعيد جبناء يهربون حين تندلع المعركة.. ومن يبقى.. هؤلاء.. وأشار إلى العمال. هم الذين يستطيعون أن

يصمدوا حتى النهاية.. وكل أولئك ذوي الأقلام الطويلة والكلام الفارغ كلهم يلجأون إلينا لننقذهم. صمت وهو ينظر إلى البحر والبواخر التي تنتظر العمال ليفرغوها.. أتعلم يا سعيد من تؤيد؟ وانتظر سعيد بينما نطق ردمان بقوة.. لن نؤيد سوى العمال.. نعم نحن فقط والفلاحين أيضاً لأننا نعمل لنلهم الآخرين وهؤلاء أقل منا بكثير.. إن ما نحتاجه شيء واحد وبسيط يا سعيد هو أن نتحد.

عرف سعيد قصة ردمان فهو قد هاجر إلى الخارج وعمل في البحرين وهناك تعلم كيف يطالب بحقوقه بل كيف يستطيع أن ينالها وقام مع زملاءه العمال بإضراب شامل شل كل الشركة التي يعمل فيها. كان هو أحد أعضاء لجنة الاتصال بالشركة لكن الشركة التي كانت إنجليزية.. عملت على طرده ونفيه لأنه أجنبي. لكن العمال هناك استمروا في النضال.

هذا ما قاله ردمان (وعرف سعيد أن ردمان الذي عاش أكثر من خمس سنوات تعلم أكثر من عمله وتعلم بعد نفيه أن العدو كان واحداً في عدن والبحرين وأن نضاله صار أكثر عمقاً وصلابة وبدأ النوم يداعب عينه).

مع الصباح كان (سعيد) قد قرر أن يعود إلى القرية فالصيف موسم الأمطار والزراعة.. وزوجته الحبيبة لم يرها منذ عامين.. ولا عمل حتى الآن.. قرر أن يرى ردمان قبل سفره.

كان ردمان جالساً بجانب المسجد في الدكة وأمامه البحر وبجانبه بعض العمال يتشاورون حين أقبل سعيد كان ردمان يتحدث إلى العمال وسمع آخر الكلام (سنستمر في الإضراب ولم يقبل أحد الرجوع إلى العمل والعمال الآخرين مستعدين للإضراب. إن لوك توماس لن تعمل مادمنا أحياء).

كانت أخبار كثيرة تسمع. بريطانيا سترسل أحد النقابيين لحل المشكلة.. رئيس النقابة يريد الاتفاق مع الشركة دون الرجوع إلى

العمال.. كلا إن الرئيس مع العمال. أكثر من خبر كان العمال يرددونه لكن الذي كان يخيفهم أكثر هو الخبر الذي يقول أن الشركة قررت عدم الاستمرار في العمل أي تعلن إفلاسها.

كانت كل تلك الأخبار، الواحد بعد الآخر يقولها العمال لردمان الذي كان مبتسماً على غير العادة وهو يرد على كل شيء.. حين أنتهى كان العمال مقتنعين بكل ما قاله، وتبسم حين رأى سعيد.. راح يحدثه وهما يسيران معاً نحو المعلا.. كان سعيد متردداً فهو يعلم أن كثيراً من العمال قد ذهبوا إلى الشمال إلى حقولهم وعائلاتهم وهو يخاف أن ذهب أن تضيع قوة العمال.. ووحدتهم وأخيراً قرر إخباره.

- ردمان.. أنني أفكر في السفر إلى القرية.
- لماذا؟
- أنت تعرف إن لي أكثر من عامين.
- لقد أشتقت إلى القرية؟
- نعم.. ولكن ألا ترى أن ذلك قد يؤثر على الإضراب؟
- أوه كلا فأنت ستعود طبعاً.. ونحن هنا سنكتب لك حالما نحتاج إليك. لا تخف.. وهنا هز سعيد رأسه وقال مبرراً تفكيره..:
- للحقيقة يا ردمان أنني صرفت كل ما أملكه ولا أريد أن أخذ ديوناً.. ثم أنني أريد أن أساعد في زراعة أرضي..

عرف ردمان ما يريده سعيد ولكنه سكت.

مضى سعيد يعد نفسه للسفر أخذ كل ما يريده للقرية ومضى يبحث عن السيارة.. كان يشعر أن سفره قد يكون ضد إرادة زملائه لكن ردمان شجعه. ثم أنه سيعود سريعاً.. كان الجو حاراً.. وسعيد يعمل بسرعة للتخلص من الحر ومن ضوضاء المدينة وليمضي إلى القرية أنه يريد قليلاً من الهدوء في جو القرية الهادئ.. ثم ليتخلص من شعوره بأنه مخطئ في سفره هذا..

وتمضي السيارة بسعيد لتقف في دار سعد وهناك يعرف سعيد أنه مسافر فعلاً وأن الشمال، هذا الذي كان يحلم به دائماً حين يحدثه سعيد.. عن العمال والفلاحين كان يحقق كل ما يقوله ردمان في الشمال. وتمنى لو كان يملك مثل ردمان.. الذي يؤمن بشيء واحد هو أن عدن نفسها ليست سوى جزء صغير من اليمن الكبير وأن العدني هذا ليس سوى يمني.. أراد أم لم يرد.. فالتاريخ والحقيقة تقول هذا.

ويمضي سعيد إلى خارج الجمرك.. ويغرس رجله في الرمال.. وينظر إلى الشمال محاولاً أن يرى جبال بلاده إلا أن يداً تمتد وتوضع فوق كتفه.. كان ردمان وصوته الدافئ وابتسامه كبيرة..

- لقد أتيت لأودعك.. ماذا تنظر؟ ويجيبه سعيد مشيراً إلى الشمال.

- أريد أن أرى بلادي.

ثم يتذكر أن ردمان أتى ليودعه فقال له:-

- لم يكن هناك داع لوداعي.. (أولاً يا سعيد أنت بلادك هنا فالشمال والجنوب واحد وكلنا يمنيون. وإذا كانت هناك سدود.. فسواعدنا غداً كفيلة بهدمها.. مهما كانت قوية هذه السدود.. ثانياً ليس لدي أي عمل فلماذا لا أودعك.. شعر سعيد بالحرارة تسري في عروقه.. أن ردمان يقول الحقيقة.

- أسمع يا سعيد كنت أريد أن أزور قريتي أنا أيضاً.. لكن الوقت لا يساعد فهل لك أن تمر عليها ذات يوم.

- طبعاً.

سأله ردمان وهو يشير إلى سلة صغيرة هذه هدية لأمي أرجو... وحملها سعيد مقاطعاً.. سأوصلها لك وأقتربت السيارة وهنا مد ردمان إلى سعيد بشيء صغير..

قائلاً:

- لقد أخبرت الزملاء أنك مسافر وهم يبلغونك تحياتهم وقد جمعوا لك هذا حتى تستطيع أن تقضي أياماً جميلة.
- ولكن!

لم يدعه ردمان يتم كلامه.. كانت الابتسامة ترتسم وتكبر على شفتيه، وهو يقول:

- أن القرية تحتاج إلى هذا.. أنها هديتنا لك لا تردها.

كان وجه ردمان مرحاً.. كوجه طفل رغم التجاعيد التي بدأت ترتسم على وجهه. أحس سعيد بالحب. الحب الكبير يشمله وهو يعانق ردمان.

مع إبتعاد السيارة كانت دموعه تتساقط وردمان واقف بعيداً عناك والابتسامة ملء وجهه ويديه تلوحان من بعيد..

ومن خلال الدموع لمح سعيد الورقة الصغيرة المطوية في يده والتي مدها ردمان. (الحب).. هذا الحب أحس به سعيد لأول مرة..

وخلفت السيارة عدن ومضت تضرب في الصحراء ومع ابتعادها عن عدن أخذت تقترب سريعاً نحو جبال الشمال التي تتبدد عنها السحب كلما اقتربت السيارة والصور الكثيرة تتابع أمام سعيد. والحب يغمره.. وفي داخله أمل. سيعود سريعاً.. نعم سريعاً ليشارك زملاءه صمودهم الرائع. ليكتب لعمال لوك توماس أجمل صفحة في تاريخ العمال.. وتصطدم عينه بجبال الشمال الشامخة.. جبال تحتضن من الجبال جبال.. والسحاب تغطي أجزاء وقمم أخرى اخترقت السحب ومضت تنظر عالياً تناطح السماء.. ورأى صورة زملائه.. كل زملاءه واقفون أمامه.. رؤوسهم عالية شامخة تخترق السحب وتناطح السحاب..

ويد ردمان ترتفع عالية.. بعيداً بعيداً.. تحييه.. وصوت يتردد داخله:

- سأعود.. سأعود..
- ويرى يد ردمان تصافحه وهو ويبتسم...

الفهرس

الرقم		الصفحة
١	الاهداء	٣
٢	تقديم	٤
٣	الأرض ياسلمى (مجموعة قصصية)	٧
٤	امرأة	٨
٥	الغول	١٢
٦	الدرس الأخير	١٩
٧	طريق الصين	٢٢
٨	أبوربية	٢٨
٩	سوق السبت	٣٥
١٠	عند امرأة	٣٩
١١	اللطمة	٤٤
١٢	ياخبير	٤٩
١٣	الأرض يا سلمى	٥٤
١٤	موت إنسان	٦٠
١٥	لون المطر	٦٩
١٦	على طريق أسمرا	٧٧

١٧	يموتون غرباء (رواية)	٨٧
١٨	عمنا صالح (مجموعة قصصية)	١٥٦
١٩	عمنا صالح	١٥٧
٢٠	لا جديد	١٦٦
٢١	ذئب الحلة	١٧١
٢٢	السيد ماجد	١٧٨
٢٣	ليلة حزينة أخرى	١٨٩
٢٤	النهاية	١٩٥
٢٥	رغبة	٢٠٠
٢٦	أعمال مسرحية	٢٠٦
٢٧	الشيخ بشر بن الحافي	٢٠٧
٢٨	مشهد مسرحي	٢٢٠
٢٩	شيء اسمه الحنين (مجموعة قصصية)	٢٢٩

٣٠	وكانت جميلة	٢٣٠
٣١	ليته لم يعد	٢٤٥
٣٢	مومس	٢٤٩
٣٣	الشيء الذي لا يمس	٢٥٧
٣٤	شيء اسمه الحنين	٢٦٠
٣٥	يمامة	٢٦٨
٣٦	سينما طفي لصي	٢٧١
٣٧	ياأخي اتخارج	٢٨٠
٣٨	الأطفال يشيبون عند الفجر	٢٨٥
٣٩	أصدقاء الرماد	٢٩١
٤٠	صنعاء مدينة مفتوحة (رواية)	٣٠١
٤١	ريحانة (مجموعة قصصية)	٣٨٤
٤٢	ريحانة	٣٨٥
٤٣	نشوة	٣٩٦

٤٤	جويتا	٤٠١
٤٥	ميلا	٤٠٦
٤٦	عيون ميلا	٤١٣
٤٧	في قاعة تشايكوفسكي	٤١٩
٤٨	عيونها	٤٢٦
٤٩	الضجر	٤٣١
٥٠	الصيف والجراد والمطر	٤٣٩
٥١	لا جديد	٤٦٣٤٦
٥٢	إنه يمني	٤٦٨
٥٣	إضراب	٤٨٧